الكتاب الأكثر مبيعاً في كندا للعام 2010

شيلبي سومايا غاودا

SHILPI SOMAYA GOWDA

الابنة السرّية

SECRET DAUGHTER

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الابنة السرية

SECRET DAUGHTER

الابنة السرية

SECRET DAUGHTER

رواية

شيلبي سومايا غاودا

SHILPI SOMAYA GOWDA

ترجمة

سعيد الحسنية

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
SECRET DAUGHTER
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

William Morrow an Imprint of
HarperCollins*Publishers*
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون ، ش.م.ل.
Copyright © 2010 by Shilpi Somaya Gowda
All rights reserved
Arabic Copyright © 2015 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: شباط/فبراير 2016م - 1437هـ

ردمك 978-614-02-2747-7

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص متروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واستوجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

الإهداء

إلى والديّ

اللذين بذلا الكثير من حياتهما في سبيل كل ما هو ممكن في حياتي.

تمهيد

ضغطَ على قصاصة الورق المجعّدة في يده، وحاول مقارنة الأحرف المكتوبة عليها مع أحرف اللوحة الحمراء الماثلة على الباب أمامه. قلّب نظره ما بين الورقة التي يحملها في يده واللوحة مرات عدة كي يتأكد من عدم ارتكابه خطأً ما، وهو الحريص على عدم ارتكاب أي خطأ. لكن ما إن تأكد من تطابق الأحرف حتى ضغط على زرّ الجرس الذي تردّد صوته في أنحاء المبنى. مرّر أصابع يده فوق اللوحة النحاسية بأحرفها النافرة المثبتة بالقرب من الباب متحسَّسا بأصابعه حواف حروفها.

انفتح الباب فجأةً فسارع إلى خفض يده، وأعطى قصاصة ورقٍ أخرى إلى الشابةٍ التي ظهرت عند المدخل. قرأت الصبية الورقة، ورفعت نظرها نحوه، وما لبثتْ أن تراجعت مفسحةً له المجال للدخول إلى المنزل، ثم مالت برأسها قليلاً في إشارة منها لكي يتبعها. سوّى الرجل قميصه تحت سرواله، وما لبث أن مرّر أصابعه بين خصل شعره التي أخذت تميل نحو الشيب. دخلت الشابة مكتباً، وناولت قصاصة الورق إلى أحد الأشخاص في الداخل، ثم أشارت إلى أحد المقاعد طالبة منه الجلوس عليه. دخل الرجل. جلس، ثم شبك أصابع يديه بعضها ببعض.

حدّق إليه الرجل الجالس وراء مكتبه من خلف نظّارته الرفيعة الإطار وقال: «أعتقد بأنك تبحث عن شخصٍ ما».

الجزء الأول

1

فجر الأحزان

دهانو، الهند - 1984

كافيتا

حان موعد مخاضها. جاءت إلى الكوخ المهجور عند الغسق من دون أن تُبلغ أحداً بالأمر، وذلك عندما شعرت بأول الانقباضات في أعماقها. كان الكوخ خالياً إلا من الحصيرة التي استلقت عليها رافعةً ركبتيها إلى مستوى صدرها. لم تتأخر الموجة التالية من الألم الذي انتشر في أنحاء جسدها، وهكذا ضغطت بأظفارها بكل ما أوتيت من قوة على راحتَي يديها المقبوضتين، كما عضّت على غُصين وضعَتْه بين أسنانها. كان تنفسّها ثقيلاً ومنتظماً، حتى وهي تنتظر أن يخفّ الألم المتصاعد من بطنها المنتفخ. ركزّت نظرها على الظلال الصفراء الشاحبة فوق الأرض الطينية، وهي الظلال المنبعثة من ألسنة اللهب الصادرة عن المصباح الزيتي الذي كان بمثابة رفيقها الوحيد خلال ساعات الليل الحالكة.

حاولت كتمَ صرخاتها إلى أن عجزت عن السيطرة عليها، لكنها كانت تعرف أنه لن يمضي وقت طويل قبل أن تصل هذه الصرخات إلى أسماع القابلة الوحيدة الموجودة في القرية، وهي الصرخات التي تدفعها إلى القدوم إليها. ابتهلت إلى الله أن يولد الطفل قبل الفجر، لأن زوجها نادراً ما كان يستيقظ قبل طلوع الشمس. لكن ذلك كان أحد الابتهالين اللذين تلفظت بهما كافيتا بشأن هذا الطفل، وهي التي حرصت على عدم طلب الكثير أثناء ابتهالها.

ترافق قصف الرعد الآتي من البعيد مع الإشارات التي تنذر بقرب هطول المطر، كما ارتفعت الرطوبة في الجو، وما لبثت قطرات العرق أن ترسّبت على جبهتها. أدركت أنها سوف تشعر بالارتياح عندما تنهمر الأمطار في النهاية. تترافق هذه الأمطار الموسمية مع رائحة التراب، لأن رائحة التراب والمحاصيل تختلط في الجو مع مياه الأمطار. كانت تلك رائحة حياةٍ جديدة.

جاءت الانقباضات التالية بشكلٍ مفاجئ فكادت أن تخطف أنفاسها، كما بلّل العرق مناطق أصبحت داكنة من القسم الأعلى من ثوبها القطني الطويل (الساري)، والذي يضيق أكثر عند صف المشابك الصغيرة الذي يظهر وسط منطقة ثدييها. كبُر صدرها هذه المرة مقارنةً مع المرة السابقة، وهكذا اعتاد زوجها أن يؤنّبها على عدم تغطية منطقة أوسع منه، لكنها سمعته ذات مرة وهو يتفاخر بثدييها أمام عددٍ من الرجال مقارناً إياهما بثمرتين ناضجتين من البطيخ الأصفر.

شعرت كافيتا بالارتياح لأن شكل جسدها تغيّر هذه المرة، وهذا ما دفع زوجها وآخرين إلى الافتراض بأن الطفل سيكون ذكراً هذه المرة.

سيطر عليها خوف مفاجئ، وكان أشبه ما يكون بذلك الخوف الخانق الذي شعرت به طوال فترة حملها هذه. ماذا لو كان الجميع مخطئين؟ كان ابتهالها الثاني، والأكثر إلحاحاً، هو أن لا تلد بنتاً مرةً أخرى، وهو وضعٌ تعجز عن تحمّله مجدداً.

لم تكن مستعدةً لما حدث معها في المرة الماضية، أي عندما اقتحم زوجها الغرفة، بعد مرور دقائق قليلة فقط على قيام القابلة بقطع الحبل السري للمولودة، وكانت رائحة الشراب المقيتة تتصاعد مع أنفاسه. لكن جاسو أشاح بنظره بعيداً، واكفهرّ وجهه في ذلك الوقت عندما شاهد جسد الطفلة التي كانت تتلوى بين ذراعَي كافيتا.

شعرت كافيتا أن مشاعر البهجة التي أحسّت بها لتوها بدأت تتلاشى أمام مشاعر ارتباكها. حاولت أن تقول شيئاً ما، وانتزاع شيء ما من أفكارها التي تتصادم في ذهنها. شعرها كثيف... وهذا فألٌ حسن. لكن صوت جاسو دوّى في أرجاء الغرفة وهو يتلفظ بأشياء مريعة لم تسمعه متلفظاً بها من قبل. سمعتْ سلسلةً من الشتائم التي صدمتها، لكن صدمتها كانت أكبر عندما استدار نحوها ولاحظت احمرار عينيه، وما لبث أن تقدّم نحوها بخطواتٍ بطيئة وحازمة وهو يهز رأسه. شعرت كافيتا بمشاعر خوفٍ لم تألفها من قبل وهي تتصاعد في داخلها وتتمازج مع مشاعر الصدمة والارتباك.

شعرت كافيتا بضعفٍ كبيرٍ يجتاح جسدها بسبب آلام المخاض، كما أنها بذلت مجهوداً كبيراً لتدرك ما يدور من حولها. لم ترَه عندما انقضّ نحوها، وهكذا فات الأوان لتفعل أي شيءٍ. لكنها لم تكن سريعة بما يكفي لمنعه من انتزاع الطفلة من بين ذراعيها. اندفعت كافيتا صارخةً إلى الأمام بذراعيها الممدودتين، لكن القابلة أرجعتها إلى الوراء. كانت صرخاتها أعلى من الصرخات التي أطلقتها عندما شعرت برأس الطفل وهو يشق طريقه خارج جسدها نحو الحياة. خرج زوجها راكضاً من الكوخ وسط صرخات ابنتهما التي كانت تتنشق أولى أنفاسها في هذا العالم. أدركت كافيتا في هذه اللحظة المريعة أن أنفاسها هذه سوف تكون الأخيرة.

تمكّنت القابلة من إرجاعها برفقٍ إلى وضعيتها السابقة، وقالت لها: «دعيه يذهب يا ابنتي. دعيه يذهبْ الآن لأن الأمر انتهى، وعليكِ أن ترتاحي لأنك مررتِ بوضع صعبٍ جداً».

أمضت كافيتا اليومين التاليين متكورةً على نفسها فوق الحصيرة المحبوكة التي تغطي أرض الكوخ، وهكذا لم تجرؤ على التساؤل عن مصير الطفلة، وما إذا كانت قد أُغرقت أو خُنقت، أو أنها تُركت لتموت جوعاً، لكن كافيتا كانت تأمل أن يأتيها الموت سريعاً وبلطف. أدركت كافيتا أن جسد طفلتها الصغيرة قد دُفن في ذلك الوقت، لكن من دون أن تنال روحها نعمة إحراق الجسد. أدركتْ كذلك أن مصير العودة إلى التراب قبل الأوان والذي لاقته وليدتها الأولى هو المصير ذاته الذي لاقته أعدادٌ كبيرة من الفتيات الوليدات.

لم يزر كافيتا خلال اليومين الأولين أحدٌ غير القابلة، وهي التي كانت تأتي مرتين في اليوم كي تحضر لها الطعام والأقمشة النظيفة التي تمتص الدماء التي سالت من جسدها. بكت كافيتا حتى تقرحت عيناها، وحتى ظنت أنه لم يعد بإمكانها أن تذرف أي دمعة أخرى. لكن تبيّن لها أن كل ذلك ما هو إلا بداية لحزنها الطويل، والذي تخللته الوخزات التي شعرت بها في ثدييها اللذين امتلآ بالحليب بعد أيام قليلة، وكذلك عندما بدأ شعرها بالتساقط في الشهر التالي. كانت في كل مرة ترى فيها طفلاً صغيراً تشعر وكأن قلبها يكاد أن يتوقف عن الخفقان لتتذكر ما حدث لها.

لكن أحداً لم يستشعر خسارتها بعد انتهاء حزنها، ولم تسمع أي كلمة تساندها أو تعزّيها من

القرويات الأخريات، وحتى في المنزل الذي كانت تعيش فيه مع باقي أفراد عائلة جاسو، وهي التي لم تلقَ منهم سوى نظرات التأنيب، ونصائح لم ترغب في سماعها عن كيفية إنجاب صبيٍ في المرة القادمة.

اعتادت كافيتا عدم السيطرة على حياتها الخاصة إلا بأقل قدرٍ ممكن، وهي التي تزوجت جاسو عندما كانت بعمر الثامنة عشرة، وهكذا اعتادت على أعمالٍ المنزل اليومية من جلب المياه، وغسل الثياب، وإعداد الطعام. كانت تلبي على الدوام طلبات زوجها، وتستسلم لرغباته عندما يأويان إلى السرير في الليل.

تغيّرت كافيتا بعد تلك الولادة الأولى لها، وإن حدث ذلك بطرقٍ معيّنة كأن تضع كمية زائدة من الفلفل الحار في طعام زوجها عندما كانت تغضب منه، وكانتً تراقبه بكل ارتياح عندما يمسح جبهته بأنفه خلال تناوله الطعام. لكنه عندما كان يقترب منها في الليل كانت تصدّه في بعض الأحيان، وتقول له بأنها في دورتها الشهرية. شعرت كافيتا بأن ثقتها بنفسها تتعاظم مع كل تمردٍ من هذا النوع، وهكذا قرّرت بأن الأمور ستكون مختلفة هذه المرة بعد أن علمت أنها حاملٌ مجدداً.

2

نظافة

سان فرنسيسكو، كاليفورنيا - 1984

سومر

سقطت النشرة الطبية من يد سومر، ثم مرّرت يديها على بطنها. نهضت عن الأريكة التي كانت تجلس عليها، ثم سارت مترنحة نحو الحمّام عبر الممر الطويل لشقتهما المشيّدة على الطراز الفيكتوري. لكن بالرغم من الآلام المبرحة التي أجبرتها على الانحناء، إلا أنها تمكنت من إزاحة ثوبها الطويل قبل الجلوس على المرحاض. شاهدت سومر قطرات الدم الحمراء القانية التي انسابت على بشرة فخذها الشاحبة. «أوه. يا إلهي. لا، أرجوك لا». جاء تضرّعها هذا رقيقاً وبلهجة ملحّة، لكن أحداً لم يكن موجوداً ليسمعها. ضمّت ساقيها، وحبست أنفاسها. لا تأتي بحركة فلربما يتوقف النزيف.

لكن النزيف لم يتوقف. غطّت وجهها بيديها، لكن الدموع انهمرت من عينيها. راقبت سومر بركة الدماء التي تجمعت حول المرحاض، وأحسّت بأن كتفيها بدءا بالارتعاش، وأن تنهداتها أخذت تعلو وتطول إلى أن سيطر الارتعاش على كامل جسدها. لكنها تمكّنت من الاتصال بكريشنان بعد أن خفّت حدة التشنجات قليلاً. وصل زوجها ورآها متكورة على نفسها فوق السرير ذي الأعمدة الأربعة والذي لم يكن مرتّباً بعد. رأى كريشنان المنشفة الصغيرة التي دسّتها بين فخذيها. كانت هذه المنشفة غالية الثمن وبلون الفانيلا الفرنسية، وسبق لهما أن تلقياها هدية بمناسبة زفافهما قبل خمس سنوات. اختار الزوجان معاً هذا اللون بالذات بدلاً من اللون الأبيض الناصع الذي يشيع استخدامه في المستشفيات، وكذلك بدلاً من اللون البيج الذي لم يعد مميزاً. كان ذلك اللون الأصفر الرائع المائل إلى البياض. لكن المنشفة تبلّلت بالدم.

«جلس كريس على حافة السرير واضعاً يده على كتفها. سألها بنعومة: «هل أنت متأكدة؟».

أومأت بالإيجاب وقالت: «إنه مثل المرة السابقة. التشنجات المؤلمة، والنزيف...» بدأت سومر بالبكاء مجدداً قبل أن تضيف: «لكن النزيف أكثر غزارة هذه المرة. أعتقد بأن مدة الحمل كانت أطول...».

ناولها كريس منديلاً ورقياً وقال: «حسناً يا حبيبتي. سأتصل بالدكتور هايورث لأعرف ما إذا كان سيتمكن من ملاقاتنا في المستشفى. ماذا تريدين الآن؟» وضع كريس بطانية صوفية عليها، ورتّبها حول كتفيها. هزّت رأسها، واستدارت إلى الناحية الأخرى بعيداً عن كريشنان الذي كان يتصرف كطبيب أكثر منه كالزوج الذي تحتاج إليه بشدة. أغمضت عينيها، ولمستْ القسم الأسفل من بطنها، كما كانت تفعل

مراتٍ عديدة في اليوم، لكن هذه الحركة التي كانت تبعث في نفسها الارتياح عادة بدت وكأنها حركة تأنيب وعقاب.

كان أول شيء رأته سومر عندما فتحت عينيها في المستشفى هو حاملة كيس المصل بالقرب من سريرها. أغمضت عينيها بسرعة على أمل عودتها إلى الحلم الذي جعلها تدفع أرجوحة طفل في ميدانٍ مخصصٍ لألعاب الأطفال. هل كان الطفل بنتاً أم صبياً؟

«نجحت العملية يا سومر، وأصبح كل شيء نظيفاً الآن. لم ألحظ أي شيء يمنعكما من المحاولة مجدداً في غضونِ أشهرٍ قليلة». تطلّع نحوها الدكتور هايورث الذي ارتدى معطفاً أنيقاً أبيض اللون، والذي كان جالساً على طرف السرير، ثم قال: «حاولي أن ترتاحي قليلاً، وسأعود مجدداً لأفحصك قبلِ خروجك من المستشفى». ربّت الطبيب برفقٍ على ساقها من فوق غطاء السرير قبل أن يستدير استعداداً للمغادرة.

«شكراً دكتور». كان ذلك الصوت آتياً من الجهة الأخرى من الغرفة، فعرفت سومر للمرة الأولى أن كريشنان كان موجوداً معها، وما لبث أن تقدّم من السرير منحنياً نحوها، ثم وضع يده على جبهتها. «كيف أنتِ الآن؟».

قالت له: «نظيفة!».

قرّب كريشنان حاجبيه واستدار برأسه: «نظيفة؟».

«هو الذي قال لي بأن كل شيء أصبح نظيفاً، أي أنني أصبحت نظيفة الآن. لكن هل لم أكن نظيفة قبلاً؟ أعني عندما كنتُ حاملاً؟ تركّزت عيناها على مصباح الفلوريسنت الذي يهدر فوق سريرها. هل كان الجنين بنتاً أم صبياً؟ ماذا كان لون عينيه؟».

«آه يا حبيبتي. إنه يعني فقط... أنت تعرفين ما يعنيه».

«أجل، أعرف ما يعنيه. إنه يعني أن كل شيء قد انتهى الآن: الطفل، المشيمة، وكل شيء، وأن رَحَمي أصبحت فارغة وعلى ما يرام مجدداً، أي أنها أصبحت نظيفة».

دخلت إحدى الممرضات الغرفة راسمةً ابتسامة على شفتيها: «حان وقت أخذ أدوية تخفيف الأوجاع».

هزّت سومر رأسها: «لا أريدها».

قال كريشنان: «يجب أن تأخذيها يا حبيبتي، وهي سوف تساعدك على تحسين مزاجك».

«لا أريد تحسين مزاجي». أشاحتْ سومر بوجهها بعيداً عن الممرضة. إنهم لا يفهمون أنها لم تخسر جنينها فقط، بل خسرت كل شيء. خسرت الأسماء التي كانت تستعرضها في ذهنها كلما أوت ليلاً إلى سريرها. خسرت نماذج ألوان حضانة الأطفال، وهي النماذج التي جمعتها في دُرج مكتبها. خسرت كذلك أحلام هزهزة وليدها بين ذراعيها، ومساعدته على إنجاز فروضه المدرسية، والوقوف على جوانب ملعب كرة القدم ملوحة له لتشجيعه. انتهت الآن كل هذه الأمور، وتلاشت مثل ما يتلاشى الضباب خارج المنزل. إنهم لا يفهمون كل هذه الأمور، ولا حتى الممرضة، ولا الدكتور هايورث، ولا حتى

كريشنان، وهم لا يرون فيها سوى المريضة التي تحتاج إلى علاج، أي كأنها قطعة بشرية تحتاج إلى إصلاح، ومجرد جسدٍ آخر يحتاج إلى تنظيف.

استيقظت سومر، وأسرعت إلى تعديل وضعية سريرها كي تتمكن من الجلوس. سمعت صوتاً كأنه آتٍ من بعيد. كان ذلك صوت ضحكة مصطنعة صادرة عن جهاز التلفزيون الذي يوجد في زاوية الغرفة، ويبدو أن كريشنان ترك الجهاز شغالاً بينما كان يعرض مباراة ما، وذلك قبل مغادرته الغرفة إلى كافتيريا المستشفى.

لم تكن سومر تظن أنها قد تشعر بهذا القدر من الانزعاج في المستشفى، وهو المكان الذي أمضت فيه خمس سنوات متواصلة من حياتها. كانت تحسّ بنوعٍ من الإثارة عندما تسير في الممرات المعقّمة وهي تسمع أزيز مكبرات الصوت من فوقها. كانت طقوس ارتداء معطفها الأبيض، أو تناول السجل الطبي لمريضٍ ما، تعطيها إحساساً تتقاسمه مع كريشنان بالثقة والمهارة، والذي يتأتى من كون المرء طبيباً. لكنها باتت تعرف الآن أن هذا هو أمر آخر سيباعد من المسافة التي تفصل بينهما. إنها تبغض أن تكون مريضة، وما تكرهه أكثر هو عجزها عن التغلب على هذا الوضع.

لم يكن من المفترض أن تكون في هذا المكان في هذا الوقت المبكر، وهو المستشفى الذي تعمدت اختياره لأنه متخصص بالولادات والتي يبلغ عددها ثمانية آلاف ولادة في كل عام، أي أن ذلك المستشفى يشهد ولادة عشرين طفلاً في هذا اليوم. أدركت سومر أن وليدها الميّت قد انتُزع منها، لكنها أدركت كذلك أنه في هذا الوقت بالذات، وتحت الطابق الذي تمكث فيه، فإن كل امرأة لديها وليد ينام بالقرب منها في غرفتها. بدا الأمر سهلاً جداً بالنسبة إلى كل الأخريات، أي بالنسبة إلى الأمهات اللواتي تشرف عليهن يومياً في عيادتها، وبالنسبة إلى صديقاتها، وحتى بالنسبة إلى تلك المرأة التي تبدو كالبلهاء، والتي جلست بين المتفرجين على تلك المباراة التي تعرضها محطة التلفزيون، والتي كانت تومئ إلى أولادها تشجيعاً لهم.

يُحتمل أن تلك كانت هي الوسيلة التي اعتمدتها الطبيعة كي تخبرها بأمرٍ محدّد. يُبدو أن القدر لم يكتب لي أن أكون أماً.

3

لن يحدث هذا بعد الآن

دهانو، الهند - 1984

كافيتا

حدثت موجة أخرى من الألم، لكنها أتت هذه المرة من عمق أعماقها، فبدت مثل السكاكين القاطعة. عجزت كافيتا عن التنفس بين موجات الألم التي تتلاحق الواحدة بعد الأخرى. ارتعش فخذاها واهتزّ ظهرها حتى لم يعد بمقدورها إلا أن تصرخ بسبب ألمها المبرح الذي يعتصرها. لكنٍ عندما سمعت صوتها أدركت أنه لم يعد يشبه صوتاً بشرياً. لم يعد هذا الجسد جسدها هي، بل كان جسداً تدفعه الحوافز الغريزية التي تنتمي إلى الأرض، إلى الأشجار والهواء. أما في الخارج فإن دفعةً مفاجئة من البرق أضاءت السماء المظلمة، وما لبثت الأرض أن اهتزت من تحتها بفعل صوت الرعد المدوي. انفسخ الغُصين الذي دسّته بين فكيها بفعل الضغط، وهكذا تذوقت الطعم المر للخشب الأخضر داخل فمها. لكن آخر ما شعرت به كان موجة من الدفء الممزوج بالرطوبة والذي غمر جسدها بأكمله.

شعرت كافيتا عندما فتحت عينيها مجدَّدا بالقابلة وهي تغيّر من وضعية ساقيها وتقحم نفسها بينهما. قالت القابلة: «كان عليك استدعائي قبل الآن يا ابنتي. كنتُ سأحضر على الفور. كم مضى عليكِ من الوقت وأنتِ وحيدة هنا؟ يبدو أن رأس الطفل قد بدأ بالظهور، ولن يطول الوقت قبل انتهاء كل شيء، فالولادة الثانية هي...» تلاشى صوتها قبل أن تكمل كلامها.

قالت كافيتا صارخة: «اسمعيني جيداً يا خالتي. يتعيّن عليك عدم السماح لزوجي بأخذ هذا الطفل. عِديني بذلك... عِديني!».

«أجل يا ابنتي، كما تريدين. لكن حان الوقت الآن كي تدفعي بقوة».

كانت القابلة على حق لأنها بعد أن دفعت مراتٍ قليلة فقط سمعت تلك الصرخة التي تبعث على الاطمئنان. أسرعت القابلة إلى تنظيف الطفلة ولفّها بالأقمشة. جهدت كافيتا في هذا الوقت للجلوس، وأزاحت خصل شعرها المبلّلة بالعرق عن جبهتها، ثم حملت الطفلة الوليدة بين ذراعيها. مسّدت كافيتا بعد ذلك شعر طفلتها الأسود المتلبد متأملةً تلك الأصابع الصغيرة المشدودة نحو الأعلى، وضمّت الجسد الصغير، واستمتعت برائحة وليدتها، ثم وضعت فم الطفلة على ثديها والتي بدأت على الفور بامتصاص اللبا[1] بشكلٍ منتظم. بدأت كافيتا بنزع لفافة القماش التي تغطي جسد وليدتها الصغيرة، وهي فعلت ذلك ببطء.

لم يستجب أحد لابتهالاتي. أغمضت كافيتا عينيها، وارتعش جسدها، ثمّ ذرفت دموعها بصمت. انحنت إلى الأمام قليلاً، ثم أمسكت يد القابلة وهمست في أذنها: «لا تخبري أحداً أيتها القابلة. اذهبي بسرعة، وأحضري روبا إلى هنا. لا تخبري أحداً على الإطلاق. أتسمعينني؟».

أجل يا ابنتي، ليباركك الله أنتِ وطفلتكِ. أريدك أن ترتاحي الآن، وسأحضر لكِ بعض الطعام».

خرجت القابلة من الكوخ نحو ظلام الليل الحالك، لكنها توقفت للحظة قبل أن تنحني لتلتقط وعاءها الفولاذي وتنصرف مبتعدة عن المكان.

استيقظت كافيتا مع خيوط الفجر الأولى التي تسلّلت إلى الكوخ، وما لبثت أن شعرت بوخزات الألم في حوضها. استدارت بعد ذلك ليستقر نظرها على وليدتها النائمة بسلام بالقرب منها. أحسّت بألم في معدتها، وفجأةً شعرت بالجوع الذي لا يرحم. أسرعت إلى تناول طبق الأرز الذي كان بقربها، وأكلت حتى شبعت، لكن الشعور بالإجهاد لم يفارقها. استلقت على فراشها بعد ذلك لتستمع إلى الأصوات المنبعثة من القرية التي دبّت فيها حياة يومٍ جديد.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن ينفتح باب الكوخ لتتسرّب منه أشعة الشمس. دخل جاسو بعد قليل بعينيه الملتمعتين. «أين هو؟» أشار بيديه بمرح وهو يُكمل: «أين أميري الصغير؟ هيا، هيا... دعيني أراه!» سار نحوها مادًّا ذراعيه لحمل الطفل.

جمُدت كافيتا في مكانها. ضمّت طفلتها بشدة إلى صدرها، وجهدت للجلوس. «إنها هنا. هذه هي أميرتك الصغيرة». راقبت كافيتا شرارة الغضب الشديد الذي انطلق من عينيه. ارتجف ذراعاها اللذان أحاطا الطفلة بقوة، وهكذا شكّلا درع حماية لجسد الطفلة الصغير.

صرخ بقوة: «يا الله! بنتٌ أخرى؟ ماذا دهاكِ يا امرأة؟ دعيني أراها!».

كلا، لن أعطيك إياها، ولن تأخذها مني». تمكّنت كافيتا من الإحساس بحدة صوتها، وأحسّت» بضغط دمائها وهو يتدفق إلى أطرافها. «هذه هي طفلتي. طفلتنا، ولن أدعك تأخذها مني». لاحظتْ الدهشة في عينيه، بينما بذل جهداً كي يفهم ما يجري، وعلى الأخص لأنه لم يسبقٍ لها أن تحدثت مع شخص، ومع زوجها تحديداً، بلهجة التحدي هذه.

تقدّم منها بضع خطوات، وما لبثت تعابير وجهه أن هدأت، ثم ركع على ركبتيه إلى جانبها. «اسمعي يا كافيتا. تعرفين بأننا لا نستطيع الاحتفاظ بهذه الطفلة. إننا نحتاج إلى صبي كي يساعدنا في العمل في حقولنا. لا يسمح لنا وضعنا بالاحتفاظ بولدٍ واحد، فما بالك بولدين؟ تبلغ ابنة عمي الثالثة والعشرين من عمرها، ولا زالت من دون زواج لأنٍ عمي لم يتمكّن من تأمين مهرها. تعلمين يا كافيتا أننا لسنا عائلة غنية، وتعلمين أننا لا نستطيع الاحتفاظ بهذه الطفلة».

اغرورقت عيناها بالدموع مجدداً، وهزّت رأسها إلى أن تساقطت دموعها. تقطّعت أنفاسها، وأغمضت عينيها لفترةٍ من الزمن. فتحتهما مجدداً لتنظر إلى وجه زوجها مباشرة. «لن أسمح لك بأخذها مجدداً، لن أسمح لك بذلك». جلست منتصبة بالرغم من ألمها المبرح. «إذا ما حاولتَ، وحتى لو حاولتَ ذلك، فسوف يتعيّن عليك أن تقتلني أولاً». رفعت ركبتيها قريباً منها، وتمكّنت بطرف عينها من رؤية الباب، ثمّ تخيّلت الخطوات الخمس التي تفصلها عنه. صمّمت على عدم التحرك، وعلى عدم تحويل أنظارها عن جاسو بكل قوة، ومهما كلّفها الأمر.

اسمعي يا كافيتا. أنتِ لا تفكرين منطقياً الآن. لا يمكننا تحمّل الوضع». رفع يديه في الهواء قبل» أن يُكمل: «ستصبح هذه الفتاة عبئاً علينا، واستنزافاً لأسرتنا. هل هذا ما تريدينه؟» وقف جاسو أمامها مجدداً.

شعرت بجفافٍ في حلقها، وجهدت للنطق بالكلمات التي لا توجد سوى في المتاهات البعيدة

لذهنها. «أعطِني ليلة واحدة، ليلة واحدة فقط مع ابنتي. يمكنك أن تأتي غداً لأخذها».

التزم جاسو بالصمت، بينما كان ينظر إلى الأسفل نحو قدميه.

أرجوك». تزايدت حدة الهدير في رأسها، وأرادت أن تصرخ بقوةٍ أكبر كي يُسمع صوتها. «هذه» طفلتنا، ونحن كوّناها معاً، وحملتها داخل أحشائي. دعني أمضي معها ليلة واحدة قبل أن تأخذها مني». استيقظت الطفلة وصرخت فجأة. رفع جاسو رأسه منتبهاً من شروده، وأسرعت كافيتا لتقريب الرضيعة إلى ثديها، وهكذا ساد الصمت بينهما مجدداً.

قالت كافيتا بلهجة جدّية عبّرت عنها باستخدام الاسم الأول لزوجها: «جاسو. اسمعني الآن. إذا لم تسمح لي حتى بهذه الليلة، فإنني أقسم أنني لن أحمل طفلاً آخر في حياتي. إنني على استعداد لتخريب أعضاء في جسدي بحيث لا ألد لك طفلاً آخر على الإطلاق. هل تفهم؟ كيف سيكون موقفك عندها؟ مَن هي التي ستتزوجك الآن وأنت في هذا العمر؟ مَن هي المرأة التي ستمنحك ابنك الغالي؟» حدّقت كافيتا إليه إلى أن اضطر إلى تحويل بصره عنها.

4

الأمر في غاية السهولة

سان فرنسيسكو، كاليفورنيا - 1984

سومر

مرحباً، أنا الدكتورة ويتمان». دخلت سومر غرفة العيادة الصغيرة لتفحص امرأة تجهد لتهدئة طفلها الذي بدا مضطرباً. «ما هي مشكلته؟».

إنه على هذه الحال منذ الأمس، ولم يكفّ عن البكاء والهياج. لم أتمكن من تهدئته، لكني أعتقد أنه يعاني من الحمّى». سرّحت المرأة شعرها على شكل ذيل حصان، وارتدت قميصاً موشّى فوق بنطال من الجينز. نظرت سومر إلى السجل الطبي وقالت: «حسناً، دعينا نلقِ نظرة على هذا السجل. «ما رأيك يا مايكل في مصباحي الجميل هذا؟» أضاءت سومر المصباح المخصّص لفحص الأذنين، وأطفأته مرات عدة إلى أن استحوذت على انتباه الصبي الذي مدّ يده لِلإمساك به. ابتسمت سومر، وفتحت فمها إلى أقصى حد. لكن ما إن بدأ الطفل بتقليدها حتى أدخلت قطعة خشبية صغيرة مخصصة لخفض اللسان. «هل كان يأكل ويشرب بشكلٍ طبيعي؟».

أجل. حسناً، هذا ما أعتقده على الأقل، لكني لست متأكدة مما تعنيه بكلمة طبيعي، ذلك لأنني أعرفه منذ أسابيع قليلة فقط، أعني بأننا قمنا بتبنّيه منذ كان بعمر الستة أشهر». ابتسمت المرأة بطريقة كادت تحجب معها الظلال الموجودة تحت عينيها.

هممم. ما رأيك بهذا يا عزيزي؟ أترغب في اللعب بهذه القطعة الخشبية الباردة؟» أعطت سومر القطعة الخشبية الصغيرة إلى الصبي، ثم أسرعت لتناول مصباح فحص الأذن ثم حدّقت في أذنيه. «كيف يجري الأمر حتى الآن؟».

قالت المرأة وهي تخز بطن الصبي بإصبعها تحبباً: «تآلف معنا بسرعة، لكنه يريد أن نجول به على الدوام. إننا متعلقان بعضنا ببعض، أليس كذلك يا عزيزي؟ لكنك استيقظتَ ثلاث مرات في الليلة الفائتة... صحيحٌ ما يُقال...».

تفحّصت سومر حنجرة الصبي (غدده الليمفاوية) بحثاً عن ورمٍ فيها.

لن تشعري بالأمر حتى يحدث معك. إنه أقوى نوعٍ يُمكن تخيّله من الحب».

شعرت سومر بوخزاتٍ مألوفةٍ لديها في صدرها. أزاحت بصرها عن السمّاعة الموضوعة فوق ظهر الصبي، ثم تطلعت مبتسمة نحو والدته. «إنه محظوظ لأنك والدته». تناولتْ سومر نموذج وصفةٍ

طبية من جيبها. «حسناً، إنه يعاني من التهاب شديد في أذنه اليمنى، لكن الأذن الأخرى تبدو نظيفة الآن، كما أن صدره ورئتيه يبدوان سليمين. ستساعد أدوية الالتهابات هذه على معالجة الوضع، ويُفترض أن يكون مرتاحاً أكثر في هذه الليلة». لمست سومر ذراع الوالدة عندما ناولتها الوصفة الطبية.

هذا هو السبب الذي جعل سومر تحب عملها، أي أنها تستطيع دخول غرفة يدوي فيها بكاء طفل مع والدة في غاية القلق عليه، ثم تغادر بعد أن تهدئ خاطريهما. تمكّنت سومر في مناوبتها الأولى في عيادة طب الأطفال من تهدئة طفلةٍ كانت في وضعٍ هستيري، وكانت فتاةٌ تعاني من داء السكري، ومن شرايين مصابة، وتحتاج إلى اختبارات دم. أمسكتْ سومر يد الفتاة، وطلبت منها أن تصف لها الفراشات بعد أن تغلق عينيها. تمكّنت سومر من سحب عيّنة دم من الوخزة الأولى، وكذلك تمكّنت من تثبيت الضمّادة قبل أن تتمكّن الفتاة من وصف أجنحة الفراشات. أما زميلاتها، اللواتي فعلنَ كل ما يمكنهن لتجنّب العمل مع «الأولاد الذين لا يكفّون عن الصراخ»، فقد انبهرنَ بعملها هذا، لكن سومر تعلقت أكثر بمعالجة الأطفال.

عادت سومر لتركيز انتباهها على الطفل الذي تعالجه. قالت المرأة بارتياح ظاهر: «شكراً لكِ يا دكتورة. كنت قلقةً جداً، وصعُب عليّ معرفة المشكلة التي يعاني منها. شعرتُ أنه كتلةٌ صغيرة من الغموض، لكني بدأت بمعرفته قليلاً يوماً بعد يوم».

قالت سومر وهي تضع يدها على مقبض الباب: «لا تقلقي. هذا ما تشعر به كل الأمهات مهما تكن طريقة حصولهن على الأولاد. وداعاً يا مايكل».

عادت سومر إلى مكتبها وأغلقت الباب، وذلك بالرغم من تأخرها فترة عشرين دقيقة عن موعد الاجتماع. وضعت الأدوات الطبية التي تحملها على الطاولة، ثم أسندت رأسها عليها. استدارت برأسها إلى الجهة الأخرى فرأت نموذجاً بلاستيكياً لقلبٍ بشري كان كريشنان أعطاها إياه عند تخرّجهما من كلية الطب.

قال لها في ذلك الحين: «سأعطيك قلبي. أريدك أن تعتني به جيداً».

حدث ذلك قبل عقدٍ من الزمن تقريباً، وتحت الأنوار الشاحبة لمكتبة لاين في كلية الطب التابعة لجامعة ستانفورد، أي حين لاحظ أحدهما الآخر للمرة الأولى. التقيا هناك ليلة بعد ليلة، ولم يقتصر ذلك على فترات المساء، أي في الوقت الذي يجتمع فيه باقي طلاب الصف للمذاكرة، بل كانا يلتقيان في مساءات أيام الجمعة، وذلك بدلاً من الخروج لتناول طعام العشاء، وكذلك في أيام عطلة نهاية الأسبوع حيث ينصرف الآخرون للتنزّه في الجبال.

كانت مجموعة صغيرة من الطلاب تجتمع بانتظام في مكتبة لاين، وهي المجموعة الأكثر جدّية في الدرس، وكذلك في الأعمال التطبيقية. تتذكر سومر أن أولئك كانوا الذين امتلكوا شيئاً ما يريدون إثباته. اعتقد أفراد تلك المجموعة أن سومر هي الطالبة المختلفة عنهم جميعاً. كان من السهل على زملائها اعتبارها ضئيلة الشأن بسبب اسمها الغريب، وشعرها الأشقر غير المسرّح جيداً. كان ذلك الافتراض يُغضبها كثيراً، لكنها تعلّمت على مرّ السنين كيفية التعامل مع هذا الوضع. سبق لها في الماضي أن تجاهلت اقتراح معلمة الكيمياء عندما كانت في مرحلة دراستها الثانوية التي اقترحت عليها أن تدع طالباً آخر من زملائها يجري الاختبارات المطلوبة في المختبر. تحمّلت سومر كذلك مضايقات زملائها الناتجة

عن كونها الفتاة الوحيدة في صفوف الرياضيات المتقدّمة. يعني كل ذلك أنها اعتادت على تقليل الآخرين لشأنها، وهكذا حوّلت سخرية الآخرين منها إلى قوة دافعة لها.

قال لها كريشنان عندما عرّفته إلى نفسها: «أنتِ سَمَر، أي مثل فصل الصيف، والشتاء والربيع... أليس كذلك؟».

قالت مبتسمةً: «ليس هكذا بالضبط. اسمي سو - مِر». انتظرت كي يستوعب الفكرة، وهي التي تحب أن تكون مختلفةً قليلاً عن الآخرين. «إنه اسم عائلة، وأنت... كريس؟».

«أجل. أنا كريس مع حرف ك، والذي هو اختصار لكلمة كريشنان، لكن يمكنك أن تناديني كريس».

دُهشت على الفور بلهجته البريطانية والتي بدت لهجة عملية بالمقارنة مع لهجة كاليفورنيا العادية التي تتكلمها. كانت تحب سماعه وهو يجيب على الأسئلة في الصف، وذلك ليس فقط بسبب لهجته المحبّبة، بل كذلك لأن أجوبته كانت صحيحة بشكلٍ دقيق لا يترك مجالاً للشك. كان بعض الزملاء يعتبرونه مغروراً، لكن سومر اعتبرت على الدوام أن الذكاء مثيرٌ للغاية. لكنها لم تلحظ غمّازاته إلا بعد مرور بعض الوقت، وكان ذلك خلال الحفلة التي أقامتها غابي في منزلها. ارتشفت سومر حينها بعض الشراب الاستوائي القوي المستخرج من قصب السكر. كانت تعرف تماماً كيف يتمكن ذلك النوع من الشراب من السيطرة على المرء بشكلٍ تدريجي. أما كريس، في المقابل، فقد تجرّع أنواعاً عدة من الشراب قبل اقترابه منها للتعرّف إليها.

سمعتُ أن ماير طلب منكِ العمل في مختبره خلال فصل الصيف؟» كان حديثه مشوشاً بعض الشيء عندما مال نحوها بعد أن كان جالساً على الكرسي البلاستيكي في باحة المنزل واضعاً رجلاً فوق رجل.

هل دعاه كذلك للعمل في المختبر؟ شعرت سومر باختلاج في صدرها. كانت دعوة البروفيسور ماير لأحد الطلاب للعمل في مختبره إحدى أهم المكافآت التي يتلقاها طلاب السنة الأولى. سألته بحرص على أن لا تبدو مهتمة بشكلٍ أكثر من اللازم: «أجل، هل تلقيتَ دعوةً بدورك؟» أحسّت بعد ذلك بأن عينَي كريشنان تطيلان النظر إلى تلك الأجراس الصغيرة التي تحيط بياقة قميصها المفتوحة، وشعرت بالارتياح لأنها تمكّنت من تغيير ثيابها قبل حضورها الحفلة.

هزّ رأسه وشرب جرعة كبيرةً أخرى من شرابه ذي اللون الزهري. «كلا، سأذهب إلى الهند هذا الصيف. إنها آخر فرصةٍ لي قبل البدء بالمناوبات الطبية. ستقتلني أمي إذا لم أفعل». ظهرت غمازاته بوضوح عندما ابتسم وهو يخبرها بذلك. شعرت بوخزٍ خفيفٍ يتنقل بين معدتها ورأسها، وتساءلت ما إذا كانت تناولت كمية كبيرة من الشراب. قاومت سومر دافعاً لديها للتقدّم نحوه لتسوية خصل شعره السود التي غطّت عينيه، وهي التي جعلته يبدو وكأنه صبي صغير. أبلغها فيما بعد بأنه سُحر بعينيها الخضراوين اللتين تلتمعان تحت أنوار المصابيح المتحركة، كما سحرته عندما كانت تضحك عند سماعها أي شيء تلفّظ به في تلك الليلة.

بدآ بالدرس معاً في تلك الليلة، ثمّ شرعا بالتمرّن معاً قبل الامتحانات كما شجّع أحدهما الآخر على تحسين أدائهما. كان كريس يستمتع بمقارعتها فكرياً، ولم يكن ينزعج عندما تتفوق عليه في بعض الأحيان. كان ذلك الوضع تغييراً مهماً على علاقتها مع آخر صديقٍ لها والذي فشل بعد سنتين من الجهود الكبيرة التي بذلها عندما كان في الصفوف التمهيدية لدراسة الطب، والتحضير معها، في

اختبارات القبول في كلية الطب. أقدم ذلك الصديق على التخلي عنها بعد قبولها في جامعة ستانفورد في حين رُفض طلبه. استغرقت سومر سنوات عدة قبل أن تدرك بأنه لا يتعيّن عليها الشعور بالأسى إزاء هذا الوضع.

استمتعت سومر بالدراسة مع كريس، لكنها أحبّت في الوقت ذاته، وبقدرٍ أكبر، الجانب الحنون منه. أحبت الطريقة التي يتحدث بها، وأحبته عندما يستلقيان ليلاً على السرير، كما أحبّت اشتياقه لأخوته في وطنه الذي غادره، والسير مع والده ليلاً بمحاذاة شاطئ المحيط. سألته تكراراً: «كيف تبدو بلادك هناك؟» اعتبرت سومر الهند بلاداً غامضة بالنسبة إليها. تخيّلت سومر أشجار النخيل الطويلة أثناء تمايلها بفعل الرياح الاستوائية الدافئة، وأنواع الفاكهة المذهلة والغريبة. لم يسبق لها أن سافرت إلى خارج البلاد عدا سفرها إلى كندا لزيارة منزل جدّيها. شعرت سومر على الدوام باشتياق للأسرة الكبيرة، أي مثل تلك التي كان كريس يتحدث عنها: الشقيقان اللذان كان يقوم معهما بكل الأعمال، وعدد كبير من أبناء أعمامه، والذين كان باستطاعتهم تشكيل فريق لرياضة الكريكيت في الاجتماعات العائلية. لكن سومر، وهي الابنة الوحيدة لدى أسرتها، تمتعت بعلاقة خاصة مع والديها، إلا أن ذلك لم يمنعها من الاشتياق لرفقة الأخوة.

كانت سنواتها الأولى في كلية الطب في غاية البساطة، وهي التي أمضت أيامها ولياليها ضمن دائرة ضيّقة من الأصدقاء. كانت مجموعة الأصدقاء هذه تضع نصب أعينها هدفاً وحيداً، وكانوا جميعاً طلاباً يعيشون ضمن ظروف حياتية متواضعة، ويدرسون طيلة الأوقات، لكن عالمهم كان محصوراً داخل حرم جامعة ستانفورد. انتهت في تلك الفترة حرب فييتنام، وتنحّى فيها نيكسون من منصب الرئاسة، كما زادت حرية ممارسة الحب في البلاد. أمضت سومر في تلك الفترة ساعاتٍ في تعليم كريس كيفية القيادة على الجهة اليمنى من الطريق، وهو الذي أخبرها فيما بعد بأنه قدَّرَ لها عدم اضطراره للشعور بأنه مختلف عنها. لكن سومر أدركت بعد ذلك أن النقاط التي تجمعهما أكثر بكثير من تلك التي تفرّقهما: كانت هي امرأة وسط عالمٍ من الرجال، أما هو فكان أجنبياً في أميركا. يُضاف إلى ذلك أنهما طالبا طبٍّ مجتهدان قبل أي شيء آخر.

وقعت سومر عند حلول موعد أول امتحاناتها لدخول كلية الطب في حبٍّ عميق. كان ذلك أول شيءٍ يحدث لها في حياتها، لكن من دون أن تبذل فيه جهداً كبيراً من جانبها. ارتبطت حياتهما ارتباطاً وثيقاً بعد ذلك بوقتٍ قصير، وذلك إلى درجة أنها عجزت عن تصوّر مستقبلٍ لها من دون كريشنان. بدأ الاثنان في مناقشة الخيارات المفتوحة أمامهما لبرامج تخصّصهما في دراسة الطب: طب الأطفال بالنسبة إليها، وجراحة الأعصاب بالنسبة إليه. امتلكت جامعة كاليفورنيا في سان فرنسيسكو برامج جيّدة في كلا الاختصاصَين اللذين يشهدان تزاحماً شديداً فيهما.

«سألها كريشنان في ذلك الوقت: «ما هي فرصنا في دخول تلك الكلية؟».

«لا أعرف بعد. توجد ستة مراكز في برنامجي، وربما يتنافس عليها خمسون مرشحاً؟ يعني ذلك أن فرص قبولي هي عشرة بالمئة، وبالتأكيد هي أقل من ذلك بالنسبة إليك».

«قال كريس: «ماذا يحدث لو قدّمنا طلبَينا سويةً. أعني بصفتنا زوجين».

تطلعت سومر نحوه وقالت: «يمكنني القول... إن... إن فرص قبولنا سوف تتحسّن كثيراً. انتظر قليلاً... هل هذا ما تريده؟».

«رسم كريس ابتسامة خفيفة على وجهه، وقال: «أجل. ألا تريدين ذلك؟».

ابتسمت بدورها وأجابت: «أجل. أعرف أننا تحدثنا عن هذا الموضوع من قبل، لكن هل هذا ضروري الآن؟».

«حسناً، أعتقد أن الأمر معقول. أليس كذلك؟ وأعتقد أن الفرق هو في التوقيت فقط. هذا إذا كان كلانا متأكداً من ذلك». أمسك يديها الاثنتين متطلعاً في عينيها مباشرة، وأضاف مبتسماً: «وأنا متأكد من الأمر، لكني آسف لأنني لا أمتلك أي شيء لجعل الأمر رسمياً. أعلم أن طلبي هذا ليس في ذروة الرومانسية».

«قالت سومر: «لا بأس في ذلك. لا أحتاج إلى الرومانسية».

«قال وهو يقبّل يديها: «أعرف، ولهذا السبب أنا أحبك».

قام كريس وسومر بزيارة عاجلة إلى مبنى المحكمة مع نيّتهما إقامة حفل زفافٍ في وقتٍ لاحقٍ فيما بعد. عثر الزوجان على شقة صغيرة تقع بالقرب من مستشفى جامعة كاليفورنيا في سانٍ فرنسيسكو، وصمّما على بدء المرحلة التالية من حياتهما الجديدة معاً.

«سمعتْ طرقةً قوية على باب مكتبها. «دكتورة ويتمان؟».

«وضعت سومر نموذج القلب على طاولتها، ثم وقفت وقالت: «نعم، سأذهب على الفور».

5

رحلة طويلة

دهانو، الهند - 1984

كافيتا

لم تكن خيوط الفجر قد انبلجت كلياً بعد عندما انطلقت كافيتا وروبا من القرية. لم تكن جروح كافيتا قد التأمت بعد، إلا أنها أصرّت على القيام بهذه الرحلة بالرغم من القلق الذي أعربت عنه شقيقتها. وافقت روبا في اليوم السابق على اصطحابها إلى دار رعاية الأيتام في المدينة. أنجبت روبا أربعة أولاد في غضون ست سنوات، وهكذا توجهت إلى دار رعاية الأيتام في مومباي عندما أنجبت طفلها الخامس. عرفت كافيتا بالأمر بالرغم من أحداً في القرية لم يتحدث عنه. توسّلت كافيتا روبا أن تصطحبها إلى المدينة، بالرغم من المخاطر المحيطة بهذه الرحلة. يُضاف إلى ذلك أنهما إذا عادتا سالمتين من هذه الرحلة إلى المدينة فسوف تواجهان السخط والتأنيب من زوجيهما عند عودتهما.

كان الطقس دافئاً تماماً، كما أن الطرقات الترابية امتصّت معظم مياه الأمطار، ولم تبقَ إلاّ بعض برك المياه الصغيرة على جوانبها. حتى هذه كانت ستختفي مع نهاية اليوم، وذلك بعد أن تتمكن أشعة الشمس التي ستشرق من جديد من تجفيفها. يستغرق الانتقال إلى المدينة ساعاتٍ عدة مشياً على الأقدام، لكن كان من حسن حظهما أن يسمح لهما رجلٌ يقود عربة تجرّها الثيران وتحمل الأرزّ إلى المدينة بالصعود إليها. صعدت الشقيقتان إلى العربة، وجلستا في الخلف وسط دزينةٍ من أكياس القنّب، كما استخدمتا أطراف ثوبيهما (السارِي) لتغطية أعينهما وأفواههما من سُحب الغبار التي أثارتها حوافر الثيران. كانت الطريق وعرة جداً، كما أن الشمس الصاعدة في السماء أرسلت أشعتها لتلسعهما.

قالت روبا وهي تمدّ ذراعيها لكي تحمل الطفلة، وبعد أن رسمت ابتسامة شاحبة على شفتيها: «»استلقي يا شقيقتي، وارتاحي قليلاً. سأحمل الطفلة. هيّا، أعطني إياها.

هزّت كافيتا رأسها، وحدّقت في الحقول التي تمرّ بها العربة. كانت تعرف أن شقيقتها تحاول تخفيف بعض الألم الذي ينتظرها. أخبرتها روبا عن مدى صعوبة التخلي عن طفلتها في العام الماضي لصالح دار رعاية الأيتام، وذلك مع أنه بقي لها أربعة أولاد، كما أسرّت لها أنها لا تزال تفكّر في تلك الطفلة عندما تأوي ليلاً إلى سريرها، وكيف أنها توجد في مكان ما من هذا العالم. لكن كافيتا لم تشأ أن تتنازل عن ذلك القدر القليل من الوقت الذي بقي لها مع طفلتها، أي أنها كانت مستعدة لتحمّل الألم الذي انتظرها في مومباي، لكن ليس قبل وصولها إلى تلك المدينة.

كانت كافيتا تتصرف وكأنها فتاة بالغة حتى عندما كانت تكبر في كنف والديها، وهي التي اعتادت

أن تهرع لجلب الملابس المعلقة على حبال الغسيل خارج المنزل عندما ينهمر المطر، وذلك بدلاً من الانهماك في اللعب خلال فترة الأمطار الموسمية. أما عند عثور الشقيقتين على حزمة مقطوعة من قصب السكر مرمية على طرف حقل، فقد كانت روبا تتناول منها قدر استطاعتها، وتمضغها طوال طريقها نحو المنزل. لكن كافيتا كانت تكتفي بقطعة واحدة لتستخدمها في تحضير شاي الظهيرة لوالديها. أما عندما حان وقت اختيار زوج مناسب لكافيتا فقد جهدت أسرتها لتعويضها عن كل التعب الذي قاسته. قالت لها روبا عندما كانت تضع الكحل الداكن حول عينيها بكل عناية: «لا تنسي عندما تلتقي به أن ترفعي نظرك نحوه قليلاً، وذلك كي لا تلتقي نظراتكما كثيراً، بل بالقدر الكافي كي يرى عينيك». كانت شقيقتها تأمل أن يُدهش العريس المحتمل بأفضل مفاتن كافيتا، أي عينيها العسليتين الساحرتين.

وجدت كافيتا صعوبة في الابتسام وإن قليلاً، وذلك بحسب التعليمات التي تلقتها من شقيقتها بشأن كيفية تصرّفها عند زيارة العائلات المهتمة بها. لكن أولئك العرسان المحتملين وجدوا أسباباً مختلفة للاعتراض عليها. أما عندما جمعت الأسرة مهراً كبيراً لها يفوق قدراتها فقد تمكنت من إيجاد العريس المناسب، وهكذا تمكن الوالدان من تلبية ما اعتبراه أهم واجب عندهما. لكن بالرغم من أن جاسو كان رجلاً صعباً، إلا أن كافيتا أدركت أنه يتعيّن عليها الشعور بالامتنان، وذلك لأن الأزواج الآخرين في القرية كانوا كسولين ويضربون زوجاتهم، أو أنهم اعتادوا على تبديد مداخيلهم على الشراب. يُضاف إلى ذلك أنه لا توجد فتاة واحدة ترغب في أن تبقى النساء الكبيرات في السن المسكينات اللواتي يعشن لوحدهن من دون حماية رجل.

شعرت كافيتا بوخزاتٍ من الألم المبرح في حوضها عندما كانت العربة تجتاز المطبات الكثيرة الموجودة على طول الطريق. بدأت الدماء تنزف من كافيتا فور شروعهما في هذه الرحلة في صباح ذلك اليوم. مسحت كافيتا الدم الذي انساب على فخذيها وساقيها مستخدمة طيات ثوب الساري، وذلك قبل أن تنتبه روبا. كانت تعرف أن الذهاب إلى دار رعاية الأيتام في المدينة كان فرصة أوشا الوحيدة للبقاء على قيد الحياة. أوشا تعني الفجر. خطر هذا الاسم في ذهنها أثناء ساعات الصباح الأولى، وذلك بعد أن تركتهما القابلة لوحدهما. تردد هذا الاسم في خاطرها بينما كانت تحدّق إلى طفلتها، وذلك في محاولة منها لحفظ كل تفصيل من تفاصيل ملامح وجهها. أطلقت كافيتا هذا الاسم على ابنتها بصمتٍ وكانت خطوط الفجر الأولى تتسلّل إلى الكوخ، بينما أعلن الديك عن انبلاج الصباح.

استشعرت كافيتا وهي تتطلع إلى الطفلة السلطة التي تترافق مع تسمية كائنٍ حي آخر. تذكّرت أن عائلة زوجها عمدت عند زواجها إلى تغيير اسمها ليصبح كافيتا، وهو اسم اعتبرته العائلة، وكذلك منجّم القرية، يناسبها أكثر من اسم لاليتا، الاسم الوحيد الذي اختاره والداها لها. أما اسمها الأوسط والأخير فاكتسبته من والدها، وكان من المتوقع أن يتغيّر هذان الاسمان بحسب ما أراده زوجها. لكن كافيتا استاءت من زوجها لأنه حرمها من اسمها الأول كذلك.

لكن اسم أوشا كان من اختيار كافيتا لوحدها، وهو اسمٌ سريٌ لابنةٍ سرية. كانت هذه الفكرة كافية وحدها لوضع ابتسامة على وجهها، وكان ذلك اليوم الذي أمضته مع ابنتها ثميناً جداً بالنسبة إليها. تمنّعت كافيتا عن النوم بالرغم من أنها كانت متعبة جداً، وذلك لأنها لم ترغب في تضييع حتى لحظة واحدة، وهي التي أبقت طفلتها قريبة منها طيلة هذا الوقت، متأملة صدرَ جسدها الصغير في صعوده وهبوطه مع أنفاسها، كما أنها تلمست حاجبيها الصغيرين وطيات بشرتها الطرية، وكانت تسرع إلى حملها عندما تشرع في البكاء. أما تلك اللحظات القليلة التي كانت أوشا تستيقظ فيها، فكانت كافيتا ترى نفسها في عينَي الطفلة العسليتين المتمايزتين، وكانتا أجمل من عينيها. كان من الصعب عليها تصديق

.أن ذلك المخلوق المحبّب طفلتها. لم تسمح كافيتا لنفسها بالتفكير في حدودٍ تتجاوز ذلك اليوم

أدركت كافيتا أن هذه الطفلة سيُسمح لها أن تعيش، وسوف تُمنح فرصة أن تكبر في السن، وربما أن تتزوّج وتنجب أطفالاً. أدركت كذلك أنها لن تحصل على فرصة مساعدة ابنتها في دروب الحياة. يعني ذلك أن أوشا لن تعرف والديها مطلقاً، لكنها سوف تحصل على فرصة في هذه الحياة، وكان ذلك كافياً بالنسبة إليها. نزعت كافيتا أحد السوارين الفضيّين الرفيعين اللذين تحملهما دوماً من معصمها النحيل، ثم دسّته حول كاحل أوشا، وهمست لها في رأسها الأملس: «إنني آسفة لأنني لا أستطيع إعطاءكِ أكثر .«من هذا يا حبيبتي

6

افتراض معقول

سان فرنسيسكو، كاليفورنيا - 1984

سومر

عبستْ سومر في المرآة، وحاولت إنزال تنورتها التي علقت حول خصرها وردفيها اللذين لم يعودا إلى وضعهما الطبيعي، حتى بعد مرور أشهر عديدة، وهي اعتبرت ذلك برهاناً قاسياً على فداحة خسارتها. تدلّى شعرها الأشقر باسترخاء فوق كتفيها، وهي التي عجزت عن تذكّر متى كانت المرة الأخيرة التي غسلته فيها. إستبدلت سومر بصندلها المسطح حذاء ذا أشرطة، كما وضعت على شفتيها مسحةً من أحمر الشفاه. ليس من الضروري أن يكون مظهري تعيساً كما مشاعري.

وصلتْ إلى المنزل حيث كانت في استقبالها مجموعتان من البالونات باللون الأزرق الشاحب، وكانت البالونات مربوطة بسياج شرفة المدخل، وكل ذلك لإعلان أنه صبي! أخذت سومر نَفَساً عميقاً، وضغطت على زرّ الجرس. انفتح الباب على الفور تقريباً، وما لبثت أن ظهرت إحدى الشابات السمراوات بفستانها المُطبع بالأزهار الملوّنة مع ابتسامة. «مرحباً. أنا ريبيكا، لكن الجميع ينادونني بيكي. أدخلي. سآخذ هذه عن إذنك... سيبعث هذا البهجة في غابرييلا، أليس كذلك». مدّت يدها لتتناول العلبة التي تغطّيها الأحرف الأبجدية بألوان فاتحة. ضمّت بيكي يديها، وما لبثت أن قفزت قليلاً على أطراف أصابع رجليها. تطلعت سومر حولها إلى مجموعة من النساء مثل بيكي واللواتي ملأن غرفة المعيشة، وجميعهن حملنَ أطباقاً مزيّنة برسومات أحذية أطفال زرقاء اللون.

سألتْ سومر بعد أن ظنّت أنه لم يسبق لها أن سمعت أحداً ينادي صديقتها باسمها الكامل، وذلك منذ اليوم الأول لفترة دراستهما في كلية الطب: «كيف تعرّفت إلى غابي؟».

ضحكت المرأة، ومرّرت يدها خلال شعرها البني المتموّج ثم قالت: «أوه. إننا جيران، وهذا مكان عظيم للعيش فيه مع الأولاد، والعيش هنا أسهل بكثير من العيش في المدينة، ونحن شعرنا بسرورٍ كبير عندما انتقلت غابرييلا وبريان للسكن هنا، وهكذا حصلنا على مزيدٍ من رفاق اللعب لريتشارد الصغير... وأنتِ؟».

أجابت سومر: «كنا زميلتين في كلية الطب». بحثتْ بعد ذلك عن طريقة لإنهاء هذه المحادثة، وما لبثت أن لمحت مائدة الطعام التي احتوت على إناء احتوى على شرابٍ قوي مؤلفٍ من مزيجٍ أزرق اللون، لكن منظره أثار الريبة. شعرت سومر بالارتياح عندما شاهدت غابي متهادية في مَشيتها، ومحاولةً أن لا تحدّق إلى بطنها المنتفخ بشكل يثير الانتباه.

قالت غابي وهي تميل جانباً في محاولة منها لمعانقتها: «مرحباً يا سومر، وأشكرك على مجيئك إلى هذه المنطقة». لاحظتُ بأنك تعرفتِ إلى بيكي».

قالت بيكي: «غابرييلا، أخبرتُ صديقتك كم أننا نحب العيش في مارين. هل أنتِ متزوجة يا سومر؟».

غمزَتها غابي، وأجابت بالنيابة عنها: «أجل، وهي أشفقت على أحد زملائنا الذي هو الآن جرّاح أعصاب مبتدئ». استعدت سومر للسؤال الحتمي التالي الذي أتى سريعاً جداً.

«ألديكِ أطفال؟».

بلعت سومر ريقها ببطء، وشعرت كأن أحداً ما فتح باب ثلاجةٍ في وجهها في يوم حار. «كلا، ليس بعد». شعرَت باختناقٍ في حنجرتها.

قالت بيكي بعد أن بدا وجهها مجعداً بشكلٍ يُظهر الشفقة بشكلٍ مبالغٍ فيه: «أوه. هذا سيئ جداً. الأولاد أعظم شيء في هذه الحياة. حسناً، يمكنكِ الانضمام إلينا عندما تكونين مستعدة لأخذ تلك الخطوة». تركتهما بيكي لتفتح الباب لضيفٍ جديد، بينما شعرت سومر برغبةٍ في انتزاع خصلة من شعرها البني المتواثب.

«...وضعت غابي إحدى يديها على مرفق سومر، وقالت: «إنني آسفة جداً يا سومر».

قالت سومر بعد أن تكتّفت: «لا بأس في ذلك. سأعود إليك بعد عودتي من المرحاض». شعرتْ بعد ذلك أن تلك الكتلة في حنجرتها بدأت بالتضخم بينما احمرّ وجهها. تسلّلت بعد ذلك إلى غرفة الاستقبال، لكنها بدلاً من التوقف عند المرحاض تابعت السير نحو الباب الرئيسي للمنزل، حيث أعاقت البالونات الزرقاء سيرها أثناء مرورها بمحاذاتها قبل خروجها إلى الطريق الخاص بالمنزل. جلست بعد ذلك على الرصيف وشعرت أنها غير قادرة على مواجهة الأمر مجدداً، أي أنه ليس باستطاعتها المشاركة في مسابقة تذوّق أطعمة الأطفال، أو في لعبة «أيمكنكِ تخمين مدى ضخامة بطن غابي». يُضاف إلى ذلك أنها لا تتمكن من مراقبة الأخريات وهنّ يتأوهن لدى رؤيتهن ملابس جميلة مخصّصة للأطفال الصغار، كما أنها لا تستطيع الإصغاء إلى النساء أثناء مناقشتهن علامات التمدّد على البطن وآلام المخاض بوصفها طقوس التغيّر الجسدي. تصرّفت كل امرأة في هذا المكان وكأن كون إحداهن امرأة وأماً هما أمران مترابطان حتمياً. كان ذلك افتراضاً منصفاً سبق لها أن تبنته بنفسها، لكنها لم تعرف إلى الآن بأن هذا الافتراض ما هو إلا كذبة خاطئة.

شعرت سومر بارتياح كبير عندما حدث معها إجهاضها الأول. لم تمضِ أكثر من سنتين على زواجهما في ذلك الوقت، وكانا في فترة تدريبهما الطبي، أي عندما بدءا مناقشة الأمر بعد ظهور ذلك الخط الزهري اللون على أداة اختبار الحمل المنزلية. خطّط الزوجان في ذلك الوقت للانتظار إلى أن تنتهي سومر من فترة تدريبها على طب الأطفال، أي عندما يبدأ أحدهما بكسب مدخولٍ ثابت، والعمل لساعات معقولة. أقنع الزوجان نفسيهما بعد مرور أسابيع قليلة على انتهاء الحمل بأن ذلك هو الأفضل لهما. انتهى ذلك الحمل المفاجئ بصورة غير متوقعة، أي كما بدأ بالضبط، لكنه غيّر أموراً كثيرةً في حياتهما. لاحظتْ سومر أنها تطيل النظر إلى النساء الحوامل اللواتي تلتقي بهن في كل مكان، وتلاحظ تفاخرهن ببطونهن المنتفخة.

شعرت سومر بعد حدوث الإجهاض بالذنب بسبب هذا الارتباك الذي حدث في حياتها. كانت تعرف، بصفتها طبيبة، أن الإجهاض لا يمكن أن يحدث بسبب ارتباك الأفكار. لكن الكتب الخاصة بالحمل والولادات أغفلت التحدث عن الإحساس الخاطئ بالأسى الذي يحلّ مكان ذلك الشكل الصغير لطفلٍ بدأ بالنمو في أحشائها. لم تصف تلك الكتب إحساسها بالخسارة من دون ذلك الشيء الذي أحسّت منذ فترة لا تزيد عن الشهر. استيقظ شيء ما داخلها مع ذلك الحمل الأول لها، وكان تلك الرغبة الشديدة التي لا بد وأنها كانت كامنة داخلها طوال الوقت. نشأت سومر مع قناعتها أن كونها أنثى يجب أن لا يقف في طريق طموحاتها، وهي اعتبرت طوال فترة عملها أنها لا تشبه النساء الأخريات، لكنها الآن، ولأول مرةٍ في حياتها، شعرت بأنها مثل النساء الأخريات بالضبط.

أمضت سومر أوقات فراغها في قراءة الأبحاث المتعلقة بالخصوبة المنشورة في المجلات الطبية، كما أنها تجنّبت كل مسببات الإجهاض، ورسمت رسوماً بيانية عن دورات خصوبتها، وغيّرت مكونات وجبات غذائها. كانت تنقل نتائج كل جديدٍ في هذه الأبحاث إلى كريس، لكنها سرعان ما لاحظت نظرة عدم الاكتراث في عينيه. كان كريس في فترة تدرّبه على جراحة الأعصاب في ذلك الوقت، ولم يشاركها حماستها لمسألة الحمل، لكن لحسن الحظ كانت سومر متحمسةً جداً لتحمل جنينياً، وكذلك لإكمال كريس فترة تدريبه، وهكذا لم تعطِ أهمية كبيرة لمسألة عدم سيرهما على الخط ذاته، وذلك للمرة الأولى منذ أن التقيا.

أدركت سومر عند جلوسها لوحدها على رصيف تلك الضاحية، وبدلاً من تناول ذلك الشراب الأزرق القوي، بأن ذلك اليوم، الذي مضى عليه ثلاث سنوات، تحوّل إلى خطٍ فاصلٍ في حياتها. تذكرت كذلك بأنها قبل الإجهاض كانت سعيدة بعملها وبمنزلها الذي يطل على جسر البوابة الذهبية، وكذلك بالأصدقاء الذين كانت تلتقيهم في أيام عطلة الأسبوع. بدا لها بأن كل ذلك كان كافياً بالنسبة إليها. لكنها شعرت منذ ذلك اليوم وكأنها فقدت شيئاً هائلاً بحيث يتجاوز بقوته كل شيء آخر. استمر ذلك الفراغ في حياتهما بالتزايد إلى أن أصبح فرداً غير مرحبٍ به من الأسرة مقحماً نفسه بينها وكريشنان، وذلك مع مرور كل سنة، ومع ظهورٍ كل نتيجة سلبية لاختبار الحمل الذي كانت تجريه بانتظام.

كانت تتمنى في بعض الأوقات لو كان بإمكانها العودة إلى تلك السعادة الفطرية التي عرفتها في مرحلة سابقة من حياتها. لكن ما كانت تحِنّ إليه أكثر من ذلك، هو ذلك المكان من جسمها الذي لا يبدو أنه مستعدٌ لقبولها.

7

شانتي

مومباي، الهند - 1984

كافيتا

عندما أنزلَ سائق العربة كافيتا وروبا في المدينة كانت الشمس قد اعتلت كبد السماء، وشعرت الشقيقتان بالعطش والجوع، في حين أحاط بهما الضجيج المنتشر من كل مكان: الشاحنات الصغيرة التي تطلق أبواقها، وصرخات الباعة الجوّالين، وكان الشارع مزدحماً بأعدادٍ من الشاحنات، وأنواعٍ الماشية، وسائقي الدراجات الهوائية الجسورين والمتهورين، وعرباتٍ الريكاشة. توقفت الشقيقتان قليلاً لتتشاركا ثمرة جوز هند واحدة. شربتا ماءها أولاً، ثم انتظرتا قليلاً قبل فصل اللبّ الطري عن القشرة. انتشرت أكواخ الصفيح على جانبَي الطريق، وكذلك النساء البدينات أمام تلك الأكواخ واللواتي انهمكت بعضهن بالطبخ فوق مواقد صغيرة، بينما انهمكت أخريات بدعك الملابس في دلاءٍ مليئة بمياهٍ قذرة.

طلبت روبا من أحد بائعي الشطائر إرشادها إلى دار شانتي لرعاية الأيتام، لكنه اكتفى بأن هزّ رأسه وهو يتأمل المرأتين اللتين تسيران بأقدام عارية وأرديةٍ ريفية. سألتْ بعد ذلك أحد سائقي سيارات الأجرة الذي كان يستند جسده إلى سيارته فما كان منه إلا أن بصق على الطريق قبل أن يتفحص بنظره كافيتا صعوداً ونزولاً. أراد الرجال التأكد مما إذا كانت الطفلة مشوهة، أو ما إذا كانت كافيتا غير متزوجة، أم أنها مجرد امرأة فقيرة تعجز عن الاحتفاظ بالطفلة. لكن المساعدة أتت أخيراً من رجلٍ مسنٍ ملتحٍ منهمكٍ في تحميص الفول السوداني، والذي كان جالساً عند إحدى الزوايا. نقل الرجلُ الفولَ السوداني إلى أكوازٍ حضّرها بيديه من أوراق الصحف. أرشدهما الرجل إلى دار الرعاية بصورة متقطعة، بينما كان ينادي على الفول السوداني.

أمسكت روبا يد كافيتا وقادتها عبر طرقاتٍ ضيّقة ومكتظة بالناس، وشوارع مزدحمة بالسيارات. جهدت كافيتا في هذه الأثناء للبقاء بالقرب من شقيقتها، ولم تتوقف غير مرةٍ واحدة لإرضاع طفلتها. تطلعت روبا نحو السماء الداكنة، ونحو المارة المسرعين من حولهما. اقتربت من شقيقتها، وقالت لها: «هيا بنا يا شقيقتي. احمليها هكذا». ساعدتها روبا بعد ذلك على تسوية وضع الطفلة بحيث تتمكن شقيقتها من متابعة السير. «يتعيّن علينا أن نسرع قليلاً، لأننا لن نكون بأمان هنا بعد حلول الظلام».

أطاعت كافيتا وأسرعت في مشيتها. كانت تعرف أنه بعد انقضاء ساعاتٍ قليلة، أي عندما ينتهي جاسو من تناولِ طعام عشائه، ويجلس حول نار الموقد ليتناول الشراب، والتدخين مع أصدقائه، فإنه سوف يأتي بحثاً عنها. أرادت أن تبلغه بأنه ما من شيءٍ يدعوه للقلق بشأن الطفلة لأنها اهتمت بأمرها، لكن يُحتمل أن يغضب منها، ويُحتمل أن يقوم بضربها، لكن كل عقوبة محتملة هانت عند مقارنتها مع

المعاناة التي قاستها في السابق. وصلت الشقيقتان إلى بناية مؤلفةٍ من طبقتين لكن طلاءها الأزرق كان متقشراً. وقفت كافيتا خارج بوابة البناية، وشعرت كأن ساقيها ثقيلتان مثل الرصاص، لكنها جرّت قدميها جراً مع كل خطوة. التفتت إلى شقيقتها وهزّت رأسها. كررّت كافيتا أكثر من مرة: «لا، لا، لا...».

قالت روبا بلهجةٍ رقيقة: «تعالي يا أختي. إنه أمرٌ لا مفر لك منه، وليس أمامك أي خيار آخر. أيمكنك فعل أي شيء آخر؟ جذبتها روبا من يدها نحو الباب، وضغطت على زرّ الجرس. حدّقت كافيتا باللوحة بأحرفها الحمراء، وحاولت أن تختزن في ذاكرتها الأحرف التي توحي بكلمة سلام. فتحت الباب عجوز محدودبة الظهر، وترتدي ثوباً قطنياً يحمل رسومات بلونٍ برتقالي شاحب، وكانت تحمل مكنسة ذات مسكةٍ قصيرة.

راقبت كافيتا أختها روبا وهي تتحدث مع العجوز، لكن كان كل ما تمكنت من سماعه هو ذلك الصوت الذي تردّد في أذنيها. مَن سيعتني بطفلتي؟؟ هل هذه المرأة؟ هل ستحب أوشا؟ شعرت كافيتا بجفافٍ وتشقق في حلقها. أشارت لهما العجوز بأن يتبعاها إلى الداخل، وتقدمتهما إلى غرفة الانتظار، وحتى نهاية الممر حيث كانت امرأة طويلة القامة ترتدي ثوباً حريرياً أزرق اللون (ساري) واقفة أمام مدخل مكتبها.

سمعت الشقيقتان صوتاً آتياً من داخل المكتب الصغير: «شكراً لكِ يا سارلا جي، وإلى اللقاء في مرةٍ قادمة». استدارت المرأة طويلة القامة استعداداً للانصراف. بدت المرأة غريبة عن المكان بثوبها الحريري الأنيق، وبأقراط أذنيها المصنوعَين من الألماس. بدا بأنها غريبة عن المكان مثل ما قد يبدو عليه نمر بنغالي إذا ما أُحضر إلى هذه الدار. ابتسمت المرأة عندما رأت الشقيقتين، وأومأت لهما قليلاً، وما لبثت أن تجاوزتهما.

أما داخل المكتب فقد جلس رجلٌ في منتصف العمر واضعاً على رأسه كتلة كثيفة من الشعر الأسود المستعار. كان الرجل يحدّق من وراء نظارته ذات الإطار السميك في آلةٍ كاتبة. قالت روبا: «أحضرنا يا سيّد طفلاً آخر إلى دارك».

رفع الرجل نظره نحو الباب، وركز عينيه في البداية على روبا، ثم على كافيتا التي كانت واقفةً وراءها، وما لبث أن تطلع على الطفلة التي تحملها بين ذراعيها. قال الرجل بعد أن لاحظ مظهرهما غير المرتّب: «أجل بالطبع. اجلسا من فضلكما. أنا آرون ديشباند. لا بد من أنكما قطعتما مسافةً طويلة للوصول إلى هنا». سألهما الرجل مشيراً إلى العجوز: «أترغبان في تناول الشاي أم الماء؟».

أجابت روبا بالنيابة عنها وعن شقيقتها: «أجل. شكراً لك».

بدأت كافيتا بالبكاء بصمت إزاء هذا اللطف الذي لمسته عند الرجل، وبدأت الدموع بالانسياب فوق خدّيها المعفّرين بالتراب. كانت عطشى. أجل كانت عطشى، كما شعرت بوخزٍ في رأسها بسبب الحرارة والجوع. شعرت كذلك بألمٍ في قدميها بسبب التشققات والبثور نتيجة السير في المدينة. كانت متعبة من رحلتها تلك، ومتعبة بسبب المخاض، والآلام التي سبقت ولادة الطفلة التي استغرقت ساعاتٍ عديدة. يُضاف إلى ذلك أنها لم تنم سوى ساعات قليلة خلال الأيام القليلة الماضية. شعرت بأنها متعبة بسبب كل ذلك، ومتعبة أكثر بسبب النظرات التي لاحظتها على وجوه عددٍ من الأشخاص الذين مرّت بمحاذاتهم هذا اليوم، وكانت نظرات توحي بالعار بالنسبة إليها.

قال الرجل وهو يتناول لوحة كتابة وقلماً: «أريد توجيه بعض الأسئلة. ما هو اسم الطفل؟».

أجابت كافيتا بهدوء: «أوشا». تطلعت روبا نحوها منذهلة وبعينين حزينتين.

«دوّن آرون بضع كلمات ثم سأل: ما هو تاريخ ولادة الطفلة؟».

كانت تلك آخر الكلمات التي سمعتها كافيتا بوضوحٍ قبل أن تضمّ أوشا بقوة بحيث أصبح رأس الطفلة تحت ذقنها، وما لبثت أن بدأت بالترنّح قليلاً. سمعت كافيتا صوت شقيقتها وهي تجيبه، وكأنه صوت آتٍ من البعيد. أغمضت كافيتا عينيها وتصاعد صوت بكائها إلى أن تلاشت أسئلة آرون وأجوبة روبا في أسماعها لتصبح همهمةً بعيدة، وبحيث كادت تنسى وجودهما، وكادت أن تنسى مكان وجودها كذلك. استمرت كافيتا على هذه الحال من البكاء والترنح، وتجاهلت ذلك الألم المبرح الذي شعرت به في حوضها وقدميها المتشققتين اللتين سالت منهما الدماء، ونعليها اللذين تشققا من طول المسير. استمرت على هذه الحال إلى أن أعادتها روبا إلى عالم الواقع بعد أن هزّتها من كتفيها.

قالت روبا: «شقيقتي. حان الوقت». تقدمت ببطء من الطفلة المرتاحة فوق ذراعَي كافيتا التي لم تتمكن في ذلك الوقت من سماع شيء غير الصراخ. لم تسمع سوى صوت الصراخ في أعماقها بينما كانت الطفلة تُنتزع من بين يديها، وما لبثت هذه الصرخات أن انطلقت من فمها. سمعت كذلك صوت عويل أوشا، ورأت روبا وهي تصرخ بوجهها ولاحظت حركات فمها مكررةً الكلمات ذاتها مرةً بعد أخرى. أحسّت بعد ذلك بيدي روبا عندما جذبتها بقوة من كتفيها ودفعتها عبر الممرات نحو الباب الأمامي. بقيت ذراعا كافيتا ممدودتين من دون أن تمسكا شيئاً. سمعت كافيتا، حتى بعد انغلاق البوابة المعدنية وراءهما، صوت عويل أوشا مترددا داخل المبنى.

8

من خارج الخيارات

سان فرنسيسكو، كاليفورنيا - 1984

سومر

هل سمعتِني يا حبيبتي؟» أمسك كريس يديها واضعاً إياهما في حضنه بينما كانا يجلسان أحدهما» .قبالة الآخر على أريكة غرفة الجلوس في منزلهما. حاولت سومر أن تتذكر ما قاله لها للتو

.«قال: «قلت إننا نمتلك خيارات أخرى

جالت نظراتها في أرجاء الغرفة، ولاحظت بأنه أشعل بعض الشموع، وأنزل ستائر النوافذ. رأت فوق الطاولة الصغيرة زجاجة من الشراب الأحمر، وكوبين زجاجيين، كما رأت بجانبهما مظروفاً بنّيا سميكاً. سمعت سومر أصوات السيارات المارة في الشارع، وكذلك صوت زعيق الترامواي. متى حدث كل ذلك؟ ألم نكن قبل ساعةٍ من الزمن جالسَين داخل عيادة الطبيب؟

سبق ذلك أن أصرّت سومر على أن يستشيرا أخصائياً في الخصوبة، وهي التي تعبت من انتظار أن تأخذ الطبيعة مجراها، كما سئمت من فتح زجاجات الشراب في كل شهر لمؤاساتها عند ظهور كل نتيجة سلبية لاختبارات الحمل. فكّرت سومر في أنهما لو عرفا طبيعة المشكلة لأمكنهما أن يفعلا شيئاً حيالها. شكّت سومر بأن المشكلة تقع فيها. كان كريس ابن أسرة كبيرة، كما أن كل واحد من أشقائه أنجب عدداً من الأطفال. لكن سومر كانت الولد الوحيد في أسرتها، وذلك بالرغم من أن والديها لم يناقشا .المسألة على الإطلاق

تسلّم الزوجان نتيجة التشخيص التي كانا يخشيانها في عيادة الطبيب في ذلك المساء بالذات. تبيّن أن المشكلة فيها، أي أنها تعاني من فشل مبيضي مبكر، أي من انقطاع الطمث المبكر. اتضحت الصورة أمامها على الفور، ولاحظت أنه خلال السنة الماضية كانت دورتها الشهرية غير منتظمة، أي أن الدورة كانت تغيب قبل أن تتبعها دورات صعبة. ظنّت في ذلك الحين أن هورموناتها كانت تترجّح مع عوارض الحمل المبكرة، لكن الواقع هو أنه طوال هذه الفترة كان جهازها التناسلي يتجه نحو التوقف. قال الطبيب بأنه في غضون سنةٍ من الزمن فإن انقطاع الحيض سوف يكون تاماً. يعني ذلك أنه في الوقت الذي تصل فيه إلى سن الثانية والثلاثين ستفقد قدرتها على إنجاب الأطفال، وهو الأمر الوحيد الذي يحدّد هويتها كامرأة. ماذا سأكون عندها؟ أمضت سومر حياتها بأكملها وهي تتنافس مع الفتيان، وذلك للتعويض عن .أنوثتها. بدا أن القدر كان يدفعها إلى ذلك دفعاً

سألها كريس مبتسماً: «هل فكّرت في الأمور التي ناقشناها؟ أعني التبنّي؟ تقول والدتي إن دار

الأيتام تستطيع التحرّك بسرعة، وربما بفترة تقل عن الأشهر التسعة». كان كريس مهتماً بدار رعاية الأيتام هذه في مومباي، والتي كانت والدته تقدّم التبرعات لها. كان يُفترض أن تكون عملية التبنّي سريعة إذا كان أحد الزوجين الراغبَين بالتبني هندياً وبإمكانه إثبات حيازته لما يكفي من الممتلكات.

أسندت سومر ظهرها على وسادات الأريكة، وقالت: «الأمر ليس مضحكاً. يعني ذلك أنك استسلمت في ما يخص هذه المسألة».

«...كلا يا حبيبتي إنني لا أستسلم».

«...إذاً لماذا تصرّ على إثارة هذا الموضوع؟ يمكننا متابعة المحاولة. قال الطبيب»

«إن فرص النجاح ضئيلة جداً ...».

«قال إنها ضئيلة، لكنها ليست مستحيلة». أرجعت سومر يديها إلى حضنها.

جرّبنا كل شيء يا حبيبتي. قال الدكتور هايورث بأنكِ لستِ مرشحة مناسبة لتجربة تقنية الزرع الجديدة. لكن حتى لو كنت تصلحين، فإنني لا أريد أن يبدأ بإجراء التجارب على جسدك. فكّري يا حبيبتي في ما يؤثر هذا عليك. يُضاف بأن ذلك لن يفيدنا بشيء. اسمعي، أنت تريدين تكوين عائلة، أليس كذلك؟».

أومأت، وضغطت بشدة على راحتَي يديها كي تُبقي دموعها في مكانها.

«يمكنك إذاً أن تستمري في قتل نفسك من أجل أن تحملي مع أن احتمالات النجاح ضئيلة جداً، أو أن نبدأ بإجراءات التبنّي، وهذا يعني أنه في مثل هذا الوقت من السنة القادمة سوف تحملين طفلاً بين ذراعيك».

«أومأت مجدداً، وعضّت على شفتها السفلى، ثم قالت: «لكن، هل سأشعر بأنه طفلي أنا؟».

قال كريس: «اسمعيني جيداً. توجد أنواع متعددة من العائلات. رابطة الدم لا تكفي وحدها لتكوين عائلة. هل حقاً تريدين أن يمتلك طفلنا أنفي الضخم، أو أن يكون أشول؟» ابتسم كريس على عادته عندما يريد إنفاذ رأيه، لكنها لم تكن هذه المرة بمزاجٍ يسمح لها بمجاراته في لعبته هذه.

«سومر. ستكونين أماً رائعة، وكل ما عليك فعله هو أن تسمحي بحدوث هذا الأمر». اقترب منها كريس، وحاول التحديق في عينيها، وكأنه يتمنى أن يعثر على إجابة فيهما. «ما رأيك؟ ما رأيي؟» لم تعد تعرف ما رأيها في أيّ شيء. «سأفكّر، لأنه ليس بالأمر اليسير». أشارت إلى المظروف البني السميك وأضافت: «أريد أن أركض الآن كي أهدأ قليلاً». وقفت سومر من دون أن تنتظر الرد.

هرولت سومر عند نزولها الدرج الخارجي، وأسرعت متجهة نحو متنزه غولدن غايت (البوابة الذهبية) الفسيح بمساحاته الخضراء. لم تشعر برغبةٍ في الركض في واقع الأمر، لكنها شعرت بحاجة ملحة تدعوها للخروج من المنزل. أمضى كريس الأشهر الماضية في التحدّث عن التبنّي، بينما استمرت هي في محاولة تجنّب الحديث عن ذلك الموضوع، لكنها كانت تعرف جيداً بأنه يتعيّن عليها التفكير في المسألة، إلا أنها استصعبت التخلي عن فكرة إنجاب ولد، أي الولد الذي تحمله في أحشائها، وتلده،

وترضعه، والذي تتمكن من رؤية نفسها منعكسة في طفلٍ تنجبه. كيف بإمكاني أن أتخلى عن كل هذا؟ لكن الأمر أسهل بالنسبة إلى كريس، لأنه ليس الشخص الذي فشل في إنجاب طفل.

وصلتْ إلى نافورة الماء لاهثةً بشدة، ثم أدركت أنها ركضت مسافة ثلاثة أميال. كانت تركض مسافة ميلين في العادة في جادة جون ف. كينيدي، لكنها شعرت في ذلك اليوم بأنه يتعيّن عليها أن تركض نحو المحيط. توقفت بعد ذلك لتشرب من النافورة التي كان الماء يقرقر فيها قبل أن يتدفق بغزارة في وجهها. كانت حركة المساء بدأت تدب من حولها في المتنزه. رأت متزحلقاً بخصل شعره الطويلة، ومجموعة من متسابقي الدراجات الهوائية، ومجموعة من الأمهات والمتنزهين الآخرين، وأولاداً على دراجاتهم الهوائية. مضى على سومر ثلاث سنوات منذ أن بدأت بالركض في هذا الطريق، كما مضت ثلاث سنوات على محاولتها إنجاب طفل. أدركت بأنها لو نجحت في حملها الأول لكانت حملت رضيعها بين يديها، ولكانت مثل أولئك الأمهات اللواتي يساعدن أولادهن على ركوب الدراجات ذات الدواليب الثلاثة.

الفشل المبيضي المبكر. بدأت غشاوة بالتكوّن في عينيها، لكنها مسحتها بسرعة بطرف كمّ قميصها، ثم تابعت الركض مجدداً. إنها في الواحدة والثلاثين من عمرها فقط، إذاً كيف فاتها الوقت للإنجاب؟ أمضت سومر أربع سنواتٍ في كلية الطب، وثلاث سنواتٍ أخرى للتدرّب على ممارسة المهنة. فعلتْ كل ما اعتبرته ضرورياً بالنسبة إليها. كان الشيء الوحيد الذي أرادته في الحياة حتى تلك اللحظة أن تصبح طبيبة. لكن كيف كان لها أن تعرف بأن جسدها سوف يخونها؟ صفعتها الحقيقة بمثل القوة التي صفعتها بها مياه النافورة. كان كريس على حق، والطبيب على حق. عثرت على الجواب الذي تريده، أي أنها لن تستطيع معالجة مشكلتها.

لم يكن كريس في المنزل عندما وصلت إلى المنزل، لكنها لاحظت وجود ورقة على الطاولة الصغيرة شرح لها فيها بأن المستشفى استدعاه للحضور. جلستْ على الأرض الخشبية الباردة واضعةً أمامها. انحنت إلى الأمام إلى أقصى مدى، وما إن لمس طرف أنفها ركبتها V ساقيها على شكل حرف حتى بدأت بالنحيب والشعور بالاختناق في حنجرتها. تماوجت صورة الأرض المكسوة بالخشب مع الدموع التي انهمرت من عينيها. انفلتت أصوات النحيب المريعة من عقالها، وهي التي كانت مختبئة ومنتظرة الفرصة للانطلاق. كانت تلك الدموع تتجمّع على الدوام وتتزايد في أعماقها، وكانت تكبحها مرةً بعد أخرى، وربما مئة مرة في اليوم، أي في كل مرةٍ كانت تسمع فيها صوت طفل، أو عندما تقوم بفحص طفلٍ صغيرٍ مريض، وذلك إلى أن تحين تلك اللحظة. كانت هذه اللحظة تأتي في أوقاتٍ تستبعد وقوعها، أي عندما لا تقوم فيها بعمل أي شيء على الإطلاق، مثل غسل كوب قهوتها، أو فكّ رباط حذائها، أو تمشيط شعرها. كانت دموعها تنهمر بكل حرية في تلك اللحظات غير المتوقعة، وهي التي أتت من مكانٍ ما في عمق أعماقها، أي الأعماق التي لا تكاد تتعرّف إليها.

انتهت سومر من أخذ حمّامها، وجلست على الأريكة، ثم لاحظت أن زجاجة الشراب مفتوحة. سكبت لنفسها كوباً من الشراب، ثم تناولت المظروف البنيّ السميك الذي أرسلته والدة كريس، وأفرغت محتوياته. تابعت القراءة، وعرفت أن عدداً كبيراً من الأطفال الموجودين في دور الأيتام ليسوا أيتاماً في الواقع، بل هم أطفالٌ تخلى عنهم آباؤهم لأنهم لا يريدون، أو لا يستطيعون، تربيتهم. يُسمح لأولئك الأطفال البقاء في تلك الدور حتى سن السادسة عشرة، وهي السن التي يُجبرون فيها على المغادرة، وذلك بهدف إفساح المجال لاستقبال الأطفال الجدد. السادسة عشرة؟

سمعت سومر صدى كلمات كريس تتردد في ذهنها. ستكونين أماً رائعة، وكل ما عليك فعله هو أن تسمحي للأمر بالحدوث. ملأت سومر كوبها مجدداً وتابعت القراءة.

9

السلوان

دهانو، الهند - 1985

كافيتا

استيقظت كافيتا قبل طلوع الفجر، أي على عادتها في كل صباحات الأشهر العديدة الماضية. اعتادت في تلك الأوقات أن تستحم وتؤدي صلاتها بينما يكون الآخرون مستغرقين في نومهم. كانت تلك الساعات المبكرة من اليوم سلوتها الوحيدة منذ عودتها من مومباي.

بقيت كافيتا حزينة ومنعزلة بعد عودتها من مومباي مع شقيقتها. لم تتكلم إلا نادراً مع جاسو، كما أنها كانت تجفل مبتعدةً عندما يقوم بلمسها. كان الشعور بالإحراج متوقعاً عندما كانا عروسين جديدين، أما في ذلك الوقت فكان تجنّبهما أحدهما للآخر ناتجاً عن رؤية كل واحدٍ منهما لكثيرٍ من الأمور في الآخر. لم يبقَ لدى كافيتا بعد أن تخلّت عن ولدين سوى الشعور بالاستياء والشك تجاه زوجها. أرادته أن يشعر بالعار والندم اللذين حملتهما معها بعد عودتها من مومباي، وذلك نتيجة الفراغ الذي تركته أوشا. أدركت كافيتا أن التحدي الذي أظهرته في الابتعاد عنه، وحتى لو مؤقتاً، قد أظهر لجاسو مدى عمق قوتها، وهو الذي أعطاها الوقت والمجال اللذين تحتاج إليهما، وذلك بالرغم من أنه تصرّف بغرابة في الأشهر التي تلت. كان ذلك أول مظهرٍ حقيقي للاحترام الذي يبديه تجاهها خلال السنوات الأربع من الزواج. أما والدا جاسو فلم يقدّما هذا التنازل لأن استياءهما الكامن بدأ بالتحوّل إلى انتقاد متواصلٍ لعجزها عن إنجاب طفلٍ ذكرٍ.

مشت كافيتا إلى خارج المنزل، وبسطت حصيرتها على الدرجات الحجرية الخشنة، ثم جلست مواجهةً الشمس الطالعة في جهة الشرق. أشعلت عوداً صغيراً من البخور، وفتيلاً مغمساً بالدهن، ثم أغمضت عينيها، وانطلقت في صلاتها. تصاعد خيط من الدخان ببطء إلى الأعلى بشكلٍ لولبي وأحاط بها. أخذت نَفَساً عميقاً، وفكّرت على عادتها بالفتاتين الصغيرتين اللتين خسرتهما. دقّت كافيتا على الجرس الفضي الصغير، وبدأت ترنّم بنعومة. رأت وجهيهما وجسديهما الصغيرين كما سمعت صراخهما، وأحسّت بأصابع أيديهما الصغيرتين ملتفةً حول أصابعها. كانت تسمع دوماً صرخة أوشا اليائسة التي تتردد خلف الأبواب المغلقة لدار رعاية الأيتام. كانت تغوص بعد ذلك إلى عمق أعماق أحزانها. كانت تحاول بعد انتهاء ترنيمتها وأغنيتها أن تتصوّر الطفلتين هانئتين في أي مكانٍ تكونان فيه. تصورت أوشا فتاةً صغيرة وقد سرّحت شعرها ضفيرتين، وكل واحدة منهما مربوطةً بشريطةٍ بيضاء. كانت صورة الفتاة في ذهنها صافيةً تماماً، كما كانت مبتسمة، وراكضةً أثناء مشاركتها الأولاد مختلف الألعاب، وكذلك وهي تأكل وجباتها وتنام إلى جانب رفيقاتها في دار رعاية الأيتام.

كانت كافيتا تجلس في كل صباح وفي المكان ذاته خارج منزلها، وتغمض عينيها إلى أن تصل مشاعرها العاصفة إلى ذروتها وما تلبث أن تتلاشى ببطء بعد ذلك. كانت تنتظر بعد ذلك إلى أن تتمكن من التنفس بانتظام مجدداً. أما عندما تفتح عينيها فكان وجهها يمتلئ بقطرات العرق، ويكون البخور قد احترق ليصبح كومةً صغيرة من الرماد الناعم. تكون الشمس في ذلك الوقت كرةً متوهجة برتقالية اللون فوق الأفق بينما القرويون بدأوا بالتحرك من حولها. اعتادت كافيتا إنهاء طقسها هذا بأن تلامس شفتيها بأحد السوارين الفضيين الباقيين حول معصمها، وكانت تجلب العزاء لنفسها بالشيء الوحيد الذي بقي لها من طفلتيها. أشعرتها هذه الطقوس اليومية بالهدوء وببعض النسيان مع مرور الوقت. تمكنت كافيتا من قضاء باقي ما تبقى من أيامها بمساعدة هذه الصورة الذهنية السعيدة لأوشا. كان كل يوم يصبح أكثر احتمالاً من سابقه. مرّت الأيام وتحولت إلى أسابيع، كما تحولت الأسابيع إلى شهور، وشعرت كافيتا بأن مرارتها تجاه جاسو بدأت بالتضاؤل شيئاً فشيئاً، وهكذا سمحت له بعد مضي أشهرٍ عدة بأن يلمسها، وأن يمارس الحب معها في الليل.

حملت كافيتا مجدداً، لكنها لم تسمح لنفسها الاستغراق بالتفكير بالطريقة ذاتها التي اتّبعتها في المرات السابقة. امتنعت كافيتا عن الاهتمام بثدييها، أو لمس بطنها الآخذ بالانتفاخ، حتى أنها امتنعت عن تزويد جاسو بما كان يستجد معها. كانت تستبعد كل الأفكار المتزايدة عن الحياة التي تتبرعم في داخلها، وتنفضها عن ذهنها كما تكنس أرض غرفتها في كل يوم. كان ذلك عادةً يوميةً أتقنتها في الأشهر العديدة التي مضت على عودتها من مومباي.

قال لها جاسو عندما أخبرته أخيراً بأنها حامل: «أعتقد أنه من الصواب أن نذهب إلى العيادة في هذا الوقت». لاحظت بعض الإلحاح المكتوم في صوته هذه المرة.

كانت العيادة الجديدة التي افتُتحت مؤخراً في قريةٍ مجاورة تُجري صوراً صوتية بزعم التأكد من صحة الجنين، لكن الجميع يعرفون بأن أولئك الذين يقصدون تلك العيادة يريدون معرفة جنس الجنين في واقع الأمر. أما تكلفة هذا الفحص فتصل إلى مئتي روبية، وهو مبلغ يساوي مدخولهما من محاصيلهما لمدة شهرٍ كامل، وذلك بالإضافة إلى تمضية يوم كاملٍ للقيام بهذه الرحلة. كان على الزوجين استخدام المبالغ التي ادّخراها لشراء أدوات جديدة للمزرعة. وافقت كافيتا بالرغم من كل الصعوبات التي كانا يعانيان منها.

أدركت كافيتا أنه إذا أظهرت نتائج الفحص وجود جنين أنثى في رحمها، فإنه سوف يتعيّن عليها تحمّل كل العواقب الوخيمة. كان بإمكان جاسو أن يطلب منها إجراء عملية إجهاض على الفور وفي تلك العيادة بالذات، هذا إذا كان يمتلك المال لذلك، أو كان يستطيع نبذها بكل بساطة وإجبارها على تحمّل عار تربية طفلٍ لوحدها. يعني ذلك أنها سوف تصبح منبوذةً، أي مثل بقية النساء غير المتزوجات في القرية. لكن حياتها كمنبوذة من منزلها وحيّها ليست خياراً بكل هذا السوء، وذلك لأنها لم تتمكن من تحمّل أسى ولادة طفلها الذي تحمله بين ذراعيها لتضطر إلى التخلي عنه، وذلك للمرة الثانية.

أدركت كافيتا في أعماقها بأنها لا تستطيع الاستمرار في الحياة مع ذلك الوضع.

10

شيء قوي

سان فرنسيسكو، كاليفورنيا - 1985

سومر

جلست سومر على طرف حوض الاستحمام وضغطت بقدميها على بلاط الأرضية الباردة ذات اللون الأخضر المائل إلى الزرقة، بينما ضغطت بأصابع يديها بشدة على تلك القطعة البلاستيكية التي أصبحت مألوفة لديها. لكنها تمكنت، وبالرغم من الدموع التي انهمرت من عينيها، من رؤية الخطين المتوازيين، وبالوضوح ذاته الذي اعتادت عليه منذ ثمانية أشهر، أي عندما علمت بأنها حامل. كان ذلك اليوم هو يومها المنتظر، وهو اليوم الذي انتظره كريشنان للاحتفال به، لكنها سوف تبقى وحيدة مع أحزانها. لاحظت في ذلك الوقت أن نظرات الاهتمام التي كانت تتلقاها من الآخرين قد تلاشت بعد مرور أسابيع قليلة على إجهاضها لطفلها. كان الدليل الوحيد على الطفل الذي فقدته هو إصبع اختبار الحمل المنزلي الذي تحمله في يدها، وذلك بالإضافة على ذلك الفراغ الذي عجزت عن ملئه.

انتبهت إلى صوت صفارة الضباب البعيدة، كما سمعت من الغرفة الأخرى صوت المنبّه الذي يعتمد عليه كريس للاستيقاظ، وكذلك الأنغام المميزة لمحطة الإذاعة الوطنية التي تترافق مع نشرة الأخبار الصباحية. وقفت ثم دسّت إصبع الاختبار البلاستيكي في ثوب ردائها الذي أصبح رثاً. أدركت سومر بأن صبر كريس قد نفد منها، وأن إحباطه تزايد مع ما اعتبره هواجسها. كان متحمساً لأخذ الخطوة التالية. أسرعت سومر نحو فرشاة أسنانها بينما كان كريس يفتح باب غرفة الحمام.

«صباح الخير. ماذا تفعلين في هذا الوقت المبكر؟» قال كريس.

«تقلع طائرتي عند الساعة التاسعة» فتحت مياه مرشة الاستحمام وخلعت رداءها، ثم أجابت:

«حسناً. أبلغي سلامي لوالديك».

دخلت إلى حوض الاستحمام وفتحت صنبور المياه التي كانت ساخنة إلى أقصى درجة يمكن أن تحتملها.

رأت سومر سيارة الفولفو العائلية ذات اللون الرمادي، وذلك ما إن دخلت إلى قاعة الوصول في مطار سان دييغو. خرجت والدتها من السيارة، واقتربت من الرصيف لملاقاتها.

«مرحباً حبيبتي. إنني سعيدة جداً لرؤيتك».

تجاوزت سومر حقيبتها المصنوعة من القماش السميك، واندفعت نحو ذراعَي والدتها

المفتوحتين. شعرت بأنها تكاد تذوب في هذا العناق. أخفت سومر وجهها تحت سترة والدتها الناعمة، ورائحة زيت أولاي الخفيفة. شعرت سومر وكأنها في عمر التاسعة مجدداً فبدأت بالبكاء على الفور.

«قالت الوالدة بينما كانت تمسّد شعر سومر: «آه يا حبيبتي.

«قالت الوالدة بعد وصولهما إلى المنزل: «سأحضّر بعض الشاي، كما أنني حضّرت خبز الموز.

«استرخت سومر على أحد مقاعد طاولة المطبخ، وقالت: «يبدو ذلك مناسباً.

«إذاً سيكون كريس في مناوبته في عطلة نهاية الأسبوع هذه؟ إنه أمرٌ مؤسف لأننا سوف نشتاق إليه».

يُظهر والدا سومر محبة كبيرة نحو كريس، لكنها لم تكن متأكدة من ذلك عندما دعت صديقها الهندي للحضور إلى منزلها، لكنها شعرت بارتياح عندما عانقاه بحرارة. نشأ والداها في تورنتو خلال موجة الهجرة الكبيرة التي حدثت في الأربعينياتً من القرن الماضي، كما كان لديهما جيران يتكلمون الروسية، والإيطالية والبولندية. كان والداها منفتحَين على الدوام حتى قبل أن يصبح الانفتاح أمراً شائعاً. شعر والدها، وبصفته طبيباً بمودةٍ فورية تجاه كريس، كما احترمه أكثر لأنه سوف يصبح جرَّاحا.

حاول والدك تقليص ساعات عمله في فترة بعد الظهر، لكنه عاود العمل ليلةً واحدة في الأسبوع، ثم زاد الفترة إلى ليلتين، لكنه انتهى الآن إلى العمل في كل ليالي الأسبوع». هزّت والدتها رأسها أثناء قيامها بملء الإناء.

كان والد سومر يستخدم غرفة قام بتعديلها في الطابق الأول من المنزل، وهي تذكر بأنه عمل فيها لفحص المرضى منذ أن كانت فتاةً صغيرة. كان بعض هؤلاء من المرضى الذين يعالجهم خلال النهار، ومن الذين يضطرون لزيارته بعد ساعات العمل الرسمية. لكن معظم أولئك الأشخاص كانوا من بين الذين لا يحبون زيارة طبيب على الإطلاق، أي مثل المهاجرين الجدد الذين لا يمتلكون تأميناتٍ صحية، وأمهاتٍ في سن المراهقة من اللواتي طُردن من منازل أهاليهن، أو من المسنّين الذين يخشون الذهاب إلى المستشفى في الليل. لم يمضِ وقت طويل قبل أن يعلم الحي بأكمله بأن عيادة الدكتور ويتمان المنزلية تبقى مفتوحة على الدوام، كما علم سكان الحي أنه لا يتقاضى أجراً من الذين لا يستطيعون الدفع. تتذكّر سومر منذ طفولتها سماع رنين الجرس أثناء تناول العائلة لطعام العشاء، أو أثناء ممارستهم للعبة السكرابل.

اعتاد والدها أن يقول لها عندما يتوجه لفتح الباب بعد أن يضع كلمة مؤلفة من سبعة كلمات على لوحة لعبة السكرابل: «ابحثي عن تلك الكلمة يا سومر، واستخدميها في جملة مفيدة حتى أعود».

لم تكن العائلة تستغرب العثور أمام مدخل منزلها على فطائر مخبوزة حديثاً، أو سلالٍ من الفاكهة، والتي يتركها مرضى يريدون التعبير عن امتنانهم لوالدها، والتي تكون إلى جانب صحيفتهم اليومية. كان الطب بالنسبة إلى والدها شيئاً يتجاوز ممارسة المهنة إلى اعتباره واجباً إنسانياً. كان من الصعب عليه فصلَ مهنته عن حياته اليومية. تعلمت سومر ذلك منه. علّمها والدها عندما كانت بعمر الثامنة كيفية استخدام سمّاعة الطبيب والإصغاء إلى دقات قلبها. أما عندما أصبحت في العاشرة من عمرها فقد تعلّمت كيفية قياس ضغط الدم. لم تفكّر سومر في أن تكون أي شيء غير طبيبة، وكان والدها هو بطلها الذي تبقى بقربه في أيام عطلة نهاية الأسبوع، بينما ينهمك هو في القراءة بعد أن يجلس على كرسيه الجلدي ذي اللون البني.

لاحظت سومر بعض التجاعيد حول عينَي والدتها: «ماذا بشأنك أنتِ يا أمي؟ كيف يجري عملك في المكتبة».

آه، إنها مزدحمة كالعادة. إننا نعيد ترتيب قسم المراجع كي نُفسح المجال لوضع بعض الأثاث» الذي تلقيناه على شكل تبرعات، كما أقوم بتنظيم سلسلة دوراتٍ تدريبية حول سِيَر حياة النساء الشهيرات من أمثال إليانور روزفلت، وكاترين غراهام لفترة الخريف القادم».

ابتسمت سومر، بالرغم من أنها بقيت عاجزةً عن فهم كيف أن والدتها لا تزال متحمسة لهذه الوظيفة العادية: «هذا رائع».

أحضرت والدتها بعد ذلك كوبين تصاعد منهما البخار، ووضعتهما فوق الطاولة، كما أحضرت شرائح سميكة من خبز الموز: «إذاً ما الأمر يا حبيبتي؟ تبدين منشغلة كثيراً».

أحاطت سومر كوبها بيدها، وارتشفت جرعة من الشاي: «حسناً، نحن... أنا... لا أستطيع إنجاب طفل يا أمي».

وضعت والدة سومر إحدى يديها على ذراع سومر. «آه يا حبيبتي. ستتمكنين من الإنجاب، لكن الأمر يتطلب بعض الوقت. يحدث الإجهاض كثيراً، وهناك عددٌ كبير من...».

هزّت سومر رأسها: «كلا، لا أستطيع. قصدنا أحد الإخصائيين لإجراء الفحوصات، وقال لي بأنني أصبتُ بما يسمى انقطاع الطمث المبكر. يعني ذلك أن المبيضين عندي لا ينتجان بويضات على الإطلاق». تطلعت سومر في عينَي والدتها لعلها تجد تفسيراً عجزت عن إيجاده في أي مكانٍ آخر، لكنها لاحظت الدموع فيهما.

«تنحنحت والدتها، وقالت: «إذاً هذه هي المشكلة. ألا يوجد أي شيء آخر يمكنكما فعله؟».

هزّت سومر رأسها وتطلعت نحو كوب الشاي.

«أمسكت الوالدة يدها وقالت: «إنني آسفة جداً. يا حبيبتي. كيف حالكما؟ كيف هي حال كريس؟».

كريس مهتمٌ جداً... بالاستعانة بطبيب. يعتقد بأنني عاطفية جداً بالنسبة إلى هذا الأمر». لم تقل لوالدتها بأنها لا تتمكن من التحدث معه أكثر عن هذه المشكلة، وأنها تقلق لأنها إذا لم تعثر على طريقة ما لحل هذه المشكلة فإنها سوف تخسر كريس كذلك.

قالت الوالدة متطلعةً إلى كوب الشاي: «يصعب على الرجال فهم الأمر. كان الأمر صعباً على والدك».

«رفعت سومر نظرها وقالت: «هل هذا هو سبب عدم إنجابكما لطفلٍ آخر؟».

ارتشفت والدتها جرعة أخرى قبل أن تجيب: «تعرضت لإجهاضٍ واحدٍ قبلكِ، وإجهاضٍ آخر بعدك. لم أحمل جنيناً بعد ذلك. لم تكن هناك اختبارات في ذلك الوقت، وهكذا تقبلنا الأمر. شعرنا بأننا محظوظان لأننا أنجبناك، لكني شعرت بالأسف تجاهك، لأنني لم أنجب لك شقيقاً أو شقيقة». مسحت الوالدة دمعة عن خدّها.

كانت سومر تحسّ بموجةٍ من الشعور بالذنب في كل مرة تمنّت فيه إنجاب ولدٍ لها. قالت لوالدتها: «الذنب ليس ذنبك يا أمي. ليس ذنبك، وليس ذنبي. جلستا وسط صمتٍ مريح، واستمر ذلك لحظات قليلة إلى أن رفعت سومر نظرها نحو أمها، وقالت لهَا: «ما رأيكِ بالتبنّي يا أمي؟».

«ابتسمت والدتها وقالت: «أعتقد بأنها فكرة رائعة. هل فكّرتما فيها بالفعل؟».

يُحتمل أن نفعل ذلك... هناك أطفال في الهند يحتاج كل واحد منهم إلى أسرة ومنزل». تطلعت سومر بعد ذلك نحو يديها، وأدارت خاتم زواجها حول إصبعها. «يصعب عليّ التفكير بأنني لن أنجب أبداً. يعني ذلك بأنني لن أتمكن من تكوين حياة جديدة». اختنق صوتها مع تساقط دموعها.

«قالت والدتها: «ستتمكنين يا حبيبتي من القيام بأمرٍ يمتلك أهمية مماثلة، أي إنقاذ حياة

ظهرت ملامح الانهيار على وجه سومر فبدا وكأنه منديل ورقي مجعّد وبدأت بالبكاء: «أريد أن أكون أماً».

ردّت والدتها بعد أن غطّت وجه سومر بيدها: «ستكونين أماً عظيمة. أعدك عندها بأن ذلك سوف يكون أهمّ عملٍ قمتِ به في حياتك على الإطلاق».

تفحّصت سومر في رحلة العودة الأوراق التي أرسلتها دار رعاية الأيتام الهندية، لكنها ركّزت على الوجوه البريئة للأطفال. أيقنت أن تغيير وجهة حياة أولئك الأطفال سوف يكون أمراً رائعاً وقوياً، أي تكوين فرصةٍ لم تكن لتوجد أمامهم من قبل، وجعلِ حياة طفلٍ ما أفضل حالاً. ذكّرها هذا الشعور بالسبب الذي دفعها لأن تكون طبيبة. لفت انتباهها قولٌ مأثور من أقوال غاندي، والذي زيّن المنشور الذي أرسلته الدار الهندية: «كنْ أنت التغيير الذي تحب رؤيته في هذا العالم».

يُحتمل أنه كان هناك سبب لكل آلامنا. يُحتمل أن هذا هو ما أراده القدر لنا.

11

الإنفاق والادّخار

بالغار، الهند - 1985

كافيتا

شعرت كافيتا بالتوتر في صبيحة اليوم المحدّد لإجراء الفحص، وكانت معدتها متشنجة كذلك. وضعت إحدى يديها على بطنها المنتفخ عندما اقتربا من العيادة. شاهدا على باب العيادة لوحةً كُتب عليها: أنفِق 200 روبية الآن، ووفّر 20,000 روبية فيما بعد - كانت تلك إشارة صريحة لتجنّب دفع مهر تزويج الفتاة. كان هذا الباب عادياً ويشبه باب خياطٍ، أو إسكافي لولا تلك اللوحة. أما في الداخل فقد كان أزواجٌ من الرجال والنساء يقفون جنباً إلى جنب. لاحظت كافيتا بأنها قطعت مجالاً أبعد في الحمل من بقية النساء، وهي التي أصبحت في ذلك الوقت في شهرها الخامس.

اقترب جاسو من موظف الاستقبال، وتبادل بضع كلمات معه، وما لبث أن تناول رزمةً من الأوراق المالية والنقود المعدنية من جيبه، ووضعها على الطاولة. قام الموظف بعدّ النقود، ووضعها داخل صندوقٍ معدني، لكنه ما لبث أن أومأ برأسه كي يعود جاسو إلى المكان المخصّص للانتظار. تحركت كافيتا مِن مكانها كي تفسح المجال لزوجها للوقوف مستنداً إلى الحائط. أبقت كافيتا نظرها مركزاً على الأرض الإسمنتية الخشنة، لكن أصوات نحيبٍ مكتومةً أجبرتها على التطلع نحو الأعلى فرأت امرأة تسرع الخطى نحو المدخل بعد أن خرجت من داخل العيادة. كان رأس المرأة مغطى بأعلى ثوبها الطويل بينما سار خلفها رجلٌ رزين الملامح. عادت كافيتا للنظر إلى الأرض، ورأت بطرف عينها ارتعاش أصابع رجلي جاسو.

نادى الموظف اسميهما، وأومأ برأسه نحو داخل العيادة. دخل الزوجان الباب الضيّق ليجدا غرفة صغيرة لا تتسع إلا لطاولة فحص وجهاز فوق عربة. ناول التقني بعض الأوراق إلى جاسو الذي لم يتمكن من قراءتها مع زوجته، ثم أمر كافيتا بالاستلقاء على الطاولة. كانت المادة الهلامية التي بسطها فوق بطنها باردة وغير مريحة، لكنها شعرت بموجةٍ من الامتنان عندما وقف جاسو إلى جانبها. حاول جاسو وكافيتا فهم تلك الصور بالأبيض والأسود التي ظهرت على الشاشة. حدّق جاسو بالشاشة، والتفت قليلاً، ثم نظر بقلق إلى التقني عدة مرات كي يعرف جنس الجنين الذي ينمو في أحشاء كافيتا. قال التقني بعد مرور دقائق عدة: «تهانينا. إنه صبي وبصحة جيدة».

صرخ جاسو من الفرح، وربّت بشدة على كتف التقني، ثمّ قبّل كافيتا في جبهتها، لكن الإحساس الوحيد الذي شعرت به كان الارتياح.

سمحت كافيتا لنفسها أخيراً بالشعور برابطة قوية تجاه جنينها، وذلك في الأسابيع التي تلت ذلك الفحص، أي عندما استوعبت، وإن ببطء، بأنها ستتمكن من الاحتفاظ بالطفل. أعطاها هذا الشعور وسيلةً لتبقى على تفاؤلها الحذر، وهو الأمر الذي عزّزه حماس زوجها. يُضاف إلى ذلك أن سلوك جاسو تجاهها تغيّر بعد ذلك اليوم الذي قصدا فيه العيادة، ثم بدأ بالتخلي عن حصّته الإضافية من الخبز عند العشاء بحيث تتمكن كافيتا من تناول كميةٍ إضافية منه، كما طلب منها أن ترتاح عندما لاحظ أنها تضع يدها على القسم الأسفل من بطنها. أما في الليل أي عندما كانا يستلقيان على السرير، فكان يبدأ بتمسيد قدميها المنتفختين بزيت جوز الهند، ويبدأ بالغناء بصوتٍ ناعم أمام بطنها الآخذ بالانتفاخ. كانت تعرف أن الجزء الأكبر من سبب التغيّر في سلوكه يعود إلى أنها تحمل جنيناً ذكراً في أحشائها، لكنها أرادت تصديق أن ذلك ليس هو السبب الوحيد. شعرت كافيتا أن ما تبقى من البرودة التي تشعر بها حياله قد تلاشت مع اهتمامه بها في الأشهر القليلة الأخيرة من حملها.

لمست كافيتا في زوجها القدرة على أن يكون زوجاً حنوناً وأباً صالحاً. تغيّر جاسو كذلك منذ تلك الليلة الأولى التي أمضاها في الكوخ الذي لجأت إليه زوجته عندما جاءها المخاض قبل سنتين. أدركت كافيتا كذلك بأنه لا يمكنها توجيه اللوم إليه كلياً لما حدث، وذلك لأنه لا يختلف عن رجال القرية الآخرين، وليس أسوأ منهم، وهم الذين يفضّلون الأولاد الذكور على الدوام.

كان من الواضح أن لا شيء سيتغيّر بالنسبة إلى موعد ولادة ابنهما. انتظر جميع أفراد العائلة قدوم الصبي. لكن كل شيء كان مختلفاً هذه المرة. تلقت كافيتا الطعام والاهتمام إلى أن أحسّت بأول آلام الولادة. لم تتأخر القابلة عن القدوم على الفور لمساعدتها. مكث جاسو في الخارج في هذه الأثناء، ولم يبتعد عن الباب حتى سماعه الصرخات الأولى للطفل. لمس جاسو شفتَي الصبي بملعقة فضية مليئة بالعسل حتى قبل أن تنتهي القابلة من قطع حبل السرة، وذلك جرياً على العادة المتبعة في القرية. انحنى جاسو وطبع قبلةً على جبهتها. حمل جاسو وليده الجديد بين ذراعيه، بينما اغرورقت عيناه بالدموع. شاركت كافيتا جاسو بهذه الطقوس الجميلة والمؤثرة، لكن البهجة التي شعرت بها كانت أعجز من أن تقضي على حزنها. كانت كافيتا تنتظر هذه اللحظة منذ سنوات، وهي اللحظة التي حانت في ذلك الوقت، لكنها كانت ممزوجة مع الأسى الذي حمله الماضي.

12

التآلف

سان فرنسيسكو، كاليفورنيا – 1985

سومر

كان كل شيء نظرياً فقط إلى أن وصل ذلك المظروف. تسارعت دقات قلب سومر عندما رأته بين رُزم الرسائل. تناولت زجاجة شرابٍ من الثلاجة، وهرعت بخطواتٍ سريعة نحو المستشفى. تواعد الزوجان على أن يفعلا ذلك سوياً، لكنها حملت المظروف بيديها، وبأصابع متشوقة لفتحه بعد أشهرٍ عديدة من الانتظار.

أمضى الزوجان في البداية أمسياتٍ لا حصر لها أمام طاولة المطبخ في التحديق إلى رزم الأوراق، وتعبئة النماذج المطلوبة، وكذلك في جمع المعلومات والنصوص المفيدة لهما، والسجلات الضرائبية، والبيانات المالية، والتقارير الطبية. أتت بعد ذلك عملية التدقيق التي أجرتها وكالة التبنّي، وشملت هذه العملية إجراء المقابلات، والزيارات المنزلية، والتقييمات النفسية. قاومت سومر الرغبة في إظهار استيائها من العامل الاجتماعي عندما راح يتفحص كل زاوية من زوايا شقتهما، ولم يكتفِ برؤية غرفة الطفل، لكنه تفحص خزائن أدويتهما، وحتى أنه فتح الثلاجة كي يشمّ رائحتها.

تمكّن الزوجان من تجاهل مشاعر كبريائهما، فطلبا من الأساتذة الجامعيين السابقين، وزملائهما في سنوات الدراسة، وبعض زملاء عملهما كي يشهدا على صلاحيتهما كوالدين بالتبنّي. تحتّم كذلك أن يعطي مركز الشرطة المحلي شهادته. اعتبر الزوجان أنه من غير المنصف، بل من المهانة، أن يخضعا لهذا العدد من الاختبارات، وأن يكشفا كل شيءٍ عنهما في حين أن معظم الأزواج يتمكنون من الحصول على الأولاد من دون الخضوع لأي اختبارات على الإطلاق. لكنهما فعلا كل شيء طُلب منهما، وقدّما الطلب ثم انتظرا، إلا أنهما أُبلغا بأن الطفل لربما يكون أكبر سناً، ولربما لا يكون بصحة تامة، ولعلّه من المؤكد بأن الطفل سيكون بنتاً.

وصلت سومر إلى المستشفى بعد أن تقطعت أنفاسها من فرط الإجهاد، لكنها توجهت مباشرة إلى القسم الذي يعمل فيه كريس. سألت إحدى الممرضات في المركز: «هل رأيتِه؟» لكنها لم تنتظر ردّها. توجّهت إلى جناح الأطباء فوجدته فارغاً، وما لبثت أن أدخلت رأسها إلى غرفة المناداة، وأيقظت لفترة قصيرة أحد الأطباء المتدربين الذي كان شبه نائم، لكنها سرعان ما عادت إلى غرفة الممرضات.

«سأناديه لك» :قالت الممرضة.

شكراً. جلست سومر على أحد المقاعد البلاستيكية القريبة من الممرضة. نقرت بقدميها على

الأرض، وحوّلت نظرها عن المظروف. سمعت صوت كريس، وما لبثت أن رأته وهو يسير نحوها. لاحظت سومر، من خلال ملامح وجهه، تلك النظرة الفولاذية في عينيه، وارتعاش عضلات فكّيه، بأنه كان يؤنّب أحد الشبان المتدربين الذي سار إلى جانبه وبدا مكتئباً. بقيت ملامح وجهه جدّية حتى عندما رآها، لكن عندما وقفت حاملة معها المظروف الكبير بدا شبح ابتسامة صغيرةٍ على وجهه. طلب كريس «من الشاب المتدرب الانصراف، ثم أسرع الخطى نحوها. «هل هذا هو المظروف الذي ننتظره؟».

أومأت، ثم أمسكها من مرفقها إلى أقرب استراحةٍ للدرج. جلسا معاً فوق أعلى درجة، وفتحا المظروف، ثم أخرجا رزمة أوراق تتوجها صورة فورية. امتلكت الطفلة التي ظهرت في الصورة شعراً أسود مجعداً، كما أن عينيها اللوزيتين في الشكل كانتا باللون العسلي. ارتدت الطفلة فستاناً بسيطاً، وسواراً فضياً رفيعاً، إلا أن تعابير وجهها كانت غريبة ولافتة.

«همست سومر رافعةً يدها إلى فمها: «يا إلهي. إنها جميلة».

«تفحّص كريشنان الأوراق وقرأ: «آشا. هذا هو اسمها، وعمرها عشرة أشهر».

«سألته سومر: «ماذا يعني هذا الاسم؟».

«تطلع نحوها مبتسماً. «آشا؟ أمل. إنه يعني الأمل».

ضحكت قليلاً وقالت: «حقاً؟» استغرقت في البكاء، «حسناً، يجب أن نأخذها إذاً». أمسكت يده، وتداخلت أصابعها مع أصابعه ثم قبّلته. «هذا يناسبنا جداً. يناسبنا تماماً». ألقت برأسها على كتفه بينما كانا ينظران معاً إلى صورة الطفلة.

شعرت سومر، وللمرة الأولى منذ وقتٍ طويل بانشراحٍ مريح. «هل أحببتُ الطفلة قبل أن أراها، وهي في المقلب الآخر من العالم؟» أرسل الزوجان في صباح اليوم التالي برقية إلى دار رعاية الأيتام ذكرا فيها أنهما قادمان لاصطحاب طفلتهما.

شعر الزوجان ببهجةٍ غامرة طوال الفترة التي كانت تفصلهما عن الرحلة إلى الهند التي تستغرق سبعاً وعشرين ساعة. شعرت سومر بالإثارة إزاء عددٍ من الأمور: زيارة الهند للمرة الأولى، ومقابلة أفراد عائلة زوجها بأكملهم، ورؤية الأماكن التي ترعرع فيها زوجها والتي سبق له أن تحدث عنها منذ سنوات. لكن الأهم من ذلك كله هو أنه عندما أغمضت سومر عينيها فإنها كانت تتصور اللحظة التي ستحمل فيها طفلتها للمرة الأولى، وهكذا أبقت صورة آشا في جيبها، وحدّقت فيها مراتٍ عدة. نجحت تلك الصورة بالذات في القضاء على كل شكوكها، وزرعت الحياة في كل شيء. كانت تستلقي مستيقظة على السرير في الليل لتتخيل الوجه الجميل لابنتها. يُضاف إلى ذلك أنها راجعت الرسومات البيانية لنمو الطفلة، وقلقت بشأن وزنها.

انتهت أعمال تجهيز المنزل، وأصبح جاهزاً لاستقبال الطفلة، كما تلقى الزوجان في هذه الفترة معلومات عن طريق الوكالة، لكنهما كانا غير واثقين من الأمور التي يجب توقعها عند وصولهما إلى الهند. تلقت سومر وكريس تحذيراتٍ بشأن انزعاج الهنود من الغرباء، والاختلافات الثقافية، والتنمية المتأخرة، ونقص التغذية، أي أن تحديات التبنّي هي أكثر من أن تُحصى، لكنهما دُهشا بمنظر الأولاد الذين لعبوا وصرخوا داخل الطائرة في حين تضايق المسافرون الآخرون منهم.

خرجت سومر من الطائرة في مطار مومباي، وسرعان ما لفحها مزيجٌ من رياح المحيط، ورائحة التوابل، ورائحة العرق البشري. حاولت على الفور التغلّب على شعورها بالدوار بينما زاحمتها حشودٌ

من الناس الذين اصطفوا متدافعين أمام نقطة موظفي الهجرة. لكن قبل وصولهما إلى قاعة استلام الحقائب التفّ حولهما عدد من الأشخاص، وأمسكوا بثيابهما، وتكلموا معهما بسرعة. بدأت سومر بالشعور بالهلع، وما لبثت أن تبعت كريشنان وهو يشق طريقه خلال هذه المتاهة البشرية، وراقبته أثناء سيره بهدوء بين الناس والخطوط المرسومة، وما بدا لها نقاط تلقي الرشى في الطريق.

شعرت سومر بلسعة الطقس الرطب والحار على كتفيها العاريتين واستقرت عليهما مثل شالٍ غير مرغوب فيه. ازدحمت طرقات المطار في هذا الوقت بالسيارات التي أطلقت أبواقها. أخيراً استقلّت وكريشنان سيارة أجرة، وجلسا في مقعدها الخلفي ذي الجلد المتشقق. راقبت سومر زوجها وهو يُنزل زجاج النافذة يدوياً، وما لبثت أن حذت حذوه. أخذ كريشنان نفساً عميقاً والتفت نحوها مبتسماً. قال لها بفرحٍ غامر: «هذه هي مومباي بكل أمجادها. ما رأيك؟».

اكتفت سومر بأن أومأت، أما كريشنان فكان يشرح لها عن معالم المدينة، مثل مسجدٍ أنيق لاح لهما في البعيد، وحلبة سباق شهيرة. لكن كل ما تمكّنت من رؤيته كان المباني المتهالكة، والشوارع المتسخة، وهي المناظر التي مرّت أمامها كأنها شريط سينمائي من أمام نافذة السيارة. لكن عندما توقفت السيارة بسبب ازدحام السير حاصرتها مجموعة من المتسولين بثيابهم الرثة، والذين مدّوا أيديهم من خلال نافذتها المفتوحة إلى أن انحنى كريشنان لرفع زجاجها.

قال لها كريس وهو يستمر في التحديق إلى الأمام مباشرةً: «تجاهليهم يا سومر. لا تنظري نحوهم وهم سيبتعدون على الفور».

نظرت سومر نحو المرأة الواقفة بالقرب من السيارة، وهي التي كانت تحمل طفلاً هزيلاً فوق ظهرها وكانت تشير بصمتٍ نحو فمها بأصابع يديها. لم تكن المرأة بعيدة عنها بأكثر من اثنتي عشرة بوصة. تمكّنت سومر من الإحساس بالجوع واليأس اللذين تشعر بهما المرأة حتى من خلال الزجاج الفاصل بينهما، لكنها أجبرت نفسها على الالتفات بعيداً عنها.

مدّ كريس يده نحوها ليمسك يدها: «لا تقلقي يا حبيبتي. ستعتادين على هذه المشاهد، ونحن على وشك الوصول إلى المنزل».

شعرت سومر بالفضول لرؤية المنزل الذي نشأ كريشنان فيه، وهو الذي لم يحدّثها عن عائلته بالتفصيل واكتفى بذكر الأمور الأساسية. قال لها إن والده كان طبيباً شهيراً، أما والدته فكانت تعطي دروساً خصوصية، وتقوم بجمع التبرعات للأعمال الخيرية. سبق لسومر أن التقت والدَي زوجها منذ ستة أعوام، أي عندما سافرا لحضور حفل زفافها في سان فرنسيسكو.

كانت تلك الفترة صعبة جداً بالنسبة إلى سومر، وذلك بالرغم من أن والديه مكثا معهما أسبوعاً لا أكثر، وهي التي أمضته ما بين العمل والتحضير للزفاف. أما عندما تمكّنت من محادثتهما فقد دار الحديث عن الطقس (لماذا كل هذا البرد الشديد في فصل الصيف)، وترتيبات الزفاف (اقتصر الحفل على أربعين مدعواً في متنزه غولدن بارك)، وعن المطاعم القريبة التي تقدّم الأطعمة النباتية (محلات البيتزا والمخابز). اعتادت والدة كريس في كل صباح على تحضير الشاي على سطح الفرن، وعلى القيام بجردةٍ على محتويات خِزانات مطبخهما. أما والده فكان يتفحص الصحف وكأنه يريد قراءة كل كلمة مطبوعة فيها. كانت سومر تشعر ببعض الارتياح مع الشعور بالذنب عندما كانت تغادر المنزل كل يوم. سألت سومر كريس ذات يوم ما إذا كان هناك خطأ ما. بدا لها في ذلك الوقت بأن والديه يخفيان عنها شيئاً ما.

أجابها كريس: «إنهما ليسا معتادَين على طريقة العيش هنا، وهما يحاولان التآلف».

تساءلت سومر وهي تتطلع من خلال النافذة إلى أفق مدينة مومباي ما إذا كانت ستتمكن من التأقلم بدورها في مومباي.

13

الطموح

مومباي، الهند - 1985

سارلا

تطلعت سارلا ثاكر في المرآة بينما كانت تعقد شعرها الطويل – الذي يصل إلى حدود خصرها – على شكل كعكة والذي ثبتّته بمشابك، وهي التسريحة التي اعتادت عليها. لمست بنعومة خصل الشيب في شعرها التي تعلو جبهتها. حسناً، لمَ لا؟ إنني جدّة في حقيقة الأمر. رفعت ثوبها الحريري (الساري) أصفر اللون، والذي كوَته منذ وقتٍ قصير، عن السرير ثم لفّته بمهارة حول جسمها إلى أن تطابق الطرف الزهري اللون للثوب على كتفها الأيسر. انحنت أكثر نحو المرآة كي تتمكن من وضع بيندي (دائرة صغيرة) باللون الأصفر والذهبي في نقطة منتصف جبهتها بالضبط، وبعد ذلك طلت شفتيها بأحمر الشفاه ثم تراجعت إلى الخلف لتلقي نظرة. ذكّرت نفسها بعد ذلك بضرورة إبلاغ ديفيش أن لا تنسى تنظيف البقع عن سطح المرآة. حرصت سارلا على أن تُبقي الخدم منشغلين طوال النهار. كان الخدم يعرفون كل ما تحتاجه استعداداً لوصول ابنها البكر من أميركا. كانت سارلا تُظهر أسفها أمام الآخرين لأن كريشنان يستقر بعيداً جداً عن المنزل، إلا أنها كانت فخورةً به لأنه كان يحتفظ بطموحاتٍ كبيرة منذ أن كان طفلاً صغيراً.

كان كريشنان في صغره يرافق والده في جولاته على المرضى في المستشفى، وكان يجذب طرف رداء والده الأبيض اللون في كل مرة كان يريد توجيه سؤالٍ له. كان أولادها جميعاً أذكياء، لكن كريشنان كان الأكثر تنافسية من بينهم. اعتاد كريس أن يركض من المدرسة إلى المنزل كي يُعلن بأنه حصل على أعلى العلامات في مادة العلوم، أو عندما يفوز في مسابقة الرياضيات. استمر كريشنان في نجاحاته في المدرسة، ومع هذه النجاحات توسعت طموحاته، كما أنه حلُم بمتابعة دراساته خارج البلاد. أما عندما حاز القبول في إحدى كليات الطب في أميركا فكان على العائلة جمع كل ما تملك من موارد لتمكينه من السفر، ولم تكن ثروة العائلة في الهند تساوي كثيراً بالدولار الأميركي. ولم يكن باستطاعة الطلاب الأجانب الحصول على قروض، كما أن العائلة لم ترغب في أن يشغل ابنها وظيفة كي لا تُشغله عن دروسه. كان من الصعب على سارلا تصديق أن عقداً من السنين قد مضى منذ ذلك اليوم الذي ودّعت فيه ابنها في المطار.

توجّه ستة عشر فرداً من أفراد العائلة سويةً في ذلك اليوم، وتوزّعوا على أربع سيارات سارت على شكل قافلة اتجهت نحو المطار. كانت آخر سيارة مليئة بأمتعة كريشنان فقط والتي تضمنت حقيبة كبيرة مليئة بأكياس الشاي المقفلة، والبهارات المطحونة، وبعض الحوائج الجافة الأخرى. كان من

.الطبيعي أن تكون سارلا الأكثر قلقاً حول طعام ابنها للسنوات القليلة التالية التي سيقضيها في الخارج

أمضى المودّعون الوقت في المطار بعضهم مع بعض قبل حلول موعد إقلاع طائرة كريشنان، كما انصرف الأولاد إلى ملاحقة بعضهم دائرياً في لعبة كابادي، واستمتعوا يتردد صدى أصواتهم في ممرات مبنى المطار ذات الأسقف العالية. أحضرت سارلا معها إلى المطار نصف دزينة من الأواني الفولاذية المليئة بالطعام، وذلك كي يتمكّن الكبار من الاستمتاع بتناول الشاي الساخن، والأطعمة الخفيفة الأخرى. لكن المناسبات، وهذه المناسبة المهمة على وجه الخصوص، لا تكتمل من دون تناول وجبة كاملة للاحتفال بالمناسبة. شغلت سارلا نفسها بإطعام كل الحاضرين، وترتيب مجموعاتٍ من الأشخاص لأخذ الصور الجماعية، وتسجيل وقت أخذ الصور، أي أنها قامت بكل شيء للتخفيف من سيطرة العواطف على هذه المناسبة. لكنها لو علمت في ذلك الوقت أن ابنها سوف يغادر الهند نهائياً، لكانت سمحت لمشاعرها أن تأخذ مجراها بصورة أكبر. لكن وداع زوجها لابنهما كان الوداع الأكثر تأثيراً، وهو الذي يكون رزيناً في العادة، إلا أنه عانق ابنه لوقتٍ طويل، وهكذا انهمرت دموعه عندما تركه. أما باقي أفراد العائلة فقد حوّلوا أنظارهم إلى الجهة الأخرى احتراماً حتى إن الأطفال هدأوا.

.«قال كريشنان بصوت متهدّج: «لا تقلق يا بابا. سأجعلك فخوراً بي

ردّ والد كريشنان: «إنني فخور بك الآن يا بني. إنني فخورٌ بك اليوم على وجه الخصوص». التفت كريشنان لإلقاء التحية على مجموعة الأقرباء الذين جاءوا لوداعه. يعني ذلك أن حوافزه للسفر إلى أميركا لم تكن أحلامه لوحدها.

لم يكن هناك من شكٍ أبداً في أنه سوف يعود إلى الهند بعد انتهائه من دراسة الطب، وذلك للالتحاق بعمل والده وللزواج. كان بإمكان كريشنان أن يختار بين عدد كبير من الفتيات المؤهلات، وذلك بفضل شهادته الأميركية، وفرصة تحقيقه لمدخولٍ محترم. لكن عندما بدأت سارلا بالبحث عن فتيات مناسبات لابنها منعها مدَّعيا بأنه منشغلٌ جداً بدراسته بحيث إنه لا يفكّر في الزواج. لكنه اتصل بهم فجأةً، وقبل تخرّجه، لإبلاغ العائلة بأنه عثر على المرأة التي يريدها، وكانت امرأةً أميركية، وهو يخطط للزواج بها. فهمت العائلة ضمناً بأنه يريد البقاء في أميركا من أجلها.

كانت سارلا وزوجها مثقّفين وتقدميين في تفكيرهما أي أنهما لم يعارضا من حيث المبدأ زواجاً مبنياً على الحب، لكن مثل ذلك الزواج بدا متسرعاً. لم يرغبا في الوقت ذاته أن يرتكب كريشنان غلطة، لأن تلك الفتاة أتت من بيئةٍ مختلفة تماماً، كما بدا لهما بأن أحدهما لا يعرف عائلة الآخر. تأكدت مخاوفهما بشأن كريشنان وعروسه عندما سافرا إلى أميركا لحضور حفل الزفاف الذي كان هادئاً وصغيراً في الوقت ذاته، كما أن شقتهما كانت من دون حياة، ووجباتهما كانت خفيفة. شعرت سارلا وزوجها بأنهما ضيفان في ذلك المنزل، وذلك بدلاً من أن يكونا جزءاً من العائلة، وهذا ما دفعهما للتساؤل عن سبب تغيّر ابنهما.

شعرت سارلا وزوجها أن واجبهما يفرض عليهما مساندة ابنهما وزوجته بعد أن حدث الزواج بالفعل. لكن عندما استفسر كريشنان عن التبنّي في السنة الفائتة رأت سارلا في هذا الاستفسار فرصةً لها لإعادة الارتباط مع ابنها مجدداً، وهكذا يُحتمل بأنها لن تخسر ابنها لصالح أميركا كلياً. كانت في كل مرة تزور فيها دار رعاية الأيتام تحصل من الموظفين على قائمة غير رسمية بأسماء الأطفال الجدد الذين وصلوا إلى الدار. رأت سارلا في إحدى المرات هذه الطفلة بعينيها المميزتين فأسرعت إلى الاتصال بالمدير، لأنها تذكرت عينَي زوجة كريشنان عندما رأت عينَي الطفلة، وهكذا شعرت بأن هذه

الطفلة تناسبهما.

تاقت سارلا على الدوام للحصول على ابنة، أي رفيقة أنثى في هذا المنزل المليء بالرجال. لم يكن هذا يعني بطبيعة الحال أنها تستطيع الاستغناء عن أحد أبنائها، لكنها تمنّت في شبابها إنجاب ابنةٍ، ليس فقط لتتقاسم معها جواهرها، بل لتتقاسم معها دروس الحياة. تُعتبر حياة المرأة في الهند تجربةً مختلفةً كلياً. يعني ذلك أنه من المتعذّر دائماً رؤية القوة التي تختزنها المرأة، لكن هذه القوة موجودة وتتجلى في القوة التي تتمتع بها الأم في إدارة منزلها بحزم، وهي التي نراها في معظم العائلات. لم يكن من السهل بالنسبة إلى سارلا تفهّم مسار حياة الأنثى، ولم يكن لديها فتيات لتعليمهن مع أنها تمتعت بعد ذلك بمهارة كبيرة في هذا المجال. كانت تأمل أن تتمكن من تطوير علاقةٍ كهذه مع زوجات أبنائها، لكن مع الأخريات، من أمثال سومر، لم تكن قادرة على القيام بهذا الدور بالصورة المطلوبة. كانت زوجات أبنائها يعتمدن على أمهاتهن في تربية أولادهن، وهذا يعني أنها عادت مجدداً لتكون برفقة الرجال.

استغرقت سارلا في التأمل بينما كانت تتطلع نحو ساعة يدها متوقعة وصول كريشنان، وهذا يعني بأنها سوف تحصل في النهاية على الحفيدة التي تاقت إليها.

14

فصل الأمطار الموسمية

مومباي، الهند - 1985

سومر

استيقظت سومر في صباح يومها الأول في مومباي على ألم في معدتها. تقلبت إلى وضع مختلف، لكنها لم تشعر بتحسّن. شعرت بالغضب لأنها حاولت أن تَكون حذرة عندما تناولت العَشاء مع عائلة كريشنان في الليلة الفائتة، لكن كان من الواضح أنها لم تتمكن من تحمّل الأطعمة الحارة. لم يكن ذلك هو الشيء الوحيد الذي جعلها تشعر بأنها غريبة. تناول الآخرون طعامهم بأصابعهم في حين أنها طلبت، وبخجل، الحصول على شوكة. يُضاف إلى ذلك أنها لم تفهم سوى القليل من الأحاديث التي دارت على مائدة العشاء، وذلك لأن أقرباء كريشنان استخدموا لغة جوجاراتي. كان الأمر أشبه ما يكون بالتزلج والانتقال فجأة إلى مساحة عشبية. كانت مستبعَدةً كلياً عن الأحاديث بينما لم يكلّف كريشنان نفسه عناء الترجمة لها.

أقنعت سومر نفسها بأنه لا أهمية لكل ذلك، لأنها موجودة مع زوجها هنا لسببٍ وحيد، وهو الحصول على آشا واصطحابها إلى أميركا. إبقي على تركيزك، ولا تقلقي بشأن أيِ شيء آخر. كان من المقرّر أن يجريا مقابلة في مكتب التبنّي التابع للحكومة، وهي الخطوة الأخيرة لنيل الموافقة الرسمية. أحسّت سومر بمغصٍ مفاجئ في معدتها وهُرعت إلى الحمّام على الفور.

وصل الزوجان إلى مكتب التبنّي قبل الموعد المحدّد بعشر دقائق، لكنهما انتظرا أربعين دقيقة أخرى في المنطقة المخصّصة للانتظار. نظرت سومر إلى ساعتها ثم تطلعت على الساعة المعلقة فوق الباب.

«قال كريشنان: «لا تقلقي إنهم يعرفون أننا هنا. هكذا تجري الأمور هنا.

دخلا أخيراً مكتباً يفوح برائحة التبغ المزعجة وبرائحة العرق.

«أهلاً وسهلاً السيد والسيدة ثاكر». انحنى لهما الرجل الذي يرتدي قميصاً مصفرةً قصيرة الكمين وربطة عنقٍ قصيرة.

«أنتَ من هنا يا سيّد ثاكر. أليس كذلك؟».

«قال كريشنان: «أجل. نشأتُ في تشرش غايت، وحصلتُ على درجة بكالوريوس في خافيير.

آه، تشرش غايت. تسكن عمتي هناك». طرح الرجل سؤالاً بلغةٍ أخرى. هندي؟ أجابه كريشنان» باللغة ذاتها، ثم تجاذب الرجلان أطراف الحديث على هذا المنوال لفترة، لكن من دون أن تفهم سومر أي شيء منه. قلّب ذلك العامل الاجتماعي أوراق الملف المفتوح أمامه، وسدّد نظرةً طويلة نحو سومر، ثم عاد للتحدث مع كريشنان. قال الموظف بابتسامةٍ متكلفة: «وزوجتك. هل التقيتَ بها هناك في أميركا؟ .«إنها من كاليفورنيا، أليس كذلك؟

.سمعت سومر جواب كريشنان، لكن الكلمة الإنكليزية الوحيدة التي فهمتها كانت دكتورة

نظر الموظف الحكومي إلى الملف مجدداً، وقال كأنه يقرأ منه: «أليس لديكم أولاد؟» عاد مجدداً .«للنظر إلى سومر وقال: «أليس لديكم أطفال؟

شعرت سومر باحمرارٍ في خدّيها نتيجة الخجل المألوف في هذه البلاد حيث يبتهج الناس بخصوبة النساء، وحيث تحمل كل امرأة طفلاً فوق كل ردفٍ من ردفيها. هزّت رأسها، لكن الموظف الحكومي أبلغهما بعد أن تحدث قليلاً مع كريشنان بضرورة عودتهما في الصباح لأخذ معلومات جديدة عن .وضعهما. أمسك كريشنان ذراعها وتقدّمها إلى خارج المبنى

.«سارعت سومر إلى سؤاله ما إن أصبحا في الخارج: «ماذا سألك الرجل

قال لها: «لا شيء. إنها البيروقراطية الهندية. تجري كل الأمور هنا بهذه الطريقة». أشار كريس .إلى سيارة أجرة للتوقف

ماذا تعني بكلمة «بهذه الطريقة»؟ ماذا حدث في الداخل؟ انتظرنا ساعة، وكان من الواضح أن» .«!ذلك الرجل لم يقرأ ملفّنا، حتى إنه بالكاد تكلّم معي

.«...لم يتكلم لأنكِ»

.«ردت بحدة: «أنا ماذا؟

اسمعيني جيداً. تجري الأمور هنا بطريقة مختلفة. أعرف كيفية التعامل مع هذه المسألة. ثقي» .«...بي. لا يمكنكِ أن تفرضي أفكارك الأميركية هنا

.لم آتِ إلى هنا بأي أفكار». صفقت سومر باب سيارة الأجرة، وشعرت بأن السيارة تهتز بكاملها»

علمت سومر وكريس عندما عادا إلى المكتب الحكومي في اليوم التالي بأن تأخيراً قد حصل في عملية الموافقة على طلبهما، وهكذا عادت الشكوك لتسيطر عليها. حاولت سومر طرد هذه الشكوك من رأسها، لكنها ظلت تتردد في ذهنها مثل ما تحوم جحافل البعوض فوق ثمار المانغا الناضجة المعروضة فوق منصة الفاكهة في زاوية الشارع. دأب الزوجان على التوجه إلى المكتب الحكومي كل يوم، وأحياناً كانا يتوجهان إليه مرتين في اليوم وذلك في محاولةٍ للإسراع في إنهاء العملية. كانت كل زيارة تترك قدراً إضافياً من الإحباط في نفس سومر، وهي التي لاحظت النظرات التي يوجّهها الموظفون في المكتب نحوها، وأحسّت بشكوكهم تجاهها أثناء تقديرهم مدى صلاحيتها لتكون أماً، كما لاحظت التغيّر في .لهجتهم عندما يتحولون بالحديث إلى كريشنان بدلاً منها

حدث ذلك في فصل الأمطار الموسمية. بدأ المطر بالهطول زخاتٍ زخات إلى أن تحولت الطرقات

الضيقة إلى تيارات مائية مسرعة حاملة معها شتى أنواع الحطام. لم يسبق لسومر أن رأت أمطاراً كهذه، وكان ذلك من بين جملة الأشياء التي رأتها لأول مرة منذ قدومها إلى مومباي. كل ذلك كان بمثابة إهانة لحواسها: الروائح التي تغمرها فجأة، والحرارة الشديدة التي تكاد تتذوقها وتتجمع بكثافة، وكأنها الغبار فوق لسانها. لم يقتصر الأمر على شعورها بالعجز إزاء البيروقراطية الهندية، بل أتت زخات المطر الغزيرة، وأدّت إلى احتجازهما في شقة والدَي كريشنان.

كان هناك عدد كبير من الناس في تلك الشقة. كان من بين الحاضرين جدّا كريشنان، ووالداه، وشقيقاه مع زوجتيهما وأولادهم، وكان مجموعهم أربعة عشر شخصاً. وكان يسكن الشقة المقابلة عمّ كريشنان مع أسرته الكبيرة. كانت أبواب الشقّتين مفتوحة على الدوام وعادة ما تكون مفتوحة على مصراعيها، وهكذا تحولت الشقتان إلى قاعة معيشة فسيحة ومفتوحة والتي يجول فيها الناس بصورة مستمرة. كان أقرباء كريشنان في غاية اللطف والتهذيب، وكانوا يقدمون لها الشاي والهدايا الصغيرة، لكنها لاحظت بأنهم يتوقفون عن الكلام فور دخولها الغرفة. لم تشعر سومر بالارتياح بالرغم من الجهود التي بذلتها لتكون مرتاحة بينهم.

لكن بالإضافة إلى أفراد العائلة وجد عدد من الخادمات، واللاتي كانت واحدة من بينهن تنحني على الأرض وتتحرك من غرفةٍ إلى غرفة لكنس أرضية المنزل بواسطة حزمةٍ من القصب، بينما تأتي خادمة أخرى لتغسل الثياب بيديها في كل يومٍ ثَم تنشرها على الشرفة. يُضاف إلى هؤلاء الطباخ، وموظف البريد، وموزّع الصحف، والرجل المكلّف بإحضار الحليب، وذلك بالإضافة إلى آخرين. اعتادت سومر على سماع رنين الجرس مرات عدة في الساعة، وذلك إلى حد أنها اعتبرت ذلك الصوت جزءاً من الحياة اليومية المُجهدة في المنزل. تضارب واقع الهند هذا في ذهنها مع صورة الهند التي احتفظت بها طويلاً، وكذلك مع آمالها وتوقعاتها. كانت تتوق مع انتهاء كل يوم إلى فترات الراحة البسيطة التي تتمتع بها في وطنها الأم: طبق من الحبوب، وعلبة من الكوكاكولا الباردة، وإلى أمسية تقضيها مع زوجها لوحدهما.

أدركت سومر وهي تراقب هذا الرجل، الذي كانت تعتقد أنها تعرفه، أن هناك جزءاً فيه لا زال غريباً جداً عنها. ارتدى كريشنان العباءات الفضفاضة بيضاء اللون من الصباح وحتى الليل، كما شرب الشاي الممزوج بالحليب بدلاً من القهوة، وتناول وجباته بيديه وبكل مهارة. لم يظهر عليه كذلك بأنه متضايق من عدم غياب الخصوصية. استغربت سومر كذلك لأن هذا الشخص الذي بدا بأنه يستمتع بالازدحام الذي يشهده المنزل على الدوام، كان مختلفاً جداً عن ذلك الرجل الهادئ الذي عرفته في ستانفورد، والذي يعيش في غرفة نوم عادية لا تحتوي إلا على فراشٍ على الأرض وطاولة مستعملة. بدأت سومر بالتساؤل ما إذا كانت تعرف زوجها جيداً.

15

الانتصار

دهانو، الهند - 1985

كافيتا

أصدر الطفل أصوات غرغرة بينما كانت كافيتا تمسّد ساقَيه القصيرتين والسمينتين بزيت جوز الهند، وتشنّج ملوحاً بذراعيه في الهواء، وكأنه يرحّب بهذه العادة اليومية التي تقوم بها والدته. مسّدت كافيتا جسد وليدها الحساس. قامت أولاً بمدّ إحدى ساقَيه إلى أقصى حدٍّ ممكن، ثم انصرفت إلى الساق الثانية قبل تمسيد بطنه بخطوط دائرية هي أكبر من راحة يدها. كان ذلك هو الوقت الوحيد الذي تستمتع فيه برؤية كل جزءٍ مذهلٍ من جسده. لا تمل كافيتا من النظر إلى ابنها متفحصةً كل تفصيلٍ فيه: رموش عينيه الناعمة، والغمازات التي تظهر في مرفقيه وركبتيه. تستخدم كافيتا دلواً خشبياً في حمّام طفلها، وهي تقوم بسكب قليلٍ من الماء الدافئ على جسمه، كما تحرص على عدم دخول أي نقطةٍ في عينيه. أما عند انتهاء الحمّام وإلباسه ثيابه، فكانت والدتها تأتي لتخبرها بأن طعام العشاء أصبح جاهزاً. بقيت كافيتا في منزل والديها منذ ولادة ابنها، وكانت تستمتع بالتركيز على جسمه من دون أن تتعب نفسها في الأعمال المنزلية الروتينية.

انتقلت كافيتا إلى غرفة الاستقبال فرأت جاسو جالساً فيها بشعره الذي مشطّه ووضع عليه الزيت منذ وقت قصير. وقف، وابتسم ابتسامة عريضة لتحيّة زوجته وابنه. لاحظت بأنه جلب معه إكليلاً من الياسمين لتضعه على شعرها، ووضع الإكليل على الطاولة التي تفصل بينهما. لكن الهدية كانت علبة من الحلويات. اعتاد جاسو الحضور كل يوم على مدى أسبوعين تقريباً حاملاً لها شيئاً ما بيديه. سارت في ذلك اليوم نحوه، وذُهلت بابتسامته التي كانت واسعة مثل امتداد ذراعيه اللتين مدّهما كي يأخذ ابنه. قالت وهي تناول جاسو الطفل: «قل مرحباً لأبيك». حمل جاسو الطفل بحذر وبكل لطف لأنه لم يعتد على التصرّف مع الأطفال حديثي الولادة.

تناول جاسو طعام العشاء بنهم ودفع بلقمات كبيرة إلى فمه، وكان يبتلعها بسرعة منعته من تذوّقها. استنتجت كافيتا بأنه لا يتناول ما يكفي من الطعام في وجباته الأخرى، لكنه لم يضغط عليها بشأن العودة إلى المنزل. قال لها جاسو إنه يتوقع أن تمضي فترة الأربعين يوماً الأولى المعتادة مع والدتها. لكنها تعرف أن عدداً كبيراً من الأزواج لا يتمتعون بصبرٍ كهذا خلال تلك الفترة. فكّرت كافيتا بأن ابنهما الذي يحظى بحنان والده محظوظ، وأن حياة سعيدة ستكون بانتظاره. كانت تعرف أن الأقرباء سيجتمعون في اليوم التالي احتفالاً بتسمية الطفل. شعر الجميع بسعادةٍ غامرة مع ولادة ابنهما الأول، وأحضروا معهم الحلويات وملابس جديدة للطفل، وحليب الشمرة لتقوية حليبها. أمطرها الأقرباء بكل أنواع الهدايا التقليدية، وكأن هذا الطفل هو مولودها الأول وطفلها الأول. لكن ماذا بشأن المرات الأخرى

التي حملتَ فيها طفلا في أحشائي، والطفلتين اللتين أنجبتهما وحملتهما بين ذراعيّ؟

لكن أحداً لا يعترف بما حدث لها، ولا حتى جاسو، ولا أحد غيرها يشعر بهذا الفراغ المؤلم في قلبها نتيجة لما خسرته. لاحظت كافيتا، بالرغم من ذلك الفخر، في عينَي جاسو عندما حمل ابنه، ثم أجبرت نفسها على الابتسام بينما كانت تتلو دعاءها للطفل بصمت، وتمنّت لو أن باستطاعتها منحه الحياة التي يستحقها. صلّت كافيتا لتكون أماً صالحة لابنها، وصلّت كذلك ليبقى له ما يكفي في قلبها من حنان الأم، ودعت لأن لا يموت هذا الحنان مع بناتها.

ضجّ المنزل في صباح اليوم التالي بالحركة والنشاط. استيقظت والدة كافيتا كي تقليَ الجلابيس، وهي الحلويات اللزجة والشهية التي تقدّم عادة في مثل هذه المناسبات. وصل الأقرباء بعضهم وراء بعض، وتقدم كل واحدٍ منهم من كافيتا وجاسو لتقديم التهاني والهدايا لهما. لكن عندما وصل والدا جاسو انتحيا بكافيتا جانباً وناولاها رزمة ملفوفة بورقةٍ بنيّة اللون، ومربوطة بخيطٍ متين.

قالت والدة جاسو: «هذا ثوبٌ جديد للطفل ليرتديه في يوم تسميته». ابتسمت ابتسامة عريضة بحيث بان بعض الفراغ في صف أضراسها. فتحت كافيتا الرزمة بكل عناية، وأخرجت منها ثوباً حريرياً كستنائي اللون ومطرزاً بخيطٍ ذهبي. كان الثوب مؤلفاً من سترة باللون الأصفر الشاحب، ومن زوج من الأحذية الصغيرة والمستدقة باللون العاجي. مسّدت كافيتا بيديها قماش الثوب الناعم. كان الثوب منسوجاً من الحرير الطبيعي ومطرزاً باليد. وكان جميلاً وغير عملي للحياة اليومية، وترفاً لا يقدر عليه والدا جاسو بسهولة. رفعت كافيتا نظرها كي تشكر والدة زوجها فرأت الفخر في عينَي المرأة المسنّة. قالت والدة جاسو وهي تعانقها بحرارة وعفوية: «إننا سعداء جداً يا ابنتي، وليمد الله بعمره، ويجلب لك سعادة كثيرة».

شكراً لك يا سيدتي. أنا ذاهبة لألبسه هذا الثوب على الفور». لا تتذكر كافيتا بأنها تلقت عرضاً سخياً كهذا من والدة زوجها من قبل. شعرت أن خدّيها تورّدا خجلاً، وشعرت أن صدرها يزداد صلابة عندما استدارت لتغادر الغرفة. شقّت طريقها بين الضيوف الذين كانوا يشربون الشاي وينظرون بإعجاب إلى الطفل. كان الإحساس الوحيد الذي شعرت به خلال تلك الأسابيع التي كانت مع ابنها لوحدها هو الحب. لكن الآن، ومع هذا التملق الشديد الذي يبديه الآخرون، فقد شعرتْ ببعض الغيرة لأن هذا الاحتفال المخجل على شرفه ملأ فمها بمذاقٍ مرٍّ.

تجمّع نحو أربعة وعشرون شخصاً من الأقرباء بعد وصول الباندیت [الكاهن] إلى غرفة الاستقبال المزدحمة. جلس جاسو وكافيتا في مكانيهما على الأرض بالقرب من الباندیت، بينما أجلس جاسو الطفل في حضنه. أشعل الباندیت نار الاحتفال، وبدأ بتلاوة صلواته إلى آغني سيّد النار المقدّس لكي يطهّر المراسم التي ستجري. بدأ بالابتهال، واستحضار أرواح الأجداد طالباً منهم مباركة هذا الطفل وحمايته. كان صوت الكاهن يبعث على الاطمئنان. نظرت كافيتا إلى ألسنة اللهب بكل تركيز، فتذكرت الدرجات الحجرية التي كانت تتلو فوقها ابتهالاتها الصباحية. امتزجت رائحة البخور التي ارتفعت في الهواء مع رائحة الشراب فأغمضت عينيها. رأت في ذهنها صوراً عديدة، مثل وجه دايجي بين ركبتيها، والأحرف الحمراء للوحة المثبتة على الباب، وصوت البوابة الحديدية في دار رعاية الأيتام.

سمعتْ صوت الكاهن وهو يسأل من مكانٍ بعيد: ما هو تاريخ ووقت ولادة الطفل بالضبط؟» أجاب جاسو الكاهن الذي التفت إلى رسوماته الفلكية كي يحدّد برجه. شعرت كافيتا بالتوتر يزداد في جسدها. تحدّد هذه القراءة كل شيء في حياة ابنها: صحته، ونجاحه، وزواجه، كما تحدد هذه القراءة اسمه في

هذا اليوم. تطلع الكاهن نحو شقيقة جاسو بعد أن تفحص رسوماته الفلكية لفترة، وهي التي كانت تجلس بقربه وقال لها: «اختاري اسماً يبدأ بحرف ف». تحولت أنظار الموجودين في الغرفة نحو هذه الشقيقة التي فكّرت للحظة، وما لبثت أن رسمت ابتسامة على وجهها، ثم انحنت نحو أذن الطفل لتهمس له بالاسم الذي اختارته له.

قالت بوجهٍ متهلل: «فيجاي». التفت جاسو نحو الحاضرين، ورفع ابنه كي يراه الجميع. أومأ الكاهن موافقاً في حين عبّر الحاضرون عن ترحيبهم بأن ردّدوا الاسم بعضهم لبعض. سمعت كافيتا من مكانٍ ما وسط جلبة الحضور صراخ رضيع. تطلعت نحو ابنها الذي كان نائماً، ثم جالت بنظرها حول الغرفة في محاولة منها معرفة مصدر الصراخ، لكنها لم ترَ أي طفلٍ صغير. وضع جاسو الطفل في مهدٍ مزينٍ بأكاليل الأذريون ذات اللون البرتقالي الساطع، والأقحوان [الأضاليا] بألوانها الحمراء والبيضاء، وبدأ بهزّ المهد من جهةٍ إلى جهة. أسرعت النساء الأخريات إلى التقدّم والإحاطة بهما. تردّدت أصوات الغناء، لكن تلك الأصوات عجزت عن حجب الصراخ الحاد التي استمرت في سماعه. لكنها في هذه اللحظة بالذات كانت منذهلة بالفكرة المقلقة التي توحي بأن كل شيء في حياة ابنها قد يكون من نوع الحلو - المر.

تطلعت كافيتا في وجه فيجاي لتقرّر ما إذا كان اسمه الجديد يناسبه. كان هذا الاسم يعني النصر.

16

إهانة

مومباي، الهند - 1985

سومر

استيقظت سومر من النوم على وقع طرقةٍ خفيفة على الباب. سمعت بعد ذلك كريشنان متمتماً بشيء ما، وما لبثت أن سمعت الباب وهو ينفتح، ووقع خطواتٍ فوق أرضٍ الغرفة. رأت بعينين نصف مغمضتين أحد الخدم العاملين داخل المنزل. سار الخادم نحو سريرهما حاملاً معه صينية. ماذا يفعل هذا الخادم هنا قبل استيقاظنا من النوم؟ لاحظت سومر أن ثوب نومها شفافٌ بعض الشيء، ولذلك سارعت إلى تغطية نفسها بغطاء السرير، وانتظرت من كريشنان أن يصرف الرجل من الغرفة. لكن زوجها جلس فوق السرير واضعاً وسادةً وراءه، وما لبث أن تناول فنجاناً من الشاي من الصينية.

سأله: «أتريدين بعض الشاي؟».

ماذا؟ كلا». استدارت سومر وأغمضت عينيها. سمعت بعد ذلك قرقعة الخزَف الصيني وملعقة،» وسمعت كذلك تبادل كلماتٍ قليلة بين الرجلين، ووقع خطوات قبل انغلاق الباب.

قال كريشنان: «يُعتبر تناول الشاي في السرير واحداً من أعظم مسرات الحياة الهندية. يتعيّن عليك أن تجربيه في يومٍ من الأيام».

غطّت سومر وجهها بوسادتها. ألا يوجد أي شيء منطقي في هذا المكان؟ هل بقيت أي جهة في حياتنا ليست معرضة لتطفل أفراد عائلتك أو خدمك؟ لكنها لم تنطق بهذه الكلمات، وقالت: «ماذا سنفعل اليوم؟» كانت تعرف أن يوم الأحد هو يوم عطلة رسمية، أي أن أبواب المكتب الحكومي مغلقة.

اتصل بي بعض أصدقائي لدعوتي إلى مشاركتهم لعبة الكريكيت، هذا إذا لم يكن لديك مانع.» أعرف أن لعبي سيئ، لكن من الجيّد أن أتمكّن من رؤية أصدقائي من أيام الدراسة الثانوية، وهم الذين لم أرَ بعضهم منذ عشر سنوات. تستطيع والدتي اصطحابك للتسوّق، أو لعمل أي شيء آخر تريدينه».

وقفت سومر على الشرفة المطلة على مياه المحيط الهادئة، والتي غطت موجاتها الرمادية جانباً من الطريق المرصوف بالألواح الخشبية، والمخصّصة للمشي بالقرب من الشاطئ. كان الجو حاراً ورطباً، لكنه شكّل انفراجاً عن الطقس الممطر الذي ساد في الأيام السابقة. اختار كريشنان في أول يوم من الطقس المشمس منذ أسابيع أن يمضي النهار لوحده، وشعرت سومر بأنها سوف تختنق بفكرة البقاء داخل المنزل مجدداً في هذا اليوم، كما شعرت باختناق أكبر نتيجة فكرة تمضية النهار مع والدته.

قررت سومر أن تقوم بنزهة لوحدها، وذلك كي تخفف الضغط الشديد الذي تشعر به في المنزل.

خرجت سومر، وسارت بمحاذاة بوابات المبنى العالية بعيداً عن نظرات المراقبة التي سدّدها الحارث نحوها، وهو الأمر الذي أعطاها شعوراً بالحرية. كانت محطة تشرش غايت في نهاية الشارع، كما كان في الزاوية المقابلة لها محل لبيع الشطائر مع لوحة تعلن عن شطائر لحم. كانت فكرة تناول شطائر من اللحم بعد مضي أسبوعين على تناول الطعام الهندي فكرةً مغرية جداً. اقتربت من واجهة الطلبات وقالت: «أريد شطيرتَي لحم مع الجبن». أرادت أن تأكل شطيرة واحدة على الفور وأن تُبقي الأخرى لوقتٍ آخر، وهكذا تتجنب روتين الكاري والأرز.

«لا يوجد عندنا لحم بقر يا سيدتي، لكننا نبيع شطائر لحم الضأن».

«ضأن؟».

«أجل. إنها لذيذة جداً يا سيدتي. أؤكد لكِ أنك ستحبينها».

تنهدت قليلاً ثم قالت: «حسناً. إذاً أعطني شطيرتين من لحم الضأن من فضلك».

كان طعم هذه الشطيرة مختلفاً جداً عمّا تعودت عليه، لكن كان على سومر أن تعترف بأن مذاقها لذيذ. أحسّت بالشبع وتوجّهت بعد ذلك نحو الطريق الخشبي المحاذي لساحل المحيط، وهو الطريق الذي يزدحم بالمشاة والبائعين والمتنزهين في هذا الوقت. كان الرجال يمشون على شكل جماعات، وكانوا يتضاحكون ويمضغون البان ويبصقون على الطريق. لاحظتْ سومر أن رجلاً مشوراً نظر إليها، وحدّق نحو صدرها بصفافة، وأشار لأصدقائه نحوها. غطت سومر صدرها بذراعيها بحركةٍ عفوية، وهي الحركة التي أضحكت الرجال. يا للخنازير المقرفين.

سارت سومر محاولةً أن تتنفس بعمق، وأن تنظر إلى الماء، لكن عينيها عادتا تكراراً لتنظرا إلى حشود الناس الذين تضطر لأن تشق طريقها من بينهم. توقعت أن يتنحى الرجال جانباً ليسمحوا لها بالمرور، ولإفساح المجال لها كي تمشي بين حشود الناس، لكنهم لم يفعلوا ذلك. كانت تضطر في كل مرة لأن تشق طريقها بالقوة بينهم، وأن تحشر جسمها بين الآخرين. شعرت سومر وهي تشق طريقها بين مجموعة لم تفسح لها الطريق بأن جسداً ما يضغط على ردفيها، وكذلك بيدٍ تضغط على ثديها. استدارت على الفور ورأت شابين مستغرقين بالضحك، بينما أخذ أحدهما بتحريك شفتيه وكأنه يقبّلها بينما ظهرت أسنانه المصفرّة.

شعرت سومر بالرعب وبتصلّب في حنجرتها عندما تابعت طريقها بين الحشد باحثةً عن طريق للخروج. كانت الجادة البحرية تزدحم بستة خطوطٍ للسيارات التي لا يبدو بأنها ستتوقف على الإطلاق، وهكذا بدأت سومر في اجتياز الطريق تدريجياً بينما كانت أبواق السيارات تزعق في وجهها وتكاد أن تصطدم بها. سارت بأقصى سرعة بعد ذلك على جوانب الطرقات متجهة نحو المنزل. لكن ما إن تلاشى خوفها حتى حلّ مكانه الغضب والسخط الشديدين. إنهم رجالٌ معتوهون.

أرادت أن تتحدث مع زوجها على الفور، لكنه كان خارج المنزل عند وصولها، شعرت بالارتياح لأن الجميع كانوا نائمين، وهكذا وضعت ما تبقى من شطيرتيها داخل الثلاجة، وانسحبت إلى غرفتهما. ملأت سومر دلوين من المياه في الحمام، وغسلت كل بوصة من جسمها بكل عناية قبل أن ترتدي ثياب النوم النظيفة، وتستلقي على السرير منتظرةً وصول كريس.

استيقظت سومر على وقع أصوات قرقعةٍ شديدة خارج غرفة النوم. تطلعت إلى ساعة يدها، فأدركت أن ساعات عدة قد مضت منذ وصولها إلى المنزل. تمكّنت بعد ذلك من تمييز صوت كريس بين الأصوات العالية في الخارج. خرجت إلى الممر، وما لبثت والدة كريس أن مرّت بالقرب منها من دون أن تحيّيها. مشت سومر نحو غرفة المعيشة حيث شاهدت كريس وهو يتجادل مع أحد الخدم. كانت الشرفة في الخارج مليئة بمختلف أنواع الأواني المطبخية مثل القدور، والمقالي، وأواني الطبخ، والأطباق، والفناجين، كما رأت خادمة أخرى منهمكة في تنظيف كل واحدة منها. تابعت سومر طريقها نحو المطبخ، فرأت خادمة ثالثة منشغلة في رمي محتويات أوانٍ من الطحين والأرز، والحبوب، في القمامة. راقبت سومر مشدوهة الخادمة وهي تفرغ محتويات أطباقٍ بأكملها من البهارات، وكان عددها على الأقل دزينتين من الأواني الفولاذية الصغيرة.

«قالت سومر: «ماذا يجري يا كريس؟.

استدار كريس، وكان وجهه مجعَّدا من فرط الغضب. أمسكها من ذراعها من دون أن يقول كلمة واحدة وسار بها إلى غرفة نومهما، ثم أغلق الباب. قال لها: «بماذا كنتِ تفكرين؟».

«ماذا تعني؟» شعرت بأن ضربات قلبها تتسارع.

«بماذا كنتِ تفكرين بحق السماء عندما أحضرتِ اللحم إلى هذا المنزل؟ أنتِ تعرفين بأن والديّ نباتيين تماماً، لكنك لوّثت المطبخ بأكمله».

«...أنا... أنا آسفة. لم أعتقد».

كادت أمي أن تصاب بذبحةٍ قلبية، وهي أرادت رميَ كل طبقٍ ووعاء، لكنني أقنعتها بأن هذه الآنية يُمكن تعقيمها».

«...ردّت عليه قائلة: «كريس، لم أعرف. سأساعد على التنظيف».

«أمسكها كريس من ذراعها: «كلا، لقد فعلتِ ما يكفي. لا تفعلي أي شيء.

إنني آسفة. لم أكن أعرف». عادت للجلوس وشرعت بالبكاء.

«ماذا تعنين بأنك لم تكوني تعرفين؟ هل أنتِ منعزلة عمّا يجري من حولك؟ سبق لي أن قلت لك إنهما نباتيان. هل قمنا بطبخ اللحم عندما حضرا لزيارتنا؟ هل رأيتِ أي قطعة لحم على موائد هذا المنزل؟» هزّ كريس رأسه باستياء.

«قالت سومر بعد أن وقفت: «يتعيّن عليّ الذهاب للاعتذار من والدتك».

«قال كريس: «أجل، يجب عليك أن تعتذري».

رأت سومر والدة كريس في إحدى غرف النوم وكانت تجلس مع زوجة شقيق كريس فوق سريرٍ مغطى بعدة قطعٍ من الحرير بألوانٍ متعددة. طرقت بنعومة على الباب المفتوح وقالت: «مرحباً. أيمكنني الدخول؟».

«ردّت والدة كريس من دون أن تتحرك: «أجل يا سومر.

جلست سومر على طرف السرير، ومرّرت يدها فوق كومةٍ من الحرير الأحمر.

إننا نقوم باختيار الأثواب الحريرية المناسبة لحفل زفاف أحد زملاء الدكتور ثاكر، والذي سوف» يُقام في عطلة نهاية هذا الأسبوع«.

حسناً. أتيت لأعتذر لكِ بسبب... مطبخكِ. لم أكن أدرك... لم أقصد الإهانة، وأنا آسفة جداً«.

أومأت والدة كريس برأسها من جهة إلى جهة، وقالت: «ما حدث قد حدث. دعينا نضع ذلك جانباً«.

أخذت سومر نفساً عميقاً، وقالت: «أعتقد بأنني لم أفكّر بالأمر. كنت متوترة قليلاً. خرجتُ في نزهة وتعرّضت إلى تجربة قاسية. لمسَني رجلٌ أو رجلان، لست متأكدة، وذلك عندما كنت أسير على الطريق الخشبي». قوّست والدة زوجها حاجبيها وحدّقت فيها. «لمسني الرجلان». تابعت سومر حديثها، وأشارت إلى صدرها. «بطريقة غير لائقة». زفرت سومر وانتظرت أن يفهما الموقف.

تكلمت زوجة شقيق كريس للمرة الأولى: «هل سمح لكِ كريشنان بالخروج لوحدك؟«.

أجل، حسناً. لم يسمح لي بالضبط، لأنه كان يشارك في لعبة الكريكيت، وهكذا خرجت في نزهة«.

قالت والدة كريس: «كلا، بالطبع. إنه لا يفعل شيئاً كهذا، وهو لا يرتكب هذه الهفوة». التفتت بعد ذلك إلى سومر. «ليس من اللائق للنسوة من أمثالك السير لوحدهن. كان من الأفضل أن لا تذهبي من دون أحدنا، وذلك من أجل سلامتك«.

سألت سومر: «نسوة من أمثالي؟«.

أعني نساءً أجنبيات، أضف إلى ذلك أن ساقيك وذراعيك عارية، وشعرك أشقر، وكل ذلك» يستدعي المشاكل». هزّت رأسها بشدة مع نظرة استياء.

تذكرت سومر تنورتها التي يصل طولها إلى وسط ركبتها، والقميص قصير الكمين، واللذين ارتدتهما هذا الصباح. ليسا لائقَين. «أنا... سأتذكر هذا في المرة القادمة». كتّفت ذراعيها، ثم وقفت وقالت: «آسفة لمقاطعتي لكما». سارت بسرعة في الممر نحو غرفة نومهما، وأقفلت الباب خلفها. حاولت سومر مقاومة استيائها المتزايد تجاه هذا البلد، وهو الشعور بأن كل شيء ملوّث هنا: عملية التبنّي التي تعرّضت للتحيّز، والقواعد المجتمعية غير الشفافة، والطقس القاسي، وكل هذا مرتبط بالهند ككل. توقعت سومر في البداية أن تشعر وكأنها في منزلها بين أسرة كريشنان، بحيث لا تشعر أنها غريبة كلياً عن المكان. هل هذا هو ما أشعر به بين أسرتي، أي كأنني غريبة؟ لكن كريشنان وآشا سيكونان متشابهين، وهما يتشاركان في العوامل الوراثية. ستكون ابنتها من هذا البلد على الدوام، وهو الأمر الذي يجعلها غريبة عنهما. بحثت سومر في حقيبة سفرها عن ثياب تريحها والتي لم تلبسها منذ نزولها من الطائرة، وارتدتها بالرغم من الحرّ الشديد فوق رداء نومها.

17

ارتباط مسبق

مومباي، الهند - 1985

كريشنان

صعد كريشنان الدرج المؤدي إلى شقة عائلته تاركاً وراءه آثار قطرات المياه على الدرج الذي فضّل صعوده بدلاً من انتظار المصعد. لم تُبدِ سومر قدراً كبيراً من الاحتجاج عندما اقترح زوجها في هذا الصباح الذهاب إلى المكتب الحكومي لوحده، وقال إن هذا قد يكون أفضل فرصةٍ لهما لإنهاء عملية التبنّي. دخل كريشنان الشقة فوجد زوجته وحدها في غرفتهما. كانت تراقب المطر المنهمر من خلال زجاج النافذة جالسةً على السرير وقد أحاطت ركبتيها بذراعيها. لم تلحظ سومر وجوده إلا حين وقف أمامها مبللاً من قمة رأسه حتى أخمص قدميه. تبلّل خدّاها بقطرات الماء عندما تطلعت إلى الأعلى. قال لها: «أحمل لك خبراً ساراً». ذرف الزوجان دموع الفرح والارتياح والإرهاق، لكنهما قرّرا الخروج، وتناول طعام العشاء في فندق تاج محل.

لم تكد زجاجة الشراب تصل إلى منتصفها حتى شعرت سومر بما يشبه النشوة، وبدأت في الإعراب عن شكواها وذلك للمرة الأولى منذ وصولها إلى الهند. اعترفت سومر أنها تشعر بالإحباط نتيجة تعقيدات عملية التبنّي، وقالت إنها تشعر وكأنها أجنبية وغريبة، بالإضافة إلى شعورها بالعزلة تجاهه وتجاه أسرته. أصغى كريشنان، وأومأ ثم سكب لنفسه مزيداً من الشراب، وما لبث أن طلب شراباً اسكتلندياً، ثم كرّر طلبه هذا. سبق أن شعر كريشنان بالقلق إزاء مسألة تآلف سومر مع الحياة في الهند، لكن الأمر كان أسوأ مما توقع بكثير. أجبر كريس نفسه على الإصغاء. لم تلمه سومر، إلا أنه شعر بثقل الذنب الذي يتحمّله. لقد أدرك منذ وقتٍ طويل أن هذا النوع من الحساب سيأتي في يومٍ من الأيام.

تجنّب كريشنان أثناء دراسته في كلية الطب، وحتى قبل أن تصبح علاقته مع سومر جدية، إخبار أسرته عنها. ولم يسبق لعائلته أن سألته عمّا إذا كانت لديه صديقة، وذلك لأنه لم يكن من المتوقع أن تكون له أي اهتمامات خارج الدراسة، دعك من الاهتمامات العاطفية. كان كريس يأمل بأنه مع الانتظار والصبر يستطيع تحضير سومر للقاء أسرته، كما رغب في تعليمها بضع كلمات من الجوجاراتي، وتعريفها إلى الطعام. لكنه لم يخبرها الكثير في واقع الأمر عن حياته عندما كان في الهند. كانت سومر أميركية قلباً وقالباً، كما أنه لم يكن متأكداً من وقع أخبار العيش وسط أسرةٍ كبيرة، أو الاعتياد على طيور الحمام عند طيرانها إلى غرفة المعيشة من خلال النوافذ التي تبقى مفتوحة طوال فصل الصيف. كان ذلك الحب الجديد والوله شديدَي التأثير فيه، لذلك لم يرغب في المخاطرة بإفسادهما. كان التقريب بين مجالَي حياته يتطلب تصميماً مركّزاً، وقدراً أكبر من الشجاعة من تلك التي تصورها عندما كان في

الخامسة والعشرين من عمره. تبيّن له أن بقاء هذين المجالين منفصلين يتطلب قدراً ضئيلاً من الجهد.

أمِلَ كريشنان أن يلقى مساندةً من والديه، لكنه قرّر أن يختار سومر، هذا إذا تحتّم عليه الاختيار ما بين موافقتهما والزواج منها. كان كريس واقعاً في حبها بطريقة لم يتصورها مع أي امرأة أخرى يختارها له والداه لتكون زوجته. كانت سومر شريكته الفكرية، كما أنهما عاشا تجارب معاً. كان هذا النوع من العلاقات يُعتبر غريباً في الهند، هذا إذا لم يكن مستحيلاً. اختار كريشنان الحياة في أميركا، ورغب في اعتناقها بالكامل. واعتبر أن ذوبانه في حياة زوجته هو أسهل له ولسومر. لكن تبيّن له في ذلك الوقت أنه أساء إليها، كما اتضح له أن المظاهر السطحية لا تستطيع أن تحلّ محل واقع أنهما من عالمَين مختلفين كلياً.

لم تحمل هذه المرأة الماثلة أمامه الآن سوى شبهاً بسيطاً مع طالبة الطب الواثقة من نفسها التي التقاها في بداية دراسته. أدى إجهاضها مرتين، وعقمها، وإجراءات التبنّي، والآن الهند، إلى تسديد ضربة لثقتها في نفسها. لكنه عرف بأن تلك المرأة لا زالت هناك في مكانٍ ما، وواجبه يقضي عليه أن يعيد إليها هذه الثقة.

قال لها: «كانت هذه الإجراءات بمثابة دوامة عاطفية بالنسبة إلينا. يُضاف إلى ذلك أن الهند هي مكان صعب بالنسبة إلى الغربيين. لكن كل ذلك سوف ينتهي قريباً، وسنعود إلى أميركا لنبدأ حياتنا معاً كأسرة واحدة». ابتسم قبل أن يُكمل: «ألا يستحق الأمر كل هذا العناء؟».

زفرت سومر وأومأت برأسها. «لا يمكنني التفكير بشيء أفضل من هذا. تعبت لأنني لا أعرف ماذا أتوقع في هذا البلد. لا أشعر أنني أنا ذاتي بعد الآن. أريد العودة إلى منزلنا وإلى حياتنا. أريد أن أنسى كل هذا».

كان يكره أن يراها مجروحة هكذا. شعر بالإحباط لأن بلده وأسرته سبّبا لها كل هذا الإزعاج، كما شعر بالذنب لأنه لم يحضّرها، أو يدافع عنها بما يكفي، لذلك قال لها ما يعتقد أنه واجبه لإنقاذ زوجته وزواجه. لم يكن هناك من حاجة للعودة إلى الهند في وقتٍ قريب، كما رغبا في بذل كل جهودهما في بناء أسرتهما وحياتهما في أميركا. افترض كريس مع الوقت أن الأمور سوف تكون أفضل بكثير.

اتجهت سيارة الأجرة نحو البناء الإسمنتي بطلائه المتقشّر وبوابته الحديدية الصدئة. أمسكت سومر ذراعه وهمست له: «لم يظهر البناء بهذا السوء في الصور».

هيا بنا». طوقها بذراعه، وسارا نحو البوابة الأمامية فسمعا أصوات الأولاد الذين كانوا يلعبون» في الباحة الداخلية للبناء.

التقتهما ريما في الخارج، وهي مندوبة وكالة التبنّي الهندية التي يتعاملان معها. حيّتهما المندوبة بابتسامة وبيدين متشابكتين: «أهلاً بكما ومرحباً. أعرف أنكما انتظرتما هذا اليوم طويلاً جداً. هيا بنا ندخل». قادتهما ريما إلى داخل المبنى. نظر كريشنان نحو سومر التي أشرقت بابتسامة عريضة، وكأن الكاميرات بانتظارها على الجانب الآخر من الباب. استقبلهما حشدٌ من الأطفال حفاة الأقدام في الداخل، وكانوا بأحجامٍ مختلفة، كما تجمّعوا كلهم حول سومر. كان من الواضح بأنهم لم يروا من قبل شخصاً من البيض.

«مرحباً يا سيّدة!».

«هل جئتِ من أميركا يا سيّدة؟».

«هل تتكلمين الإنكليزية يا سيّدة؟ ...».

مدّ الأطفال أيديهم ليلمسوا بشرة ذراعيها المشرقة، ولمسِ قماش قميصها من نوع الجيرسي. كان الأطفال يرتدون ملابس رقيقة، لكنهم كانوا يبتسمون ابتِسامات مشرقة. تقدمت ريما سومر وكريشنان أثناء سيرهما بين صفوف الأطفال إلى أن وصلا إلى مكتب صغير، وهناك وقفت بانتظارهم امرأة بدينة في منتصف العمر، كما شبكت يديها في مقدمة ثوبها الطويل.

قالت المرأة بعد أن انحنت قليلاً: «أهلاً ومرحباً. أنا مساعدة المدير. لم يتمكن السيّد ديشباندي من التواجد هنا في هذا اليوم السعيد، لكنه يبعث إليكم بأطيب تمنياته. يبقى عليكم توقيع آخر الأوراق المتعلقة بالإجراءات. سأجلب طفلتكما بعد ذلك».

جلست سومر في أحد المقعدين، ثم أخذت حاملة الأوراق من المرأة. لفت نظرها شيء ما في أعلى الورقة. سألت: «أوشا؟ تحمل هذه الورقة اسم أوشا. لكن أليس اسمها آشا؟».

أجابت مساعدة المدير: «كلا يا سيدتي. اسمها أوشا. هذا هو الاسم الذي نطلقه عليها هنا، لكن بإمكانك تسميتها كما تريدين بطبيعة الحال».

اعتقدنا... اعتقدنا أن اسمها آشا. هذا هو الاسم الذي أطلقناه عليها طيلة هذا الوقت». تطلعت سومر نحو كريشنان مستنجدة به.

قلّبت ريما الأوراق الموجودة في المظروف البنّي، ثم قالت: «أجل، لدينا اسم آشا، كذلك على كل هذه الأوراق. أعتقد أنه كان هناك خطأ ما خلال الإجراءات، ويحتمل بأنه ناتج عن قراءة خاطئة لخطّ أحدهم. لكن لا تقلقوا. لم يحدث شيء. يمكنكم مناداتها آشا، وسوف تتعرّف على اسمها في وقتٍ قصير».

وقف كريس وراء سومر، ووضع يديه على كتفيها وقال: «لا يهم يا حبيبتي لأنها لن تلاحظ الفرق. لا تقلقي بهذا الشأن».

هزّت سومر رأسها: «أريد أن أرى، ولو شيئاً واحداً، يجري في هذا البلد كما هو مفترض». أرجعتْ حاملة الأوراق، وأخذت نَفساً عميقاً. «لا تقلقي، إننا جاهزون». أومأت مساعدة المدير وغادرت المكتب.

عادت مساعدة المدير إلى المكتب حاملة الطفلة معها، فوقف جميع الحاضرين في المكتب على الفور. كان كريشنان هو الأقرب إليها ولذلك أسرع نحوها. حملَ الطفلة بسهولة فوق ذراعيه وما لبثت أن بدأت بالعبث بنظارته. «مرحباً أيها الفتاة الحلوة. مرحباً آشا». تكلّم كريس ببطء، وبكل رقة، وقام بإسناد رأسها على ذراعه، لكنها انتقلت لتقرص شحمتَي أذنه. اقتربت سومر من زوجها، وما لبث الثلاثة أن تعانقوا. مدّت ذراعيها لتحمل آشا، لكن الطفلة استدارت وتعلّقت برقبة كريس مثل ما يفعل صغير الكاولا.

قالت مساعدة المدير: «أرأيتما، ليس هناك ما يدعو إلى القلق. إنها متعلقة بكما كثيراً».

18

الأجراس الفضية

مومباي، الهند - 1985

سارلا

اقتربت سارلا لتلمس خدّ الطفلة: «يا لهذه الطفلة الجميلة. مرحباً، يا آشا الحلوة. إنها واعية، وفضولية كذلك. أنظروا كيف تنظر حولها. يا لطفلتي الحلوة؟» ابتسمت سارلا في وجه الطفلة بصورة مبالغ فيها، وأضافت: «إذاً كيف جرت الأمور؟».

كان يوماً طويلاً». توقف كريشنان لشرب الشاي. «كانت هناك أوراق كثيرة من دار رعاية الأيتام، والمحكمة، ومكتب الحكومة. سوف ننام باكراً هذه الليلة».

بالطبع. يبدو أن الأمر كان متعباً لكما». أدارت سارلا رأسها من جهةٍ إلى جهة محاولةً التوفيق بين إيماءة الموافقة وعدم الموافقة. «شكراً لله لأننا موجودون هنا كي نساعدكما. سيكون طعام العشاء جاهزاً بعد قليل». التفتت بعد ذلك نحو سومر التي كانت تحمل آشا وقالت: «ماذا تحتاجين لآشا؟ هل تحتاجين إلى سرير وبعض المناشف؟ تعالي». وقف الجميع، وما لبثت سارلا أن وضعت ذراعها فوق ظهر زوجة ابنها الشابة وتقدمتها نحو الممر. لاحظت سارلا أن زوجة ابنها مترددة، وغير واثقة من نفسها. كانت تستخدم ذراعيها لحمل الطفلة، وكانت مترددة في تركها حتى لارتشاف الشاي من كوبها. لا يعني ذلك أن هذا الأمر غريب بطبيعة الحال، وذلك لأن معظم الأمهات الجديدات لا يعرفن ماذا يفعلن، لكنهن يمتلكن فرصة للتعلم مع الوقت. أكملت آشا عامها الأول، ولن يمرّ وقت طويل قبل أن تبدأ بالمشي، وهذا يفرض عليها اكتساب الثقة وخبرات الأم بسرعة.

كانت سارلا في الثانية والعشرين من عمرها عندما عادت مع كريشنان من المستشفى، وكانت لا تزال عروساً جديدة، وكانت تقول على الدوام إن ابنها تربّى على يد مجموعة من الأمهات. كانت ترى حولها، ومنذ اليوم الأول، امرأة ما تعطيها نصيحة عن كيفية القيام بأي شيء، وذلك بدءاً من تنظيف أنفه الصغير، أو إلباسه استعداداً للنوم. لم تشعر سارلا أنها وحيدة طوال الأشهر الستة الأولى لأن والدتها وشقيقتها والخادمة، وبالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الجيران، كانوا إلى جانبها باستمرار. كانت سارلا تتضايق في بعض الأحيان من كثرة الذين يريدون مساعدتها على العناية بطفلها، لكنها كانت تعلم أنها محظوظة، وحتى إن هذا الانزعاج من تدخل الآخرين كان ترفاً لا تتمتع به الأمهات الجديدات من أمثال سومر. علمت سارلا أنه جرت العادة في أميركا على إعادة الأمهات الجديدات من المستشفى إلى بيوتهن بعد مرور أيام قليلة فقط، وذلك من دون وجود أي نظام لمساعدتهن.

نادت سارلا من الحمام: «سومر، سأجلب بعض الماء الفاتر من أجل حمّامٍ آشا... تحسّسي هذا من فضلك. هل هذه درجة حرارة مناسبة؟ حسناً، امتلأ الحوض. خذي منشفةً وبعض بودرة الأطفال». كانت سارلا على وشك المغادرة عندما لاحظت علامات التوجس على وجه سومر، وقالت: «أتمانعين من بقائي خلال استحمامها؟ مضى وقت طويل على عناية سيدة مسنة مثلي بطفل صغير. سأستمتع بذلك كثيراً».

ظهر الارتياح الشديد على وجه سومر. «آه بالطبع. ابقَي من فضلك. إنني بحاجة إلى مساعدة». عملت المرأتان معاً طوال ثلاثين دقيقة على إعطاء آشا حمّامها وتجفيف المياه عن جسمها، ووضع بعض المستحضرات، وإلباسها في نهاية الأمر.

قالت سارلا: «لا أحب شيئاً أكثر من رائحة الطفل الذي أنهى حمّامه للتو». ضحكت بعد ذلك قبل أن تكمل: «ما عدا رائحة جوزة الهند المفتوحة حديثاً. هذا هو الأمر الآخر الذي أحبه أكثر من الأشياء الأخرى». ضحكت سومر بدورها، بينما انشغلت بتمشيط شعر آشا المبلّل. سمعت المرأتان صوت طرقةٍ خفيفة على باب غرفة النوم، ثم سمعتا صوت ديفيش الخجول من الممر في خارج الغرفة.

«سيدتي، وصل سيّدي الدكتور. هل نبدأ بتحضير طعام العشاء؟».

جلس الجميع حول الطاولة الطويلة المحفورة من خشب الماهوغاني، بينما كان الطباخ والخدم يحومون حولهم وينحنون لتقديم أطباق الطعام المصنوعة من الفضة الخالصة. حملت سومر آشا في حضنها، بينما كانت ترضع حليب زجاجتها. استمتع كريشنان في هذه الأثناء بتناول القنبيط المشوي، والباذنجان المحشوة، والسبانخ بالكري الهندي، وأرزّ البسمتي مع البازلاء والجزر، ورقائق الخبز المحمّص الخفيفة والشهية. قال كريس بين لقمةٍ وأخرى: «لمَ بذلت بكل هذا العناء يا أمي».

«لا تكنْ سخيفاً! هذه مناسبة خاصة».

انتهى كريشنان من تناول الطعام، وعرض أن يحمل آشا بحيث تتمكن سومر من تناول طعامها. احتوى طبقها على كميات صغيرة من أنواع الطعام، والتي لا تزيد عن ملعقةٍ أو اثنتين من كل نوع. استخدمت سومر الشوكة لتتناول لقمات صغيرة من كل صنف. «إنها لذيذة جداً. تذكرني هذه بمطعم بالقصر الهندي في سان فرنسيسكو. أتمنى لو أعرف كيفية تحضير السبانخ بهذه الطريقة اللذيذة. يتعيّن عليّ الحصول على وصفة تحضير الباذنجان المحشوة».

ابتسمت سارلا أمام هذا اللطف الذي أبدته سومر، وتغاضت عن التهجئة غير الدقيقة للكلمة. اعتُبرت سومر، تلك الشابة اللطيفة، جزءاً من العائلة، لكن الفجوة التي تفصلها عن باقي أفراد العائلة كانت فجوةً ملحوظة جداً. تتمكّن أي فتاة في الثانية عشرة من عمرها في الهند من تحضير طبق الباذنجان المحشو الشهي من دون الاستعانة بوصفة. تنهدت سارلا بصمت، لأن سومر أصبحت الآن أم حفيدتها الوحيدة، ولذلك أصبح لزاماً عليها تقريب المسافة بينهما.

ابتسمت آشا في حضن كريشنان، ونظرت إليه، ثم مدّت يدها نحو الأطباق الفضية، والآنية الصغيرة الموضوعة على الطاولة. «ماذا تريدين يا حبيبتي. هل تريدين بعض الأرزّ؟» تناول بعض حبات الأرز بأصابعه وأطعمها لآشا.

راقبت سارلا المشهد بصمت. لاحظت الارتياح المتبادل بين ابنها وآشا. كانت تلك إحدى المباهج

غير المتوقعة التي تترافق مع التقدم في السن، أي رؤية الابن يكبر إلى أن يصبح والداً لأبنائه. كان كريشنان طوال حياته الابن الأكبر بين عدد كبير من أبناء عمومته الأصغر منه سناً، لذلك لم يكن من المفاجئ أن يعتاد على الأبوة بطريقةٍ طبيعية. أمِلت سارلا بأن تتمكن سومر من القيام بدور الأم ما إن تعتاد على الفكرة.

قام الخدم برفع أطباق الطعام عن الطاولة، وانتقل الجميع إلى غرفة المعيشة. قالت سارلا: «تبدوان متعبَين. أريد أنا ووالدك أن نريَكما شيئاً قبل أن تخلدا إلى النوم». توجّهت إلى خزانة خشبية أنيقة ومرصعة بزخارف عاجية، وهي التي تستند على أحد جدران غرفة المعيشة. أصدر باب الخزانة صريراً عندما فتحته سارلا، ثم مدّت يدها وعادت حاملة علبتين. ناولت سارلا العلبة المخملية الصغيرة الأولى والمربوطة بشريط مطاطي مذهّب إلى كريشنان، ثم قالت: «هذه لآشا».

قال كريشنان: «أمي... لستِ مضطرة لكل ذلك». بدأ بعدها بفكّ الأشوطة الرفيعة قبل أن يفتح الغطاء. «آه... إنها جميلة جداً». عرض العلبة أمام سومر، وكانت العلبة تحتوي على خلخالين فضيين مزخرفَين بدقة. أمسكت سومر أحد الخلخالين بسبابتها، وما لبث الخلخال أن أصدر رنيناً خفيفاً. حدّقت سومر إلى الخلخال بتركيزٍ أكبر فرأت صفاً من الأجراس الصغيرة جداً يتدلى منه.

إننا نطلق عليه هنا اسم جانجار بيتي (الخلخال الفضي)، وجرت العادة أن تضع الفتيات» الصغيرات هذا الخلخال. يقول بعضهم إنه يسمح بمعرفة مكان وجود الطفلة على الدوام». ضحكت قبل أن تكمل: «ما إن علمنا بقدومكما إلى البلاد لأخذ آشا حتى طلبنا من الصائغ الذي نتعامل معه أن يصنع الخلخالين».

نقلت سومر آشا إلى حضنِ كريشنان كي تتمكن من فكّ أحد الخلخالين ووضعه حول كاحل آشا، وقالت: «إنهما جميلان جداً. أوه... انظروا إليهما». مدّت سومر ساقَي آشا الصغيرتين ممسكة ساقاً بكل يد: كان الخلخال اللامع حول قدمها اليسرى يتباين مع الخلخال الفضي البسيط حول قدمها اليمنى. قالت سومر مشيرةً إلى الخلخال البسيط: «يُحتمل بأنه ينبغي علينا نزعه. لا أحب أن يتشابكا».

افعلي ما شئتِ يا عزيزتي. إنه خيارك أنت». انحنت سارلا إلى الأمام حاملةً العلبة الثانية، ثم» ناولتها إلى سومر بكلتا يديها، وقالت لها: «وهذه لكِ يا عزيزتي».

ارتسمت ملامح الدهشة على وجه سومر، وما لبثت ابتسامة صغيرة أن ارتسمت ببطء: «أوه، شكراً لكِ».

قالت سارلا: «آمل أن تحبيها. أنا اخترتها بنفسي بالرغم من أنني لا أعرف ذوقك...» توقفت للحظةٍ بينما كانت سومر ترفع من العلبة شالاً حريرياً براقاً ترتسم عليه ألوان الطاووس اللامعة. كانت أطراف الشال مطرزة بكثافة بالألوان الذهبية والزرقاء الشاحبة. «جرت العادة عندنا أنه عندما تصبح زوجة الابن أماً أن نهديها ثوباً حريرياً طويلاً وخاصاً. أعرف بأنه ليس لديك مناسبات كثيرة لارتداء الساري، ولذلك اخترت لكِ هذا الشال بدلاً من الثوب. ذكّرني لون هذا الشال بلون عينيك الجميلتين». لاحظت سارلا تغيُّرا في ملامح وجه ابنها. هل كان ذلك شعوراً بالإحباط؟ قال لي ألاّ أتوقع أن تقوم هذه الفتاة بارتداء الملابس الهندية، أليس كذلك؟

شكراً لك. إنه جميلٌ جداً». قرّبت سومر الشال الحريري من صدرها».

أسندت سارلا ظهرها إلى الخلف، وشعرتّ بالارتياح لأن هذه الأمسية انتهت هكذا. تعلمت في وقتٍ سابق من حياتها أنه يتعيّن أن تسبق أفعال المرء العواطف التي يأمل المرء أن يشعر بها.

19

غريزة الأمومة

سان فرنسيسكو، كاليفورنيا - 1985

سومر

تناوبت سومر وكريس خلال رحلة عودتهما من الهند، على مراقبة آشا أثناء نومها في المقعد التي يتوسط مقعديهما، كما شبكا يديهما فوق جسدها الصغير. شعرت سومر بفيض من المشاعر عندما كانت تدرك أن آشا أصبحت طفلتهما بالفعل.

بحثت سومر عند وصولها إلى سان فرنسيسكو عن تلك الغريزة التي طلبت منها والدة زوجها أن تتبعها بشأن احتياجات آشا. لكن سومر لم تفهم الأمر جيداً لأن آشا أرادت أن تبقى مستيقظة خلال الليل كي تلعب، بينما كانت سومر تحاول دفعها إلى النوم، أو حين تبصق الطعام الذي تقدمه إليها. أدركت سومر أنه توجد أسباب نمو وراء سلوكها هذا، لكنها تشعر مع ذلك أن رميَ آشا للطعام على الأرض يعبّر عن الرفض. فوجئت سومر بصعوبة اتباع النصائح التي تعطيها لأمهات الأطفال المرضى في عيادتها.

عمل كريس مناوبة ليلية في المستشفى في ثالث ليلة لهما بعد رجوعهما إلى سان فرنسيسكو، وهكذا شعرت سومر بالقلق لتمضيتها أول ليلة وحدها مع الطفلة آشا. استيقظت آشا في وقتٍ ما بعد منتصف الليل وأخذت بالصراخ. أسرعت سومر إلى تسخين زجاجة من الحليب لها، لكن آشا صرخت مجدداً بعد انتهائها من شربها. حسناً. إنني طبيبة أطفال. يمكنني معالجة الأمر: في حالة الطفل الباكي: افحصي حرارة الطفل، افحصي الحفاضة، افحصي الشعر وأصابع اليدين أو الأرجل. إذا تفاقم الأمر أكثر، يُحتمل إصابة الطفل بالتهاب في المجاري البولية، أو ربما إصابته بالتهاب السحايا.

فحصت سومر آشا من رأسها وحتى قدميها. لم يكن هناك أي سبب طبي لبكائها، لكنها أمٌ في هذه الحالة وليست طبيبة، إلا أنها تشعر بأنها عاجزة عن فعل أي شيء. غنّت سومر لآشا، وهزهزتها وذرعت أرض الغرفة جيئة وذهاباً لفترة ساعتين كاملتين. استمرت آشا بالصراخ، ولم تتمكن سومر من فعل أي شيء لتهدئتها. فجأة استسلمت الطفلة للنوم عند نحو الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، وبدت مرتاحة على كتفي سومر اللذين امتزجت فوقهما الدموع مع العرق، وذلك بعد جلوسها على كرسي هزاز. خشيت سومر من استيقاظ الطفلة إذا ما تحركت من مكانها، لذلك بقيت في مكانها حتى الصباح، أي حتى مجيء كريشنان.

همست له عندما أيقظها بلطف: «لا أستطيع، ولا أعرف كيفية التصرف. بقيت تصرخ طوال

الليل». كانت سومر تعتقد على الدوام أنه ليست كل النساء مؤهلات للقيام بدور الأم، وهي التي لاحظت كيف أن بعض اللواتي يتردّدن على عيادتها ينجحن في مهمة الأمومة أكثر من غيرهن. هل يعني ذلك أن الطبيعة اختارت لها أن لا تكون أماً؟ تساءلتْ في ذلك الوقت ما إذا كانت ارتكبت خطأ هي وزوجها. لكن التفسيرات العقلانية التي جهدت كي تسمعها فشلت في القضاء على الشك الذي بدأ بالتزايد في قلبها.

«قال كريس: «ماذا تعنين؟ أنت تقومين بدور الأمومة. انظري إليها».

تطلعتْ نحو آشا التي كانت نائمة على ذراعيها بينما كان فمها مفتوحاً قليلاً. مسّد كريس شعر آشا وابتسم لسومر. حاولت أن تبتسم بدورها، لكنها فكّرت مسبقاً في الليلة التالية التي يكون فيها كريس في مناوبته. بدا الأمر ممكناً في الهند، أي عندما كانت عائلة كريشنان على أتم استعداد للمساعدة في تحضير طعام آشا، وفي حمّامها، وتهدئتها عندما تبكي. لكن الآن، وبعد تمضيتها وقتاً طويلاً في محاولتها أن تكون أماً، فإنها لم تتقن القيام بهذا الدور. قلقت سومر بأن لا تتمكن من الشعور بهذه الغريزة.

توقعت سومر أن تتحسّن الأمور عند عودتها إلى عملها، لكن العودة إلى العمل تترافق مع مشاكل جديدة. أدركت بأنها فور عودتها إلى ممارسة عملها كطبيبة أطفال، فإنها لن تتمكن من رؤية آشا إلا لمدة ساعة عند نهاية كل يوم. ارتاحت لفكرة تمتعها بالكفاءة في أمرٍ ما، لكنها عادت لتقلق إزاء فكرة أن تتعلّق آشا بالمربية الإيرلندية الشابة التي وظّفاها، ومن احتمال أن تتعلق بها بعد عودة سومر من عملها مساءً. أما في العمل فإن كل طفلة تأتي إلى العيادة بعمر آشا ستذكّر سومر بضحكة طفلتها الرائعة، أو بمشيتها المتهادية. بدا لها أن الأمهات والأطفال الذين تراهم في العيادة مرتاحون معاً. تساءلت سومر ما إذا كانت الرابطة البيولوجية هي سبب هذا الارتياح، أم أن السبب يعود إلى الوقت الذي يقضونه معاً، لكن ماذا بشأن الوقت الذي تقضيه سومر في العمل. هل كانت ستعرف كيفية التعامل معها لو أن رابطة الدم تجمعهما معاً؟ هل كانت آشا ستتجاوب معها بشكلٍ أفضل، لو كانت سومر لا تبدو مختلفةً كثيراً عن كل الأشخاص الذين عرفتهم في حياتها القصيرة؟

لم يفهم كريشنان سبب قلقها حول هذا الموضوع، لكن سومر لا تتوقع منه أن يفهم. إنها عاجزة تماماً عن مواجهة احتمال فشلها بعد كل هذا الجهد الذي بذلته على هذا الصعيد، وهي لا تزال تحب عملها، لكنها كانت حذرة من مبالغتها في التركيز على مهنتها، ومن التركيز كثيراً على شيءٍ أدركت أنه لن يكون كافياً بالنسبة إليها.

الجزء الثاني

20

شاكتي

دهانو، الهند - 1990

جاسو وكافيتا

رآها جاسو جالسة أمام النار وقد وضعت رجلاً فوق رجل فتوقف لمراقبتها عن بُعد. وضعت كافيتا عجينة الخبز المرقوق (الروتلي) في المقلاة المصنوعة من الحديد المسبوك، والتي سبق لها أن وضعتها فوق النار. كانت ملامح وجهها رزينة أثناء تركيزها على تحضير الطعام لأسرتها وأسرة زوجها. يحب جاسو رؤيتها وهي تبتسم، ويعتبر ذلك تحدياً شخصياً له لمحاولة صرفها عن عملها. سار نحوها، وبدأ بالصفير مقلداً أصوات الطيور التي تبدأ بالتغريد في الصباح الباكر. «ها هو طائري الصغير». قالها مع ابتسامة مرحة. طائري الصغير. اعتاد جاسو على ترداد اسم هذا الطائر عندما يريد انتزاع ابتسامة منها.

«سألته: «هل أنت جائع؟ سيكون الطعام جاهزاً بعد قليل».

أجابها واضعاً يديه على بطنه: «بل أتضوّر جوعاً. ماذا سنأكل؟» فتح غطاء المقلاة المصنوع من الفولاذ الذي لا يصدأ.

أجابت بصوتٍ متقطع وهي تنحني قليلاً لتحريك الملفوف: «الملفوف، والخبز المرقوق، وشوربة العدس».

قال جاسو: الملفوف مجدداً. أشكر الله لأن زوجتي طبّاخة ماهرة، وهي بإمكانها أن تجعل الملفوف أطيب مذاقاً يوماً بعد يوم. يا إلهي، اشتقت إلى الباذنجان، والباميا، والخضار الهندية...».

«أنا اشتقت إليها بدوري يا عزيزي. سأحضّرها كلها بعد الحصاد».

قال بصوتٍ منخفض كي لا يسمعه والداه في الغرفة المجاورة: «يا طائري الصغير. لا أتوقع أن يكون المحصول جيداً في هذا الموسم. سنكون محظوظين إذا حصلنا على ما يكفينا لهذه السنة». حاول جاسو عدم إظهار القلق على ملامح وجهه. أخذت أحوال المحاصيل، وكذلك سعر السوق بالهبوط سنة بعد سنة منذ زواجهما، كما لم يتمكن من الاحتفاظ بالعمّال الذين استأجرهم، وهكذا اضطرت كافيتا وفيجاي إلى مساعدته في الحقول».

فيجاي!» صاحت كافيتا من خلال المدخل المقنطر حيث كان يلعب ابنهما، الذي أصبح فِي» الخامسة من عمره، مع أبناء عمومته. «حان الوقت لتناول طعام الغداء. تعالَ واغتسل».

شعر جاسو بثقلٍ في رأسه: «كافي، ليس هناك طريقة أخرى. يتعيّن علينا مغادرة هذا المكان». مسّد جبهته، وكأنه يريد إخفاء تجاعيدها. «يمكننا أن نعيش في المدينة بأوضاع أفضل. يمكنني العثور على وظيفة أفضل. لا يتعيّن عليك أن تعملي هكذا بعد الآن ليلاً ونهاراً هناك».

«لا مانع عندي من العمل يا جاسو، إذا كان ذلك يساعدك، أعني يساعدنا... لا مانع عندي».

ردّ جاسو: «لكن أنا لديّ مانع. لن نضطر في مومباي أن نُجهد ظهورنا في كل يوم. تصوري يا كافي أن بإمكانك الطهو أو الخياطة، ولن تكوني مضطرة للعمل في الحقول بعد الآن... ولن نضطر إلى كل هذا التعب!» أمسك أصابعها الرفيعة، ومرّر إبهاميه فوق أظافرها القاسية، ومفاصل أصابعها التي كثرت فيها الخدوش، بينما كشفت يديها الجافتين عن فشله.

«لا بد من وجود شيء يمكننا عمله. محاولة زرع القطن، أي مثل ما فعل ابن عمك».

تطلع نحو الأرض وهزّ رأسه. كيف يمكنني إفهامها؟ كانت كل خلية من خلايا جسده تُبلغه بأنه يتعيّن عليهم مغادرة هذا المكان على الفور، هذا المكان الذي لم يعرفا غيره في حياتهما. يتعيّن عليهما الذهاب بعيداً عن الحقول التي توحي بفشله كرجل، وعن العائلة التي يبدو أنه عاجز عن مسامحتها، وبعيداً عن هذا المنزل الذي يتقاسمه مع والديه، وعن المنزل الذي قضى فيه أيام طفولته والذي لم يعد يسعه. يبدو أن مومباي تجذبه وكأنها جوهرة ملتمعة واعدة إياه بحياةٍ أفضل لهما، ولابنهما على وجه الخصوص.

«الحياة هناك مختلفة عن الحياة هنا يا كافي، حيث يعمل الجميع طوال الوقت. إنني أسمع كل يوم عن شاحنات مليئة بالذاهبين إلى مومباي، أي مثلنا تماماً. المئات يأتون إلى تلك المدينة، وهناك منازل وفرص عمل للجميع!».

«لكن كل الذين نعرفهم موجودون هنا. مومباي ليست موطننا. ما ينفعنا إذا ما امتلكنا كل الأموال في العالم هناك من دون أفراد العائلة». بدأت كافيتا بالبكاء.

اقترب جاسو منها، وقال: «ستكون عائلتنا معنا، أي أنتِ وأنا، وفيجاي الذي يستطيع الإلتحاق بمدرسة لائقة، أي أنه لن يضطر إلى العمل، أو العيش ضمن هذا الوضع...» أشار جاسو بيديه إلى المنزل المتواضع الذي يتقاسمه مع عائلته. «يمكنه إنهاء دراسته، والحصول على وظيفة مكتبية. هل تتصورين ذلك؟ هل تتصورين صغيرنا فيجاي وهو يعمل في أحد المكاتب في يومٍ من الأيام؟» بذل جاسو جهداً أكبر في هذه الأثناء لجعلها تبتسم. أرجوكِ يا كافي. أحاط وجهها براحتَيّ يديه، ومسح دموعها بإبهاميه الخشنين. قال جاسو ساخراً ومبتسماً بتكلف مستخدماً إصبعه وإبهامه لفتح فمه إلى الحد الأقصى: «صباح الخير، أتحب تناول الشاي، يا سيدي؟».

قالت كافيتا: «كيف سيتمكن من التصرف بين الغرباء في تلك المدينة؟ الجميع هنا يهتمون لأمره. إن سكان هذه القرية بأكملهم هم عائلته. إنهم عائلتنا، وأريدهم أن يكونوا عائلته كذلك».

«أريده أن يحصل على ما هو أكثر من ذلك يا كافي. ستكون عائلتنا هنا على الدوام، وسوف تحبه على الدوام».

«ماذا بشأننا نحن؟ لا يمكن لأحد أن يساعدنا إذا ما أصابنا شيء». بدأ صوتها يتهدج بفعل الانفعال. «يمكننا هنا على الأقل الحصول على مساعدة عندما يكون المحصول ضعيفاً، أو عندما يمرض

«فيجاي».

بسط جاسو راحتَي يده فوق راحتيها الصغيرتين وقال: «لن نكون أول من يرحل. سنجد هناك جار ابن عمي، ومزارع قصب السكر. كافي، أريد الحصول على حياة أفضل لنا...» استغرق في أفكاره وضغط بجبهته على يديها المضمومتين. خطرت فكرةٌ على ذهنه بشكلٍ مفاجئ، وفي لحظة واحدة عرف ما يتعين عليه أن يقوله لها، إلى هذه المرأة التي هي أمٌ قبل أي شيء آخر. رفع نظره فجأةً. «انظري ما فعله والداكِ من أجلك، وما قدماه لك من تضحيات. هل هذا هو الشيء الصائب لنفعله لابننا؟ ألا يستحق فيجاي الأفضل؟ هذا هو واجبنا نحوه بصفتنا والديه. جاء دورنا نحن لتقديم التضحيات يا طائري الصغيري».

دفعتها كلماته إلى الشعور بالخجل، وما لبثت أن استغرقت في البكاء مجدداً.

«فكّري بالأمر يا شاكتي، أتستطيعين ذلك؟ أيمكنك أن تتصوري حياة جديدة لنا؟ ثقي بي يا كافي».

التمعت عيناه بالأمل، أما عيناها فقد التمعتا بالدموع.

عندما أخبرت كافيتا والديها بأنها سترحل إلى مومباي مع جاسو، كان من الصعب عليها النطق بالكلمات من دون أن تبكي. قالت وهي تدس رأسها في حضن أمها: «أمي، كيف يمكنني أن أترككم؟ ماذا سأفعل في ذلك المكان»؟ تذكرت كافيتا مومباي: الرصيف الساخن تحت قدميها، ونظرات الناس نحوها التي توحي بأنها واقعة تحت العار.

مسحت والدة كافيتا دموعها، وتنحنحت، وما لبثت أن احتضنتها بذراعيها، وقالت: «ستكونين على ما يرام يا ابنتي، وجاسو هو من الأزواج الطيبين، لا بد بأنه يمتلك أسبابه التي تدعوه إلى الرحيل».

أتقولين زوجٌ طيب؟ سيأخذني بعيداً عنكما، وعن روبا، وجميع أقاربي وأصدقائي، ومنزلي،» وقريتي».

سنكون هنا من أجلك على الدوام يا ابنتي، لكن حياتك معه، ويجب أن تثقي به، كما أن زوجك» وابنك يحتاجان إليك. إذا سقطت الأم فإن الأسرة تسقط بأكملها». كان ذلك مقطعاً من قصيدة شهيرة. عليك أن تكوني شجاعة من أجلهما»».

تذكرت كافيتا الوداع الأول مع والدتها، وذلك عندما وقفتا خارج المعبد بعد زفافها، وكان جسمها ملفوفاً بطبقاتٍ الثوب الحريري، وأكاليل الزهور، والمجوهرات، بينما غطت مساحيق التجميل الخاصة بالعرائس وجهها، وهي التي جعلتها تبدو كامرأة أكثر منها فتاة.

بكت في ذلك اليوم عندما غادرت إلى منزلها الزوجي. شعرت في ذلك الوقت وكأنها تودع أسرتها للمرة الأخيرة. لكنها كانت تعود إلى المنزل في فترات حملها، وحتى بعد ولادة فيجاي فقد اعتمدت على عناية والدتها لعلها تتمكن من أن تكون أماً بدورها.

رفعت والدة كافيتا رأسها عن حضنها، وأحاطت بيديها الباردتين وجه ابنتها الذي كان ساخناً بفعل الدموع، ثم قالت لها هامسة: «أنا مسرورة لأنك أنتِ التي سترحلين عن هذه القرية».

تطلعت نحوها كافيتا بشيءٍ من الصدمة.

إنني لست قلقة بشأنك يا كافيتا، وأنتِ تمتلكين القوة والجَلَد. الطاقة الحيوية. يُحتمل أن تلاقي صعوبة في مومباي، لكنك تمتلكين يا ابنتي الطاقة اللازمة لتحمّلها».

شعرت كافيتا بالطاقة الحيوية من خلال كلمات والدتها ويديها. الطاقة الحيوية التي هي القوة الأنثوية المقدسة المنسابة من الأم إلى جميع من أتينَ بعدها.

اجتمعت كافيتا وجاسو في إحدى أمسيات أيلول الباردة مع عائلتيهما وأصدقائهما للوداع. بدأت أولى النجمات الملتمعة بالظهور في السماء الزرقاء الداكنة، فظهرت وكأنها بريق أقراط أذنٍ تحت خصلةٍ من الشعر الداكن. ارتدت كافيتا واحداً من أفخم أثوابها [الساري] الحريرية لهذه المناسبة، وشالاً باللون الأزرق الذي يشعّ بالفرح والمطرزة أطرافه بخيوط فضية. زادت العتمة في السماء، وما لبثت بنات عم كافيتا، اللواتي نشأن معاً كشقيقات، أن بدأن بحمل أوعية كبيرة التي تحتوي على مختلف أنواع الأطعمة، ثم بدأن بسكبها فوق أوراق الموز التي توزعت بشكل دائرة كبيرة على الأرض. كان كل شخصٍ، وكل فردٍ من أفراد العائلة، وكل صديقٍ من أيام الطفولة، وكل جارٍ قديم لهم، يجلس أمام إحدى أوراق الموز. تجمّع الرجال حول جاسو في جهة، وتجمعت النساء حول كافيتا في الجهة الأخرى.

تصاعدت ضحكات جاسو من جهة الرجال. التفتت كافيتا في الوقت المناسب لترى جاسو وهو ينحني برأسه إلى الخلف، بينما قام أحد أشقائه بصفعه على ظهره. ظهرت ابتسامة خجولة على وجهها. كان جاسو مليئاً بالحيوية خلال تلك الأسابيع القليلة الماضية، أي بينما كانا يحضّران لرحيلهما، وهو الأمر الذي جلب السعادة لهما. ساعدتها مباركة والديها، وتأكيدهما بأن مكانها الصحيح هو إلى جانب زوجها، على رؤية الأمور بشكلٍ مختلف. بدأت كافيتا بتصوّر حياة جديدة تترافق مع راحة أكبر، وعملٍ أقل، ومنزلٍ بعيد عن أسرة زوجها التي تقيّد حركاتها.

سألتها إحدى النسوة اللواتي تجمّعن حولها: «ما هو نوع العمل الذي سيقوم به جاسو يا كافيتا؟».

قالت كافيتا: «سيعمل ساعياً في البداية، أو نادلاً في أحد المطاعم. هناك فرص عملٍ كثيرة في هذه المجالات، كما يدفعون الأجرة نقداً يوماً بيوم. لكن ما إن نستقر فسوف يمكنه العمل في وظيفة تتطلب مجهوداً أقل في محلٍ تجاري، أو في مكتب».

أومأت روبا، وقالت بينما كانت تقرص ذراع كافيتا: «يعرفان أشخاصاً كثيرين في مومباي. أخبرنا جاسو بذلك في الليلة الماضية. الأمر مثير جداً».

قاومت كافيتا شعوراً بالألم ثار في داخلها لمجرد التفكير بأنها ستكون بعيدة عن شقيقتها. «يقول جاسو إننا سنسكن في شقة واسعة لوحدنا، كما يوجد في داخلها حمامٌ ومطبخ كبير. سيمتلك فيجاي غرفة لوحده للدراسة والنوم». تطلعت كافيتا إلى حيث كان فيجاي ورفاقه من أبناء عمومته يلاحقون بعضهم بعضاً، وكان كل واحد منهم يحاول الإمساك بأطراف قميص الآخر. لكن عندما كان يعثر أحدهم فجأة على الأرض فكان يترك وراءه سحابة جديدة من الغبار، وما يلبث الآخرون أن يستغرقوا في الضحك. قالت كافيتا: «إنني أقلق كثيراً بشأنه، لأنه سوف يفتقد أبناء عمومته. سنجني مدخولاً كبيراً في مومباي بإذن الله ثم نعود إلى هنا بسرعة».

عاد فيجاي ورفاقه عندما أنهى الكبار تناول طعامهم، لكن ثيابهم كانت ملطخة بالغبار. اقترب

جاسو من كافيتا مخترقاً نظام الفصل بين الذكور والإناث الذي فرّق بينهما طوال الليل. «تأخر الوقت يا حبيبتي. أعتقد بأنه من الأفضل لنا توديعهم الآن». كسر جاسو بهذه الكلمات الجو القاتم الذي سيطر على الأمسية، أي الوهم الذي يوحي بأن هذا اللقاء هو مجرد تجمّع كبير آخر للذين يحبونهم، والذي يُمكن أن يجري لأي سبب، أو حتى من دون سبب. تعانق الأقرباء واحداً بعد الآخر، وهمسوا بتمنيات السلامة في رحلتهم، والوعود بزياراتٍ سريعة. انصرف الأقرباء الذين يدعون بسلامتهم تدريجياً، ولم يبقَ أحد غير والديَ كافيتا.

انحنت كافيتا وركعت على ركبتيها، ثمّ لمست قدَمَي والدتها بجبهتها. رفعتها أمها من كتفيها وعانقتها بشدة. لم تتلفظ والدتها بغير كلمة واحدة، لكنها ردّدتها مراتٍ عدة. ابنتي القوية (شاكتي).

21

طمأنينة حذِرة

بالو آلتو، كاليفورنيا - 1990

سومر

توجهت سومر نحو طاولة الاستعلامات في بهو مستشفى لوسيل باكارد للأطفال، وذلك كي تعرف رقم غرفة مريضها.

اقترب منها طبيبٌ طويل القامة، وكان يجرّ وراءه حقيبة سفر قبل أن يمد يده لتحيّتها: «سومر ويتمان؟ كيف حالك؟».

قالت سومر بعد أن تذكرت زميلها في جامعة كاليفورنيا في سان فرنسيسكو، وكان متدرباً عندما كانت متدربة متقدمة: «بيتر. يا إلهي. لم أركَ منذ عشر سنوات؟».

ردّ بينما كان يمرّر إحدى يديه من خلال شعره البنّي الكثيف: «أجل، لا بد من أنني هو».

سمعتُ أنك تحوّلت إلى الأمراض المعدية. ماذا تنوي أن تفعل الآن؟» تذكرت سومر بأنه كان» شاباً لا يهدأ ودائم الترحال. كان يذكّرها بنفسه بهذه الطريقة.

حسناً، أنهيت الزمالة في الأمراض المعدية في بوسطن، كما أنهيتُ اختصاصاً مريحاً في» الأمراض الاستوائية لسنتين، وحصلت لتوي على وظيفة رئيس قسم. أشعر بالارتياح لعودتي».

قالت سومر: «رائع يا بيتر. أنا سعيدة جداً لذلك».

شكراً. إنني ذاهب إلى إسطنبول لأيام عدة لإلقاء محاضرة، وسوف أرتاح من عناء السفر في» الأسبوع القادم. أعتقد أن العمل مثير للاهتمام، وهو أفضل من المعاناة مع المصابين بالرشح والسعال، أليس كذلك؟ كيف أحوالك أنتِ. أعرف أنك كنت مهتمة بأمراض القلب». تطلع الطبيب نحوها باهتمام صادق، فتذكرت الصداقة التي كانت تجمعهما، وكيف أنها شجّعته على متابعة اختصاصٍ فرعيً.

قالت وقد استعدّت لرد فعله: «حسناً. إنني أعمل على التدقيق في الكشف الطبي في المركز الطبي المحلي في بالو ألتو حيث يكثر السعال والرشح». لم يكن هناك من طريقة أخرى لجعل عملها هذا يبدو أكثر إثارة، وذلك لأن الأمراض روتينية ولا توجد هناك متابعة جدية للعلاج، كما أن المستوصف يفتقر إلى الموارد الكافية. «لكن باستطاعتي اصطحاب ابنتي، التي هي في السادسة من عمرها، من مدرستها كل يوم». ابتسمت قليلاً، وهزّت كتفيها. هل لاحظتُ أثراً لخيبة الأمل في عينيه؟

هذا عظيم. أما أنا فعندي ولدان، أحدهما في السادسة، والآخر في العاشرة من العمر. إنهما يشغلاننا طوال الوقت، أليس كذلك؟».

بالتأكيد. هذا صحيح».

أنا مضطرٌ للتوجه إلى المطار يا سومر. لكنني سررتُ كثيراً برؤيتك. بالمناسبة إنني لم أنسَ أبداً ذلك التشخيص العظيم للذئبة الوليدية الذي قمتِ به عندما كنت متدرباً مبتدئاً. أعتقد أنني رويت تلك القصة عشرات المرات على مرّ السنين، لكني اعتدت أن أنسب الفضل في ذلك إلى الدكتورة ويتمان».

ابتسمت سومر، وقالت: «أصبحتُ الدكتورة ثاكر الآن في الواقع. لكنني سررتُ بسماع ذلك. سررتُ لرؤيتك يا بيتر».

راقبت سومر أرقام الطوابق تتالى تسلسلياً داخل المصعد. أين مضت تلك السنوات، وماذا حدث لطالبة الطب التي كانت طموحة في يوم من الأيام؟ تذكرت تلك الرغبة في العمل في الحالات الطبية المثيرة للاهتمام، وإجراء الأبحاث، والأرتقاء في المستوى الأكاديمي. لكنها الآن بالكاد تتابع قراءة الجديد في نشراتها الطبية. أدّت خياراتها المهنية إلى تخلّفها عن زملائها، لكنها بالرغم من وظيفتها المتواضعة في المركز الطبي فإنها تشعر بأنها دخيلة.

أسرعت بعد ذلك إلى اصطحاب آشا من مدرستها، وهناك تعرفها أمهات الأولاد باسم «والدة آشا»، ويبدو بأنهن يقضين وقتاً طويلاً مع أولادهن، لكن سومر لا تمتلك وقتاً لتمضيته مع لجان الأهل أو للمبيعات الخيرية، كما أنها لا تمتلك وقتاً لنفسها. لم تعد مهنتها تحدّد هويتها، وكذلك كونها أماً، والأمران أصبحا جزءاً منها، لكنهما أمران لا يتكاملان. لم تعلم سومر أن حيازة كل شيء، أي كما كانت ترغب على الدوام، سيعني بأنها سوف تشعر بالتقصير في كل المجالات. حاولت سومر إدخال الطمأنينة إلى نفسها، وإقناع نفسها أن الحياة تتعلق بالمبادلة، وأنها يجب أن تشعر بهذه الطمأنينة بالرغم من أنها ليست سهلة في معظم الأحيان.

جلست سومر على المقعد الطويل وهي ترتشف قهوتها المحلاة الساخنة، وانشغلت بمراقبة آشا أثناء تعلّقها على القضبان في لعبة التسلّق. بدأت آشا في العام الماضي بالميل إلى المغامرة في اللعب، وبدأت تحب التسلق، والتعلّق، والأرجحة من أي مكان تتمكن منه. تخلّت الفتاة عن حذرها الطفولي، وكانت ركبتاها المخدوشتان دليلها على ذلك.

أحبّت سومر إحضار آشا إلى هذا المتنزه، وكانت انتقلت مع زوجها إلى هذا الحي منذ سنوات قليلة، أي منذ أن كانت ابنتها في السنة الثانية من عمرها. كان من الصعب عليها مغادرة سان فرنسيسكو، وهي المكان الذي تعودت على العيش معاً كعائلة. لكن بعد سنوات من الألم والشعور بالغربة تمكنت مع كريشنان من الاستمتاع بهذا الوقت الذي يمضيانه معاً كعائلة، أي الذهاب إلى شاطئ بايكر في أيام إجازة نهاية الأسبوع، وحيث كانت تمشي على رؤوس أصابع أرجلها نحو حافة الماء، وما تلبث أن تبتعد صارخة عندما تأتي الموجة التالية. عثرت سومر وكريشنان على طريقة للتواصل أحدهما مع الآخر مجدداً، ولم تعد أحاديثهما تتركّز حول الطب، وهكذا تمكّنا من إعادة تمتين علاقتهما المتضررة، بل تحولت إلى التركيز على آشا.

لم يسبق للزوجين أن خطّطا للانضمام إلى أصدقائهما في مغادرة المدينة، لكن مع ازدياد حركة

آشا بدءا بالتأسف بسبب باحة منزلهما الصغيرة، ومستوى المدارس المحلية. لكن عندما حصل كريس على عرضٍ مغرٍ للانضمام إلى عيادة طبية في منلو بارك، وهو حي يشتمل على مدرسةٍ جيدة لا تبعد أكثر من مسيرةً ثلاثين دقيقة إلى الجنوب من سان فرنسيسكو. قبِل العرض، وهكذا بدأ الزوجان في البحث عن منازل مجاورة. تمكنت سومر في هذه الأثناء من العثور على وظيفة لها في المركز الطبي في ذلك الحي.

«نادت سومر طفلتها بعد أن لاحظت اقتراب الشمس من الغياب: «لديكِ خمس دقائق أخرى».

قالت لها امرأة كانت تجلس بجوارها على المقعد: «إنها رائعة. أعتقد أنني رأيتك من قبل. إننا نأتي إلى هنا في كل يوم تقريباً». أشارت المرأة نحو صبي صغير أشقر الشعر، وكان يلعب في صندوقٍ مملوءٍ بالرمال. «إنه يحب المجيء إلى هنا، وأنا سعيدة كذلك بالخروج من المنزل».

«ردّت سومر ضاحكة: «أجل، تحب آشا المجيء إلى هنا بدورها. لكن يجب أن آخذها بعد قليل».

قالت المرأة: «الأفضل أن تأتي إلى هنا في مساءات أيام الجمعة، وأنا أحضر للنزهة مع بعض مربيات الأطفال في الحي. يتسلى الأطفال في اللعب معاً، كما أننا نتسلى بعضنا برفقة بعض».

مربيات الأطفال؟ صمتت سومر للحظة، ووقفت وحملت حقيبتها، ثم قالت: «أنا لست مربيّتها. إنني والدتها».

«...أوه، أنا آسفة جداً. أعني بأنني افترضت. ظننتُ».

قالت سومر بلهجة تنمّ عن استيائها: «لا بأس. إنها تشبه والدها أكثر، لكن شخصيّتها تشبهني أنا». سارت نحو آشا قبل أن تكمل: «أتمنى لكِ نهاراً سعيداً».

امتطت آشا في طريق عودتها إلى المنزل دراجتها الهوائية بينما سارت سومر خلفها، ثم تساءلت عن السبب الذي دفعها إلى الانزعاج بسبب حديثها مع المرأة في المتنزّه. يسهل على الناس الافتراض بأنه ليس هناك علاقة قربى تربطها مع آشا، ولذلك يجدر بها أن تعتاد على هذا الوضع. لكن عندما تخرج العائلة للنزهة معاً فإن الناس يُطيلون النظر إليها، وهي تلاحظ كيف أن كريس وآشا قريبان أحدهما من الآخر عندما تجلس فوق كتفيه، أو عندما يجلسان جنباً إلى جنب في المطاعم. كانت سومر تقاوم في هذه الأوقات الشعور بأنها هي الشخص الذي تبنّته العائلة.

علمت سومر في إحدى الدورات التي تناقش مسألة التبنّي، والتي حضرتها منذ سنوات بأنه يُمكن للتبنّي أن يحلّ مشكلة عدم وجود الأطفال في الأسرة، وليس مشكلة العقم، لذلك يجب عليها التمييز بين الأمرين. جلبت آشا عند دخولها حياتهما أموراً عديدة: الحب، البهجة، والرضا. لكن كل هذه الأمور لم تتمكن من محو الرغبة في الحصول على طفلٍ تحمله في أحشائها.

تشعر سومر عندما تكون وحدها مع آشا أنها والدتها، وتشعر بالحب تجاهها وكأنها طفلتها الطبيعية، وهي لا تخبر الناس بأنها طفلتها بالتبني. لا يقتصر الأمر على عدم التشابه، لكنها لا تريد أن تلاحظ آشا عدم التشابه هذا، وهي لا تشعر بهذه الفروق الواضحة للآخرين في شعر آشا الداكن، وبشرتها السمراء. لكنها عندما رأت آشا منتظرةً عند المنعطف فإنها نظرت إليها من خلال عيون مربية الأطفال في المتنزه. كانت إحدى ساقَي آشا السمراء فوق دواسة الدراجة، بينما بالكاد لامست الساق الأخرى الأرض. كان شعرها كتلة كثيفة من الشعر الأسود، والمسرّح على شاكلة ذيل حصان، بارزاً من

خلال خوذتها ذات اللون الأزرق الفاتح والتي تشبه شكل الدعسوقة. تطلعت سومر مجدداً نحو ابنتها التي لا تبدو كابنتها.

22

بقعة ذهبية

مومباي، الهند - 1990

كافيتا

أخذت كافيتا نَفَساً عميقاً عندما نزولها أخيراً من الحافلة مفتوحة النوافذ. تشاركت كافيتا وجاسو وفيجاي، وعلى مدى أربع ساعات، حافلة ركاب مزدحمة مع عشرات من الأشخاص الذين تفوح منهم رائحة العرق. لم يكترث معظم الركاب بالمناظر التي تمر من حولهم، وذلك لأن عدداً كبيراً منهم يقوم بهذه الرحلة كل أسبوع لبيع المنتوجات في المدينة. لكن بالرغم من شرائهم ثلاثة تذاكر، إلا أن المقعد الخالي الوحيد كان ذلك الذي استخدمته كافيتا التي أجلست فيجاي في حضنها طوال الطريق، وهكذا شعرت بالخدر ينتشر في فخذيها. اضطر جاسو للوقوف إلى جانب رجل يحمل قفصاً مليئاً بالدجاج، والذي كان يترجّح تكراراً صادماً ركبة جاسو. لم يتذمر جاسو وكافيتا لأن بعض الركاب تعلقوا بباب الحافلة، بينما تعلق آخرون بسقفها.

وقف الثلاثة خارج موقف الحافلات حاملين كل أمتعتهم. استند فيجاي على ساقها بعينين مغمضتين. اعتزم جاسو التوجه إلى منطقة في وسط المدينة والتي علما سلفاً بأن بإمكانهم المكوث لليلة أو اثنتين مقابل مبلغ صغير من المال. أما الآن فإن كل ما يحتاجونه هو ليلة ينامون فيها بسلام. أما في اليوم التالي فبإمكانهم التفتّيش عن منازل ووظائف دائمة. سار جاسو في المقدمة حاملاً معه حقيبة في كل يد، وكان يتوقف بين الحين والآخر للسؤال عن اتجاه المكان الذي يقصده.

تبعته كافيتا حاملة حقيبة بيدٍ وممسكة يد فيجاي بالأخرى. ذُهلت كافيتا أثناء تجوالهم في أنحاء مومباي الداكنة بمدى التغيّر الذي حدث منذ قدومها إلى هذه المدينة قبل ست سنوات. بدا لها بأن مزيداً من الناس قد احتشدوا في كل الأماكن التي سبق لها أن زارتها، وأن الطرقات تشهد مزيداً من السيارات والآليات، وأن هناك مزيداً من الضجيج والأدخنة تملأ الهواء.

فكرتان لم تفارقا كافيتا: كيف أنها بدأت تشتاق إلى القرية، وتلك الذكرى المريرة التي لازمتها عندما تركت أوشا في دار رعاية الأيتام. تسابقت تانك الفكرتان للسيطرة على أفكارها. يُضاف إلى ذلك أن كافيتا قاومت ذلك الشعور بالاستياء تجاه جاسو. أجبرني على التخلي عن طفلتي، وها هو يجبرني الآن على المجيء إلى هذه المدينة، وعلى ترك كل شيء أحببته. فقدتْ كافيتا أثر جاسو للحظة، وهو الذي كان يسير أمامها بين الحشود، فأسرعت الخطى للحاق به. لم يعد لديهما في هذا المكان الجديد غير أنفسهم. تردّد صوت والدتها الذي يعطيها شعوراً بالطمأنينة في ذهنها. يتعيّن عليك أن تثقي به، ويجب عليك أن تكوني شجاعة لأجله.

وصل جاسو وزوجته وولده إلى دارافي، المكان الذي يقصدونه، بعد حلول الظلام، لكنهم صُدموا عندما لم يجدوا المباني التي كانوا يتوقعون وجودها، بل وجدوا مدينة أكواخ صفيح تحتل كل المساحة بين الطريق السريع من جهة، وسكة الحديد من الجهة الأخرى. رأوا صفاً طويلاً من الأكواخ، وكلها مشيّدة بألواح الصفيح المموجة، والكرتون المقوى، والطين. كانت تلك عبارة عن منازل مؤلفة من غرفة واحدة مشيدة بمعظمها من بقايا الأغراض المهملة. ساروا ببطء كي يتجنبوا نهر الصرف الصحي الذي يجري بين الأكواخ. أمسكت كافيتا يد فيجاي بقوة عندما سحبته من طريق أولادٍ صغار كانوا يركضون وهم عراة. مدّ أحد المتسولين، الذين فقدوا أرجلهم ووضعوا عصياً مكانها، إحدى ذراعيه الهزيلتين نحوها. غمزها رجل آخر والذي كان ثملاً على ما يبدو، كما مرّر لسانه فوق شفتيه. استمرت كافيتا في تركيز نظرها على الأرض حيث توجد المخاطر الحقيقية المتمثلة بالنفايات والقوارض التي تجول في المكان.

سار إلى جانب جاسو رجلٌ يرتدي ثوباً طويلاً ومزخرفاً باللون الأصفر، فبدا كالنساء وقال: «أتريدان مكاناً للسكن؟» امتلك الرجل وجهاً وسيماً، أما عندما يبتسم، فإن سنّين ذهبيين يبدوان في فمه. تبادل جاسو كلمات قليلة مع الرجل من دون أن تسمعهما كافيتا، لكنهم ما لبثوا أن تبعوا الرجل في الطريق. توقف الرجل أمام كوخ صغير من الطين بجدرانه المكسوة بألواح البلاستيك، وسقفه المكوّن من الصفيح الصدئ. لكن عندما حاول الرجل الدفع لفتح الباب كان هناك شيء ما يعيقه. رأى الرجل من خلال الضوء الخافت كلباً أبيض الشعر، وكان هزيلاً إلى درجة أنه كان بالإمكان القيام بتعداد عظام قفصه الصدري. تخلى الرجل الذي يرتدي الساري عن مظهره الأنثوي لفترة وجيزة لطرد الكلب من الكوخ، وما لبث أن مدّ ذراعه برشاقة لإدخالهم.

قال الرجل: «غادرت عائلة أخرى هذا الكوخ في هذا الصباح. بإمكانكم المكوث هنا إذا أردتم، لكن مقابل مبلغٍ صغيرٍ من المال». فتح الرجل راحة يده، وابتسم بدهاء في وجه جاسو الذي تطلع نحو كافيتا.

قالت كافيتا: «إنها ليلة واحدة فقط». أرادت تسهيل أمر هذا الخيار الذي لا بد منه لزوجها. حلّ الظلام في الخارج بعد أن ساروا وقتاً طويلاً، وبدا بأن فيجاي مستعدٌ للنوم حتى واقفاً. وضع جاسو الحقائب، وتناول بضعة نقود معدنية من جيبه وأسقطها في اليد المنتظرة، لكن من دون أن يلمسها، وما لبث أن أشار للرجل بالخروج. كان جاسو أول من دخل إلى الكوخ، وانحنى ليتمكن من المرور في المدخل، وما لبثت كافيتا وفيجاي أن تبعاه. كانت هذه الغرفة الصغيرة الخالية من النوافذ شبه فارغة كلياً، ولم يكن هناك أي شيء فوق أرضها الترابية ما عدا بقايا الأطعمة. لكن كافيتا كادت أن تختنق من شدة الرائحة الكريهة الصادرة عن الأوساخ والقذارة، إلا أنها حملت نفسها على عدم التقيؤ.

وضعت كافيتا ذراعها فوق ذراع جاسو: «هيا، لماذا لا تصطحب فيجاي لجلب بعض الطعام ريثما أرتّب المكان قليلاً؟» اصطحب جاسو فيجاي إلى أكشاك الباعة في شارع مجاور. خرجت كافيتا من الغرفة في هذه الأثناء لتأخذ نفساً عميقاً من الهواء النقي، وما لبثت أن غطّت أنفها وفمها بطرف ثوبها. فتحت الباب بعد ذلك كي تسمح للضوء بالدخول إلى الغرفة. بدأت بعد ذلك في العمل داخل الغرفة، وجمعت بقايا الطعام والنفايات ووضعتها في كيس بلاستيكي صغير عثرت عليه في زاوية الغرفة. لكن عندما نقلت النفايات إلى الخارج، وتوقفت لتأخذ نَفَساً عميقاً آخر، لمحت مكنسة مستندة على جدار كوخ مجاور. تطلعت من حولها ثمّ أسرعت لتخبئة المكنسة في طيات ثوبها، وعادت إلى الكوخ.

أسرعتْ بالعمل بأقصى ما يمكنها من سرعة. جثمت في تلك الغرفة الصغيرة، ومرّرت المكنسة بكل قوة على الأرض الترابية. تسبّب عملها هذا بسحابة من الغبار دفعتها إلى السعال الشديد، كما

امتلأت عيناها بالدموع، لكنها أكملت عملها بالرغم من ذلك. فكّرت كافيتا في أنها لو تمكّنت من إزالة الطبقة العليا من التراب، والتي تحتوي على الأوساخ التي تركتها العائلة التي مكثت في ذلك الكوخ، وعلى قاذوراتهم وبقايا طعامهم، ولو طرحتها إلى الخارج، فسوف تبقى طبقة من التراب النظيف الذي تعودت عليه في القرية. لكن عندما شعرت كافيتا بحرقةٍ شديدة في حنجرتها لم تتمكن من الاستمرار في العمل، وهكذا وضعت كل تلك الأوساخ في الخارج وأعادت المكنسة إلى مكانها. انتظرت كافيتا قليلاً في الخارج لتنظيف رئتيها، وحتى يركد الغبار داخل الكوخ. دخلت مجدداً وتنشقت الهواء. أجل، هل أن الهواء أصبح أنظف الآن، أم أنها اعتادت على الرائحة الكريهة التي فاحت من ذلك المكان؟ أخرجت كافيتا أخيراً الفراش المعد للنوم الذي أحضراه معهما، وفرشته على الأرض بالقرب من حاجياتهم الأخرى.

أحضر جاسو وفيجاي معهما شطائر الكري، وزجاجتين باردتين من غولد سبوت. ذُهل فيجاي عندما تذوق أول رشفةٍ له من ذلك الشراب البرتقالي، وأبقاها فترة فوق لسانه، كما أبقى الفقاعات قبل أن يبتلع ما شربه. فرح الولد بهذه التجربة الجديدة فرحاً أنساه ما يحيط به في تلك الغرفة التعيسة. سمعت العائلة عند اجتماعها لتناول الطعام صوت الموسيقى صادحاً من جهاز راديو في مكانٍ ما في الخارج. كانت تلك الأغنية العاطفية مأخوذة من فيلم هندي قديم، لكن جاسو بدأ بمرافقة الأغنية بصوته بالرغم من أنه لم يفهم كلماتها. أمسك جاسو يد كافيتا ورفعَها كي تشاركه بالرقص. رقصتْ معه بترددٍ بدايةً في ذلك الكوخ الصغير المليء بالرطوبة. ابتسمت كافيتا ابتسامة قلبية أنارت وجهها، وما لبث الجميع أن بدأوا بالضحك والرقص معاً. أمضت العائلة ليلتها الأولى في ذلك المكان البائس، وبعد أن استلقوا جنباً إلى جنب إلى أن استسلموا للنوم.

استيقظ الجميع في صبيحة اليوم التالي على وقع أصوات أبواق الشاحنات التي تصمّ الآذان، والتي تمر بالقرب من الكوخ. كانت كافيتا أول من استيقظ، لكنها عجزت عن العودة إلى النوم، لكن جاسو استيقظ بعد ذلك وقت قصير. أمضى الزوجان دقائق قليلة بأيدٍ متشابكة وأعينٍ مفتوحة قبل أن ينهضا بهدوء من الفراش القابل للّف. خرجت كافيتا بعد ذلك للبحث عن المرحاض، لكنها رأت صفاً طويلاً من الناس المتجمّعين في المكان. علمتْ لدى سؤالها بأن هؤلاء الناس ينتظرون الحصول على الماء من أنبوب المياه العمومي، وكذلك لم تكن هناك منطقة محددة للمرحاض، وهكذا اضطرت، بحياء، لقضاء حاجتها بالقرب من السكك الحديدية، وما لبثت أن عادت إلى الكوخ.

قالتْ لجاسو عند عودتها وبعد أن أشارت بيدها: «هناك صفٌ طويل من الناس ينتظرون الحصول على الماء. لكن ليس عندنا شيء، مثل وعاء أو دلو لتعبئته».

قال جاسو وهو يُمسك بزجاجتَي غولد سبوت الفارغتين الباقيتين من الليلة السابقة: «ستحتاجين إلى الماء الساخن هذا اليوم. ما رأيكِ بهذه؟» أضاف مشيراً بيده نحو فيجاي النائم: «سأذهب أنا، وأنت ستبقين هنا». لكن جاسو بدا منزعجاً عند عودته بعد ساعة من الزمن.

ما الأمر يا جاني؟ لماذا تأخرتَ طيلة هذا الوقت». استخدمت كافيتا اسم التحبّب لزوجها، والذي لا تستخدمه خارج لياليهما الحميمة، لكن ملامح وجهه المرتاعة أجبرتها على استخدامه.

هذا المكان يثير الجنون يا كافي. اعتبرت إحدى النساء أن امرأةً أخرى قد تجاوزت صف» الانتظار، فبدأت تصرخ في وجهها للعودة إلى آخر الصف. رفضت المرأة الأولى العودة فبدأتا بالعراك، والتدافع، والركل إلى أن اضطرت المرأة الأولى للمغادرة. كانت النساء يتعاركن... من أجل الماء». هزّ

رأسه استياءً من هذه الحادثة. «غداً سأذهب في وقتٍ أبكر». أعطاها القوارير الفارغة المليئة بالمياه، ثم خرج للبحث عن عمل واعداً إياها بالعودة عند حلول الظلام.

قررتْ كافيتا عندما استيقظ فيجاي اصطحابه خارج منطقة أكواخ الصفيح، لكنها شعرت بأن اليأس المخيّم على هذه المنطقة قد انتقل إليها. أخذت كافيتا معها أهم أغراضها، وخبأت ما تبقى منها تحت الفراش. أمسكت كافيتا يد فيجاي بإحكام أثناء سيرهما في شوارع مومباي. كانت بلاطات الأرصفة المتكسرة تحت أقدامهما مختلطة بالنفايات والأوساخ التي تتركها الحيوانات، وكان الناس يسيرون متلاصقين بسبب ضيق المساحة، ومن دون خيار سوى التحرك معاً وكأنهم سربٌ من الطيور. كان باعة الأرصفة ينادون على بضائعهم.

«شاي ساخن! شاي لذيذ! شاي ساخنَ!».

«انظري يا سيدة. قميص نوم! مئة روبية فقط، وعدة ألوان!».

«أحدث الأفلام. فيلمان بخمسين روبية فقط. إنه سعر جيد. يمكنكِ اختيار ما تشائين».

تذكرت كافيتا مجدداً ذلك اليوم قبل سنوات، والذي أمضته عندما سارت في هذه الشوارع خلف شقيقتها روبا، أي مثل ما يسير فيجاي خلفها في هذا الوقت. بحثت كافيتا بصورة عفوية عن أي شيء تتذكره في منعطفات هذه الشوارع. هل عبرتُ الشارع عند محطة الحافلات هذه من قبل؟ ألا يبدو كشك بيع الصحف مألوفاً لدي؟ هل أتذكر سوق الفواكه هذا؟ حاولتْ كافيتا فهمَ ما يدور في هذا المكان الذي يضم ما يزيد عن عشرة ملايين شخص ويفوح بالجنون، والذي زارته مرةً واحدةً من قبل.

لمحت كافيتا من خلال الحشود وجهاً بدا مألوفاً لديها، وكان وجه فتاةٍ صغيرة تبدو مشابهةً لصورة أوشا التي تحتفظ بها في مخيلتها. رأت كافيتا ضفيرتين لامعتين ومربوطتين بالأشرطة، ووجهاً مستديراً، وابتسامةً حلوة. كانت الفتاة الصغيرة تمسك يد امرأة ترتدي ثوباً طويلاً أخضر اللون. أيُعقل أن تكون هي؟ أيمكن أن تكون هي؟ بدت الفتاة بعمر فيجاي تقريباً. أسرعت كافيتا في سيرها من خلال الحشد في محاولة منها الاقتراب من الفتاة والمرأة، متجاهلةً بذلك احتجاجات فيجاي الذي تجرّه وراءها بسرعة كبيرة. تلاشى الثوب الأخضر الطويل من أمام ناظريها، وبين دوامة الناس والألوان. توقفت بعد ذلك في منتصف الرصيف وهي تلهث من شدة الإنهاك، وتطلعت في كل الاتجاهات، لكنها لم تجد المرأة التي كانت تتبعها.

«هيا بنا نذهب إلى الكوخ يا حبيبي». شعرت بالقلق من احتمال أن تفقد أثر فيجاي بين حشود المارة، وبشأن المتسولين الذين تبعوهما. تابعت كافيتا البحث عن صاحبة الثوب الطويل [الساري] الأخضر اللون، ثم تذكرت كلمات جاسو بشأن المولود الأنثى. سوف تصبح عبئاً علينا، واستنزافاً لموارد أسرتنا. هل هذا هو ما تريدين؟ يُحتمل بأنه كان محقاً في ذلك الوقت، ولعله كان حكيماً كذلك. كان من الصعب وجود ولدين في الأسرة في وقت أيقنت فيه بوضوح صعوبة تربية طفلٍ واحد. مشيا طوال اليوم إلى أن شعرت كافيتا بإنهاكٍ شديد يدفعها إلى النوم بسرعة في هذه الليلة. شعرتْ بالاختناق بعد يوم واحد في تلك المدينة التي تموج بسكانها وحركتها وضجيجها. قاومت رئتاها ذلك الضباب الممتزج بالدّخان، وهما اللتان تعودتا على هواء القرية النظيف، كما أن قدميها اشتاقتا لتراب الحقول الرطب.

سارت كافيتا وفيجاي فقطعا منطقة الأكواخ بأكملها، ومرّا بمحاذاة مئات الأكواخ المشابهة للكوخ

الذي مكثا فيه، ودارت حول عنزةٍ متسخة كانت تدسّ أنفها في كومة كبيرة من النفايات التي تتصاعد منها الأدخنة. كان المشهد أمام كل كوخ مرّا أمامه يشتمل على الأشياء ذاتها: نيران الطبخ التي تشتعل بروث الأبقار، ودلوٍ من المياه الذي ينبغي استخدامه مع التقنين طوال النهار، وملابس رثة معلقة على الحبال. لاحظت كافيتا أن بعض السكان الأذكياء تمكنوا من استنباط طرقٍ لوضع هوائيات أجهزة التلفزيون، أو أنهم امتلكوا أجهزة راديو الترانزيستور التي يتحلق حولها الناس. اشتاقت كافيتا إلى شيء يتمكن من إدخال الطمأنينة في نفسها: يد أمها التي تواسيها، وضحكة روبا المدوية.

كان جاسو داخل الكوخ عند وصول كافيتا وفيجاي، وكان جالساً على طرف الفراش، وانشغل بتدليك كعب إحدى قدميه بإبهاميه. لكن عندما سمعهما وهما يدخلان تطلع نحوهما وابتسم. سألت كافيتا: «ماذا حدث؟».

«لا بد بأنني مشيت مسافة عشرة أميال بين هذه الأشياء القديمة». أومأ نحو صندالِه البالي والمعلق على الباب. جلست كافيتا إلى جواره واستلقت على الفراش. «زرت ثلاثة مكاتب للسعاة. قال لي الجميع بأنه ليس لديهم عملٍ لي. إنهم لا يريدون إلا الرجال الذين يعرفون شوارع مومباي جيداً، مثل سائقي الريكاشة، أو سائقي سيارات الأجرة. قولي لي إذا ما كنتُ سائق عربة ريكاشة، أو سائق سيارة أجرة، فلماذا سأحتاج وظيفة ساعٍ؟».

«تكلمت كافيتا ببطء موافقةً، ومتساءلة عن ما يعنيه: «لماذا يا عزيزي؟».

ردّ جاسو: «انطلقتُ بعد ذلك كي أبحث عن وظيفة نادل. إن نقل طلبات الطعام عبر شوارع المدينة يعطي راتباً جيداً يصل إلى مئة روبية في اليوم. أتصدّقين ذلك؟ لكن توجد قائمة طويلة بالأشخاص الذين يريدون أن يشغلوا هذه الوظيفة. طلبوا مني المراجعة كل أسبوع. قالوا لي إن العثور على هذه الوظيفة يُمكن أن يدوم لفترة ثلاثة أو أربعة أشهر».

احتارت كافيتا في كيفية التفاعل مع هذه الأخبار، وراقبت فيجاي وهو يرسم دوائر بإصبعه في الأرض الترابية المرصوصة. يجب أن تثقي به.

«لكن لديّ أخبار سارة كذلك، لأنني التقيت رجلاً خارج مركز التوظيف وقال لي إنه يعرف المدير، لذلك يمكنه مساعدتي لوضع اسمي على رأس القائمة. يعني هذا بأنني سوف أحصل على الوظيفة بسرعة مع هذه المساعدة، أي ربما بعد أسبوعين أو ثلاثة. لم أعطِه أكثر من مئتي روبية».

تطلعت كافيتا نحو زوجها بقلق. كان مجموع المبلغ الذي أحضراه معهما هو ألف روبية، وهذا المبلغ يمثّل كامل مدخراتهما، بالإضافة إلى الهدايا من عائلتيهما.

ابتسم جاسو ابتسامة عريضة وقال: «لا تقلقي يا حبيبتي! لا بأس بذلك. أراني الرجل أوراقه، وهو رجلٌ طيب. سيساعدني هذا الرجل كذلك على الحصول على دراجة كي أستخدمها في الوظيفة، وهو سيسمح لي باستخدامها على الفور من دون أن أدفع له مالاً. سيكفيني مدخولي في البداية لدفع ثمن الدراجة، لكن بعد أن تصبح ملكاً لي سأتمكن من الاحتفاظ بكل مدخولي». وقف جاسو وأمسك بكتفيها. «لا تقلقي هكذا. هذا جيدٌ لنا يا حبيبتي، جيدٌ جداً!» أحاط رأسها بيديه العريضتين وقبّلها في أعلى نقطة فيه. «تحدث الأمور مثل ما توقعت، ولن يمضي وقت طويل قبل أن نمتلك شقة خاصة بنا، وبمساحة كبيرة، وستكون مزودة بمطبخٍ كبيرٍ لكِ. أتعرفين؟».

عجزت عن عدم الابتسام عندما يكون بهذا الوضع، وجاء دورها كي تَخرج نَفسها من صدرها. «حسناً يا سيّد نادل. دعنا نتناول طعام العشاء إذاً.

راقبت كافيتا جاسو ذات صباح من مكانها في الفراش، وذلك بعد مرور أسبوعين. كان يحمل إناءً مليئاً بالماء البارد إلى زاوية الغرفة. غسل وجهه ثم بدأ بحلاقة ذقنه بكل تأنٍ. دأب جاسو على مراجعة مكتب التوظيف يومياً، لكنه لم يوفّق في العثور على وظيفة. أما الرجل الذي أخذ منه مبلغ مئتي روبية فلم يظهر مجدداً. لكن جاسو أصرّ على النهوض باكراً لأخذ دورٍ له بين صف المنتظرين لأخذ نصيبهم من المياه. أصرّ جاسو على القيام بهذا العمل بنفسه، بالرغم من أن النساء الآتيات من حي الأكواخ هن اللواتي يأتين لأخذ المياه. أبلغ جاسو كافيتا في ذلك اليوم بأنه سمع عن انتشار مرض التيفوئيد في القسم الشمالي من ذلك الحي. قال إن ثلاثة أطفالٍ ماتوا، وأن عدداً كبيراً آخر أصيبوا بالعدوى. قال لها: «لا تَدَعي فيجاي يدنو من المياه الملوثة. «يقضي أولئك الناس حاجاتهم في أي مكان هناك، أي أنهم مثل الكلاب، وهم لا يستحون أبداً». ارتدى ثيابه بكل عناية، كما سرّح شعره، ثمّ أسرع بالخروج وكأن شخصاً ما ينتظره في وقتٍ محدد. كان يخرج من الكوخ في كل صباح مليئاً بالأمل، لكنه يعود في كل مساء إلى منزلهما المؤقت مليئاً بخيبة الأمل.

خرجت كافيتا لتحضير الشاي مستخدمةً ما تبقى من جمر الليلة السابقة، كما بقي بعض الطعام من عشاء اليوم السابق، فأسرعت إلى قسمته إلى نصفين، واحدٍ لجاسو والآخر لفيجاي. خرجت نساء أخريات من الأكواخ المجاورة من أجل تحضير طعام الفطور كما فعلت هي. كانت أولئك النسوة يجمعن الأقسام الزائدة من أثوابهن الطويلة بين ركبهن عندما يقرفصن للقيام بتحضير الطعام، وتبادل الأحاديث بعضهن مع بعض. عاشت أولئك النسوة معاً زمناً طويلاً، وهكذا أصبحن جيراناً. لم تشارك كافيتا في تلك الأحاديث، وذلك بالرغم من أنها تصغي إلى الشائعات التي يتناقلنها من فوق نيران مواقدهن. كانت تلك شائعات تثير فيها الرعب الشديد، مثل قصص اختفاء الأطفال، والزوجات اللواتي تعرضن للضرب في الليلة السابقة. كان بعض رجال حي البؤس هذا يقومون بتحضير شرابٍ في بيوتهن من أجل بيعه أو مبادلته مع الآخرين. كان أولئك الرجال الغاضبون عندما يثملون يتحولون بعضهم ضد بعض، وضد جيرانهم وأفراد أسرِهم من أجل تفريغ غضبهم.

بدا لكافيتا أن حيّ الأكواخ هذا ما هو إلا مدينة قائمة بذاتها. كان هناك الدائنون والمدينون، وأصحاب الأكواخ والمستأجرون، والأصدقاء والأعداء، والمجرمون والضحايا. يعيش الناس في هذا المكان مثل الحيوانات في أماكنٍ صغيرة مكتظة، ويتعاركون من أجل الحصول على حاجيات الحياة اليومية، وهو وضع يختلف تماماً عن الوضع الذي عاشته في القرية. أما الأسوأ من ذلك كله فهو أن عدداً كبيراً من الأشخاص الذين عاشوا في هذا المكان لسنواتٍ عديدة بدأوا باعتباره موطناً لهم، وهم عمِلوا بأكثر الوظائف قذارة ومقتاً في المدينة: عمال تنظيف المراحيض، وجامعو مهملات الناس، والباحثون عن أشياء يُمكن إعادة استخدامها. إنهم ليسوا موظفين من الذين يعيشون في منازل لائقة مثل الأشخاص العاديين. لكن جاسو اعتزم على مغادرة المكان ما إن يحصل على وظيفته، وكافيتا تعرف أنهم لا يستطيعون الاستمرار في العيش في هذا المكان.

استيقظت العائلة في وقتٍ لاحق من تلك الليلة، وبعد وقتٍ طويل من استسلام أفرادها للنوم على أصوات عالية في الخارج. قفزَ جاسو نحو الباب على الفور. كانت قوارير غولد سبوت الفارغة بالقرب من الباب وجاهزة لملئها بالمياه في الصباح. حمل جاسو قارورة في كل يد، بينما جلست كافيتا واحتضت فيجاي الذي استيقظ لتوه من النوم. اعتادت أعينهم على الظلمة مع تزايد صخب الأصوات، واقترابها في

الخارج. فتح جاسو الباب قليلاً كي يعرف ما يجري في الخارج. أغلق الباب بسرعة، وهمس لكافيتا: «إنهم رجال الشرطة! إنهم يفتحون الأبواب بالقوة، ويفتشون ما وراءها، وهم يحملون العصي والمصابيح». وقف جاسو مستنداً على الباب بقوة، أما كافيتا فقد تحركت لتحمي فيجاي الذي توسعت عيناه من الخوف.

سمع الزوجان طرقات على أبواب الأكواخ الأخرى، كما سمعا أصوات الزجاجات الفارغة التي تُرمى على الجدران، وأصوات تكسّر الزجاج، وكذلك المزيد من الأصوات الغاضبة. سمعا بعد ذلك صراخ امرأة والذي استمر طويلاً مترافقاً مع الدموع. بدأت الأصوات الغاضبة تتلاشى بعد مرور ما بدا أنه وقت طويل، لكن لتحلّ مكانها أصوات الضحكات الخبيثة، والتي ما لبثت أن خفتت مع بُعد المسافة. ساد الهدوء مجدداً، واستمر جاسو في حراسة الباب. أشارت كافيتا له لكي يقترب منها. شعرت عندما احتضنته بأن الخوف والتعرق نتيجة وجود الشرطة قد زالا مع رحيلها.

قال فيجاي الذي كان مرتجفاً: «ماما؟» تطلعت كافيتا إلى حيث كانت يداه تمسكان مقدمة بنطاله. كان البنطال مبللاً. أسرعت كافيتا لتغيير ملابسه، وما لبثت أن غطّت الفراش المبلّل بصحيفة قديمة. استلقى الثلاثة على الفراش وأحاط جاسو كافيتا بذراعيه، بينما أحاطت هي ابنهما بذراعيها. قال فيجاي ببساطة ووسط الظلمة: «اشتقت إلى نانيي». بدأت كافيتا بالبكاء من دون أن تصدر أي صوت أو حركة. نام فيجاي أخيراً وانتظم تنفّسه، لكنها لم تذق مع جاسو طعم النوم لما تبقى من تلك الليلة.

عاد جاسو في صباح اليوم التالي من صفّ المنتظرين حصولهم على الماء بأخبارٍ عن الغارة التي شنّتها الشرطة، وبدا بأنها شيء عادي في ذلك الحي البائس. أخبره أحد جيرانه بأن الشرطة كانت تبحث عن رجلٍ يشتبه به بأنه سرق شيئاً ما من المصنع الذي يعمل فيه. لم تجد الشرطة الرجل الذي تبحث عنه في منزله حتى بعد أن أيقظت عشرات العائلات الأخرى.

لكنها وجدت ابنته التي تبلغ الخامسة عشرة من عمرها. اغتصبها رجال الشرطة بوحشية أمام والدتها وأخوتها الصغار، بينما كان الجيران يستمعون إلى ما يحدث بخوفٍ شديد.

23

عيد الشكر

مينلو بارك، كاليفورنيا - 1991

كريشنان

«هل انتهيت من هرس البطاطا؟ كريس!».

كان كريشنان غارقاً في قراءة صفحات إنديا أبرود (الهند في الخارج)، ولهذا بالكاد سمع سومر عندما نادته.

«ابدأ بهرس البطاطا، لأن ديك الحبش سيكون جاهزاً في غضون نصف ساعة. لكن تذكّر عدم إضافة أي نوعٍ من البهارات هذه المرة، لأن والدي لا يحب الطعام الحار».

زفر كريشنان بصوتٍ عالٍ. الطعام الحار؟ إن الأميركيين فقط هم الذين يعتبرون البطاطا المهروسة حارة، وعلى الأخص لأنها ربما من أبسط الأطباق التي ظهرت على الإطلاق. لكن في ما عدا البطاطا الحارة التي تحضّرها والدته، وهي المكونة من شرائح البطاطا المسلوقة الطرية والمغمسة في سائل حارٍ، والمزيّنة بالفلفل الحار، ثم تُقلى إلى أن تتحول إلى اللون البني المائل إلى الذهبي. كان من الصعب أن يرى هذا الطبق قبل أن تسرع أصابعه المتلهفة إلى الامتداد إليه. مضى وقت طويل على كريس قبل أن يتذوق البطاطا باكورا. تنهّد عندما بدأ بهرس البطاطا التي يتصاعد منها البخار في الوعاء. اعتادت سومر مسايرته بتناول الطعام الهندي بين حينٍ وآخر، لكنها لم تتعلق بأنواع الطعام الهندية، كما أن مهاراتها في الطبخ كانت محدودة. علّمها ذات مرة كيفية تحضير شانا ماسالا، وهو طبق بسيط يُمكن تحضيره من علبة حبوب الحمّص وبعض البهارات المعلّبة، لكن سومر اعتادت تحضير هذا الطبق تكراراً وتقدّمه مع الخبز العربي الذي تشتريه من المتاجر. أما قارورة الزعفران غالية الثمن التي أرسلها والداه إليه من الهند، فقبعت غير مفتوحة في الرفّ المخصّص للبهارات، لكن سومر اعترفت بأنها لا تعرف كيفية استخدامها.

أضاف كريس بضع ملاعقٍ من الزبدة إلى الوعاء، وسكب بعض الحليب، ثم حرّك هذا المزيج. جاءت النتيجة مزيجاً طرياً أبيض اللون مثل شراشف أسرّة المستشفيات، وملفتة للنظر مثلها. كيف يمكن للمرء أن يأكل شيئاً من دون لونٍ أو طعم؟ تحوّل هذا الطبق من البطاطا إلى ما يشبه اختصاصٍ له في عيد الشكر. حاول في إحدى السنوات الابتكار، فأضاف حفنة من قصاصات أوراق الكزبرة على سبيل الزينة. أما في السنة التالية، فقد حرّك مقدار ملعقة صغيرة من البهارات مع الزبدة، لكن في هذه السنة فقد كان مقيَّدا بإضافة الملح والزبدة.

هرعت سومر إلى الفرن وفتحت بابه، ثم دسّت ميزان الحرارة في الديك الرومي لمرات لا تعد ولا تحصى.

لم يفهم كريشنان أبداً السبب الذي يدفع بالأميركيين، وزوجته على وجه الخصوص، إلى إجهاد أنفسهم لإعداد هذه الوجبة الوحيدةٍ في كل عام. أما الاحتفالات التي تقيمها أسرته في وطنه فعادةً ما تشتمل على دزينة من الأطباق، وكلٌ منها تتطلّب تحضيرات أكثر تعقيداً من مجرد وضع ديك رومي في الفرن لساعاتٍ قليلة، كما أن تلك الأطباق لم يكن مصدرها المعلبات. كانت والدته ديوالي، وخالاته، يقمن بالطبخ قبل أيام عدة: الدوكلا اللذيذة والخفيفة والمغمسة بصلصة جوز الهند، وكاري الخضروات القوية، وطبق الدال (حساء العدس) الحار، كما يجري اختيار كل صنفٍ من أصناف هذه الخضار من بائع الخضار، كما يجري تحميص كل نوعٍ من أنواع البهارات، ثم تُطحن وتُخلط يدوياً بعد ذلك. يُضاف إلى ذلك التورتة (الكعكة المحشوة بالمربى)، واللبن الزبادي الدسم والمحضّر في البيوت، كما أن الخبز يقدّم ساخناً من الفرن مباشرة. تمضي النساء ساعات عديدة في تبادل الإشاعات والضحك أثناء التقشير والتقطيع، والغلي، والقلي تمهيداً لتحضير مأدبة تكفي عشرين شخصاً أو أكثر. لم يفهم كذلك سبب القلق الذي تبديه زوجته في هذا الوقت. تذكر أول احتفالٍ حضره بعيد الشكر الأميركي.

تلقى كريشنان عندما كان في سنته الأولى من دراسة الطب دعوة من جاكوب، زميله في الدراسة، لزيارة بوسطن. لم يكن مضى على وجود كريشنان في الولايات المتحدة سوى أشهرٍ قليلة أمضاها كلها في كاليفورنيا، وهكذا عندما وصل إلى بوسطن كان أول شيءٍ أثار دهشته هو الهواء البارد والعليل، والألوان الملتمعة لأوراق الأشجار. كان ذلك أول فصلٍ خريف يشهده في حياته.

كان في ذلك الوقت اثنا عشر شخصاً، وسرعان ما بدأ كريشنان بالعمل مع الآخرين في كنس أوراق الشجر في الدار الفسيح لذلك المنزل الفخم الذي يعود إلى عصر ما قبل استقلال البلاد. ارتبك كريس كثيراً، وتساءل عن سبب عدم وجود الخدم لهذا النوع من الأعمال، لكنه شعر بارتباكٍ أكبر عند مشاهدته لعبة كرة القدم باللمس (بدل الركل) التي جرت بعد انتهاء العمل. دخل الجميع بعد ذلك لتدفئة أيديهم التي بدأت بالخدر فتحلقوا حول النار. سمع كريشنان في هذا الوقت الضحكات المدوية في المطبخ التي أطلقتها شقيقة جاكوب الصغرى والجميلة. كانت الفتيات من أقربائها تضايقنها بشأن صديقها الجديد الذي أحضرته معها إلى المنزل للمرة الأولى. كان كريشنان غافلاً كلياً عن هذه العادة. يقوم الأهل والأقرباء في الهند بلعب دور الحاجز الأول، وليس الأخير، لقبول الشركاء المحتملين، وهكذا تكون المغازلات بين الشركاء في مرحلة الخطوبة محدودة، وعادة ما تكون تحت الرقابة. استمتع كريشنان بوجبة الطعام كثيراً، بالرغم من اعتباره بأن قدراً إضافياً من الصلصة الحارة من شأنه أن يحسّن مذاق الطعام كثيراً. افتتن كريشنان مع حلول نهاية الأسبوع بكل ما رآه هناك: المنزل الجميل، والفناء الواسع، والفتاة الجميلة ذات الشعر الأشقر. كان ذلك هو ما أراده، أي الوقوع في غرام الحلم الأميركي.

دُهش كريشنان عند بداية قدومه إلى الولايات المتحدة لدراسة الطب بهذه الإمكانيات الجديدة التي انفتحت أمامه في حياته على نحوٍ مفاجئ. لكن حرَمَ جامعة ستانفورد الذي يوحي بالجدية لم يختلف كثيراً عن تلك المدينة المزدحمة التي تركها. إلا أن أميركا قدّمت له أكثر من ذلك بكثير: الشوارع النظيفة، ومراكز التسوق الضخمة، والسيارات المريحة. يُضاف إلى كل ذلك أنه بدأ بالاستمتاع بتذوّق مختلف أنواع الأطعمة، وعلى الأخص البطاطا المقلية والبيتزا التي يقدمها المطعم الخاص بحرم الجامعة.

عاد كريشنان إلى الهند لزيارة أهله بعد أن أنهى السنة الثانية من دراسته، لكنه اكتشف أن أموراً

كثيرة قد تغيّرت. كان ذلك في صيف العام 1975، أي عندما أعلنت أنديرا غاندي حالة الطوارئ بعد صدور حكم من القضاء بأنها أقدمت على تزوير الانتخابات. أقدمت الحكومة في ذلك الوقت على قمع الاحتجاجات السياسية التي ثارت في وجهها وبسرعة، كما تمّ اعتقال خصوم الحكومة بالآلاف. كان من الصعب جداً تصديق كل ما يُكتب في الصحف من دعاية، لكن كان من المؤكد وجود إحساس بالخوف والقلق بشأن المستقبل. لاحظ كريشنان عندما رافق والده في بعض الجولات أن المستشفى يبدو أقدم مما يتذكره، ولاحظ على وجه الخصوص مدى تباينه مع ستانفورد. عرف في هذه الجولة أن بعض أصدقائه قد تزوجوا، لكن كريشنان تمكّن من تفادي تلميحات والدته بأن الوقت قد حان كي يبدأ بالتعرّف على الفتيات. شعر بالحنين إلى أميركا مع نهاية الصيف، حيث الحياة تبدو جميلة، وفرص ممارسة مهنته ممتازة. استنتج كريس بأن عودته إلى وطنه قد حسمت قراراته، وهكذا تأكد عند عودته إلى كاليفورنيا لإتمام آخر سنتين من دراسته في كلية الطب من أنه يريد البقاء.

بدا له أن العقد السابق من السنين كان أشبه ما يكون بمجموعة ضبابية من الأيام والليالي التي عمل فيها بدون انقطاع كي يصبح طبيباً جرَّاحا. نجح كريس في إكمال واحدٍ من أقسى برامج التدريب في البلاد. بدأ زملاءه باستشارته بأكثر الحالات الطبية تعقيداً التي تعرض لهم، كما طلب منه أن يكون محاضراً ضيفاً في ستانفورد. يُضاف إلى ذلك أنه حصل على فتاة شَقراء وجميلة، وهي التي أصبحت زوجته في ما بعد. اعتبر كريس نفسه ناجحاً بكل المقاييس الموضوعية، كما حقّق بعد مكوثه خمس عشرة سنة في هذه البلاد الحلم الذي سعى إليه.

جلس الجميع في غرفة الطعام، وتحلّقوا حول المائدة الرسمية، لكنهم جلسوا متباعدين بعضهم عن بعض قليلا. تولى والد سومر تقطيع الديك الرومي، ثم تمّ توزيع الأطباق المليئة بالحشو، وصلصة التوت البري، ومرق اللحم، والبطاطا المهروسة، واللوبياء. أصغى كريشنان أثناء تناوله الطعام إلى آشا وهي تُبهج جدّيها بقصص عن معلماتها الجدد، وزيّها المدرسي الذي تحبه. «أفضل ما في هذه المدرسة هو أنها خالية من الصبيان لأنهم مزعجون». ضحك الجميع، لكن كان من الصعب عليه أن يبتسم. كان تناول الطعام في هذه الغرفة قليلاً خلال السنة. لاحظ كريس أن الحاضرين لا يملأون الطاولة. فتح عينيه مرات عدة متطلعاً في هذا المنزل الذي يُعتبر واسعاً وجميلاً، لكنه يبدو عقيماً، أي تماماً كما هي حياتهما. لكن هذا الشعور بالعقم يتلاشى كثيراً عندما تملأه آشا بثرثراتها وضحكاتها. لكن حتى في هذه الحالة لا يوحي المنزل بأنه مليء بالحيوية التي يتذكرها منذ طفولته عند اجتماع العائلة. كانت تلك هي الحياة التي تصوّرها، والحياة التي أمل فيها، لكن الحلم الأميركي، وبطريقة ما، بدا فارغاً بالنسبة إليه.

اجتمعت عائلته في الهند على مائدة العشاء قبل أسابيع قليلة فقط في المنزل العائلي، وذلك بمناسبة عيد ديفالي، وكان عدد المجتمعين أربعة وعشرين شخصاً على الأقل. كان كريشنان هو الغائب الوحيد، ولهذا اتصلوا به هاتفياً، وتنقل الهاتف بينهم واحداً بعد الآخر ليتمنى له عيداً سعيداً. جرى نحو الهاتف جرياً عندما رنّ في ذلك اليوم، لكنه بعد انتهاء المكالمة جلس من دون حراك أمام طاولة المطبخ ممسكاً الهاتف بيده. كان الوقت مساءً في مومباي، وكان بإمكانه أن يغمض عينيه ليتصوّر ملايين المصابيح الصغيرة المصنوعة من الطين، والتي يتصاعد منها لُهُبٌ صغيرة مصفوفةٌ على الشرفات وفوق أكشاك الشوارع وواجهات المحلات. يأتي الزائرون لتبادل علب الحلويات والتمنيات كما تُقفل المدارس لهذه المناسبة، ويتسلى الأولاد بالألعاب النارية. كانت تلك واحدة من ليالي السنة المفضلة لديه، أي عندما تتشارك مومباي بأكملها في هذا الشعور السحري.

أثار كريشنان فكرة العودة مجدداً إلى الهند للزيارة، ولربما كي يتبنى طفلاً آخر، لكن سومر قاومت

الفكرة. بدا بأنها مصرة على إبقاء آشا في تلك الشرنقة الصغيرة التي نسجاها من حولها. لكن تلك لم تكن طريقة تصوّره للأسرة، أي كونها شيئاً قيِّما يحتاج إلى الحماية. يعتبر كريس بأن الأسرة هي برعم بري، وشيء قوي يصمد أمام السنين، والمسافات، وحتى الأخطاء. يتذكر كريشنان منذ نعومة أظفاره وجود بعض الخطايا والصراعات الكبيرة التي نشبت بين أفراد عشيرته الكبيرة، لكن هذه الصراعات لم تؤثر على العلاقة التي تربط بين أفرادها. لكن سومر تحتفظ بنوايا طيبة، ولهذا فإنها تحاول بذل جهودها مع آشا أين ما استطاعت، أي عندما تتصفح معها مجلة ناشيونال جيوغرافيك، وعندما تدلّها على خرائط الهند، وعندما تراجع معها الحقائق المتعلقة بالزراعة والحيوانات في ذلك البلد. أما عندما كانت أسرة كريس ترسل ثياباً هندية تقليدية، فكانت تقوم بإلباس آشا تلك الثياب، وأرسال صورها إلى العائلة في الهند. لكن لم يكن هناك مناسبات تناسب ارتداء هذه الثياب المزركشة، وهكذا تجمعت في خزانتها. كانت جهودها هذه ضئيلة الأثر في النهاية، أي مثل ما كانت محاولات كريس تعليم سومر بضع كلمات من لغة الجوجارتي.

يُحتمل أن كل ذلك لم يشكّل مصدر قلق له بهذا القدر لو أنه شعر بأنه لا زال يحتفظ بالمرأة التي وقع في حبّها، أي ذلك الشريك الفكريّ، والرفيق الذي يساويه. اشتاق كريس إلى التحدث مع سومر حول المواضيع الطبية، وهي التي كانت مهتمة بالحالات التي تَعْرِضُ أمامه، إلا أنها فضّلت في تلك الأيام مناقشة تفاصيل الفروض المدرسية العادية التي تجلبها معا آشا. يُضاف إلى ذلك أنه حين كانت سومر تتكلم عن عملها في العيادة كان يجد من الصعب عليه التظاهر بأن مسائل الأنوف التي تعاني من الرشح، أو العضلات التي تعرّضت للالتواء، حازت اهتمامه، وذلك بالمقارنة مع حالات أورام الدماغ، وحالات تمدّد الأوعية الدموية التي تمرّ أمامه في كل يوم. لكن بالرغم من أنهما تشاركا في المهنة ذاتها، إلا أنه كان من الصعب عليهما التحادث من دون أن يشعر أحدهما بالضجر، أو حتى بالاستياء، من الآخر. بدا له في بعض الأوقات بأن تلك الأمور تقيّد زواجهما، وكانت في تلك الأيام لا تشبه تلك الأمور التي جمعتهما معاً ذات مرة إلا في الحد الأدنى.

لكن أفكاره هذه قاطعها صوت سومر الذي شعّ فرحاً: «دعونا نشرب نخباً». رفعت سومر كوبها في الهواء، وما لبث الآخرون أن حذوا حذوها. «على شرف الأسرة!» ردّد الجميع هذه المشاعر وهم يقفون استعداداً للاقتراب من الطاولة لتتلاقى أكوابهم بعضها مع بعض. ارتشف كريشنان جرعة كبيرة من شرابه المبرّد، وشعر بهذا السائل أثناء تقاطره من خلال حنجرته فاجتاحت جسده موجة من الشعور بالبرد.

24

قيلولة

مومباي، الهند - 1991

جاسو وكافيتا

تأوه جاسو عند سماعه صوت جرس المنبّه. أصدرت رفّاصات السرير صريراً عند نهوضه من الفراش الرقيق، وكان من الممكن أن تصدر هذه الضجة عن مفاصله. لمس بطة رجل كافيتا بينما سار بتثاقل عند طرف السرير الذي يوجد في غرفة نومهما. توجّه بعد ذلك إلى الطابق السفلي كي يستخدم المراحيض العامة في المبنى. تتمثل إحدى النواحي الإيجابية للاستيقاظ باكراً في أن تلك المراحيض لا تكون مزدحمة.

لاحظ عند عودته بأن كافيتا أنهت حمّامها، وارتدت ثيابها، لكنها كانت منهمكة في تنظيف أسنانها والبصق من فوق سياج الشرفة. أخذ جاسو حمّامه في الغرفة الصغيرة الأخرى التي استخدموها للطهي وتناول الطعام، لكنه سمع أصوات جرسِ الصلاة الذي تستخدمه كافيتا، والتي كانت توقظ فيجاي بصوت غنائها العذب. رفض فيجاي النوم وحيداً حتى مع امتلاكهم لمساحةٍ أكبر في هذه الشقة، وهو الذي اعتاد على تقاسم السرير مع والديه خلال السنوات الست التي مضت، لكن المعاناة التي لاقوها في أحياء الفقراء سبّبت له كوابيس متتابعة ليلة بعد ليلة. اعتادت كافيتا على دخول المطبخ لتحضير طعام الفطور، بينما يخرج جاسو برشاقة إلى غرفة المعيشة لارتداء ثيابه، وتمرير المشط الأسود الرفيع من خلال شعره المبلل. توقف قليلاً أمام نموذج المعبد الصغير، وضمّ راحتَي يديه معاً، وأحنى رأسه. كان الزوجان يمرّان أحدهما من أمام الآخر هكذا مرات عدة في كل صباح، ويتبادلان طقساً صامتاً تدرّبا عليه كثيراً.

قالت كافيتا: «أتريد تناول طعامك؟».

ردّ عليها: «سآخذه معي». يقع المصنع الذي عمل فيه جاسو في فيكرولي، وكان يبعد مسيرة أربعين دقيقة، وهي مسيرة تُعتبر قصيرة بمعايير مومباي، لكنه يحب أن يكون من بين أول الواصلين في الصباح. كانٍ من حسن حظ جاسو أن تكون محطة القطارات المركزية قريبة جداً من منزله، كما أنه أصبح ماهراً في الركض كي يلحق بالقطار الذي غادر المحطة لتوه، وأصبح قادراً على القفز إلى داخله في آخر لحظةٍ ممكنة. كان ذلك أكثر فترات يومه التي يستمتع فيها، أي برياضة اللحاق بالقطار، وبالحرية التي شعر بها في التعلّق خارجه أثناء مروره في شوارع المدينة، وعندما يشعر بمرور الهواء بين ملابسه التي تكون قد التصقت به نتيجة تعرّقه. لكن سبق له أن سمع بأن ذلك يحمل خطراً كبيراً عليه، كما قيل له إن بضعة آلافٍ من الركاب يموتون نتيجة ركوبهم هكذا في كل عام. لكن إذا علمنا أن عدد الأشخاص الذين يستخدمون شبكة القطارات يصل إلى ملايين عدة في مومباي، فإن عدد الضحايا

يبدو معقولاً، وهو الأمر الذي لا يُعتبر خطراً بالنسبة إلى جاسو.

أما مصنع الدراجات الهوائية الذي عمل فيه جاسو فلم يكن آمناً بكل تأكيد. شاهد جاسو في الشهر الأول لبداية عمله في المصنع رجلَين يفقدان أصابعهما في الآلات، بينما تعرّض رجل ثالث لحروق شديدة نتيجة مشعل التلحيم. كان جاسو يحصل إذا ما وصل باكراً على فرصة تكليفه بأعمالٍ أقل خطورةً، مثل طلاء هياكل الدراجات، أو تثبيت العزقات بواسطةً مفتاح الربط.

كان ذلك المصنع مستودعاً كبيراً مليئاً بالغبار في أوقات العمل، وبمختلف الأدوات والآلات من غير ترتيب. يُضاف إلى ذلك أن الإضاءة الضعيفة تجعل من الصعب على المرء الرؤية، كما أن جاسو عثر أكثر من مرة بالأسلاك الكهربائية التي تمتد فوق أرض المصنع. أما الغبار والأدخنة الناتجة عن مشاعل التلحيم فتسببت بتهيّج في حنجرته، وعينيه، إلى درجة أن الخروج إلى هواء مومباي الممتزج بالضباب والدخان، يُعتبر مريحاً بالنسبة إليه. لكن جاسو شعر بالرغم من كل ذلك بأنه محظوظٌ لحصوله على هذه الوظيفة التي عثر عليها بعد مرور أيام قليلة على غارة الشرطة على حي الأكواخ. لم يكن الراتب بالمستوى الذي كان يُمكنه الحصول عليه إذا ما عمل نادلاً، وهو الذي حصل على ثمانية روبيات فقط في الساعة. لكنه إذا ما عمل ساعةً إضافية في الصباح وفي الليل، فسوف يكون بإمكانه كسب ما يزيد عن ألفَي روبية في الشهر، أي ما يعادل مدخول خمسة أشهر في القرية.

لم يكن من السهل عليه بالرغم من ذلك العثور على شقة يمكنه تحمّل دفع إيجارها. كانت هذه الشقة تقع في شارع شيفاجي، وكانت أصغر بكثير من المنزل الذي تركوه في قريتهم. تغيّر موقف جاسو منذ وصولهم إلى مومباي، وذلك بعد الأهوال التي شهدوها في حي الأكواخ. لكن الإقامة في ذلك الحي التي توقعا في البداية أن لا تطول إلا لليلة أو اثنتين تحولت إلى أسابيع، إلا أنهما شعرا بأن هذه المدة هي أطول من ذلك بكثير. لكن من بين كل الأشياء التي سمعها عن مومباي، ومن بين كل الأحلام التي راودته في ذهنه، لم يكن هناك مكان يشبه دارافي. كان ما تعرّض له كافياً ليدفعه إلى حزم أمتعته والعودة إلى قريته.

لكنه كان يعرف أن لا شيء في القرية يستأهل عودته إليها، كما كان يعرف أن أسرته تعوّل عليه، وهو الذي جلبها إلى هذا المكان، ويتعيّن عليه الاهتمام بها. أحضر جاسو في اليوم التالي للغارة التي قامٍ بها رجال الشرطة سكيناً من الرجل الذي يرتدي الساري الأصفر، وبدأ بالنوم بالقرب من الباب حاملاً السكين بيده. استمر فيجاي بالاستيقاظ وهو يصرخ، وكان لزاماً عليهما ملاطفته إلى أن يعود إلى النوم. لم تتلفظ كافيتا بأي كلمة، لكن كان من الواضح بأنها كرهت ذلك المكان، وكانت كراهيتها تتزايد مع مرور كل يوم يُجبرون فيه على البقاء. كان جاسو يعود في أيام كثيرة ليجد زوجته وهي تضرب الأرضٍ بقوة بالمكنسة، بينما كان فيجاي ينتظر في الخارج، ويبدو مرتعباً.

لكن الشقة في طريق شيفاجي كانت تلبي حاجياتهم الأساسية، كما أنها وفّرت لهم قدراً أكبر من الأمان والخصوصية ممّا كان الأمر عليه في مدينة الأكواخ. يُضاف إلى كل ذلك وجود مدرسة جيدة مجاورة للشقة يُمكن لفيجاي أن يتعلّم فيها. استخدم الزوجان ما تبقى من مدخراتهما، بالإضافة إلى معظم راتب جاسو الذي تقاضاه من وظيفته الجديدة من أجل تأمين استئجار تلك الشقة. شعرا في أول ليلة لهم في تلك الشقة المتواضعة المؤلفة من غرفتين أنهم يقيمون في قصر مقارنة بالمكان الذي كانوا فيه.

تباطأت سرعة القطار مع اقترابه من المحطة فقفز جاسو إلى منصة المحطة، وتطلع إلى ساعته.

تأكد من وصوله إلى مكان عمله قبل الساعة السابعة والنصف، أي كما كان يفعل في كل صباح منذ تسلّمه للوظيفة. مرّ بعد ذلك على رئيس العمال الذي سبق أن قدّم لجاسو كوباً من الشاي الساخن، والذي يكون متبقياً على صينية المدير. كان جاسو يعمل على هذه الوتيرة ستة أيام في الأسبوع، ويبدأ عمله من الصباح الباكر وحتى ما بعد حلول الظلام. كان جاسو يقوم بكل ما يُطلب منه، ونادراً ما كان يأخذ استراحة حتى عندما يخرج باقي الرجال لتدخين السجائر. أما عندما يعود إلى المنزل في الليل، فكانت رائحة العرق تفوح من جسمه الذي يؤلمه من شدة التعب. كانت أيامه في هذه الفترة أشد إرهاقاً بالنسبة إليه من أعمال الحقل في قريته. لكن جاسو لم يأبه لكل ذلك لأنه كان يشقّ لنفسه ولعائلته طريقاً نحو حياة أفضل.

غسلت كافيتا آخر الأطباق المصنوعة من الفولاذ الذي لا يصدأ. كان غسل أطباق طعام الفطور أولى المهمات الموكولة إليها بعد وصولها إلى عملها في شقة رب عملها الفخمة. كانت تأخذ أوامرها من بهايا، رئيسة الخدم، والتي عملت في القصر منذ زمن طويل إلى حد أن تعليمات زوجة صاحب القصر الموجهة إليها كانت تأتي على شكل جملٍ مختصرة لا يفهمها أحد غيرهما، وكأنهما كانا يتكلمان لغةً سرية. تمتعت بهايا لوحدها بامتياز الذهاب إلى السوق والإشراف على الطبخ، في حين كانت كافيتا تقوم بغسل الأطباق، وبمعظم الغسيل. كانت المرأتان تقومان بكل هذه الأعمال المنزلية بهدوء تام. أما حين كانت بهايا تتحدث إلى كافيتا، فعادةً ما كانت تطلب منها إضافة سلعة ما، مثل طحين القمح، والعدس، وبذور الكمون إلى قائمة التسوق التي تحتفظ بها كافيتا في ذهنها، وهي التي لا تعرف القراءة أو الكتابة، إلا أنها كانت تتمتع بذاكرة ممتازة للكلمات، وهكذا كانت بهايا تعتمد عليها لهذه الناحية.

كان من المفاجئ بالنسبة إلى كافيتا ملاحظة هذا المقدار من الفوضى الذي يُمكن لشخصين أن يتسببا به حتى بعد أن يكبر أولادهما، وبعد أن يكون لديهما ما يكفي من المال ليعيشا في مكانٍ آخر. يستخدم السيّد، رب عملها، وزوجته أكواباً عدة وأواني صغيرة لكل وجبة، أي ليس طبقاً معدنياً كبيراً واحداً مثل الذي اعتادت كافيتا على استخدامه. تستخدم بهايا كذلك وعاءً مختلفاً لطبخ كل نوع من أنواع الطعام. كانت زوجة السيّد ترتدي في بعض الأحيان ثلاثة أثواب طويلة في يوم واحد، وتترك الأثواب التي سبق لها أن ارتدتها والسترات القصيرة والبلوزات مبعثرة فوق سريرها. أما مجوهراتها فكانت تحرص حرصاً شديداً على إعادتها إلى خزنة معدنية مقفلة. كانت كافيتا تقوم كذلك بكيّ أثواب الساري وطيّها قبل إعادتها إلى الخزانة. كان السيّد وزوجته يستقبلان زواراً في كل يوم، كما كانا يستقبلان ضيوفاً عند كل وجبة يتناولانها تقريباً. اعتادت بهايا على تحضير طعام يكفي لستة أشخاص على الأقل، وهو الأمر الذي يعني بقاء طعام يكفي الخادمتين.

علمت كافيتا عن هذه الوظيفة من شقيقة بهايا التي تعيش بالقرب منها في طريق شيفاجي. لم تكن هذه الوظيفة من النوع التي يرضى جاسو أن تقوم بها زوجته، وذلك لأنه كان يفضّل أن تعمل في الخياطة. لكن الراتب وصل إلى سبعمئة روبية في الشهر. تميّز المنزل الذي عملت فيه بالاتّساع والجمال، وبأرضيّته الرخامية التي تظل باردة على الدوام، وبالأثاث الخشبي المتين، وكذلك بمطبخ كبير. كان ذلك المنزل مكاناً جميلاً لقضاء أيامها فيه، حتى ولو بصفتها خادمة. أما الأهم من ذلك كله فهو أن بهايا تسمح لها بمغادرة المنزل في فترة بعد الظهر لاصطحاب فيجاي من مدرسته إلى المنزل، حيث تتمكن من إتمام عملها.

لا تهدأ الحركة في مومباي إلا في الساعات الأولى من بعد الظهر، أي بعد الانتهاء من تناول وجبة منتصف النهار الثقيلة، وعندها يكون الحر في أقصى شدته، فتعمل مروحة السقف على التخفيف منه.

كان سائقو سيارات الأجرة يتوقفون عن العمل، والاستراحة في المقاعد الخلفية لسياراتهم. أما الخدم الذين يعملون في مبنى السيّد المكوّن من ست طبقات فكانوا يستلقون على فرشاتٍ إسفنجية يصفّونها في الممرات المفتوحة وعلى استراحات الدرج. يُضاف إلى ذلك أن بوّاب حجرة الانتظار يستسلم للنوم بدوره. كانت كافيتا تراه عندما تعود إلى المنزل الذي تعمل فيه برفقة فيجاي وقد أحنى رأسه إلى الأمام بينما يسند ذقنه على صدره، كما أن بعض لعابه كان يظهر من زاوية فمه. لم تكن كافيتا تأخذ هذه الاستراحة خلال النهار. أما في ذلك اليوم بالذات فإن بهايا طلبت منها إحضار بعض الجبنة في طريقها إلى مدرسة فيجاي. تطلعت كافيتا إلى ساعة يدها بعد توقفها في السوق. كان هناك ما يكفي من الوقت للقيام بزيارةٍ إذا ما سارت بسرعة، أي أنه ليس بمقدورها أن تتباطأ في ذلك اليوم.

وصلت لاهثةً بعد مرور عشر دقائق إلى البوابة الحديدية المألوفة لديها لدار رعاية الأيتام. رفعت رأسها، وتطلعت من خلال القضبان المعدنية نحو أحرف اللوحة الحمراء المعلقة على الباب. سمعت من خلفها صوت ضحكات، فاستدارت على الفور لترى صفاً مزدوجاً من الأطفال المصطفين بحسب أطوالهم الذين ساروا نحوها. سارعت كافيتا إلى تفحّص وجوه الفتيات الصغيرات باحثةً عن الفتاة التي تتطابق ملامحها مع صورة الفتاة التي طبعتها في ذهنها. ابتسمت إحدى الفتيات نحوها، لكن ملامحها كانت داكنة جداً. بدت فتاة أخرى بحجم متطابق، لكن عينيها كانتا بلونٍ بنيٍ داكن. لاحظت أثناء مرور الأطفال بمحاذاتها بأنهم ارتدوا ثياباً نظيفة، كما لاحظت بأنهم يتغذّون جيداً، ويبدون سعداء. لكن آخر مجموعة من أولئك الأطفال دخلت الأبواب الحديدية المفتوحة، فأسرعت إلى دخول المبنى. لم يبقَ هناك ما يكفي من الوقت.

لا بد من أنها موجودة في مكانٍ ما في الداخل. توجد بطبيعة الحال احتمالات أخرى، أي الاحتمالات التي تلاحقها في الليل، أي أن تكون أوشا قد بيعت للخدمة في المنازل، أو ربما تكون ماتت بسبب الجوع، أو المرض. كان ذلك السبب بالذات هو الذي دفعها إلى القدوم إلى هذا المكان على أمل رؤية فتاة صغيرة تمتلك عينَي ابنتها، وبهذا تضع حداً لكل الأفكار التي تعذّبها.

لكنها تذكرت الوقت فجأة. فيجاي. أدركت كذلك أنها لن تتأخر عن موعد المدرسة أكثر من دقائق قليلة. كان ذلك يوماً رائعاً، وكان بإمكانها شراء بعض ماء جوز الهند الطازج لشربه في طريق العودة إلى المنزل. اقتربت من المدرسة، وتمكّنت من سماع الأصوات العالية للأولاد الصغار الذين لعبوا في باحة المدرسة بعد انتهائهم من الدراسة. لكنها لاحظت أن أصوات الأولاد في ذلك اليوم كانت غاضبة، ولا تدلّ على المرح. أسرعت كافيتا الخطى مع تزايد قلقها الذي شعرت به في داخلها. لاحظت عند وصولها بأن الكتب مبعثرة في أنحاء الباحة، كما رأت مجموعة من الأولاد متجمعةً بالقرب من جدار المدرسة الحجري. هرعت لفتح البوابة المعدنية، وبدأت بالركض بأسرع ما يمكّنها ثوبها الطويل من ذلك. لكن ما إن اقتربت أكثر حتى سمعت كلمات السخرية التي أطلقها الأولاد.

«أنشد الأولاد: «فتى القرية! جاوار!».

«لماذا لا تعود إلى قريتك لتلعب مع الأولاد الجبناء ...!».

شقّت كافيتا طريقها بين الأولاد، فرأت فيجاي على الأرض مستنداً على الجدار. كانت الخدوش والدماء ظاهرةً على ساقيه، كما كان قميصه المتّسخ على الأرض. أسرعت نحوه، واحتضنت رأسه، ثم صرخت بالأولاد ملوحةً بذراعها نحوهم، بينما رفعت رأس ولدها بالذراع الأخرى: «ماذا دهاكم يا أولاد؟ ألا تستحون؟! أخرجوا من هنا. اذهبوا الآن قبل أن أضربكم بنفسي! اذهبوا!».

هُرع الأولاد نحو حقائبهم، وبدأوا بالركض في الشارع، واستمروا في ضحكهم. التفتت إلى ابنها كي تعرف مدى الضرر الذي لحق به. كانت شفته السفلى متورمة، كما ظهرت الخدوش على خدّه، وسالت الدموع على وجهه. جلست كافيتا ونقلته إلى حضنها كي تتمكن من احتضان جسمه بذراعيها. هدهدته قليلاً، وشعرت بالبلل في سرواله القصير، وبين ساقيه. «اهدأ يا طفلي العزيز، ستكون بخير». لكن بينما كانت تتلفظ بهذه الكلمات بأقصى ما أمكنها من الهدوء شرعت في تفحّص باحة المدرسة، والشارع خارج بوابتها، لتتأكد من عدم وجود مخاطر أخرى والتي كانت تأتي بأشكالٍ جديدة في كل يوم في تلك المدينة الغريبة.

تشرين الثاني ***1997***

أتمنى لو كنتِ هنا لتساعديني.

يُفترض بي كتابة سيرة حياتي وأنا في الصف الثامن من العلوم الاجتماعية، لكني لا أعرف من أين أبدأ. لا أعرف من أين أتيت في الواقع. تسمعني أمي القصة ذاتها في كل مرة أسألها، وهي تقول إنها ووالدي أحضراني عندما كنت طفلة صغيرة من دار رعاية الأيتام في الهند، وأتيا بي إلى كاليفورنيا.

إنها لا تعرف أي شيءٍ عنكِ، أو السبب الذي جعلك تتخلين عني. إنها لا تعرف أي شيء عن مظهرك. أعتقد أننا نشبه بعضنا بعضا، وأنا أراهن أنك تعرفين ما يجدر بي فعله بحاجبيَّ الكثيفين. لا تحب أمي التحدث عن هذه المواضيع على الإطلاق، وهي تقول إنني مثل كل الفتيات الأخريات الآن، ويجب أن لا أهتم بهذه الأمور.

حاول والدي مساعدتي على العثور على بعض الصور التي تفيدني في مشروعي المدرسي، وهكذا أخرج هذا الألبوم القديم الذي يشتمل على صورٍ بالأبيض والأسود وعلى مناديل ورقية. كانت تلك صورا تمثّله وهو يرتدي زي لعبة الكريكيت، بينما كان عمّه يمتطي حصانا أبيض اللون في يوم زفافه.

أخبرني عن مهرجان الطائرات الورقية الذي يحتفل به الأطفال في الهند في شهر كانون الثاني، وكذلكٍ عن الطلاء الملوّن الذي يرمونه على الأرض في فصل الربيع. بدا ذلك مسليا جدا بالنسبة لي.

لم أزر الهند على الإطلاق.

25

فوات الأوان

مومباي، الهند - 1998

كافيتا

تذوقت كافيتا حساء الدال المؤلف من العدس وبعض الحبوب الأخرى، وأضافت إليه بعض الملح لتعويض النقص في المذاق. حضّرت كذلك طبقين من الثاليس المؤلف من الأرز والعدس، ثم وضعت قدراً قليلاً من مخلّل المانجو في الطبق المخصّص لفيجاي، وذلك لإضافة بعض المذاق إلى هذه الوجبة الأساسية التي تناولتها كثيراً في الآونة الأخيرة. تناولا الطعام وحدهما، وذلك لأن جاسو بدأ بالعمل حتى وقتٍ متأخرٍ في الآونة الأخيرة. استمر جاسو في زيادة ساعات عمله الإضافية في الآونة الأخيرة في كل يوم تقريباً، والعمل بدلاً من الآخرين. استغرقه أمر الحصول على هذه الوظيفة شهوراً عدة، وذلك بعد الغارة التي شنّتها قوات الشرطة على مصنع الدراجات الهوائية، وأسفرت عن إقفاله. اضطر جاسو وكافيتا إلى الاقتراض من أحد المرابين بحيث تمكّنا من دفع إيجار الشقة، وأقساط مدرسة فيجاي، وذلك ريثما تمكّن جاسو من العثور على وظيفة جديدة في مصنع نسيج. لكن بدا لهم بعد ذلك أن كل قرش كسباه كان يجد طريقه إلى جيوب المرابي، كما بقي عليهما دفع نصف قيمة القرض، وهكذا تأخرا عن دفع قسط مدرسة فيجاي، ثمّ تأخرا عن دفع إيجار الشقة. أملَ الزوجان بأن يكون مانيش، وهو المالك، متسامحاً معهما لأنهما لم يتسببا له بأي مشكلة طوال السنوات الثماني التي سكنا فيها في هذه الشقة. لكن الإيجارات أخذت بالارتفاع في كل أنحاء مومباي، كما رغب مانيش بالتخلص من المستأجرين القدامى كي يتمكن من تأجير الشقة مقابل مبلغٍ أكبر.

انتظرت كافيتا طوال اليوم كي تطرح عليه هذا السؤال: «ماذا تعلمت اليوم في المدرسة يا فيجاي؟».

إنها الأشياء ذاتها يا أمي: الضرب والأس. قال لي الأستاذ إنه يتعين عليّ أن أتعلم هذه الأشياء جيداً كي أستطيع اللحاق بالآخرين».

ردّت ببطء: «حسناً». حملت الطبق الفارغ، ووضعته على حوض الجلي، ثم انهمكت في تنظيف الأطباق كي لا تدع ابنها يرى الدموع التي انهمرت من عينيها. تحمّلت كافيتا كامل المسؤولية عمّا حصل لأن فيجاي عمل معها في فترات المساء في منزل مخدومها على مدى الأسابيع الماضية. سألت السيدة كافيتا ما إذا كان فيجاي يستطيع إحضار بلوزها من محل الخياط، وذلك بدلاً من أحد خدم السيّد الذي وقع فريسة المرض. تلقى فيجاي مبلغ 50 روبية، وطلبت منه العودة في اليوم التالي. استمر فيجاي منذ ذلك اليوم بإحضار أغراض إلى المنزل، وهو الوقت الذي كان يمضيه في تحضير فروضه المدرسية، لكن

جاسو وكافيتا لم يجدا مانعاً من قيامه بهذا العمل، لأن ما يكسبه سوف يساعدهما على تسديد بعض الدفعات للمرابي. لكنها أدركت الآن أن ذلك كان أمراً من قبيل الحماقة، لأن العمل كان على حساب دراسته التي هي فرصته الوحيدة في هذه الحياة، وكل ذلك مقابل بضع مئات من الروبيات. تابعت كافيتا تنظيف حبوب الأرز في قعر الوعاء.

انفتح الباب الأمامي فجأةً: «مرحباً». توقف جاسو قليلاً لمداعبة شعر فيجاي، ثم توجّه إلى المطبخ حيث كانت كافيتا تسخّن طعام عشائه. «مرحباً حبيبتي». أحاطها بذراعيه من خلفها، وأسند ذقنه على قمة رأسها. قال وهو يشمّ وعاء الطبخ: «هممم، لذيذ. أنا محظوظ لأن زوجتي طباخة ماهرة إلى درجة أنها تستطيع تحضير الأرز والعدس بطرقٍ عديدة ومختلفة». ابتسم أثناء اقترابه من فيجاي، وربّت على «بطنه. «فيجايِ، ألا تعتقد بأننا محظوظون لأن والدتك طباخة ماهرة؟».

لكن الطَرَقات على الباب قاطعت ذلك الجو المرح، وما لبث صوت مانيش الحاد أن انطلق: «جاسو؟ يا جاسو! أعرف أنك هنا في الداخل. أستطيع سماع خطواتك البطيئة في رأسي. افتح الآن على الفور، وإلا سوف أحطم هذا الباب».

ماذا يفعل هذا الوغد هنا في مثل هذه الساعة». سار جاسو نحو الباب، وفتحه فظهر بطن مانيش» المكسو بالشعر بين قميصه الداخلي البالي وبنطاله. بدا بأنه لم يحلق ذقنه منذ أسبوع، كما أن عيناه كانتا محمرّتين، وكانت رائحة الشراب تفوح منه. أمسكت كافيتا جاسو من ساعده على أمل أن يساعد ضغط يدها في كبح ردّ فعله المتسرّع.

جاء صوت جاسو حازماً وهو يُغلق الباب: «الوقت متأخرٌ جداً يا مانيش. قل لي، ماذا لديك من أمور لا يمكن تأجيلها حتى الصباح؟».

رفع مانيش ذراعه المترهلة بصورة خاطفة لمنع الباب من الانغلاق، وقال صائحاً: «اسمعني أيها النذل الكسول؟ تأخرتَ أسبوعين عن دفع الإيجار. لا يمكنني تحمّل التأخير أكثر من ذلك؟».

وقف جاسو لمنع الباب من الانفتاح بالكامل، وكذلك لحماية كافيتا وفيجاي اللذين كانا وراءه. قال بصوتٍ هادئ: «سأدفع لك يا مانيش. هل تمنّعت عن الدفع خلال السنوات الثماني التي عشناها هنا؟ حدثت معي بعض المشاكل في وظيفتي مؤخراً... سيأخذ الأمر بعض الوقت».

لوّح مانيش قبضته في الهواء، وقال: «أتقول بعض الوقت؟ ليس لديّ وقت يا جاسو. أتعرف أنك تسرق مالي من جيبي؟ هل تظنون أنكم الوحيدون الذين يريدون استئجار هذه الشقة؟ يوجد صفٌ طويل يمتد من هنا وحتى شاطئ المحيط، وكلهم على استعداد للدفع في الوقت. لا أستطيع انتظارك يا جاسو».

أرجوك يا أخي مانيش. لا يمكنك أن تلقي بنا في الشارع. هذه عائلتي التي نتحدث عنها». فتح» جاسو الباب أكثر قليلاً كي يتمكّن الرجل من رؤية كافيتا وفيجاي. «جهد جاسو هنا كي يبدو صوته محترماً قبل أن يضيف: «أنت تعرفنا. أعدك أن أدفع لك الإيجار. أرجوك يا أخي مانيش». ضمّ جاسو راحتَي يديه تعبيراً عن الاسترضاء، لكن كافيتا حبست أنفاسها.

هزّ مانيش رأسه، وزفر بصوتٍ عالٍ. «الجمعة يا جاسو، لديك حتى يوم الجمعة فقط. هذا هو موعدك الأخير قبل أن أخرجكم من هنا». استدار وتهادى في مشيته في الممر دافعاً الصراصير من طريقه.

أقفل جاسو الباب من وراء الرجل، وأسند جبهته على الباب، ثم تنهد بعمق قبل أن يستدير لمواجهة زوجته وابنه. «يا للنذل الجشِع. كنا ندفع لذلك الرجل شهرياً، وفي الموعد المحدد على مدى ثماني سنوات». عاد جاسو إلى المطبخ قبل أن يضيف: «تحملنا قذارة المراحيض، وانقطاع المياه لفترات طويلة، ولم نتذمر ولو لمرة واحدة». لوّح جاسو بقبضته نحو الباب، وأضاف: «إنه يستعد الآن لإخراجنا من الشقة من دون سبب. يا للنذل». أخذ جاسو الطبق الكبير الذي ضمّ أصنافاً عديدة من يدَي كافيتا المرتجفتين، ثم عاد نحو المطبخ ليجلس. «إنه محظوظ لأنني لم أتعامل معه كما ينبغي». دسّ لقمة من العدس والأرزّ في فمه، ومضغها بنشاط.

«قال فيجاي الذي كان واقفاً في مدخل المطبخ: «لماذا لم تواجهه يا بابا؟».

«ردّ جاسو من دون أن يرفع نظره عن طعامه: «ماذا تقول؟».

«لماذا لم تفعل شيئاً لمنع مانيش من عمل شيء جنوني، ومن الحضور إلى هنا على الدوام؟ أتى الرجل البارحة، وخافت أمي منه...».

لاحظت كافيتا خيبة الأمل والإحباط في عينَي ابنها، وأدركت أن جاسو سيلاحظهما كذلك. «تعال. تعال، لم يحدث أي شيء. لم أكن خائفة، كما أن بابا قد تعامل معه، أليس كذلك؟ تعال الآن لتنهي مذاكرة دروسك». قالت ذلك وأشارت إلى الكتب والأوراق المبعثرة على الأرض.

قال جاسو الذي بدأ بدسّ لقماتٍ أكبر في فمه: «ماذا قلتَ يا فيجاي؟ ماذا تريدني أن أفعل؟ ألا تعرف بأن ذلك الرجل هو نذل كبير، وهو يستغل الناس الذين يعملون ويكدحون. لا يمكننا فعل أي شيء».

«لا أعرف بابا. افعل شيئاً. أعطِه المال، أو تعارك معه. يجب أن تفعل شيئاً. افعل أي شيء ما عدا التسوّل».

أخذت كافيتا نَفَساً عميقاً، وأسرعت بصورة غريزية نحو ابنها.هبّ جاسو واقفاً على قدميه مجدداً وبخطوة واحدة ووقف أمام فيجاي ملوحاً بقبضته. «انتبه لكلماتك! أتعتقد بأنك أفضل من والدك فقط لأنك تعرف كيف تقرأ كتبك الخيالية في المدرسة؟ إنني أكدح كثيراً من أجلكما. أنت لا تعرف شيئاً!» تطلع جاسو بعد ذلك على طعامه الذي لم ينتهِ من تناوله، ثم ركل الطبق محدثاً قعقعةً عالية. «تعبت، ومللت من الأرّ والعدس». استدار مبتعداً وقال مكرراً: «تعبت ومللت».

تبعته كافيتا في الممر، وقالت: «جاسو. إنه مجرد ولد. إنه لا يعرف ماذا يقول». راقبته عندما انتعل صندالَه، وقالت: «إلى أين أنت ذاهب؟».

«إنني خارج. أريد أن أبتعد من هنا». صفق الباب وراءه بكل قوة.

وقفت كافيتا لبرهةٍ محدقةً بالباب المقفل. شعرت على الفور بأن خوفها تحوّل إلى استياء منهم جميعاً: مانيش، وجاسو، وفيجاي، وذلك لأن الغضب الذي ينشرونه من حولهم كان مثل وقودٍ مشتعل يحوّل حياتها إلى ترابٍ حارق. تنفست بعمق قبل أن تستدير نحو ابنها. إنه مجرد ولد.

قالت وهي تمسك كتفيه بكل حزم: «فيجاي. ماذا دهاك؟ لا يجدر بك أن تتكلم مع والدك بهذه الطريقة». حدّق إليها فيجاي بملامح حازمة وباردة في عينيه الصغيرتين. «اسمعني جيداً، سيهتم بابا

بكل هذا». لمست خدّه بقفا يدها، ولاحظت أن شعر وجهه قد بدأ بالنمو. «لا يتعيّن عليك القلق بشأن هذه الأمور يا بنيّ. يجدر بك التركيز على دراستك». أمسكت بذراعه وقادته إلى كتبه.

استدار فيجاي مخلِّصا نفسه من قبضتها، وركل كتبه بقوة على الأرض. «لماذا؟ لماذا يجب عليّ أن أدرس؟ إنه مضيعة للوقت. ألا تلاحظين ذلك؟ إلى أين سيقودنا هذا الدرس يا ماما؟ تقولين لي إنه يجب عليّ أن أعمل بجد، لكن ذلك لم يوصلنا إلى أي مكان».

راقبته عندما استدار وسار نحو الشرفة التي هي المكان الوحيد في هذه الشقة الصغيرة التي يمكنه اللجوء إليها بحثاً عن شيءٍ من الخصوصية. يا لأحلامه الكبيرة. إنه يتصرف مثل والده تماماً. لكن متى بدأ ولدها الصغير بالشعور بما يُقلق الرجال؟ ارتمت على السرير الذي تقاسمه مع جاسو من دون أن تعبأ بخلع ملابسها، ودسّت رأسها في الوسادة الرقيقة التي تفوح منها رائحة العفونة، وبكت لكن من دون أن تصدر أي صوت. استلقت مستيقظة في الظلمة لبعض الوقت إلى أن سمعت صرير الشريط المنخلي للشرفة، وما لبثت بعد ذلك أن سمعت أصوات الأنفاس العميقة والثقيلة التي تميّزها في أي مكانٍ كانت، أي أنفاس ابنها.

سمعت في الساعات الأولى صوت انفتاح باب المدخل، وما لبث أن انغلق بعد ذلك. لاحظت كافيتا رائحة أنفاس جاسو عندما استلقى إلى جانبها على السرير. تذكّرت تلك الرائحة جيداً التي عرفتها في الأسابيع المريعة الأولى التي سكنوا فيها حيّ الأكواخ، أي عندما كانت رائحة الشراب تنتشر في هواء الليل. إنها تتذكر تلك الرائحة الدبقة لذلك الشراب المتخمّر، أي عندما اقتحم جاسو الكوخ الذي كانت تلد فيه. كانت أشياءً مريعة تحدث في كل مرة تشمّ فيها تلك الرائحة.

26

ستة عشر عاماً

مينلو بارك، كاليفورنيا - 2000

آشا

وصلت آشا باكراً إلى مكتب باغل في مدرسة هاربر، وكان المكتب يحتوي على غرفة لا نوافذ فيها، وهناك أمضت معظم فترات الغداء وأوقات فراغها. انضمت آشا إلى كلارا المحرِّرة في مجلة الجامعة، والسيدة جانسن مستشارة الكلية التي تتعلم فيها. جلست على الطاولة، وأخرجت دفتر ملاحظاتها وقلم رصاص. لم تتمكن آشا من حمل نفسها على الكتابة بقلم، سواء قلم حبر أو تخطيط، وذلك لأنها تنزعج من الكتابة التي لا تُمحى، وهي لا تتمكن من تغيير أي شيء انتهت من كتابته.

قالت كلارا: «دعونا نَرَ ما هو الجديد في المقالات التي أعددتموها للعدد المئوي الذي سوف يصدر في الشهر القادم، والذي سيصل إلى جميع المتخرجين. ماذا عندكِ يا آشا؟».

سوّت آشا من جلستها على كرسيّها وقالت: «حسناً. يمكنني القول، بمناسبة احتفال المدرسة بذكرى تأسيسها، إنه من المفيد أن نلقي نظرةً على تاريخنا. إننا نعلم جميعاً أن سوزان هاربر قد وهبت هذه المدرسة ثروة عائلتها». تطلعت من حولها إلى الوجوه التي شعرت بالملل. سبق لآشا ورفاقها أن سمعوا عن سوزان هاربر منذ سنوات. «لكن تلك الثروة جاءتها من زوجها جوزيف هاربر، ومن شركته يونايتد تيكستايلز (المنسوجات المتحدة)، وهي واحدة من أكبر شركات النسيج في البلاد.

تبيّن لنا أنه منذ عشر سنين مضت، أي عندما حدثت مواجهة مع نقابات العمال في المصانع،» بدأت يونايتد تكستايلز بنقل معاملها إلى خارج البلاد، كما أن معظم هذه المعامل توجد الآن في الصين، ومعظم عمالها هم من الأطفال...» توقفت عن الكلام قليلاً لتستكشف رد الفعل على كلامها. «تبلغ أعمار هؤلاء الأولاد عشر سنين، ويعملون اثنتي عشرة ساعة في اليوم، وذلك بدلاً من الالتحاق بمدارس أنيقة مثل هذه المدرسة». أعادت آشا قلم الرصاص إلى فمها، ولاحظت بكل ارتياح أن الاهتمام يبدو على وجوه الحاضرين.

تمكّنت كلارا من الكلام: «لا أعتقد بأنه موضوعٌ مناسب لهذا العدد. ما رأيكِ يا آشا؟».

أجل. أعتقد أنه مناسب، لأنه من المهم أن نعرف تاريخنا بوصفنا مؤسّسة، ونعرف من أين تأتي» الأموال لكل هذا». أشارت بيديها حول الغرفة.

تمتمت إحدى الطالبات: «تعلّمنا على الدوام أن نفكّر في العالم خارج بلادنا. حسناً، إن هؤلاء

الأطفال في الصين هم العالم خارج بلادنا. إن واجبنا يفرض علينا البحث عن الحقيقة. أليست تلك هي الغاية الأهم في عالم الصحافة؟ هل تقترحون أن نمارس الرقابة على أنفسنا؟».

أخرجت السيدة جانسن زفيرها ببطء، وقالت: «آشا، دعينا نناقش الأمر عندما تأتين إلى مكتبي يوم غد في استراحة الغداء». أوحت نبرتها بأن ذلك ليس مجرد اقتراح.

«إذاً، هل سألتِ والديك عن حفلة السبت؟» دفعت ريتا الكرة بركبتها، وصوّبتها نحو آشا.

تنهدت آشا، وقالت: «كلا. عمل والدي لوقتٍ متأخر طوال الأسبوع». ركلت الكرة نحو الأعلى وراقبتها قبل أن تلتقطها. «إنه متشدّد جداً في هذه الأمور. قال إنه لا يرى فائدة في الذهاب إلى الحفلات. ماذا بشأن الاستمتاع مثل فتاة عادية في السادسة عشرة من عمرها؟».

قاطعتها مانيشا، وهي الفتاة الهندية الوحيدة الأخرى في صفّها: «أتعرفين يا آشا أن والدي لا يسمح لي الخروج في عطلات نهاية الأسبوع». تابعتْ بعد ذلك بلهجةٍ هندية ساخرة ملوّحة بسبابتها. «إلا إذا كان ذلك لأغراضٍ دراسية بحتة». ضحكت الفتيات، وما لبثت مانيشا أن رمت الكرة نحو آشا وأضافت: «إنه أمرٌ يتعلق بالثقافة». هزت مانيشا كتفيها بعد ذلك.

غيّرت الفتيات ملابسهن في غرفة الخزانات، وارتدين الأزياء الدراسية برشاقة تدرّبن عليها، ثم تجمّعن حول المرآة لإلقاء نظرة على وجوههن. حاولت آشا جدلَ شعرها الأسود الكثيف على شكل ذيل حصان، لكن الرباط المطاطي انقطع فجأة وارتطم بأصابعها. «أووو. اللعنة». هزّت رأسها ثم أخرجت كيساً صغيراً من حقيبتها وسارت نحو المرآة لوضع مستحضر تجميل الرموش.

قالت لها إحدى الفتيات من دون أن تحوّل نظرها عن المرآة التي تتطلع فيها مباشرة: «يا الله. لا تحتاجين يا آشا إلى مستحضرات تجميل العيون».

سألتها فتاة أخرى رفعت شعرها الذهبي اللون عن جبهتها: «إنني مستعدة لفعل أي شيء كي أحصل على عينين مثل عينيك. إنهما عينان ساحرتان جداً. هل ورثتهما عن والدتك، أم عن والدك؟».

شعرت آشا بالتوتر قليلاً، لكنّها ردّت بهدوء: «لا أعرف. أعتقد أنها تخطّت جيلاً واحداً». ابتعدت عن المرآة، وكان وجهها يشتعل غضباً، ثم عادت إلى خزانتها. أرادت أن تصرخ، لا أعرف من أي شخص ورثت هاتين العينين الساحرتين. لكن أحداً لا يعرف أنها ابنة بالتبنّي إلا أقرب أصدقائها، وهي تدع الجميع يغرقون في افتراضاتهم. كان من السهل عليها أن تعتقد أنها النتاج الطبيعي لأبيها الهندي وأمّها الأميركية، وهكذا تتخلص من تقديم التفسيرات. لا ترغب آشا في نشر تاريخها الشخصي بأكمله بين الفتيات اللواتي يقفن أمام المرآة. تساءلت كذلك ما إذا كانت الفتيات يشعرن بالغيرة من الشعر الأسود الذي ينبت يومياً على ساقيها، أو من بشرتها الداكنة التي تزداد دكانتها بعد تعرّضها للشمس بعد عشر دقائق فقط، وحتى لو كانت تحت مظلة.

«أوه يا آشا. أنتِ ساحرة جداً» همس أحدهم من خلفها بصوتٍ خافت. استدارت، فرأت مانيشا غامزةً بعينيها ومبتسمة. «هيا. أتريدين بعض اللبن الزبادي المجمّد؟» أشارت مانيشا بيدها نحو باب غرفة الخزانات.

«أجابت آشا: «بالتأكيد».

قالت مانيشا بعد أن أصبحتا في الخارج: «أكره كلمة ساحرة التي نسمعها من الناس على الدوام. أعني إذا خرجتِ إلى فيرمونت فسوف ترين أنها ليست ساحرة أبداً، فالهنود في كل مكان».

جلست الفتاتان معاً على مقعدٍ طويل خارج المحل الصغير، وحملت كل واحدةٍ منهن كوباً صغيراً من اللبن الزبادي المجمّد. تابعت الفتاتان حديثهما أثناء تناولهن للبن الزبادي الذي يشتمل على نكهة الفانيلا والشوكولا. قالت مانيشا: «يوجد محلٌ صغير للمثلجات بالقرب من منزلنا. إنهم يبيعون المثلجات بنكهة البهارات. إنها لذيذة إلى حد أنها مثل البهارات الحقيقية تماماً. أريدك أن تجرّبيها في وقتٍ ما».

اكتفت آشا بأن أومأت، وتابعت الأكل. إنها لم تعرف مذاق البهارات إلا تلك المرة التي أعطاها والدها بعضاً منها عندما كانت صغيرة جداً.

«هل تذوقتِ المثلجات بنكهة البهارات في الهند؟ طلبتُ من ابن عمي خلال زيارتي الأخيرة اصطحابي للحصول على واحدة منها في كل ليلة. إنها لذيذة إلى درجة الإدمان. أريدك أن تجرّبيها في المرة القادمة التي تذهبين فيها إلى هناك».

كانت مانيشا تتكلم من دون أن تتوقع الرد، وهو الأمر الذي شعرت آشا بالامتنان تجاهه. يعني ذلك بأنها ليست مضطرة إلى القول بأنها لم تزر الهند على الإطلاق، وكذلك لا تعود مضطرة إلى تلفيق تفسيرٍ ما. تتذكر آشا أن والدها قام بزيارات عدة إلى الهند، بينما كانت في مرحلة الدراسة الابتدائية. يُضاف إلى ذلك أنها سمعت والديها يتناقشان، بعد اعتقادهما بأنها استسلمت للنوم، بشأن ما إذا كان يجب عليه أن يصطحبها معه أم لا، لكنها لا تتذكر نقاشهما ما إذا كان يجب على والدتها أن تذهب معه أم لا. قرّرا في النهاية أن فكرة ابتعاد آشا عن مدرستها لفترة طويلة ليست بالفكرة الصائبة. اعتادت أن تترافق مع والدتها عندما ترغبان في إيصال والدهما إلى المطار في كل مرة، وكان يحمل معه حقيبتين كبيرتين يضعهما في صندوق السيارة. كانت إحدى الحقائب مليئة بالحلى والهدايا الأميركية. كان والدها يتصل من الهند بين يوم وآخر، لكن عندما يعود بعد غياب أسبوعين من الزمن كان يحمل معه حقيبة مليئة بالشاي والبهاراتً، وبصابون خشب الصندل، وملابس ملونة وجديدة لآشا. اشتملت هذه الملابس على بلوزة مزخرفة بالرسوم الملونة، أو شالٍ مطرزٍ لوالدتها، وهي التي كانت تضيفها إلى الأشياء الأخرى التي تضعها في الخزانة المخصّصة للثياب قليلة الاستعمال، لكن ما إن تعود الحقائب إلى مكانها في الطابق السفلي حتى تعود الحياة إلى طبيعتها في المنزل.

وقفت مانيشا استعداداً للعودة، ثم سألت: «هل ستذهبين إلى راس غربا في عطلة نهاية الأسبوع القادم؟ لا أعتقد أنه سبق لي أن رأيتك هناك من قبل، لكن المكان مزدحم على الدوام».

ردّت آشا: «كلا. لم يسبق لي أن ذهبت إلى هناك. أعتقد أن والديّ لا يحبّان هذه الأشياء».

حسناً. يعني ذلك أنهما الوالدان الهنديان الوحيدان في شمال كاليفورنيا اللذان لا يحبانها».» ابتسمت مانيشا وهي ترمي الكوب الفارغ في سلة المهملات. «يجب أن تحضري في وقتٍ ما. إنها تسلية رائعة. أعني أنه الوقت الوحيد الذي يسمح لي أبي بارتداء ملابسي الجميلة، والذهاب إلى الرقص مع صديقاتي في عطلة نهاية الأسبوع. أتعرفين ذلك؟».

أومأت آشا مجدداً، لكنها لم تعرف أي شيء عمّا تتحدث عنه صديقتها.

«يجب أن نتحدث عن بطاقة علاماتك». كانت لهجة والدتها في منتهى الجدية. رفعت آشا أنظارها

عن طعام عشائها بينما كان والدها يراقبها وقد كتّف يديه فوق طبقه الفارغ.

«في اللغة الإنكليزية. ألا تفخران بي؟ A+ قالت آشا: «أعرف. حصلت على تقدير.

في مادة الكيمياء. ماذا C في مادة الرياضيات، وعلى B قالت والدتها: «آشا. حصلتِ على تقدير يجري؟ بدأت علاماتك بالتدني منذ أن بدأتِ بتمضية قدرٍ كبير من الوقت في صحيفة الكلية. يُحتمل بأنه آن الأوان لتخفيف الأوقات التي تخصّصينها للصحيفة كي تعودي إلى التركيز على مذاكرتك».

تدخل والدها، وقال بعد أن أومأ برأسه: «أجل. أنا موافق يا آشا. إنها سنة مهمة بالنسبة إليك. إن C. أو B علاماتك في مرحلة ما قبل الجامعة مهمة جداً للدراسة الجامعية. لا يمكنك الحصول على تقدير تعرفين التنافس الموجود في الجامعات الراقية».

في جميع مراحل دراستي الثانوية. كان ذلك A قالت آشا: «ما أهمية ذلك؟ حصلت على تقدير فصلاً سيئاً واحداً. لا أعتزم أخذ مادة الرياضيات، أو العلوم، بعد هذه السنة على أيّ حال». أبقت آشا أنظارها مركزة على طبقها.

سألها والدها بصوتٍ عميق إلى درجة الإيحاء بخيبة الأمل التي تخشاها آشا: «ماذا تعنين بقولك هذا؟ لديك سنتان من الدراسة الثانوية، وهذه العلامات قد تؤذي أي طلبٍ تتقدمين به للالتحاق بأي جامعة. حان الوقت لتدرسي بكل جدية. آشا، إننا نتحدث هنا عن مستقبلك!» ابتعد كريس عن الطاولة، فأصدرت أرجل الكرسي صريراً فوق أرض المطبخ للتشديد على النقطة التي يتحدث عنها.

قالت والدتها: «اسمعي، لا زال لديك الوقت الكافي لتغيير علاماتك هذه السنة. يمكنني مساعدتك بمادة الكيمياء، أو بإمكاننا إحضار مدرسٍ خصوصي لك». أمسكت الوالدة طرف الطاولة بكلتا يديها، وكأنها كانت تتوقع حدوث هزة أرضية أو ضربة ما.

ردّت آشا بعد أن اختارت كلماتها بشكلٍ يلسع والدتها: «لا أحتاج إلى مدرسٍ خصوصي، وكذلك أنا لا أحتاج إلى مساعدتك. أنا لا أسمع منكِ شيئاً إلا عن العلامات والمذاكرة. أنتِ لا تهتمين بما هو مهم لي. إنني أحب العمل في الصحيفة، وهو أمرٌ أجيده تماماً. أريد الاختلاط مع أصدقائي، والذهاب إلى الحفلات، وأن أكون مراهقة عادية. لماذا لا تتفهمين ذلك؟ لماذا لا تفهمينني أبداً؟» أخذت بالصراخ بعد ذلك، وأحسّت بانتفاخٍ في حنجرتها.

ردّت والدتها: «إننا نحبك يا حبيبتي، ولا نريد إلا ما هو الأفضل لك». وقفت آشا أمام الطاولة لكنها ترنحت إلى الوراء إلى أن استند ظهرها بشدة على جدار المطبخ. «أنتِ حتى لا تعرفينني، لكنك تحاولين إدخالي في نموذجٍ مثالي ما للولد الذي تريدينه. نجحتِ في إدخالي إلى مخيلتك الصغيرة، لكنك لا تريننني. أنتِ لا تحبينني، وأنتما تريداني أن أكون مثلكِ تماماً، لكني لست كذلك». هزّت رأسها بطريقة هستيرية وهي تتكلم. «هذه هي الحقيقة. يُحتمل لو أنكما والداي الحقيقيان، لكنتما فهمتماني وأحببتماني كما أنا». شعرت بأن جسدها كله آخذ بالارتعاش، كما تعرّقت يداها. بدا الأمر كأن مخلوقاً غريباً قد احتلّ جسدها، وأطلق السموم التي انطلقت من فمها. لكنها لم تتوقف بالرغم من النظرة الشاردة التي بدت على وجه والدها، والدموع التي انهمرت من عيني والدتها. «لماذا لم تخبراني أبداً عن والديّ الحقيقيين؟ هل تخافان أن يحبّاني أكثر منكما».

قالت والدتها بصوتٍ متهدج: «آشا. سبق لنا أن أخبرناك. إننا لا نعرف أي شيء عنهما. هكذا

«كانت تجري الأمور في الهند في ذلك الوقت.

لماذا لم تأخذاني إلى الهند، حتى مرة واحدة؟ إن كل أولاد الهنود الذين أعرفهم ذهبوا أكثر من» مرة. ما الأمر يا والدي، هل تخجل بي؟ ألا أناسب أسرتكما بما يكفي؟» حدّقت آشا إلى والدها الذي كان يتطلع على يديه المضمومتين بشدة بحيث هرب اللون من مفاصلهما.

لم تتمكّن آشا من حبس دموعها في ذلك الوقت، وما لبثت أن صرخت ممسكةً شعرها بقبضة يدها: «هذا ليس عدلاً. يعرف الآخرون جميعاً من أين أتوا، ما عداي أنا التي لا أعرف شيئاً. لا أدري لماذا أمتلك تينك العينين اللتين يلاحظهما الجميع على الدوام، ولا أعرف كيفية التعامل مع شعري اللعين هذا. لا أعرف لماذا أستطيع أن أتذكّر كل كلمات لعبة السكرابل [تأليف كلمات متقاطعة من أحرف متناثرة] المؤلفة من سبعة أحرف، ولا أستطيع أن أتذكر شيئاً عن الجدول الدوري في مادة الكيمياء. أريد أن أشعر بأن أحداً ما، وفي مكانٍ ما، يفهمني حقاً!» بدأت بالبكاء بصوتٍ عالٍ في هذا الوقت، لكنها مسحت أنفها بقفا يدها.

صرخت في النهاية: «أتمنى لو أنني لم أولد مطلقاً». لكن نظرة الصدمة المؤلمة التي ظهرت على وجه الوالدة أعادت لآشا بعض الارتياح. أتمنى لو أنكما لم تتبنياني، وهكذا لا أعود خيبة الأمل الكبيرة بالنسبة إليكما». تابعت الصراخ، بينما شعرت بسرورٍ غريب عندما بدأت والدتها بالصراخ بدورها.

حسناً يا آشا. أستطيع القول إنني حاولت أن أكون والدةً لكِ أكثر من أولئك... الناس الذين تخلوا» عنكِ. أردتُ طفلاً. كنتِ هنا يا آشا في كل يوم». كانت تقرع بإصبعها على الطاولة مع كل كلمة تتلفظ بها. «أردت ذلك أكثر من والدك، وأكثر من أي شخصٍ آخر». انخفض صوت والدتها فجأة إلى أن أصبح همساً أجشاً. «أردتك أنتِ على الأقل».

انزلقت آشا على الجدار، وسقطت مثل كومة على الأرض، ثم أخفت رأسها بين ركبتيها، وأخذت بالتنهّد. شعرت آشا هناك، وفي المطبخ حيث تحتفل بأعياد ميلادها وتتلذذ بالحلويات، وفي قلب المنزل الوحيد الذي أمكنها تذكّره، شعرت أنها وحيدة وغريبة أي كما كانت تشعر طوال حياتها. لم يتلفظ أحد بأي كلمة على مدى دقائق عدة. أخيراً رفعت آشا أنظارها. سالت الدموع على وجهها من تينك العينين العسليّتين اللتين أحاطهما الاحمرار. قالت بصوتٍ هادئ وهي تتنفس بصوت حاد ومسموع: «هذا ليس عدلاً على الإطلاق. أمضيت ستة عشر عاماً من دون أن أعرف، ستة عشر عاماً وأنا أطرح أسئلة لا يجيب أحد عنها. إنني لا أشعر بالانتماء إلى هذه العائلة، أو إلى أي مكان. يبدو الأمر وكأنني أفتقد جزءاً مني على الدوام. ألا تفهمان هذا؟» تطلعت نحو والديها باحثةً في وجهيهما عن شيء يجلب لها الطمأنينة. كانت والدتها تتطلع إلى الطاولة، بينما كانت عينا والديها مغمضتَين بعد أن أسند جبهته بيديه. كان وجهه ساكناً بأكمله ما عدا تلك العضلة النابضة في فكّه. لم يتطلع نحوها أيٌ منهما.

نهضت آشا عن الأرض وتنفست بصوتٍ مسموع، وما لبثت أن ركضت نحو غرفتها في الطابق الأعلى. صفقت باب غرفتها، ثم رمت نفسها على السرير، وبدأت بالنشيج داخل وسادتها المطرزة البيضاء. كان الظلام مخيِّما على غرفتها عندما رفعت رأسها، كما أن السماء بدت داكنة جداً خارج نافذتها. فتحت الدُرج السفلي لخزانتها الصغيرة، وتناولت العلبة الصغيرة ذات الشكل المربّع المصنوعة من الرخام الأبيض، ثم وضعتها أمامها. ارتعشت أصابعها عند مرورها فوق الزخرفة الهندسية المحفورة على الغطاء الثقيل للعلبة التي اشتراها لها والدها من سوق السلع الرخيصة، وهي التي كانت عندها في الثامنة من عمرها. قال لها في ذلك الوقت إن هذا التصميم يذكّره بالهند، وبالمنحوتات

.الموجودة في تاج محل

أزاحت غطاء العلبة، وتناولت منها عدة أوراقاً مطوية. كانت الورقة رقيقة ورثّة عند طياتها نتيجة طيّها وإعادة فتحها مراتٍ كثيرة. تناولت آشا من قعر العلبة، ومن تحت الأوراق سواراً فضياً رفيعاً. كان السوار منبعجاً وملطخاً. كان السوار صغيراً جداً بحيث لم ينزلق بسهولة عند أعرض جزءٍ من يدها، لكنها ضغطت رسغها، وتمكّنت من وضعه حول رسغها. التفّت آشا حول نفسها بالوضع الجنيني، وأسندتْ صدرها على وسادة مطرزة الحواشي، ثم أغمضت عينيها. بقيت هناك وسط ظلمة غرفتها الدامسة، وأصغت إلى أصوات والديها المرتفعة في الطابق السفلي. كان آخر ما سمعته قبل استسلامها للنوم هو صوت باب المدخل عند انغلاقه بقوة.

27

تعقيدات وخيمة

مومباي، الهند - 2000

كافيتا

فتحت كافيتا باب شقّتها، ونادت بصوتٍ عالٍ: «مرحباً». حان وقت عودة جاسو وفيجاي إلى المنزل في ذلك الوقت، لكن الشقة كانت خاليةً. خشيت أن يكون جاسو في الخارج لتناول الشراب. تأذّت يد جاسو اليمنى قبل أيام عدة عندما قام عامل آخر بتشغيل المكبس فوق قطعة القماش عن طريق الخطأ، وكان جاسو يقوم حينها بتعديل عمل الآلة. أدّت الصفائح الفولاذية إلى سحق عظامه في ثلاثة أماكن قبل إيقاف الآلة عن العمل. نُقل جاسو إلى مستشفى حكومي، وهناك وضع الطبيب رباطاً حول يده، ثم أرسله إلى المعمل مجدداً. لكن المشرف أبلغه بأنه يُبطئ من سير العمل، لذلك أرسله إلى المنزل إلى أن يتمكّن من القيام بعمله بالشكل الصحيح، كما طلب منه وضع بصمته على بعض الأوراق، ثم شرح له بأنه لن يحصل على أي راتب قبل عودته إلى العمل.

لازم جاسو المنزل في الأيام القليلة الأولى، وساعد كافيتا على تنظيف الأرض ومسحها. بدأ بعد ذلك في التجوال في الشوارع، والعودة إلى المنزل وقد زاد وجهه اسوداداً بفعل أشعة الشمس والغبار. حاولت كافيتا طمأنته قليلاً. قالت له إنهم تمكّنوا على الأقل من الانتهاء من الدفع إلى المرابي، كما أصبح باستطاعتهم تغطية المصاريف الأخرى للمنزل بفضل راتبها، وما يتقاضاه فيجاي، وذلك لفترة الأسابيع التي تسبق شفاء يده والعودة إلى عمله. لكن هذه التأكيدات لم تبعث طمأنينة كبيرة في نفس جاسو، بل زادته حنقاً. بدأت كافيتا بعد الأسبوع الأول بشمّ تلك الرائحة المميزة، والتي كانت ترافقه سابقاً. حاولت كافيتا تجاهل الأمر في البداية، لكن الواقع هو أنها لم تمتلك الوقت الكافي للتفكير في الأمر. كانت تنهض باكراً في كل يوم، ثم تتوجه إلى العمل لتعود إلى المنزل لإعداد طعام العشاء، وهكذا كانت تستلقي على سريرها منهكة جداً، وهي تعيد الكرة على هذا المنوال في اليوم التالي. أما إذا تبقّى لديها بعض القدرة على القيام بعملٍ ما، فكانت تحاول تمضية بعض الوقت مع فيجاي في الليل. كان فيجاي يشعر بالحنق بدوره في هذه الأثناء.

فكّرت في الخروج من المنزل للبحث عن جاسو، لكنها تعرف أنه سيكون جائعاً هو وفيجاي عند عودتهما إلى المنزل، وهو الأمر الذي يعني أن من الأفضل أن تنتهي أولاً من إعداد طعام العشاء. انتهت كافيتا من إعداد طبق الخضار (الشاك) المؤلف من الأرزّ والبطاطا والبصل في وقتٍ قصير. شعرت كافيتا بألم في بطنها، وهي التي لم تتناول طعاماً لما يزيد عن ثماني ساعات، وذلك ما دفعها إلى البدء بتناول الطّعام بأصابعها، لكنها لم تتمكن من ذلك بالطريقة الصحيحة من دون وجود زوجها أو ابنها. اعتبرت كافيتا أن فيجاي يدرس مع أحد زملائه في المدرسة، وهو الأمر الذي اعتاد عليه في الفترة الأخيرة، لكن

كان من المفترض أن يكون جاسو في المنزل في ذلك الوقت. تصاعد قلقها كثيراً وما لبث أن تحوّل بسرعة إلى الخوف. قرّرت كافيتا تغطية أطباق الطعام وانتعال صندالها، ثم وضعت بعض النقود ومفتاح منزلها في طيات ثوبها الطويل قبل مغادرة منزلها.

سارت كافيتا بسرعة في الخارج، وأبقت أنظارها مركّزة إلى الأمام مباشرة، فالشوارع غير آمنة بالنسبة إلى امرأة تسير لوحدها بعد حلول الظلام. إلى أين ذهب؟ كيف أمكنه التصرف كالأخرق؟ اعتادت على اتباع نصيحة والدتها، أي أن تثق بزوجها، وأن تكون شجاعة من أجل أسرتها. كان جاسو يفعل ذلك الأمر الأخرق بين الحين والآخر، أي الاختفاء في الليل، أو العودة إلى المنزل مع رائحة الشراب التي تفوح منه. كانت تفقد صبرها بلمحة بصر، وتتساءل بعد ذلك إذا كانت أخطأت في الوثوق به، أو ما إذا كانت قراراتهما سيئة وخاطئة بأكملها، أي التخلي عن بناتها، ومغادرة قريتهما، ومحاولة العيش في هذه المدينة التي لن يشعرا فيها بالطمأنينة.

قادتها أقدامها إلى متنزهٍ صغير يفصله سياج عن أضواء محلات المدينة وشوارعها. سارت من أمام تجهيزات الملاهي والألعاب الصدئة التي تقبع خالية، وكذلك مرّت من أمام مجموعة من الرجال المتحلّقين معاً تحت شجرة كبيرة. رأت أنبوب نارجيلة عند اقترابها منهم، بينما تصاعدت سحب الدخان نحو السماء. حلّ الظلام في ذلك الوقت، ولذلك لم تتمكن من تمييز أوجه الرجال عن بُعد. انطلق الرجال بالضحك بصوتٍ عالٍ، لكنها قلقت للحظة لما يُمكن أن يحدث لها على أيديهم إذا لم يكن جاسو من بينهم. شعرت بالارتياح عند اقترابها، لكن هذا الارتياح تحوّل إلى خيبة أمل عندما رأت جاسو مستنداً على شجرة، وقد غرُبت عيناه بينما وضع يده الساكنة التي تحمل الأربطة في حضنه. أما في يده السليمة فقد أمسك بزجاجة.

قالت كافيتا: «جاسو». نظر بعض الرجال إليها، ثم عادوا إلى تبادل الأحاديث فيما بينهم. نادت مجدداً بصوت عالٍ يكفي لسماعه من فوق أصوات الضحكات الناتجة عن النكتة السمجة عن المرأة والحمار التي أطلقها أحد الرجال: «جاسو!» راقبت كافيتا عينَي زوجها الحمراوين، واللتين بدأتا بالتركيز على وجهها ببطء. حاول جاسو الوقوف ما إن رآها.

قال أحد الرجال ساخراً: «جاسو. جاءت زوجتك لتأخذك، وكأنك طالب مدرسة».

صفعه رجلٌ آخر على ظهره فأوقعه أرضاً: «من يرتدي مئزرك يا أخي؟».

ابتسم جاسو ابتسامة متكلفة للرجل الذي يضايقه، لكن كافيتا لاحظت الألم في عينيه. لاحظت كبرياءه المجروح، والخجل، وخيبة الأمل التي عرفت أنه يشعر بها. شعرت كافيتا أن غضبها وخوفها قد تلاشيا أمام الأسى. كان هدف جاسو الأول والدائم هو توفير سبُل المعيشة لأسرته. لكن بدا أن الله على مدى السنوات العشرين الأخيرة وضع العقبة تلو الأخرى لإعاقته عن تحقيق هذا الهدف المتواضع. جاءت المحاصيل الضئيلة في البداية، ووظيفة النادل التي لم يستطع الحصول عليها، ثم الهجوم على مصنع الدراجات الهوائية، والمرابي، والآن يده المكسورة التي تتدلى إلى جانبه أثناء محاولته الوقوف. هرعت كافيتا لكي تساعده.

قالت مستخدمةً تعبيراً يدل على الاحترام في مخاطبة زوجها: «تعال يا جاسو - جي. أردتني أن أبلغك عندما يكون العشاء جاهزاً. أعددتُ لك كل الأطباق التي تحبّها. حلوى بيندي ماسالا، وحساء، وحلوى هندية». ثبّتت كافيتا نفسها تحت ثقل جسم جاسو الضخم. نظر إلى عينيها مدركاً أنهما لم يتناولا

وجبة كهذه منذ زواجهما.

قال لها جاسو بعد أن بدءا بالسير معاً ببطء: «إنني محظوظٌ لأن زوجتي طاهية ممتازة». رفع جاسو يده السليمة من فوق كتفه لتحية الرجال، وقال: «أرأيتم كم أنا محظوظ؟ يجب أن تكونوا محظوظين مثلي أيها التعساء».

ساعدته كافيتا بعد وصولهما إلى الشقة على الاستلقاء على السرير، وغطت جبهته بقطعة قماشٍ باردة. أطعمته بعد ذلك أرزاً وخضاراً باردةً بأصابعها. تناول جاسو الطعام بطريقة عفوية قبل استسلامه للنوم. شعرت كافيتا بعد ذلك بألم في معدتها، وتذكرت بأنها لم تتناول طعام عشائها. تذكرت كافيتا فجأةً بأن الوقت تجاوز التاسعة، وأن فيجاي لم يحضر بعد إلى المنزل. شعرت بالخوف يعاودها، لكنه جاء هذه المرة على شكل مذاقٍ مرٍ داخل فمها.

تذكرت كافيتا أن فيجاي أنهى عمله عند السيّد قبل خمس ساعات، أي أن التفسير المنطقي الوحيد لغيابه كان وجوده في منزل صديقه. لكن المنزل غير مزود بهاتف، وكذلك منازل أصدقاء فيجاي. افترضت بأنه تأخّر في مذاكرته من دون أن يلاحظ الوقت. أجل، لا بد من أن يكون ذلك هو سبب تأخره، وهو الولد الذكي الذي تحلّى بالمسؤولية. تنفست كافيتا بعمق مراتٍ قليلة بينما كانت تمسّد جبهة جاسو بقطعة قماشٍ رطبة. أقنعت كافيتا نفسها بأنه ما إن يعود إلى العمل، فإن كل شيء سوف يكون على ما يرام.

جلست كافيتا على الأرض بالقرب من المصباح الذي أرسل بعض الضوء ناحيتها، ثم أعادت تثبيت أحد أزرار قميص جاسو أثناء انتظارها فيجاي، وأقنعت نفسها بأن الصبي الذي بلغ الخامسة عشرة من عمره يتمتع بأمانٍ خارج المنزل بعد حلول الظلام هو أكبر من ذلك الذي تتمتع به المرأة. شعرت بموجةٍ من الارتياح عندما سمعت أخيراً صوت باب المدخل، وذلك للمرة الثانية في ذلك المساء. لم يتأخر فيجاي عن الدخول إلى الغرفة.

قالت بصوت يشبه صوت الهمس العالي بعد أن هبّت واقفة: «فيجاي. أين كنتَ؟ ألا تخجل؟ إننا جالسان هنا قلقين بشأنك!».

اكتفى ابنها المراهق، والذي بدأ شعر شاربه بالنمو فوق شفته العليا بهزّ كتفيه واضعاً يديه في جيوبه. لاحظ فيجاي والده المستلقي على السرير. «لماذا خلد بابا إلى النوم في هذا الوقت؟».

لا تطرح عليّ أسئلةً يا بني، بل أجِب عن أسئلتي. إنني أعمل مع والدك بكل جهد لكي نعتني بك.» هل تفهم؟» بدأ الغضب الذي سيطر على صوتها بالامتزاج مع الإنهاك الذي شعرت به. فجأة شعرت بالإنهاك بسبب كل ما يحصل.

تمتم فيجاي بصوتٍ خافت: «إنني أعمل كذلك».

«اسمع. ماذا قلت؟».

إنني أعمل بدوري، وأكسب مالاً». تصاعد صوت فيجاي حدةً، وهو يشير إلى والده: «انظري» إلى أبي! إنه ثملٌ مجدداً. إنه لا يعمل، بل ينام».

ارتفعت يد كافيتا بسرعة لتصفع وجه فيجاي بقوة. تراجع فيجاي وبدا مصدوماً، ثم لمس وجهه

بيده. بدا فمه مزموماً، ثم دسّ يده إلى عمق جيبه. أخرج رزمة من الأوراق المالية، ورماها على قدميها. «ما رأيكِ الآن! هل هذا ما تريدين؟ أصبح لدينا ما يكفي من المال. يستطيع بابا أن يثمل وينام طيلة اليوم إذا أراد». تطلع فيجاي نحوها بنظراتٍ ملؤها التحدي.

شعرت كافيتا بأن قلبها يكاد يتوقف عن النبض، وتطلعت نحو رزمة المال المبعثرة فوق قدميها وكأنها أفعى من نوع الكوبرا عند خروجها من السلة. كان هناك ما لا يقل عن ثلاثة آلاف روبية. لكن كان من المستحيل أن يكسب هذا المبلغ من المال من عمله في نقل السلع. تطلعت كافيتا نحو ابنها بخوف ومن دون أن تصدّق ما تسمعه. « مِن أين لك كل هذا المال يا عزيزي؟».

أجابها قبل أن يستدير مبتعداً: «لا تقلقي بهذا الشأن يا أمي، بل أنتِ غير مضطرة للقلق بشأني بعد الآن».

تموز 2001

حاولتُ أنا ووالدي في عطلة نهاية الأسبوع تحضير طبقين على الطريقة الهندية. انتهى الطبق الأول إلى كارثة، فأسرعنا إلى إطفاء كاشف الدخان بعد احتراق الزيت والبهارات في قعر المقلاة. لكن الطبق الثاني، المؤلف من أحد أنواع كري الطماطم مع البطاطا والبازلاء، كان لذيذاً جداً.

لا أحب أن أقول إنني أتلهف لإجازات نهاية الأسبوع هذه التي أقضيها مع والدي لوحدنا. أما ماما فتذهب إلى سان دييغو في كل شهر، أو نحو ذلك لزيارة جدتي لأن الأطباء كشفوا عن وجود كتلة في ثديها.

اتصل والدي في هذا الصباح بأسرته في الهند، وتحدثت معهم مجدداً. كان من الغريب أن أتحدث مع الأشخاص الذين رأيتهم في الصور فقط، لكني اعتدتُ على الأمر. أخذ والدي وصفات الطعام هذه من والدته، ثم توجهنا بالسيارة إلى محل يبيع المواد الغذائية الهندية في صاني فايل لإحضار مواد تلك الوصفات.

قررت أنا ووالدي أن نقوم غداً بلعب كرة المضرب، وذلك بعد أن درّبني على ضرب الكرة، وهكذا أصبحت علاقتي معه جيدة. أما الأمر الوحيد الذي يغضبه فهو عندما نتحدث عن مستقبلي، وأقول له إنني أرغب أن أصبح صحافية، وليس طبيبة. تسبّب هذا الموضوع بالذات بمواجهةٍ بينه وبين والدتي وعلى الأخص، عندما ساعدتني في العثور على فترة تدريب في محطة إذاعة طوال فصل الصيف، وأنا اعتبرت ذلك بادرة طيبة من جانبها. يُضاف إلى ذلك أنها بدت سعيدة عندما جرى تعييني محررة صحيفة باغل للسنة التالية.

أخيراً، أريد أن أسجّل بأنني لا أتواجه معهما كثيراً في هذه الأيام، لكنني أشعر بتفاؤل كبير لأن سنة تخرّجي ستنتهي بسرعة، وسوف أكون في الجامعة بعد ذلك وسأتمكن بعد ذلك من فعل ما أريد.

28

عطلة نهاية أسبوعٍ عائلية

بروفيدنس، رود آيلاند - 2003

آشا

غطّت الأوراق الهشّة باحة حرم الكلية مصدرةً حفيفاً خفيفاً بينما كانت آشا تمشي مع والديها عبر الباحة الخضراء الرئيسة. كان ذلك يوماً بارداً، لكن شمس الخريف الساطعة التي تسلّلت من خلال أغصان الأشجار ساهمت في شعورهم بالدفء، وذلك بالإضافة إلى أكواب عصائر التفاح، وذلك عندما اصطحبتهم في جولة في حرم الكلية.

أشارت آشا بيدها من خلال المباني المغطاة بأشجار اللبلاب: «يوجد مكتب صحيفة ذي دايلي هيرالد على مسافة قريبة من هنا».

قالت والدتها: «أريد أن أرى ذلك المكتب لأنك تمضين وقتاً كبيراً فيه».

بالتأكيد. أتريد مزيداً من عصير التفاح يا بابا؟» كان كوبها فوق إحدى الطاولات في كوليدج» غرين حيث كان مئات الطلاب الآخرين يتجولون مع أهاليهم. شعرت آشا بيدٍ تلامس ظهرها. استدارت نحو أهلها، وابتسمت ابتسامة عريضة عندما رأت جيريمي.

ماما وبابا، هذا هو جيري... أعني السيد كوبر. سبق لي أن أخبرتكم عنه. إنه مستشار الكلية» لصحيفة الهيرالد».

كرّر الرجل عندما مدّ يده نحو والدها: «جيريمي كوبر».

...لا بد وأنكما فخوران بابنتكما يا سيد وسيدة ثاكر. إنها بالفعل».

...تدخّل والدها مصححاً: «دكتور».

عفواً؟»».

قال والدها: «أنا ووالدة آشا طبيبان». لاحظت آشا بأن أنظار والدتها قد اتجهت نحو الأسفل.

ضحك جيريمي ضحكة خافتة ملوحاً بيده دلالةً على عدم الاكتراث: «أوه، أجل. ذكرت آشا هذا أمامي. إنني أنسى لقب دكتور في اسمي أنا». ضحكت آشا بحياء. «كنت أقول يجب أن تكونا فخورَين بابنتكما. تُعتبر آشا إحدى أفضل الصحافيات الشابات اللواتي عرفتهن في براون». ابتسمت آشا ابتسامة

عريضة هذه المرة.

سأل والدها: «كم من السنين عملتَ حتى الآن؟».

آه... حسناً، خمس سنين حتى الآن. يصعب على المرء تصديق ذلك. هل قرأتم المقالة التي كتبتها» هذا الخريف حول التجنيد في الحرَم؟ كان مقالاً في غاية العمق، ويستأهل نشره في أي صحيفة كبرى. كان مقالاً ممتازاً حقاً». وجّه جيريمي ابتسامة نحو آشا.

قال والد آشا: «سيّد كوبر. ماذا تعمل...».

أرجوك يمكنك أن تناديني جيريمي». وضع يديه في جيوب سترته التويد بنية اللون»

قال كريشنان: «أجل. ماذا تعمل غير الإشراف على الصحيفة؟».

حسناً. إنني أدرّس صفوفاً عدة في قسم اللغة الإنجليزية، كما أنني أحاول القيام الكتابة بشكل» حر، عندما يتوفر لدي الوقت الكافي». تحرّك جيريمي إلى الخلف مستنداً على كعبَي حذاءه البني. «لكني أبقى مشغولاً جداً في حرم الكلية».

قال والدها: «أجل. يمكنني تصوّر ذلك. لا بد وأنك تحب هذه الحياة، أي حياة الأستاذ الجامعي. أعتقد أنه لا توجد خيارات مهنية أخرى في حقل تخصّصك». قالت آشا متوسلة بعد أن تجهّم وجهها: «أبي...».

قال جيريمي: «لا. لا، والدك على حق. لكنني لم أكن موهوباً مثل آشا»، وهي بإمكانها أن تكون مراسلتنا الخارجية العظيمة التالية، وهكذا يصبح بإمكانها السفر إلى بلدانٍ بعيدة لتجلب لنا الأخبار».

لاحظت آشا ملامح الصدمة على وجه والدتها، وكانت على وشك طمأنتها عندما اقتربت زميلاتها منهم. قالت إحداهن: «آشا! أوه، مرحباً جيريمي».

اعتذر جيريمي، وقال إنه مضطر للمغادرة، لأن زملاءه الأساتذة ينتظرون حضوره. ألقت آشا نحوه نظرة متعاطفة أثناء مغادرته، واعتذرت بصمت عن والدها.

استدارت آشا نحو والديها وقالت: «مرحباً يا رفيقاتي! هل تتذكران يا أمي ووالدي شريكاتي في السكن؟ نيشا، وسيلين، وهذه هي باولا. لا أعتقد بأنكما التقيتما بها في آخر مرة».

لوّحت نيشا وسيلين بأيديهما لإلقاء التحية، لكن باولا رفعت نظّارتها عن رأسها لتكشف عن عينين بنيّتين، ورموشٍ كثيفة. انحنت قليلاً إلى الأمام، وهكذا كشفت كنزتها ذات الياقة الواسعة عن المنطقة الوسطى من صدرها، وما لبثت أن مدّت يدها. «إنني سعيدة للقائكما أنتما الاثنتين. سمعت الكثير عنكما». تطلعت آشا نحو نيشا وسيلين. اعتادت الفتيات الثلاث على مداعبة باولا بسبب مجاملاتها الكثيرة، وعلى الأخص مع أساتذتها، واستمر ذلك إلى أن علمنَ بأن هذه هي طريقة السلوك الوحيدة التي تجيدها. استدارت باولا برأسها جانباً، وابتسمت وهي تقول: «أعطتنا آشا بعض وصفات الكري التي تجيدها. لا بد من أنك طباخ عظيم».

قال والدها وهو يحيطها بذراعه: «أوه، الواقع ليس هكذا. إننا نستمتع بالطبخ معاً. أقترف بعض الأخطاء، لكن آشا صبورة معي».

ردّت باولا: «هل تعلمان بأمر الحفلة التي ستقام في حرم الكلية في وقتٍ لاحق منِ هذه الليلة. [يمكنكما المجيء، وعلى الأخص لأنه سيكون هناك منظم موسيقى [ديجاي».

قال والد آشا: «حقاً، موسيقى راقصة؟» لاحظت آشا الارتباك على وجه والدتها.

ردت والدة آشا وهي تضع يدها على مرفق زوجها: «أوه. لا نريد أن نقف في طريقكن. يمكّنكن الاستمتاع بوقتكن».

«حسناً. هل أراكما في الفندق صباح الغد عند وقت تناول الغداء؟».

انحنت والدتها لتقبيلها: «بالتأكيد يا عزيزتي. نراكِ غداً».

دفعت والدة آشا بعلبة ملفوفة ومربوطةٍ بشريطٍ حريري صقيل عبر الطاولة نحو ابنتها. وضعت آشا كوب عصير البرتقال على الطاولة، وتنقلت بنظرها ما بين وجه والدتها الطافح بالسرور ووجه والدها الخالي من التعابير. قالت أخيراً: «ما هذا؟».

ردّت والدتها: «هدية عيد ميلاد مبكرة. هيا، افتحيها».

فتحت آشا العلبة، فوجدت فيها كاميرا فيديو جديدة وتُحمل باليد.

تذكرت بأنك أحببتِ استخدام آلة تصويرنا عندما كنا في هاواي في الصيف الفائت». ابتسمت» والدتها وهي تنظر إلى والدها. «قلتِ لنا إنك تحبّين تسجيل مقابلاتك، وذلك كي لا يفوتك شيء منها».

ابتسمت آشا وهي تتذكر حديثها مع أمها، لكنها كانت تتحدث عن التسجيل الصوتي للمقابلات.

تابعت أمها حديثها: «لن تصدّقي كم من الخيارات المختلفة التي تتميز بها هذه الكاميرا، لكن البائع في المتجر قال لنا إنها تشتمل على أهم المزايا. يمكنك تثبيتها مع حاسوبكِ إذا أردتِ تنقيح أي شيء».

قالت آشا: «شكراً يا أمي. يا للروعة. لا يمكنني الانتظار أكثر كي استخدمها. رفعت آشا الكاميرا بعد ذلك إلى مستوى عينها، وصوّبتها نحو والدها وهي تقول: «هيا ابتسم يا بابا!».

29

واقع الحياة

مومباي، الهند - 2004

كافيتا

قالت كافيتا وهي تشبك ذراعها بذراع جاسو أثنا خروجهما من قاعة السينما: «هل تعتقد حقاً أنها ستذهب هكذا مع أعز أصدقائه؟».

بالطبع لا يا عزيزتي. لا يحدث ذلك في واقع الحياة لأنه مجرد فيلم». وضع ذراعه حول كتفيها وقادها عبر شارع مزدحم خلال توقف قصيرٍ للسير».

قالت حين عبرا بسلام إلى الجهة الأخرى من الشارع: «إذاً لماذا يصنعون أفلاماً كهذه، تعرض أشياءً لا يمكنها أن تحدث على الإطلاق؟».

إنهم يصنعونها لمجرد التسلية، وتمضية الوقت يا حبيبتي»!».

همم». كان مفهوم تمضية الوقت والتسلية غريباً جداً بالنسبة إلى كافيتا، أي مثل قدرتهما على» الذهاب إلى قاعة السينما بمجرد رغبتهما في ذلك.

سألها بينما كانا يقتربان من محلٍ لبيع المثلجات: «ماذا تريدين أن نفعل الآن يا عزيزتي؟ أتريدين شرب شيءٍ بارد؟».

قالت كافيتا: «أجل، أريد شرب قهوة باردة من فضلك». اكتشفت هذا المشروب اللذيذ منذ وقتٍ قصير، ولاحظت أنه يصعب عليها مقاومته في الأمسيات الدافئة مثل هذه الليلة. اعتادت سابقاً أن تتساءل عن الأشخاص الذين يصطفون أمام هذه الأماكن مع استعدادهم لإنفاق الروبيات التي تعبوا كثيراً لجنيها على عبثٍ كهذا.

قال جاسو للرجل الواقف وراء الطاولة وهو يرتدي قبعة نهرو الورقية: «أريد كوباً من القهوة الباردة، وكوزاً من المثلجات». ناول جاسو لزوجته بعد مرور دقائق قليلة كوباً كبيراً من القهوة، ثم تابعا التنزه. كانت الشوارع وطرقات المشاة مزدحمة كلها في أمسية السبت الباردة تلك، وهي الليلة الوحيدة من الأسبوع التي تتيح لجميع سكان مومباي تناسي كل الأمور التي تقلقهم، والخروج للتجوال في المدينة. لاحظا بأن المطاعم مليئة بالعائلات، ثم شاهدا الصفوف التي بدأت بالتشكل خارج النوادي الليلية الشعبية. كان هذا العالم بدوره أحد الاكتشافات الجديدة بالنسبة إلى كافيتا وجاسو.

بدأ الأمر قبل سنوات قليلة، أي عندما اصطحبهما فيجاي إلى أحد المطاعم للاحتفال بعيد ميلاده السادس عشر. كانت تلك المرة الأولى التي قصدا فيها مطعماً يشتمل على طاولاتٍ مغطاة بقماشٍ مموج أبيض اللون. تمكّن فيجاي من إنهاء الصف العاشر الأساسي بنجاح، كما أسّس شركة لتوصيل البريد معَ صديقته بولين. لكن كافيتا وجاسو تمنيا أن يسلك ابنهما مساراً مختلفاً. قال جاسو: «بيتا، أنت شاب ذكي، كما وصلتَ إلى مرحلة دراسية أبعد مما وصلنا إليها نحن. لماذا تعمل في هذه المهنة التي يقوم بها الأشخاص العاديون؟ يمكنك أن تقوم بعملٍ أفضل من هذا. لماذا لا تبحث عن وظيفة إدارية مناسبة؟» أجاب فيجاي: «هذه وظيفة جيدة يا بابا. أنا المدير، أي أن أحداً لا يعطيني أوامره». تولى فيجاي اختيار الأطعمة التي يريدون تناولها، وذلك لأنه الوحيد من بينهم الذي كان يجيد قراءة قائمة أصناف الأطعمة. لم تتمكن كافيتا من التعرّف على الأطباق التي اختارها، لكن كل الأصناف كانت رائعة ومقدمةً على صوانٍ فضية ملتمعة حملها لهم نُدُل. شعرت كأنها ملكة، وكذلك لاحظت من حديث جاسو المتحمّس بأنه يشعر بالفخر بدوره. سحب فيجاي في نهاية الأمسية رزمة من الأوراق المالية لدفع فاتورة المطعم. شاهدت كافيتا هذا المشهد مرات عدة حتى ذلك الوقت. لكن في كل مرة كان يتناول فيها رزمة سميكة من الأوراق المالية، ويقوم بعدّها علناً، كانت تشعر بأن قلبها يكاد أن يتوقف عن النبض.

أنهى جاسو كوز المثلجات ذا اللون الأخضر الشاحب، وقال: «أحب الفستق، ويمكنني أن آكله كل يوم».

ردّت كافيتا بعد أن وكزت صدره بمرفقها: «أنت تأكله كل يوم بالفعل».

أمسكها بذراعها ليشق الطريق عبر رصيفٍ مزدحم: «أتريدين أن نستقل ريكاشة إلى المنزل؟» يعرف جاسو أن ركوب ريكاشة هو أفضل بكثير من ركوب قطار مزدحم. رأى الزوجان بعد ذلك مجموعة من الناس متحلقة حول أحد عازفي الشوارع.

سألتْ كافيتا: «ماذا يجري هناك؟ هل هذا عازف موسيقى، أم أحد سحرة الأفاعي؟ دعنا نذهب لنعرف». شجّعهما التصفيق الإيقاعي للأشخاص المتحلقين على الاقتراب، ثم شاهدا بضعة رجال جاثمين فوق جدارٍ حجري قليل الارتفاع كي يتمكنوا من المشاهدة بشكلٍ أفضل. لكن عند اقتراب كافيتا وجاسو صُدما بما شاهداه في وسط حلقة الرجال. كانت هناك امرأة، أو فتاةٍ في واقع الأمر، لا تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها. كانت الفتاة راكعة على ركبتيها على الأرض باكيةً ومشوشة الأفكار. بدا بأنها تبحث عن شيء ما. أمسك أحد الرجال المتحلقين من حولها طرف ثوبها الطويل الذي كاد يُنتزع عن جسمها بالكامل. أما القسم الأعلى من ثوبها فكان ممزقاً حتى مستوى منتصف صدرها بينما انكشف ثدياها.

اندفع جاسو بين الحشد، وزحف إلى أن اقترب من الفتاة. التفت لينتزع ثوب الفتاة من الرجل وصرخ في وجهه: «أيها الحقير الوسِخ! ألا تستحي؟» حاول جاسو إعادة لف الثوب حول الفتاة، لكن الثوب كان ثقيلاً ومتشابكاً، وهكذا خلع قميصه ووضعه على كتفيها ساتراً بشرتها العارية عن الأعين الجائعة للناس المتحلقين من حولها.

صاح أحد الرجال في الحلقة: «تنحَّ جانباً يا رجل. لا تفسد علينا تسليتنا!».

وجدت يدا الفتاة ما كانت تبحث عنه أخيراً، أي نظارتها التي تشققت وتلوثت بالتراب. وضعت الفتاة النظارات على وجهها، ثم وقفت وأحكمت وضع قميص جاسو من حولها. نظرت كافيتا إلى وجه الفتاة. كانت جبهتها عريضةً جداً، وعيناها متباعدتان. أدركت كافيتا في لحظة رعب أن الفتاة متخلفة عقلياً، ولاحظت أن جاسو قد أدرك الأمر ذاته، كما أن ملامح وجهه عكست غضباً شديداً.

صاح جاسو في وجوه الرجال المتحلقين: «تسلية؟ هل هذا تسليتكم؟ هذا سلوك مخجل يا رجال». أقدم بعض الرجال على الانسحاب من مجموعة المتفرجين. «إنها فتاة بريئة! ما هو موقفكم لو كانت هذه الفتاة زوجتكم؟ أو شقيقتكم؟ أو ابنتكم؟» حملق جاسو، الذي بقي عليه قميصه الداخلي من دون أكمام، إلى وجوه الرجال القلائل الذين بقوا هناك، وذلك لأنهم رفضوا التسليم بانتهاء تسليتهم.

اقتربت كافيتا من الفتاة، وقادتها بعيداً عن الحشد، ثم همست في أذنها بعد أن استندتا على جذع شجرة: «هل أنتِ بخير يا ابنتي؟» ردّت الفتاة بأن أومأت بصمت. «أين تسكنين؟ أتحتاجين إلى المال للعودة إلى منزلك؟» تابعت الفتاة الإيماء بالطريقة الإيقاعية ذاتها، ومن دون أن تشير إلى الموافقة، ولا إلى الفهم. تفرّق حشد الناس في النهاية، وما لبث جاسو أن انضمّ إلى كافيتا والفتاة. قالت كافيتا بعد أن تعرفت إلى عنوان سكن الفتاة: «أعتقد بأنه يتعيّن علينا مرافقتها إلى منزلها». أومأ جاسو موافقاً، ونزل عن الرصيف كي يوقف سيارة أجرة.

سألت كافيتا جاسو: «هل أنت بخير؟» بقيا صامتين في طريقهم إلى المبنى الذي تسكنه الفتاة. تحدّث جاسو مع عامل المصعد الذي قال إنه سيتأكد من وصول الفتاة بسلام إلى شقة والديها. قال جاسو بصوتٍ خافت: «كنت أفكر يا عزيزتي أن هذه الفتاة المسكينة كانت من دون حماية، وكل أولئك الرجال كانوا... ماذا كان سيحدث لو لم نمرّ من هناك في ذلك الوقت؟ وما هي الأشياء التي كانت ستتعرّض لها؟».

وضعت كافيتا يدها فوق ذراعه، وقالت: «فعلتَ ما هو حسن، وكان ما فعلته شجاعة منك».

لم يكن ذلك شجاعة بقدر ما كانت الصدفة التي قادتنا إلى هناك...» لم يكمل كلامه، وما لبث أن هزّ رأسه. «انتهى الأمر الآن على أيّ حال. آمل أن لا يُفسد ذلك ليلتنا».

قالت وهي تبتسم في وجهه: «كلا، أبداً». لم تعبّر كافيتا عمّا تفكّر فيه، وعن الشعور الذي أحسّت به عندما احتضنت بذراعيها الجسد النحيل للفتاة إلى أن هدأت، وكيف أنها مسحت دموعها ومسّدت شعرها الطويل، وكيف أنها غنّت لها بصوتٍ رقيق في السيارة، أي كما كانت تغني لها والدتها، وكما تخيّلت بأنها تغني إلى ابنتها السرية.

30

جزءٌ منها

مينلو بارك، كاليفورنيا - 2004

سومر

وقفت سومر بعد الانتهاء من تناول طعام العشاء أمام حوض غسل الأطباق، وغطّت ساعدَيها بقفازاتٍ مطاطية ملساء. كانت سعيدة بالحيوية الناتجة عن وجود آشا في المنزل. كانت تلك هي الليلة الأولى التي تمضيها ابنتها مع بداية الصيف وانتهاء سنتها الدراسية الثانية في جامعة براون. لكن سومر بقيت متشكّكة بشأن كيفية سير الحياة العائلية مجدداً في المنزل. أوضحت آشا عند وصولها إلى المنزل أنها تعتبر نفسها مستقلة منذ ذلك الحين، وهي رفضت تلقي أيّ مساعدة في غسل ثيابها التي وضعتها في حقيبتها، كما وضعت حاسوبها المحمول في زاوية خاصة بها في غرفتها.

تمكّنت سومر وكريشنان أخيراً من إيجاد توازنٍ في المنزل من أجل تجنّب حصول مواجهة. التزم الزوجان الهدوء والانسحاب عند شعورهما بأدنى تصدٍّع في العلاقات مع ابنتهما بالتبنّي. لكن كان هناك وقتٌ للنقاش العلني. بدأت هذه النقاشات بشكلٍ مفاجئ تقريباً بعد مغادرة آشا المنزل. غاب عن الزوجين التركيز المشترك على الطاقات بعد مغادرة آشا المنزل، كما غاب ما يذكّرهما بضرورة التصرّف بشكلٍ هادئ في حضورها. تواجه الزوجان بعد ذلك بسبب عشرات القرارات التي تعرض لهما في كل يوم بشكلٍ مفاجئ. لكن سومر لم تكن متحضرة لذلك الصمت التام الذي خيّم على المنزل بغياب آشا. غابت الموسيقى التي كانت تنبعث من غرفة نومها، كما غابت أصداء الضحكات التي كانت تطلقها بينما كانت تتحدث لساعات على الهاتف. كانت هذه اللحظات الصغيرة هي التي اشتاقت سومر إليها: توديعها عند مدخل المنزل، والإطلالة السريعة على غرفة نوم آشا في الليل، وهي اللحظات التي تملأ منزلهما ويومهما. شعرت سومر بالضياع بعد ذهابها، وذلك بعد تلك السنين الطويلة التي كانت آشا فيها مركز حياتها. لكن حياة كريشنان لم تشهد تغيُّرا كبيراً، وذلك لأنه كان منشغلاً بعمله في معظم يومه، وكان يمضي صباحات أيامه في غرفة العمليات، بينما يمضي مساءاتها في عيادته.

كان كريس جالساً مع آشا في ذلك الوقت، وكان ممسكاً بإحدى صفحات الصحيفة بين إصبعه الوسطى وإبهامه. «لا أصدّق هذه الحماقة. إنهم لا زالوا يواجهون هذا الأمر في فلوريدا في محاولةٍ منهم إبقاء هذه المرأة التعيسة مربوطة بأنبوب التغذية، علماً أن دماغها قد مات منذ ما يزيد عن عقدٍ من السنين، وهم يرفضون أن يدعوها تمضي بسلام». نزع نظّارته، وزفر بصوتٍ عالٍ أمام كل عدسةٍ من عدساتها، وما لبث أن مسحهما بمنديلٍ ورقي.

«قالت آشا بعد أن انتزعت الصحيفة من والدها: «أتعتقد بأنها ميتة دماغياً بالفعل؟.

رفع نظارته إلى الأعلى حيث الضوء، ثم وضعها على وجهه بعد أن ارتاح للنتيجة، وقال: «أجل. أظن ذلك، لكن هذه النقطة بالذات ليست مهمة. يعود البت في هذا الموضوع إلى أسرتها وطبيبها».

قالت آشا: «ماذا يحدث لو لم يتوصلا إلى اتفاق، أي إذا أراد والداها إبقاءها حيّة، بينما زوجها لم يرغب بذلك؟».

ردّ كريس: «حسناً. تعود الوصاية في هذه الحالة إلى زوجها. تعتبَر الأسرة التي يكوّنها الإنسان أهم، في مرحلة معينة، من الأسرة التي يولد فيها». هزّ رأسه قبل أن يتابع كلامه: «إسمعيني جيداً. أقول لكما بأنني أعطيكما الإذن منذ الآن لنزع أنابيب التنفس والغذاء عني في حال وقعت في غيبوبة».

قالت آشا: «ألا توجد فرصة لشفائها؟».

هزّ كريس رأسه: «لا توجد فرصة لشفائها إلا إذا نبت لها دماغ جديد. يحاول السياسيون الآن التدخل بأبحاث الخلايا الجذعية كذلك».

لاحظت سومر من المطبخ أن آشا تستمتع بمناقشة حامية مع كريس. نادت بعد ذلك: «ما رأيكما أن نتسلى بحل لغز بينما أحضّر الفوشار؟».

أزالت آشا الأطباق عن طاولة المطبخ، وقالت: «إنها فكرة رائعة. سأحضر اللعبة. هل هي في الخزانة؟».

أحضرت سومر آلة تحضير الفوشار من أعلى رفٍ في الخزانة، وقالت بعد أن شعرت بحيوية قوية نتيجة محبتها لممارسة اللعبة، وهي التي كانت مناسبة معتادة لديهم قبل مغادرة آشا المنزل: «أجل. أتمنى بأن تكون صالحةً للعمل».

وضعت سومر البذور في الآلة التي أصدرت قرقعةً عالية.

أحضرت آشا علبةً تمثّل زوارق البندقية التي تطوف في الأقنية. «إذاً ما رأيكَ بذلك الاقتراح يا والدي؟ أعني تمويل أبحاث الخلايا الجذعية؟».

أعتقد أن مبلغ ثلاثة مليارات دولار التي سوف تُنفق على الأبحاث في كاليفورنيا هو أمرٌ باهر.» «إن دراسات الخلايا الجذعية هي من بين أهم الأبحاث الواعدة في حقل علم الأعصاب».

ردّت آشا عند عودتها من المطبخ: «لماذا لا تكتب مقالة عن هذا الموضوع في الصحيفة يا أبي. أراهن أن الناخبين سوف يحبون قراءة مقال ما يكتبه جرّاح أعصاب. يمكنني مساعدتك في هذا المجال».

هزّ رأسه بينما كان يتفحّص المقالات في الصحيفة: «كلا. أشكرك. أفضّل البقاء في عالم الطب».

هدأت القرقعة السريعة للفوشار قليلاً، وما لبثت سومر أن هزهزت حبوب الفوشار المنتفخة والبيضاء في وعاءٍ كبير. «أتريدان إضافة الملح والزبدة؟».

دفعت آشا حبة فوشار إلى داخل فمها. «إنها لذيذة، لكنها بحاجة إلى القليل من شيء ما». تناولت آشا وعاء الفوشار منها وقالت: «إبدئي أنتِ ووالدي». جلست سومر بالقرب من كريشنان، وذُهلت من مدى سهولة الأمر بالنسبة إليه، ومن سعي آشا لإيجاد قواسم مشتركة معه. لكن سومر تتذكر بشوق تلك

المرات التي كانت تلعب فيها الورق أو السكرابل مع أبيها. تساءلت سومر، وللمرة الأولى عن شعور أمها عندما كانت تفضله بشكلٍ سافر، وبهذا القدر.

أدارت آشا قارورة البهارات. «أريد تحضير طبقٍ صغير وجديد سأقوم بطبخه مع شريكاتي في السكن». انضمت إليهما عند الطاولة، وقدّمت الطبق إلى كريس، وقالت: «جرّبه».

كان كريس غارقاً في تركيزه على أقسام عدة من الزورق الأزرق، لكنه مدّ يده إلى الوعاء من دون أن يرفع نظره إلى الأعلى. «هممم. إنها لذيذة جداً».

تناولت سومر لقمة، ودهشت بلونه الأحمر الساطع. قالت وهي تضع اللقمة في فمها: «أوه. ماذا فعلتِ...؟» قاطعت كلامها سعلة عندما وصلت البهارات اللاذعة إلى حنجرتها. أسرعت سومر إلى أقرب كوب ماء إليها، لكن سومر لم تتمكن من التوقف عن السعال كي تتمكن من شرب الماء. شعرت بحريقٍ في فمها كما انهمرت الدموع من عينيها.

«حارة، لكنها لذيذة، أليس ذلك؟ يشتمل الطبق على الفلفل الأحمر، والثوم، والملح، والسكر، وكذلك الكركم عادةً، لكني لا أعتقد أنه موجود عندك». جلست آشا على كرسيها على الطاولة، ووضعت الطبق بينها وبين كريس.

«لديّ بعض الأخبار لكما». رفعت سومر أنظارها في انتظار أن تُكمل آشا كلامها. «هل سمعتما بمؤسّسة واتسون؟ إنها تعطي منحاً لطلاب الجامعات للتدرّب في الخارج لمدة سنة. قدمتُ طلباً لإتمام مشروع حول الأطفال الذين يعانون من الفقر في الهند». جالت عينا آشا بينهما جيئة وذهاباً.

حاولت سومر أن تفهم ما تعنيه كلمات آشا من دون أن تعرف ما يجب أن تقوله.

«فزتُ بهذه المنحة، وأنا أنوي الذهاب في السنة القادمة». ظهرت ابتسامة عريضة على وجه آشا. ربحتها».

«أنتِ... ماذا؟»

«إنني عاجزة عن تصديق بأنني فزت حقاً بهذه المنحة». قالت اللجنة إنها أحبّت فكرتي في العمل مع صحيفة مهمة هناك، وذلك من أجل الحصول على تقرير خاص يتم نشره، و...».

«قالت سومر: «لكنكِ لم تتكلمي عن الموضوع إلا الآن فقط؟».

«حسناً، لم أرغب في التحدث عن الأمر إلا بعد فوزي بهذه المنحة، وذلك بسبب المنافسة القوية عليها».

«سأل كريشنان متجاهلاً الصدمة التي ظهرت على وجه سومر: «أين ستعملين في الهند؟».

أجابت آشا مبتسمةً: «سأعمل في مومباي، وهكذا أستطيع المكوث في منزل عائلتك. ستدور قصتي حول الأولاد الذين ينشأون مع الفقر في المدن. أنت تعرف مدن الصفيح، أو ما يشبهها». وضعت يدها على يد سومر التي لا تزال تمسك بقطع اللغز. «ماما، إنني لن أترك الدراسة، وسوف أعود للتخرّج. إنها مجرد سنة واحدة فقط».

«قالت سومر: «يعني ذلك... بأنك أنجزتِ كل هذا بالفعل؟ خطّطت لكل شيء بعناية؟».

ظننتَ أنك ستكونين فخورة بي». سحبت آشا يدها، وأكملت بلهجةٍ فيها بعض الغضب الذي بدأ» بالتسلّل إلى صوتها: «تُعتبر واتسون جائزةً محترمة فعلاً. رتّبت كل شيء بنفسي، ولا أطلب مالاً منكما، «لكن ألستما سعيدين لأجلي؟.

مسّدت سومر جبهتها، وقالت: «آشا، ليس من المنطقي أن تفاجئينا بهذا الأمر، وتطلبي منا الاحتفال بالمناسبة. لا يمكنك اتخاذ قرارٍ كهذا من دون أن تأخذي رأينا». نظرت إلى كريس متوقعةً أن ينعكس غضبها على ملامح وجهه. لكنها لم تشاهد أيّ علاماتٍ تدل على الصدمة التي تحسّ بها، ولا على الخوف الذي يسيطر على عقلها. كيف له أن يشعر بهذا الهدوء حيال هذا الأمر؟

خطرت في تلك اللحظة فكرةً في ذهنها. كان يعرف بالأمر.

بقيت لعبة اللغز من دون حلٍ على طاولة المطبخ في الطابق السفلي، بينما خلعت سومر ملابسها داخل عتمة غرفتها. فتحت صنبور المياه في الحمام، وأصغت إلى صوت باب غرفة نومهما. فركت وجهها بطريقةٍ حذرتها منها طبيبة الجلد، لكنها كانت تغلي غضباً عند دخول كريس الغرفة بعد مرور لحظات قليلة.

«إذاً، أنت لا تعارض الفكرة؟».

«وقف عند الخزانة ونزع ساعة يده. «حسناً. أعتقد أنها قد تكون فكرة حسنة.

فكرة حسنة؟ أتعني أن تركها الجامعة، والسفر إلى المقلب الآخر من العالم بمفردها، هو فكرة» «حسنة؟.

لن تترك الجامعة. إنها مجرد سنة واحدة فقط ستعود بعدها لتتخرج. يمكنها أن تدرس فصلاً» إضافياً أو فصلين، ثم أنها لن تكون لوحدها لأنها ستمكث عند عائلتي». فكّ كريس أزرار قميصه. «اسمعي يا عزيزتي. أعتقد بالفعل بأن هذا المشروع قد يكون مفيداً لها، وهو سيبعدها عن أولئك الأساتذة المليئين بأفكار الفنون الحرة، والذين يملأون رأسها بفكرة أن الصحافة هي مهنة رائعة. يُمكن «لوالدي أن يصطحبها معه إلى المستشفى.

«هزّت سومر رأسها: «هل هذا هو برنامجك الذي تسعى إليه؟ ألا تزال تعتقد أنك ستجعلها طبيبة؟.

«لا زال بإمكانها تغيير رأيها بعد أن ترى جانباً مختلفاً كلياً عن الطب هناك».

«قالت سومر: «لماذا لا تتقبلها كما هي؟.

«ردّ بحدة ونبرةٍ اتهامية: «لماذا لا تفعلين أنتِ ذلك؟.

«مرّت لحظة صمت، وهي تحدّق إليه: «ماذا تعني؟.

أعني أنها تريد الذهاب إلى الهند، وهي في سنٍ يسمح لها باتخاذ هذا القرار. يمكنها تمضية» «أوقاتها عند عائلتي، وهكذا تتمكّن من معرفة التقاليد الهندية.

وقفت سومر وتوجهت نحو الحمّام. «لا أصدّق ما أسمعه منك. إنك رجلٌ لا تُظهر ما تبطن. لكن لو كانت تتحدث عن الذهاب إلى أي مكانٍ آخر غير الهند لكنتَ انزعجت مثلي تماماً». استدارت كي تواجهه

«مجدداً. «هل كنتَ تعرف بالأمر؟.

فرك عينيه بأصابعه، وتنهّد بشدة.

كريس؟ هل كنتَ تعلم؟» شعرت بوخزٍ في معدتها».

مدّ يديه في الهواء: «أجل! أجل. هل ارتحتِ؟ احتاجت إلى توقيعٍ مني على أنموذج طلبها، كما لم ترغبْ إقحامك في الأمر إذا لم تفز بهذه المنحة».

أحكمت سومر شدّ حزام ردائها حول خصرها، وأحاطت صدرها بذراعيها بعد أن شعرت بالبرد بشكلٍ مفاجئ. أغمضت عينيها بينما كانت تستوعب ما سمعته من زوجها واعترافه بالذنب. هزّت رأسها وقالَت: «لا أصدّق أنك فعلتَ ذلك من وراء ظهري و...» توقفت عن الكلام بعد أن عجزت عن الاستمرار.

جلس كريس على مقعدٍ بذراعين في زاوية الغرفة وقال بصوتٍ رقيق: «إنه جزءٌ منها يا سومر مثل ما هو جزءٌ مني. إنني لا أنكر ذلك». خيّم الصمت على الغرفة لفترةٍ وجيزة قبل أن يتابع الكلام. «مِمّ تخافين؟».

بلعت سومر ريقها، وبدأت بتعداد الأسباب: «أخشى أن تترك دراستها لتذهب إلى المقلب الآخر من العالم لوحدها. أخشى كذلك أن تكون بعيدة جداً عنا بحيث لا نعرف ماذا يحدث معها». مرّرت سومر يديها فوق وجهها وفوق رأسها، ثم تابعت تعداد مجموعة أخرى من أسباب قلقها. «أخشى على سلامتها كفتاة تدخل أكواخ الصفيح بمفردها...» جلست على السرير مجدداً، واحتضنت وسادة ثمّ ضمتها إلى صدرها. لم يتكلم كريس ولم يتحرك من مقعده في الزاوية حيث أسند وجهه بإحدى يديه.

تنحنحت سومر بعد مرور فترةٍ من الصمت، وعاودت الكلام: «أتظن أنها ستحاول التفتيش... عنهما؟ لم تطق سومر استخدام كلمة والديها، لأن هذه الكلمة تحمل أهمية كبرى بالنسبة إلى أشخاصٍ لا يمّتون بصلة إلى آشا غير صلة الدم. تحوّل والدا آشا إلى شخصيتين خياليتين في ذهن سومر على مرّ السنين، أي إلى أشخاصٍ لا أسماء لهم ولا وجوه، وهم بعيدون في المسافات بالرغم من وجودهم في ذهنها على الدوام. كانتْ تعرف أن لا خطر من ظهورهما في يوم من الأيام للمطالبة بدورٍ ما لهما في حياة ابنتهما. لكنها تقلق على الدوام من جهة آشا. انتظرت سومَر بكل قلق ذلك اليوم الذي تصل فيه ابنتها إلى مرحلة عدم الرضا تجاهها أو تجاه كريس، ثم تمضي كي تبحث عمّا هو أكثر من ذلك. حاولت سومر أن تقوم بدورها كوالدة على أكمل وجه، لكنها تقلق كثيراً من عدم تمكّن حبّها لابنتها من التعويض عن الخسارة التي تعرضت إليها عندما كانت طفلة صغيرة.

مَن. أوه». فَرَك كريس عينيه، وتطلّع نحوها. «يُحتمل أن تفعل ذلك على ما أفترض. لكن يصعب» عليها كثيراً أن تفعل ذلك في بلدٍ مثل الهند، لكن بإمكانها المحاولة. يُحتمل بأنها سوف تشعر بالفضول. لكن كل ذلك لا يهم في حقيقة الأمر. أليس كذلك؟ لا يُعقل أن تقلقي...».

لا أعرف. أعرِف أنه لا يمكننا منعها من البحث إذا كان ذلك هو ما تريده، لكن...» ترددت قليلاً» وأدارت منديلاً ورقياً حول سبابتها. «إنني قلقة. هذا كل ما في الأمر. إننا لا نعرف ماذا سيحدث بعد ذلك. لا أريدها أن تتأذى».

لا يمكنك أن تحميها إلى الأبد يا سومر، وهي التي أصبحت بالغة».

أعرف ذلك، لكننا تجاوزنا الأمر. إنها في مكانٍ جيدٍ الآن». لكن سومر عجزت عن التعبير عن» مخاوفها الحقيقية، أي خوفها من خسارة آشا، وحتى لوقتٍ قصير، وأن تتعرض تلك الرابطة التي عملت بجهد لتكوينها إلى تهديد هذا الشبح. كانت هذه هي النتيجة التي حاولت أن تتجنّبها على الدوام، وكان ذلك هو السبب الذي جعلها ترفض العودة إلى الهند، والسبب الذي دفعها إلى عدم تشجيع آشا على طرح .أسئلة تتعلق بالتبنّي. كان ذلك في صميم كل قرار اتخذته منذ قدوم آشا إلى حياتهما

31

هكذا تجري الأمور على الدوام

مومباي، الهند - 2004

كافيتا

دخل سائق سيارة الأجرة إلى الطريق الداخلي الخاص بالمبنى الجديد الذي يسكنان فيه، والذي أمضيا فيه ما يزيد عن السنة حتى الآن. لكن كافيتا لا تزال تستغرب وجود شخص ينتظر أن يفتح لها باب السيارة، بينما يقف شخصٌ آخر خارج المصعد ليرافقهما إلى الطابق الثالث. أصرّ فيجاي على الانتقال إلى شقةٍ أكبر منذ سنوات قليلة، وذلك ما إن بدأت أعماله بالازدهار. قال فيجاي: «أصبحتُ في التاسعة عشرة من عمري الآن يا ماما. أعتقد أنه حان الوقت لتكون عندي غرفتي الخاصة».

اكتشفت كافيتا وجاسو أنه يصعب عليهما مناقشته في هذا الموضوع، وعلى الأخص عندما قال إنهما سيستمران في دفع الإيجار ذاته عن شقتهم في طريق شيفاجي، وأنه سوف يقوم بتغطية الفرق بنفسه. لم تعرف كافيتا قيمة إيجار هذه الشقة، كما أنها تشك في أن جاسو يعرف بدوره. لكنها امتلكت مع زوجها غرفة خاصة بهما، وكذلك الأمر مع فيجاي الذي يأتي ويذهب بحسب ما تتطلبه أعماله، وعندما تأتيه مكالمات على جهاز المناداة الخاص به، أو على هاتفه الخليوي، وهي المكالمات التي تأتي في كل ساعات النهار. ارتاحت كافيتا للمساحة الإضافية التي حصلا عليها في هذه الشقة، وكذلك للمطبخ الحديث بمياهه الساخنة المتوافرة على الدوام. لكنها اشتاقت بالرغم من ذلك إلى شقتهما القديمة في طريق شيفاجي، وإلى الجيران الذين اعتادت عليهم، وإلى المتاجر القريبة التي كانت تشتري منها ما تحتاجه.

لكن التغيّر الأفضل الذي حدث نتيجة هذه النقلة ظهر عند جاسو. بدا أنه خسر بعض الوزن، وحتى أن كوابيسه قد تلاشت. قال جاسو حينها: «أشعر أنني أستطيع أن أرتاح قليلاً أخيراً. أسرتنا مستقرة، وابننا كبُر. إنه شعور جيّد يا عزيزتي». لكن مشاعر كافيتا كانت مختلفة تماماً، وهي التي شعرت بقلقٍ أكبر لدى رؤيتها ابنها رجلاً بالغاً يعيش بشكلٍ مستقلٍ في منزلٍ واحدٍ ويقوم بأعماله كرجلٍ بالغ، إلا أنها تستصعب الاعتراف بذلك. استمرت كافيتا في القلق بشأن تمضية فيجاي قدراً كبيراً من الوقت مع شريكه بولين حتى وقتٍ متأخر، وكذلك عند رؤيتها رزم الأوراق المالية، وذلك بالإضافة إلى مجموعة من الأمور المتنوعة التي تخطر في ذهنها عندما يحل الظلام. تساءلت كافيتا عند بداية تحرّك المصعد ما إذا كانت ستتمكن من التوقف عن القلق بشأن ابنها في المستقبل.

شعرت بالقلق تجاه ابنتها كذلك، وهي التي أصبحت بالغة في هذا الوقت، وحتى لربما تكون قد تزوجت. سمحت كافيتا لنفسها أن تتساءل للحظات قليلة قبل توقّف المصعد ما إذا كانت ابنتها قد رُزقت

بأولاد أم لا. لكن ما إن ينفتح باب المصعد حتى تَجبر نفسها على تغيير مسار تفكيرها. تعلمت كافيتا مع الأيام ترك فسحة في حياتها اليومية لأفكارٍ كهذه، وهي التي تأتي من دون إنذارٍ مسبق، ومن دون أن تسمح لهذه الأفكار السيطرة عليها كلياً. تعلمت كافيتا منذ وقت طويل بأنها بحاجةٍ إلى إيجاد طريقة للعيش في الحاضر، بينما تعطي ماضيها احتراماً صامتاً، وتعلمت كذلك العيش مع زوج وولدٍ من دون الشعور بالاستياء نحوهما بسبب الأشياء التي حدَثت في الماضي.

انفتحت أبواب المصعد فخرج العامل للسماح لجاسو وكافيتا بالخروج. أحسّت كافيتا أثناء سيرهما في الممر بأن شيئاً ما ليس على ما يرام. التفتت نحو جاسو، وأشارت إليه بذقنها نحو شقتهما الكائنة في آخر الممر: «هل سمعتَ صوتاً؟».

تابع السير ملوحاً بمفاتيح الشقة التي علّقها بسبابته. «ما هذا؟ هل ترك فيجاي جهاز التلفزيون شغالاً؟ لا أدري كيف يتمكن من النوم مع صوته العالي».

أبطأت كافيتا من مشيتها بعد أن شعرت بالقلق. لكن عندما وصلا إلى مدخل شقّتهما أدرك كلاهما بأن شيئاً ما على غير ما يرام. كان الباب مفتوحاً على مصراعيه، كما تأكدا من أن الأصوات ليست صادرة عن جهاز التلفزيون. مدّ جاسو ذراعه من خلفه مشيراً أن تبقى كافيتا بعيدة عنه، ثم دفع الباب ليفتحه بإصبع قدمه، وما لبث أن اختفى في الداخل، ولحقت به على الفور بسرعة. كان أول ما شاهداه الأمتعة المتناثرة في الشقة، وكانت عبارة عن أغراض صغيرة يستخدمونها في حياتهم اليومية. بدا الأمر وكأن كالي، سيدة التدمير، قد زارت المنزل.

قال جاسو بصوتٍ غير مسموع، «يا إلهي!» سار فوق الزجاج المتناثر لصورة والده الراحل، والتي كانت تزيّن الممر من قبل. امتزج زجاج الصورة مع البتلات المسحوقة للإكليل الذي تعلّقه فوقها كافيتا في صباح كل يوم. كانت الأصوات العالية آتيةً من غرفة النوم الواقعة في آخر الممر. غرفة فيجاي. كانت الطاولة مقلوبة في وسط غرفة المعيشة. أما وسائد الأريكة فكانت ممزقة بفعل السكاكين، بينما تناثرت حشواتها في أنحاء الغرفة. سارت كافيتا نحو المطبخ وكأنها واقعة تحت تأثير غيبوبة. رأت أكياس الخيش المحتوية على أرز البسمتي، والعدس قد لاقت مصير الوسائد ذاتها فتناثرت على الأرض الإسمنتية. كانت الخزائن مفتوحة جميعها، بينما انتزع أحد الأبواب من مفصلاته.

همس جاسو بصوتٍ أجش من غرفة المعيشة: «أصغي إليّ يا كافي. توجهي إلى الباب التالي، وانتظريني هناك. اذهبي بسرعة!» أشار لها بالخروج من الشقة قبل أن تتمكن من التفكير في ما إذا كان يجب عليها الاتصال بالشرطة. طرقت كافيتا باب الجيران، لكنها لم تسمع أيّ رد. انتظرت في الممر لدقائق قليلة ثم عادت بعد ذلك إلى شقتها، وتوجهت نحو غرفة النوم الموجودة في نهاية الممر، ثم توقفت خارجها. رأت رجلَين يرتديان زيّين رسميين داكنين يقفان داخلها حاملين عصيًّا بأيديهما. مَن استدعى الشرطة؟ كيف وصلا إلى هنا بسرعة؟ كان أحد رجال الشرطة يقوم باستجواب جاسو. تقدّمت قليلاً بحيث تبتعد عن الأنظار.

السيد ميرشانت، سأسألك مجدداً، وهذه المرة سوف تخبرني الحقيقة. أين يخبئ فيجاي» مخزونه؟» وكز ضابط الشرطة جاسو في كتفه بعصاه.

يا سيدي الضابط، إنني أقول الحقيقة. يمتلك فيجاي شركة بريد. إنه شابٌ طيّب ومستقيم. إنه لا» يقوم بما تتهمونه به». تطلّع جاسو بجدية من السرير الذي كان جالساً عليه. لاحظت كافيتا في هذا الوقت بالذات بأن رفاصات الفراش بدأت بالبروز إلى الخارج من خلال شقٍ طويل. عن ماذا يبحثون؟

حسناً سيّد ميرشانت. إذا كنت لا تعلم، كما تدّعي، ما هو نوع العمل الذي يقوم به ابنك، فسوف» تتمكن على الأقل من إرشادنا على مكانه. هه؟ أعني في هذه الساعة من الليل؟ إذا كان ابنك شاباً طيباً «كما تقول فلماذا ليس هو في المنزل؟.

جالت كافيتا بنظرها نحو الباب. لم يسبق لها أن رأت جاسو خائفاً هكذا منذ الغارة التي قامت بها الشرطة على أحياء الصفيح. قال جاسو: «سيدي. إنها ليلة السبت، ولم تتجاوز الساعة الحادية عشرة. «يخرج ابننا مع أصدقائه مثل معظم الشبان.

صاح الشرطي: «أتقول مع أصدقائه؟ أنصحك أن تراقب ابنك وأصدقاءه عن كثب يا سيّد ميرشانت». وكز الشرطي كتف جاسو مجدداً. «قل له بأننا نراقبه». انحنى الشرطي باحترام نحو كافيتا أثناء مغادرته.

استيقظت كافيتا مذعورة في وقتٍ لاحق من تلك الليلة بسبب الصرخات الصادرة عن جاسو. استدارت لتشاهده وهو يحاول النهوض بجهدٍ كبير، وبعد تمسّكه بالأغطية من فوقه، ثم صرخ: «لا، لا! «!أعطني إياه.

«لمست كتفيه برقة في البداية. «جاسو؟» هزّته بشدة بعد ذلك. «جاسو؟ ما بكَ يا جاسو؟.

توقّف عن الصراخ والتفت نحوها. لم يظهر أي شيء على عينيه المتصلّبتين وكأنه لا يعرفها، وما «لبث أن تطلع نحو راحتيه المفتوحتين. «ماذا قلت؟.

«قلتَ، «لا... أعطني إياه». لم تقل شيئاً جديداً.

أغمض عينيه، وتنفّس بعمق، ثم أومأ برأسه. «آسف لأنني أيقظتك يا عزيزتي. دعينا ننمْ مجدداً». أومأت برأسها، ومسّدت كتفيه، ثم عادت واستلقت على السرير. لم تكلّف كافيتا نفسها عناء سؤاله عن الحلم الذي أرّقه، وهو يرفض إخبارها عنه، كالعادة.

32

تغيّر التيار

مينلو بارك، كاليفورنيا - 2004

آشا

جلست آشا واضعةً رجلاً فوق رجلٍ على سريرها. كانت محاطة من جميع الجهات بالأغراض التي تنوي توضيبها في حقيبة السفر التي كانت في زاوية غرفتها. كانت تلك هي الحقيبة الأكبر التي تمكنت هي ووالدها من العثور عليها في متجر ماكي، وكانت بطول ثلاثين بوصة. كان هناك حقيبة أخرى مشابهة في الممر خارج الغرفة. أما رحلتها إلى الهند، فستبدأ في غضون يومين. اعتادت آشا الانتظار حتى الدقيقة الأخيرة قبل توضيب أغراضها، لكنها لجأت إلى غرفتها قبل ساعات عدة، أي عندما تلقّى والدها اتصالاً من المستشفى لدعوته إلى معالجة مريضٍ يعاني من توسّع الشرايين.

اعتادت آشا على غياب والدها بهذا الشكل، كما اعتادت على ذهابه ومجيئه بشكلٍ فجائي خلال مناوباته. حدث ذلك خلال حفلة عيد ميلادها الثامن التي جرت في قاعة للعبة البولينغ، وخلال مسابقة التهجئة الإقليمية عندما كانت في الصف السادس، وكذلك في مناسباتٍ عديدة أخرى. أما عندما كانت أصغر سناً فكانت تعتبر الموضوع شخصياً، وتنطلق بالبكاء عند مغادرة والدها فجأة خلال تناول طعام العشاء. كانت تعتقد بأنها اقترفت خطأً ما. وكان على والدتها أن تشرح لها بأن عمل والدها يتضمن مساعدة الناس في حالاتٍ طارئة، وهو الأمر الذي قد يحدث في أي وقت. تحوّل هذا الوضع أخيراً إلى جزءٍ من نمط حياة أسرتها: تعلمت آشا الرد على المكالمات الواردة من المستشفى، كما اعتادت الأسرة استخدام سيارتين عند خروجهما من المنزل إلى المطاعم. لكن الأمر لم يعد يقلقها في هذا الوقت، لأن الطابع الملّح لعمل والدها يذكّرها بوضعها، وهي التي تعمل تحت ضغط المواعيد النهائية في مجلة دايلي هيرالد، وإدراكها المستمر لمرور الوقت، والحاجة إلى البقاء لوحدها للتركيز على العمل حتى إتمامه. إنها تحب ذلك الشعور وما يرافقه من تدفق الأدرينالين الذي اعتادت عليه.

لكن وجود والدها في المنزل على مدى الأشهر القليلة الماضية كان العنصر الوحيد الذي عمل على تهدئة التوتر بينها وبين والدتها. لم تكن بحاجة إلى مواجهة استياء والدتها من قرارها، ومن مخاوفها المستمرة بشأن هذه الرحلة إلى الهند عندما يكون في المنزل. لكن مع محاولة والدتها التقرب منها، والسيطرة عليها، كانت تزداد رغبة آشا في الابتعاد عنها. كانت تشعر بأنها على وشك الانفجارٍ غضباً في حضور والدتها، وهكذا انسحبت إلى غرفتها لتوضيب أغراضها عندما تلقى والدها دعوةً للتوجه إلى المستشفى.

ألقت آشا نظرةً على تلك الكوم التي توزعت في غرفة نومها. رأت على الأرض كومة كبيرة من

الملابس، وكان بعضها وسخاً. أما على طاولتها فكانت هناك المواد التي تحتاجها في مشروعها، مثل الحاسوب المحمول، ودفاتر ملاحظاتها، وملفات الأبحاث، وكاميرا التصوير بالفيديو. أما في زاوية السرير فكان هناك حقيبة تحتوي على مستلزمات السفر التي وجدتها ذات يوم من الأسبوع الماضي بعد وصولها إلى المنزل. لكنها عرفت على الفور أن أمها هي التي أحضرتها لها. اشتملت هذه الأغراض على مستحضرٍ واقٍ من أشعة الشمس، ومن مواد طاردة للبعوض، وكذلك على حبوب الوقاية من الملاريا، بالإضافة إلى أدوية الحالات الطارئة التي تكفي لمعالجة سكان قرية صغيرة. كانت هذه الحقيبة، التي لم تحمل ورقة تعريف، واحدةً من الأمور التي تدل على رضوخ الوالدة لقرار السفر. شاهدت أخيراً الأشياء التي تنوي أخذها معها إلى الطائرة، والتي تساعدها على تمضية الوقت خلال رحلتها الطويلة، مثل مشغّل الأسطوانات المدمجة، والآيبود، وكتاب للكلمات المتقاطعة، وروايتين. لكنها ما لبثت أن زادت عليها كتاباً ثالثاً بعد قليلٍ من التفكير، وكان كتاب شعرٍ من تأليف ماري أوليفر، وهو كتاب قدّمه لها جيريمي ليكون هديةً وداعيةً لها. كتب جيريمي داخل الغلاف الخارجي قولاً مأثوراً كانت معجبةً به:

«الحقيقة هي الأرضية الآمنة الوحيدة للوقوف عليها».

- إليزابيت كادي ستانتون

إلى ألمع نجمة عندي

لا تتردّدي في سعيك نحو الحقيقة

فالعالم يحتاجك

جاي. سي

سمعت آشا طرقةً على باب غرفة نومها، وما لبث والدها أن فتحه. «أيمكنني أن أدخل؟» دخل من دون أن ينتظر الرد، وجلس على السرير.

«بالتأكيد. كنت أوظّب أغراضي».

عثرت على هذه، وأعتقد بأنها قد تكون مفيدة لكِ لرحلتك». أمسك والدها جهازَين غريبين» مصنوعين من البلاستيك والمعدن. «إنهما محوّلان كهربائيان. يمكنك إدخالهما من هذه الجهة في الهند، أما من الجهة الأخرى، فيمكنك توصيل حاسوبك ومجفف شعرك. يقوم هذان الجهازان بتحويل قوة التيار الكهربائي».

«شكراً يا بابا».

اعتقدت أن هذه قد تكون مفيدة كذلك». أخرج رزمة من الصور. «وعلى الأخص عندما تباشرين» في الالتقاء بالناس. تعرفين بأن عائلتنا كبيرة جداً هناك». تحرّك من مكانه ليجلس بقربها، وما لبثا أن بدءا باستعراض الصور معاً. كانت صوراً للأجداد، والعمّات، والأعمام، وبعض أولاد الأعمام والخالات الذين يقاربونها سناً، وهم الذين لا تعرفهم إلا من خلال المكالمات الهاتفية بين حين وآخر، أو من خلال بطاقات المعايدة. كانت متوترة للغاية بشأن العيش لفترة سنة من الزمن مع أناسٍ بالكاد تعرفهم.

«سآخذها معي إلى الطائرة بحيث يمكنني التعرّف على أسماء الجميع قبل وصولي إلى هناك».

سألها والدها: «هل رتّبت كل شيء مع صحيفة تايمز أوف إنديا؟».

أجل. كان ذلك الرجل الذي أعطيتَني اسمه، وهو صديق بانكاج أنكل، مساعِداً جداً لي، لأنه ما إن» سمع المحرر بأنني أعمل بموجب منحة من أميركا حتى بدا مهتماً جداً. قالوا إنهم سيخصّصون لي مكتباً، ومحرراً خبيراً، ليذهب معي إلى أحياء الصفيح، لكني سأجري كل المقابلات بنفسي. يُحتمل بأنهم سينشرون موضوعاً خاصاً في الصحيفة. أليس هذا عظيماً؟».

أجل، كما أنه من المطمئن أن تكوني برفقة شخص، وعلى الأخص لأن والدتك قلقت بهذا» الشأن».

هزّت آشا رأسها: «إنها تقلق لهذا الشأن، ولكل شيء آخر. هل ستتخلص من هذا القلق في يوم من الأيام؟ أم هل ستصاب بالجنون إلى الأبد؟».

قال الوالد: «إنها تقلق بشأنك فقط يا حبيبتي. إنها والدتك، وهذه هي مهمتها. أنا متأكد من أنها سوف تعتاد على الوضع».

سألته آشا: «هل ستأتيان لزيارتي هناك؟».

نظر إليها لحظة من الزمن وأومأ برأسه: «سوف نأتي، بالطبع سوف نأتي يا حبيبتي». ربّت على ركبتها قبل أن ينهض لمغادرة الغرفة، ثم قال لها: «أتمنى لك حظاً طيباً في توضيب أمتعتك».

تقدمت آشا نحو طاولتها القديمة حاملة الصور بيدها، ثم جلست على مقعدها. بدت لها هذه الطاولة صغيرة بالمقارنة مع طاولة العمل العريضة التي استخدمتها في مكتب الهيرالد. فتحت الدُرج لتبحث عن مظروفٍ للصور. بحثت وسط الأغراض الصغيرة المبعثرة، وما لبثت أن رأت شكلاً مألوفاً لديها في نهاية الدُرج. مدّت يدها وتناولت العلبة الرخامية المنحوتة ذات اللون الأبيض. علبة أسراري.

مضت سنوات عدة على رؤيتها تلك العلبة الرخامية، لكن كان بإمكانها رسم محتوياتها من ذاكرتها. بدت العلبة أصغر ممّا تتذكرها. مسحت طبقة الغبار، وأبقت يدها عليها لحظة من الزمن على سطحها البارد. أدركت بعد ذلك أنها تحبس أنفاسها، وما لبثت أن أدخلتها عميقاً، ثم فتحت العلبة. فتحت آشا الرسالة الأولى الموجودة في الداخل، وكانت عبارة عن ورقة صغيرة مستطيلة الشكل باللون الزهري الشاحب. قرأت، ببطء، الكلمات المكتوبة بخط طفولي مألوفٍ لديها:

أمي الحبيبة

طلبتْ منا المعلمة في هذا اليوم أن نكتب رسالة إلى شخص يعيش في بلادٍ أخرى. قال لي والدي إنك تعيشين في الهند، لكنه لا يعرف عنوانك. إنني في التاسعة من عمريً، وفي الصف الرابع. أردت أن أكتب لكِ رسالة لأخبرك بأنني أود أن ألتقي بكِ في يومٍ من الأيام. هل تريدين أن تلتقي بي؟

ابنتك آشا

تأثرت آشا بهذا الفيض من العاطفة، وشعرت بأن الدموع تخزها داخل عينيها، وشعرت كذلك بذلك السيل البطيء من العواطف التي لم تشعر بها منذ وقتٍ طويل. أخرجت ما تبقى من رزمة الرسائل، وفتحت الرسالة التالية. كان وجهها مليئاً بالدموع عندما انتهت من قراءتها كلها. تركّزت عيناها بعد ذلك

على الشيء الوحيد المتبقي في العلبة، وكان عبارة عن إسوارة فضية رقيقة. أخرجتها من العلبة، وأدارتها بين أصابعها مرة بعد أخرى.

سمعت في تلك اللحظة طرقة على باب الغرفة الذي ما لبث أن انفتح. استدارت آشا في كرسيّها لترى والدتها واقفة في مدخل الغرفة. جالت الوالدة بنظرها في الغرفة، ورأت الدليل الواضح على مغادرة ابنتها الوشيكة للبلاد. استقر نظرها على وجه آشا الذي خطّطته الدموع، ورأت أخيراً الإسوارة بين يديها. أسقطت آشا الإسوارة في حضنها، ومسحت وجهها على عجل.

«ماذا؟ كان بإمكانك أن تقرعي الباب على الأقل يا ماما!».

«قرعتُ الباب بالفعل». تسمّرت عينا الوالدة على الإسوارة، ثم قالت: «ماذا تفعلين؟».

أجابت بلهجة فيها نوع من التحدي: «إنني أوظّب أغراضي. ألا تعرفين بأنني سأغادر في غضون يومين؟».

أشاحت الوالدة بنظرها نحو الأسفل، ولم تقل شيئاً.

«هيا. قوليها يا أمي. فقط قوليها».

«أقول ماذا؟».

لماذا تخبئين غضبك، وكأن ذلك أسوأ شيء حدث معك على الإطلاق؟ هذا لن يحدث لك». صفعت» آشا ذراعي الكرسي بيديها. «إنني لست حاملاً، ولن ألتحق بمركزٍ إصلاحي، ولن أترك الدراسة يا ماما. فزت بجائزة بحق السماء. ألا يمكنك أن تكوني سعيدة لأجلي، وأن تشعري بقدرٍ قليل من الفخر؟».

تطلعت آشا نحو يديها، وتابعت بلهجة حازمة وباردةٍ. «ألم ترغبي في فعل شيء كهذا عندما كنتِ في سنّي؟» رفعت نظرها نحو أمها بعد ذلك متحديةً إياها لتجيب. «انسي الأمر. أنتِ لن تفهميننني على الإطلاق. لماذا البدء الآن؟».

«آشا...» تقدمت أمها نحوها، ومدت يدها نحو كتفها.

ابتعدت آشا عنها. «هذا صحيح يا ماما. أنت تعرفين أن هذا صحيح. حاولتِ أن تفهميني طيلة حياتي، لكنك لم تنجحي حتى الآن». هزّت آشا رأسها، ووقفت ثم توجهت نحو طاولتها. أسرعت إلى إعادة الرسائل والإسوارة إلى العلبة الرخامية، وما لبثت أن سمعت من ورائها صوت انغلاق الباب.

33

العودة إلى الوطن

مومباي، الهند - 2004

آشا

استفاقت آشا من نومها الخفيف عند سماعها صوت قبطان الطائرة. أعلن القبطان أن الطائرة سوف تهبط قبل عشر دقائق من الموعد المحدد، لكن ذلك شكل قدراً قليلاً من الارتياح بعد تمضية اثنتي عشرة ساعة في الجو. أشارت عقارب الساعة إلى 2:07 صباحاً بحسب التوقيت المحلي لمدينة مومباي، وهو الوقت الذي أشارت إليه ساعة يدها التي عدّلتها بعد توقف الطائرة في سنغافورة. كان هذا القسم الأخير من الرحلة طويلاً بشكلٍ لا يُحتمل. مضى عليها ما يزيد عن ست وعشرين ساعة، أي يوماً كاملاً منذ وداعها لوالديها في مطار سان فرنسيسكو الدولي، لكن مشهد الوداع كان أسوأ ممّا توقعت. بدأت أمها بالبكاء عند وصول السيارة إلى المطار، كما بدأ والداها بالجدال، بشأن المكان المناسب لإيقاف السيارة، وبشأن أي صفٍ يجب عليهم الوقوف فيه داخل مبنى المطار، وهو الأمر الذي تكرّر كثيراً معهما في الآونة الأخيرة. وضع أبوها يداً حانية على ظهرها طوال وقت مسيرهما في المبنى. أما عندما حان وقت دخول آشا إلى الصف الخاص بالتفتيش الأمني، فقد احتضنتها والدتها بقوة، ومسّدت شعرها كما كانت تفعل عندما كانت لا تزال فتاة صغيرة.

دسّ والدها عندما استدارت للمغادرة مظروفاً صغيراً في يدها. قال مبتسماً: «يُحتمل أن تكون هذه قليلة القيمة الآن، لكن يمكنك استخدامها بطريقة أفضل مني». فتحت آشا المظروف عندما وصلت إلى الجهة الأخرى من البوابة الأمنية، ورأت بأنه يحتوي على عشرات الروبيات الهندية من ذات الفئات المختلفة.

تطلعت خلفها من خلال متاهة أجهزة الكشف المعدنية، والطاولات، والناس ورأت أمها واقفةً في المكان ذاته الذي تعانقتا فيه. ابتسمت الأم ابتسامة واهنة، ولوّحت بيدها. لوحت آشا بدورها ثم ابتعدت. لكن عندما تطلعت خلفها للمرة الأخيرة كانت أمها لا تزال واقفة هناك.

جمعت آشا أغراضها من مساحة المترين المكعّبين اللذين كانا بمثابة منزلها على مدى اليوم الماضي. شعرت بألم في رقبتها نتيجة النوم بوضعٍ غير سليم، كما شعرت بتصلّب في ساقيها عندما انحنت للإمساك بحقيبة ظهرها. يُضاف إلى ذلك أن بطّاريات مشغّل الأسطوانات المدمجة والآيبود فرغت في الطريق إلى سنغافورة. بقيت الروايات الثلاث كما هي، لأنه لم تتوفر لديها فسحة هادئة من الوقت للقراءة. لكن آشا أمضت وقت الرحلة من دون تخطيط، كما استهلكت الوجبات، وشاهدت الأفلام السينمائية، من دون اكتراث. أما الشيء الوحيد الذي تناولته تكراراً من حقيبة ظهرها فكان المظروف

الكبير المحشو بصور أفراد عائلة والدها، ومحتويات علبتها الرخامية البيضاء. لكن مع مرور الساعات خلال تلك الرحلة، وبعد أن زادت المسافات اتساعاً بين آشا ووالديها، بدأت مشاعرها بالتغيّر نحو التوتر واللهفة.

جمع الولدان الجالسان إلى جانبها في الطائرة ألعابهما، وما لبثت والدتهما أن عادت من زيارتها إلى الحمام، حيث غيّرت البدلة الرياضية التي كانت ترتديها، ولبست ثوب الساري ثم وضعت طبقة جديدة من أحمر الشفاه على شفتيها. عرّفت المرأة عن نفسها على أنها السيدة دوشي، وهي تقوم بزيارتها الصيفية السنوية، وذلك بعد هجرتها من مومباي إلى سياتل قبل ست سنوات، «بسبب عمل السيّد دوشي». صفّق الركاب بعد هبوط الطائرة مع اصطدام خفيفٍ مع المدرج. خرجت آشا من الطائرة مع بقية الركابً، واعتادت على الوقوف على رجليها مجدداً.

يُعتبر مطار مومباي الدولي متاهةً تامة. بدا أن عشر طائرات أخرى قد هبطت في هذه الساعة بالذات، وهكذا توجّه ركاب جميع تلك الرحلات إلى نقاط الأمن العام في وقتٍ واحد. لم تعرف آشا إلى أي نقطة تتجه، ولذلك تبعت أسرة دوشي إلى صفٍ يقع في آخر القاعة المفتوحة. لكن ما إن أخذت دورها في الصف حتى التفتت السيدة دوشي إلى آشا، ثم أشارت إلى صفٍ أقصر بكثير أمام طاولة تحمل لوحة كُتب عليها المواطنون الهنود، وقالت: «كان الأمر أسهل علينا السنة الماضية عندما كان بإمكاننا الوقوف في ذلك الصف. لكن في السنة الماضية اضطررنا إلى التخلي عن جنسيتنا الهندية. قامت الشركة التي يعمل فيها السيّد دوشي بكفالته، وهكذا نضطر الآن إلى الانتظار في هذا الصف الذي يكون أطول على الدوام». قالت السيدة دوشي هذا الكلام بصورة طبيعية، وكأن هذا الأمر هو أهم عواقب قرارهم بالهجرة إلى بلدٍ جديد.

تطلعت آشا من حولها نحو بحرٍ من الوجوه السمراء، وبعضها أشد سمرةً من وجهها، وبعضها أقل سمرة منه، لكن هذا التفاوتَ أصبح أقل أهمية على ضوء إدراكها بأنها لم يسبق لها أن اختلطت مع عددٍ كبير من الهنود. أدركت، وللمرة الأولى في حياتها بأنها لا تنتمي إلى أقلية. تناولت مع اقترابها من مقدمة الصف جواز سفرها من حزام السفر الذي أصرّت والدتها على أن تصطحبه معها. كان ضابط الأمن العام شاباً لا يكبرها كثيراً في السن، لكن شاربه المشذّب، وزيّه الرسمي منحاه مظهراً سلطوياً جعله يبدو أكبر سناً.

قال الضابط من دون اكتراث: «ما هو سبب الزيارة». كان ذلك سؤالاً يوجّهه مرات عديدة في اليوم بحيث يُعتبر عادياً.

أتيت إلى هنا بموجب منحة طلابية». انتظرت آشا أن يقوم الضابط بتفحّص التأشيرة التي يحملها» جواز سفرها.

«ما هي مدة زيارتك؟».

«تسعة أشهر».

سألها بعد أن تطلع نحوها للمرة الأولى: «ما هو هذا العنوان الذي قدّمته؟ أعني أين ستمكثين؟».

سأمكث مع... عائلتي». استغربت كثيراً أن تتلفظ بهذه الكلمة. لكن بالرغم من أنها صحيحة من» الناحية التقنية، إلا أن راحتَي يديها تعرقتا، فبدا الأمر، وكأنها كذبت على الضابط.

«قال بلهجة تدل على اهتمامٍ أكبر: «أرى أنك وُلدتِ هنا».

تذكرت آشا ذلك الجزء الخاص من جواز سفرها الأميركي الذي يورد كلمات مومباي، الهند، في «مكان ولادتها. «أجل».

وضع الضابط ختمه على الجواز تاركاً عليه علامة أرجوانية اللون ومستطيلة الشكل، ثم ناولها إياه مع ابتسامة مفاجئة ظهرت على شفتيه. «أهلاً بعودتكِ إلى الوطن يا سيدتي».

استقبلتها رائحة مألوفة لديها عند توجهها إلى قاعة استرجاع الأمتعة. كانت هذه الرائحة تشبه رائحة هواء المحيط المشبعة بالملح، وحارةً مثل الروائح المألوفة في مطعم هندي، ووسخة مثل محطات المترو في نيويورك. رأت آشا حقائبها بين الحقائب الكبيرة الأخرى التي تملأ الحزام الدوار. رأت آشا كذلك صناديق الكرتون المقوى الملفوفة كلها بشرائط التوضيب، ومبردات الستايروفوم بأغطيتها محكمة الإغلاق، كما رأت كرتونة كبيرة جداً يبدو بأنها تحتوي على برّاد (ثلاجة). ساعد السيّد دوشي آشا على نقل حقيبتيها من حزام الأمتعة، وأشار إلى رجلٍ هزيلٍ يعتمر عمامة. لكن ما إن بدأت آشا بالتساؤل عن السبب الذي دفع السيد دوشي إلى استدعاء حمّال لمساعدتها، حتى أسرع الرجل إلى الانحناء إلى الأرض ورفع الحقيبتين على رأسه. استخدم الرجل يداً من كل جهة لتثبيت الحقيبتين فوق رأسه، ثم رفع حاجبيه قليلاً نحو آشا التي فهمت من هذه الإشارة على أنه يطلب منها التقدّم، على أن يتبعها من خلال الحشود الكثيفة محافظاً على توازنه تحت ثقل مئة رطلٍ إنكليزي.

لكن فور خروجها من المبنى شعرت بنسمة من الهواء الساخن فأدركت بأنها غادرت مبنى يتمتع بتكييفٍ مركزي، بالرغم من أنها لم تلحظ ذلك عندما كانت في الداخل. رأت الحواجز المعدنية التي تفصل بين حشود المستقبلين والمسافرين الواصلين. رفع المستقبلون رؤوسهم نحو الأبواب الانزلاقية التي خرجت من خلالها للتو. تألفت هذه الحشود بمعظمها من الرجال الذين شابهوا ضابط الأمن العام بشاربه المشذّب وشعره اللامع، لكن من دون الزيّ الرسمي بطبيعة الحال. كان كل واحدٍ من هؤلاء بانتظار خروج شخصٍ ما من ذلك الباب، لكن آشا لاحظت بأن بعض الأعين ركّزت عليها أثناء سيرها.

كانت تلتفت وراءها كلما سارت بضع خطوات كي تتأكد من وجود الرجل الذي يعتمر عمامة وراءها، وكانت تتوقع سماع صوت ارتطام حقيبتيها بالأرض بعد أن يكسر الرجل رقبته. لكنها لاحظت الرجل سائراً وراءها في كل مرة بوجهه الرزين الخالي من أيّ تعابير، والذي لا يتحرك فكّاه إلا لمضغ اللبان. فكّرت آشا بأنها ستضطر إلى دفع مبلغٍ من المال لهذا الرجل، وتساءلت ما إذا كانت الروبيات التي تسلمتها من والدها كافية للدفع، لكن سبق أن أخبرها والدها بأن أحد أشقائه، أي أحد أعمامها، سوف يستقبلها في المطار. بدت هذه المعلومة كافية في ذلك الوقت، لكن الآن ومع كل هذه الحشود، والمئات من الناس المصطفّين على الطريق المحيطة بالمطار، فإنه من الصعب أن تتمكن هي وعمّها من العثور أحدهما على الآخر. اقتربت من نهاية الطريق، وكانت على وشك تناول صورة عمّها عندما سمعت صوتاً ينادي اسمها.

رأت شاباً يلوّح لها وينادي: «آشا! آ - شا!» كان الشاب الذي ارتدى قميصاً قطنياً أبيض اللون يكشف عن شعر صدره، ذا شعرٍ أسود مجعّد. سارت آشا نحوه. قال مبتسماً: «مرحباً آشا! أهلاً بك. أنا نيميش. ابن بانكاج. أنا ابن عمّك وأخوك! تعالي». قادها بعيداً عن الحشد، وقال: «ينتظرك بابا في سيارته. إنها هنا. أرى أنك عثرتِ على حمّال». أشار نيميش إلى الرجل ذي العمامة ليتبعهما.

«قالت آشا بعد أن تبعته: «أنا سعيدة لمعرفتك يا نيميش. شكراً لحضورك واستقبالي في المطار».

بالطبع. أرادت داديما (جدّتي) أن تأتي بنفسها لاصطحابك إلى المنزل، لكننا قلنا لها إن هذه» الفكرة ليست جيدة في مثل هذه الساعة، لأن المطار يمتلئ بالمسافرين الآتين من بلدان بعيدة». قاد نيميش آشا والحمّال من خلال متاهة السيارات المصطفّة بمصابيحها المضاءة، وسائقيها الذين استندوا على نوافذها. تذكرت آشا أن والدها استخدم كلمة داديما عندما كان يناولها سماعة الهاتف أثناء .المكالمات الأسبوعية التي يجريها مع الهند

تعالي. هذا هو أبي». قادها نيميش نحو سيارة عائلية رماديةِ اللون قديمة الطراز، وتحمل اسم» أمباسادور بأحرفٍ معدنيةٍ مثبتة في الخلف. ذهلت آشا قليلاً عندما سمعت نيميش ينادي بكلمة بابا. كان العم بانكاج يبدو أكبر سناً بكثير، ويمتلك شَعراً أقل بكثير ممّا يبدو عليه في الصورة التي أعطاها إياها .والدها. كان بانكاج الشقيق الأصغر لوالدها، لكنه يبدو أكبر منه بعقدٍ من السنين

قال وهو يمدّ ذراعيه ليحتضنها: «مرحباً يا ابنتي. إنني سعيد جداً لرؤيتك. كيف كانت رحلتكِ؟» احتضن وجهها بيديه، وابتسم ابتسامة عريضة. شعرت عندما أحاط كتفيها بذراعه بإحساسٍ مألوفٍ لديها بحيث استندت عليه. رأت آشا ناميش بطرف عينها وهو يفتح غطاء الصندوق للحمّال. تساءلت مجدداً بشأن المظروف الذي يحتوي على الروبيات، لكن قبل أن تتمكن من قول أي شيء دفع ناميش مبلغاً من المال للرجل الذي استدار عائداً إلى مبنى المطار. أمطرها عمّها في الطريق إلى المنزل بسيلٍ .من الأسئلة

كيف كانت رحلتكِ؟ أخبريني كيف هو والدكِ؟ لماذا لم يرافقك في هذه الرحلة، وهو لم يأتِ» .«لزيارتنا منذ وقتٍ طويل؟

.«قال نيميش: «كفاكَ أسئلة يا بابا. دعها تسترحْ قليلاً. وصلت آشا لتوّها وهي متعبة

ابتسمت آشا عند سماعها دفاع ابن عمها عنها. رأت اللوحات الإعلانية التي تحيط بالطريق السريع، والتي تعلن عن كل شيء بدءاً من محلات الألبسة وأفلام بوليوود، والشركات الاستثمارية، وخدمات الهواتف الخليوية. كان المنظر خارج سيارة الإمباسادور يتغيّر من ناطحات السحاب إلى الضواحي الفقيرة التي ظهرت فيها الأكواخ المتداعية، والثياب المنشورة على حبال الغسيل خارجها، وكذلك النفايات المتناثرة في كل مكان، والحيوانات الشاردة دائمة التجوال. سبق أن رأت آشا صوراً كهذه في البحث التمهيدي الذي أجرته، لكنٍ تلك الصور لم تعطها فكرة عن مدى اتساع تلك الأحياء الفقيرة. امتدّ هذا المنظر البائس أمامها ميلاً بعد ميل، لكن حتى مع وجود ستار الظلمة بدأت آشا تشعر بالتوتر في معدتها. تذكرت في هذا الوقت تحذيرات والدتها بشأن زيارة تلك الأماكن، واعتبرت، للمرة .الأولى، بأنها على حق

34

شقيق وشقيقته

مومباي، الهند - 2004

آشا

استيقظت آشا أبكر من المعتاد في أول صباح لها في مومباي على أصوات الحياة التي دبّت فجأةً في المنزل. ارتدت السروال المخصّص لليوغا، وخرجت إلى الغرفة الرئيسة في المنزل التي مرّت من خلالها لفترة قصيرة في الليلة الماضية. رأت سيدة مسنّة ترتدي ثوباً ناعماً أخضر اللون جالسةً على مائدة الطعام، وكانت تشرب فنجاناً من الشاي.

قالت آشا: «صباح الخير».

آه، آشا يا ابنتي! صباح الخير». وقفت العجوز لتحيّتها، وقالت بعد أن أمسكت يديها: «انظروا،» «(بالكاد تعرّفت عليك. كبُرتِ كثيراً. أتعرفينني يا ابنتي؟ أنا والدة أبيكِ. داديما (جدّتك».

كانت داديما أطول قامةً ممّا توقعت آشا، وذات قامةٍ مستقيمة. كانت بشرة وجهها ناعمة من دون تجاعيد، أما شعرها الأشيب فكان ملفوفاً على شكل كعكة على رقبتها. وضعت الجدة أساور رفيعة حول كل معصم، وكانت تصدر أصواتاً مع كل حركة تقوم بها. لم تكن آشا متأكدة من كيفية إلقاء التحية عليها، لكن قبل أن تتمكن من التفكير في هذه المسألة سحبتها الجدة نحو ذراعيها. كان العناق حاراً ومريحاً، ودام لدقائق عدة.

تعالي واجلسي لتناول كوب من الشاي. ماذا تريدين لطعام الفطور؟» قادت الجدّة آشا من ذراعها» نحو الطاولة.

تطلعت آشا إلى الوعاء المليء بالمانجو المقطّع أمامها. شعرت وكأنها لم تتناول في الأيام الماضية شيئاً غير الطعام الذي تناولته في الطائرة. تبادلت آشا الحديث مع جدّتها أثناء شرب الشاي، لكنها فوجئت بمدى طلاقتها باللغة الإنجليزية بالرغم من لجوئها إلى لغة الجوجاراتي بين حين وآخر.

جدّك الآن في المستشفى، لكنه سوف يعود لتناول طعام الغداء. آهٍ يا ابنتي إن عائلتنا بأكملها» مسرورة لرؤيتك، وأنا دعوتهم جميعاً لتناول الغداء يوم السبت القادم. أردت إعطاءك بضعة أيام للراحة، ولكي تعتادي على تغيّر الوقت، وعلى الأمورً الأخرى».

قالت آشا: «يبدو ذلك جيداً. إنهم لا يتوقعون حضوري في مكتب التايمز حتى صباح الاثنين القادم». جعلها التلفظ بهذه الكلمات تشعر بالإثارة، وكذلك فكرة العمل في صحيفة دولية مهمة. أخرجت

آشا مظروف الصور الذي تسلمته من والدها، وطلبت من جدّتها مساعدتها على التعرّف مجدداً على أسماء أصحابها. تفحّصت الجدّة الصور، وكانت تضحك بين وقتٍ وآخر بسبب قِدَمها. «أوه، لم تعدِ ابنة عمكِ جيفان هزيلةً بهذا الشكل منذ وقتٍ طويل، وذلك بالرغم من أنها تعتقد أنها لا تزال محافظةً على حجمها هذا!».

علّمت الجدّة آشا كيفية استخدام الدش البدائي في الحمام، وكيفية فتح خزّان المياه الساخنة لمدة عشر دقائق. كانت عملية الاستحمام تستغرق من آشا وقتاً أطول ممّا تعودت عليه، وذلك بسبب ضغط المياه الضعيف، والتغيّر الدائم لحرارة المياه. شعرت بالتعب بعد انتهائها من الاستحمام فاستسلمت للنوم على سريرها، وبقيت نائمة طيلة وجود جدّها لتناول الغداء. لكنّها شعرت بالصدمة عندما التقت جدّها أخيراً في فترة تناول الغداء ورأته رزيناً جداً. كانت تتوقع رؤية شخصٍ أقرب ما يكون لوالدها بطموحه وثقته بنفسه. بدا أن جدّتها هي التي تتمتع بالشخصية الأقوى في المنزل، وهي التي تقوم برواية القصص، وإصدار الأوامر للخدم بإشارةٍ من إصبعها. أما جدّها فيجلس على رأس الطاولة، ويأكل بهدوء، لكن عندما يضحك لواحدة من القصص التي ترويها زوجته، فإن عينيه تتجعدان عند زاويتيهما، ولا يلبث أن يومئ برأسه المتوّج بالشعر الأشيب.

أمضت آشا الأيام العديدة الأولى في مومباي في التعود على بيئتها الجديدة، وذلك بعد الإرهاق الناتج عن السفر، والذي جعلها تشعر وكأنها تسير في بيئةٍ من الضباب. كانت الدوخة تسيطر عليها في منتصف اليوم. وكان الطقس خانقاً بحرارته ورطوبته، وهو الأمر الذي أجبرها على البقاء داخل المنزل معظم الوقت. أما عند خروجها من المنزل لمرافقة الجدة إلى مكانٍ ما، فكانت تُصدم بمناظر القذارة والفقر التي تراها في الشوارع التي تمرّ بها خارج بوابات المبنى الذي تمكث فيه مباشرة. كانت تحبس أنفاسها، وتشيح بنظرها بعيداً عن الأطفال المتسوّلين اللاحقين بهما.

اعتادت آشا أن تتوجه بعد عودتها إلى المنزل إلى غرفتها مباشرة، والوقوف أمام جهاز تكييف الهواء إلى أن تعود حرارة جسمها إلى مستواها الطبيعي. كان عليها أن تعتاد على الوجبات الهندية التي كانت تقدّم ثلاث مراتٍ يومياً، لكنها كانت حارةً أكثر ممّا تعودت عليه، وهكذا كانت معدتها تجري التعديلات الخاصة بها. لم تشعر آشا بأنها تعيش حياتها على طبيعتها، وكان كل ما يحيط بها، مثل الخبز الذي يأتي ملفوفاً على شكل مربعات صغيرة، والصحيفة التي تأتي باللون الزهري الشاحب الذي يماثل لون طلاء الأظافر، يذكّرها بأنها بعيدة جداً عن منزلها. فكّرت في الاتصال بالمنزل كي ترتاح قليلاً، لكن كبرياءها منعها من ذلك.

حلّ يوم السبت في النهاية، وكان اليوم المقرّر لمأدبة الغداء التي تجمع أفراد العائلة بأكملهم. ارتدت آشا ثوباً صيفياً يُظهر كتفيها وظهرها، كما وضعت بعض الحمرة على خدّيها، وشيئاً من تجميل الرموش. كانت هذه هي المرة الأولى التي تضع فيها مساحيق التجميل منذ مغادرتها كاليفورنيا، وذلك لأنها خشيت ذوبان هذه المساحيق بفعل الحرارة الشديدة، إلا أنها أرادت أن تبدو حسنة المظهر. لم تكفّ الجدة عن التجوال طيلة النهار في أنحاء المنزل للإشراف على الخدم الذين يحضّرون هذه المأدبة الضخمة.

بدأ الناس بالتوافد بشكلٍ بدا معه أن الصف لا نهاية له. كانوا أقرباء من جميع الأعمار، كما اقتربت الشابات من آشا بابتساماتهن العريضة، وأثوابهن الطويلة الجميلة. أسرعن إلى مناداتها باسمها، واحتضانها، وأمسكن وجهها بأيديهن، ولم يبخلن عليها بالملاحظات عن طولها ومدى جمال

عينيها. بدا لها أن وجوه بعضهن مألوفة لديها، لكن معظمهن لسن كذلك. قدّمت الصبايا أنفسهن بطريقة سريعة ومطولة، مثل: «إن عمّ والدك وعمّي هما أشقاء. كنا نلعب الكريكيت وراء المنزل القديم». حاولت آشا أن تتذكّر أسماءهنّ بمقارنة الوجوه مع الصور، لكنها سرعان ما أدركت بأن نجاحها في ذلك غير محتمل، وغير ضروري كذلك.

كان هناك ثلاثون شخصاً على الأقل، لكن بالرغم من أنها كانت تلتقيهم للمرة الأولى في حياتها إلا أنهن تحدثن وكأنهن يعرفنها منذ سنوات.

لكن عندما انتهت حماسة اللقاء أخذ الجميع بالجلوس على مقاعدهم أمام مائدة الطعام. رأت آشا بعد أن ملأت طبقها مجموعة من الشابات اللواتي جلسن معاً، واللواتي قدّمن أنفسهن من قبل على أنهن بنات أعمامها بطريقة أو بأخرى. أشارت بريا، وهي شابة جاوزت العشرين من عمرها، وذات شعرٍ نحاسيٍّ لامع، وأقراط أذنٍ كبيرة ذهبية اللون، بالانضمام إليهن. قالت لها مع ابتسامةٍ عريضة، وبعد أنً تحركت لإفساح المجال لها للجلوس: «تعالي يا آشا اجلسي معنا، واتركي العمّات والخالات والأعمام في أحاديثهم».

جلست آشا، وقالت: «شكراً لكِ».

قالت بريا: «أعتقد أنكِ التقيت الجميع اليوم، أليس كذلك؟ هذه بيندو، وميتو، وبوشبا، وهذه جيفان، إنها ابنة عمنا الكبرى، ولذلك ينبغي علينا معاملتها بكل احترام». غمزت بريا الشابات المجتمعات، وتذكرت آشا حديث جدّتها عن مقاس خصر جيفان، فابتسمت.

قالت بريا ضاحكة من أعماق قلبها: «لا تقلقي، لستِ مضطرةً لتذكّر أسماء الجميع. هذا هو جمال العائلات الهندية». يمكنكِ أن تنادي الجميع إما عمّتي، أو عمّي، أو بهاي، أو بِن».

حسناً. أفهم كلمات عمّتي وأعمامي، لكن ماذا تعني الكلمات الأخرى؟».

قالت بريا: «أتعنين بهاي وبِن؟ إنها تعني أخي وأختي. هكذا نحن جميعاً». غمزت بريا مجدداً.

تطلعت آشا من حولها على عشرات الأشخاص المتجمعين، والذين كانوا يتبادلون الضحكات والأحاديث، ويتناولون الطعام، وهم الذين اجتمعوا كي يتعرّفوا إليها. عرف أولئك الأشخاص عائلة والدها بعضهم بعضاً طيلة أعمارهم ونشأوا معاً في تلك المدينة، وفي ذلك المبنى بالذات. كان من المحتّم أن تؤثر عليها تلك المجموعة من الناس التي يشعّ منها الدفء بقوتها الجاذبة، وهي لا تكترث بأنها لا تتقاسم معها ماضيها ولا دماءها. ابتسمت آشا، وتناولت أول لقمة لها من الطعام الذي حُضّر على شرفها. كان الطعام لذيذاً جداً.

35

إنديان تايمز

مومباي، الهند - 2004

آشا

فتحت آشا مقبض الباب النحاسي فشعرت بموجةٍ من الهواء البارد. قرقع كعبا حذائها على الأرض الرخامية في طريقها إلى باب المصعد. رأت لوحة كبيرة مثبتة في وسط الجدار وحملت الكلمات المحفورة التالية: إنديان تايمز، تأسست في العام 1839.

قال لها عامل المصعد الذي ارتدى بذلة مصنوعة من البوليستر ومؤلفة من قطعتين: «أتريدين استخدام المصعد سيدتي؟».

أجل. الطابق السادس من فضلك». لم تعد آشا تُدهش عندما يتكلم معها شخصٌ ما باللغة» الإنكليزية. شرحت لها بنات أعمامها أن بإمكان الهنود تمييزها كأجنبية على الفور، وذلك من ملابسها الغربية، وشعرها الذي يصل إلى مستوى كتفها. كانت قدرتها على التطلع مباشرة في أعين الناس بمثابة نعمةٍ بالنسبة إليها. استمتعت بالرغم من كل هذا بالتجوال في الشوارع للمرة الأولى بين حشدٍ من الناس الذين يشبهونها. دخلت آشا إلى المصعد مع شخصين آخرين بالإضافة إلى عامل المصعد. وقف الجميع من دون أن تفصل بينهم أكثر من بوصاتٍ قليلة، لكن حتى هذه المساحة القليلة كانت مليئة برائحة العرق القوية. افتقد المصعد إلى تكييف الهواء، أي مثل معظم المصاعد التي استخدمتها في هذه المدينة، ولم يكن مجهزاً سوى بمروحة مثبتة بالسقف لتحريك الهواء الراكد.

سألت آشا عند وصولها إلى طاولة الاستقبال في الطابق السادس عن السيّد نيل كوثاري، وهو أحد أهم معارفها في الصحيفة. جلست آشا في غرفة الإستقبالٍ وتناولت عدد الصباح من التايمز، وما لبث السيد كوثاري أن ظهر في القاعة. كان رجلاً طويلاً ونحيلاً وبعمر والدها تقريباً. كانت ربطة عنقه غير مشدودة وشعره أشعث. رفضت آشا عرضه لتناول كوب من الشاي، وتبعته إلى مكتبه. مشت آشا والرجل عبر مكتب التايمز، وهو غرفة واسعة ومفتوحة وتشتمل على صفوفٍ من الطاولات التي تحمل أجهزة حواسيب عليها. كان المكان مليئاً بضجيج الهواتف التي تستمر برنينها، وكذلك أصوات الطابعات بالإضافة إلى أصواتٍ غريبة أخرى. تمكنت آشا من الإحساس بالحيوية التي تملأ هذا المكان، وكانت أكبر غرفة أخبارٍ رأتها في حياتها. امتلأت الغرفة بالوجوه السمراء.

قال السيّد كوثاري: «أعتقد أنني آخر شخص في هذه البلاد الذي يحتفظ بآلةٍ كاتبة في مكتبه. إنني بالطبع لا أقوم بالكتابة كثيراً في هذه الأيام، لكني أحب أن أحتفظ بها». شاهدت آشا بالقرب من هذه

القاعة المفتوحة مكاتب بجدرانٍ زجاجية. قادها السيد كوثاري إلى أحد هذه المكاتب، الذي رأت على مدخله لوحة على الباب الخشبيّ كُتب عليها محرّر مساعد. قال لها مشيراً إلى مقاعد عدة: «اجلسي من فضلك... هل أنتِ متأكدة من أنك لا تريدين تناول بعض الشاي؟».

جلست آشا واضعةً رجلاً فوق رجل وأخرجت دفتر ملاحظاتها: «كلا، شكراً لك».

قال كوثاري لأحد الأشخاص الذي كان واقفاً خلفه: «كلا». التفتت آشا، فرأت رجلاً نحيلاً وقصيراً داكن البشرة، والذي ظهر بصمتٍ عند المدخل. كانت أظفار أصابع رجليه سميكة وصفراء اللون، وهي التي توزعت بشكلٍ بشع فوق صندالِه الرقيق والبالي. أومأ الرجل ببطء نحو السيد كوثاري، وما لبث أن غادر بهدوء كما جاء، لكنه لم يتطلع مطلقاً نحو آشا. «حسناً». سأل السيد كوثاري: «إذاً أتيت من أميركا. أهلاً بكِ في مومباي! كيف وجدتِها؟».

قالت آشا: «إنها رائعة. شكراً لك. إنني مسرورة جداً لوجودي هنا، وللتعاون في مشروعي مع مثل هذه الصحيفة العظيمة».

إننا مسرورون بدورنا باستقبال شابة بارعة في مكاتبنا. سأعرّفك الآن على مينا ديفي، وهي» إحدى أفضل مراسلينا الميدانيين. إنها لا تخشى شيئاً، وأحياناً تبالغ في عدم الخشية إلى حد الوقوع في الخطأ. أعتقد أنها سوف تكون مرشدة ممتازة لكِ». ضغط السيّد كوثاري على زرٍ في هاتفه، وما لبثت أن ظهرت شابة في مدخل المكتب. «أحضِري مينا إلى هنا على الفور من فضلك». ظهرت شابة أخرى بعد مرور دقائق قليلة، لكن بدلاً من أن تنتظر المرأة في الخارج مثل الآخرين دخلت على الفور وجلست.

ما هو المهم جداً يا سيد نيل بحيث اضطر إلى الدخول إلى هنا في هذه اللحظة بالذات؟ إنني أعمل» على مقالٍ مع موعدٍ نهائي للتسليم كما تعلم؟» كانت امرأة صغيرة، ولا يزيد طولها عن خمسة أقدام، لكن وجودها أثار الحيوية في مكتب السيّد كوثاري.

«...مينا، هذه هي آشا ثاكر، وهي السيدة الشابة من أميركا، وهي هنا».

«!نهضت مينا كالسهم من مكانها لكي تصافح يد آشا الممدودة: «أجل بالطبع».

تابع السيّد كوثاري كلامه: «إنها تعمل على مشروع حول الأطفال الذين ينشأون في الأحياء الفقيرة. جهّزنا لها مكتباً بالقرب من مكتبك، ومهمتك هي الاهتمام بها. أريدك أن تعرّفيها على مومباي الحقيقية. احرصي على سلامتها على الدوام».

قالت مينا: « تعالي يا آشا. يتعيّن عليّ إنهاء مقالتي، وسوف نتناول طعام الغداء. سنمضي بعد ذلك لرؤية مومباي الحقيقية». تطلعت مينا خلفها نحو السيّد كوثاري أثناء مغادرتهما المكتب.

أمضت آشا الساعات القليلة التالية بين رزمة من الملفات التي تحتوي على قصاصات. كانت الملفات موضوعةً على الطاولة، واشتملت كذلك على بعض الأدوات المكتبية الأساسية، وعلى حاسوب قديم الطراز. قلّبت صفحات أحد الملفات التي احتوت على مقالات معمقة ظهرت سابقاً في صحيفة التايمز. نقرت مينا بعد دخولها إلى مكتبها القريب على لوحة المفاتيح الخاصة، بها لكنها فعلت ذلك بشكلٍ متقطع.

قرأت آشا مقالة عن نهوض صناعة خدمات المعلومات، ومقالة أخرى حول الكفاءة العملانية

لنظام حاويات الطعام. كانت على وشك اعتبار مومباي أعظم عاصمة صناعية حديثة في العالم، وذلك إلى أن قرأت مقالة عن حرق العرائس.

صعُب على آشا تصديق أن العرائس الصغيرات يُسكب الكاز فوقهن ويُحرقن أحياء، إذا ما اعتُبرت مهورهن غير كافية. تحولت آشا بعد ذلك إلى مقالة تحدثت عن أحد أفراد طبقة «المنبوذين»، والذي أقدم عمداً على إحداث شللٍ في أطفاله كي يستدر العطف، ويزيد مدخوله من التسوّل. أما المقال التالي فتحدث عن النجاح المذهل لشركة لاكشمي ميتال، وهي عملاقة صناعة الفولاذ في العالم. لكن المقال الذي تلاه تحدّث عن آخر فضيحة سياسية، وفصّل اتهامات الفساد والرشوة ضد عددٍ من الوزراء في الحكومة. أما آخر مقالٍ في ذلك الملف فقد تمحور حول أحداث الشغب التي حدثت في ولاية جوجارات في العام 2002، بين الهندوس والمسلمين، وهي الأعمال التي راح ضحيتها آلاف الأشخاص الذين لقوا مصرعهم. أغلقت آشا الملف بعد انتهائها من قراءة ما فعله الجيران بجيرانهم عندما أحرقوا المنازل، وطعنوا بعضهم بعضاً في الشوارع، ثم أغمضت عينيها. تساءلت آشا في هذا الوقت ما إذا كانت بعض النماذج من مقالات النيويورك تايمز ستثير فيها ذلك القدر الكبير من الخجل والكبرياء.

نادت مينا من مكتبها: «كدت أنتهي من عملي هنا. هل أنتِ جائعة؟».

قالت مينا بصوتٍ عالٍ مع مرور أحد القطارات: «يقدّم هذا المطعم أفضل طبق الخضار الحارة مع الخبز في مومباي بأكملها. أني أقصد هذا المطعم إذا مررتُ بالقرب من المكان، وسواء إذا كنت جائعة أم لا.» لم تعرف آشا ما هو الطبق المسمى باو جي، أو إذا كانت ستحبّه، لكن مينا لم تهتم للأمر. كان بإمكانهما معاودة أحاديثهما العادية ما إن تغادرا القطار المليء بالضجيج. قالت مينا: «إذاً ما رأيك بقصاصات المقالات التي قرأتها؟».

قالت آشا: «إنها جيّدة. أعني أن مستوى الكتابة والتقارير ممتازٌ جداً بطبيعة الحال».

ضحكت مينا وردّت: «كنت أعني مواضيع المقالات. ما رأيك في بلادنا الجميلة؟ إنها بلاد مليئة بالتناقضات من الدرجة الأولى، أليس كذلك؟ اخترت لك هذه المقالات لأنها تُظهر أقصى درجات التناقض الذي تعيشه الهند، أي السلبيات والإيجابيات. يلجأ بعض الناس إلى تصوير الهند على أنها شريرة بسبب ضعفها، لكن آخرين يمجدون قوتها. أما الواقع فإن الهند تقع، كالعادة في مكانٍ ما بين هذين النقيضين».

وجدت آشا أنه من الصعب عليها مجاراة مينا في سيرها بين حشود الناس في الرصيف، وهي التي سارت بسرعة بين مختلف فئات المواطنين: رجالٌ يبصقون على الأرض من دون اكتراث، وكلاب شاردة من دون أصحابها، وأولاد يتوسّلون إعطاءهم بعض المال. كانت الأرصفة مكاناً خطيراً للسير، لكن الطرقات كانت أسوأ منها بكثير: سيارات تخرج من الصف لتعود وتدخل إليه من جديد من دون الاكتراث كثيراً بإشارات السير، والحافلات ذات الطابقين التي تقترب بصورة خطرة من الأبقار والماعز الشاردة. قالت مينا: «يعيش مليار إنسان في الهند، ونحو تسعين بالمئة منهم يعيشون بالقرب من المدن الرئيسة، وهذا يعني وجود بلداتٍ صغيرة وقرى ريفية. أما مومباي، أي مومباي الحقيقية، كما يدعوها نيل، فهي جزء صغير من البلاد. لكنها جزءٌ قوي لأنها تجذب الناس كالمغناطيس. تحتوي المدينة كذلك على الأفضل والأسوأ من كل شيء يمكن للهند أن تقدمه. آه، ها قد وصلنا». اقتربت مينا من أحد الأكشاك على الرصيف، وقالت: «أريد طبقين من الخضار الحارة والخبز، لكني أريد أن يكون حرّها خفيفاً جداً». استدارت مينا وابتسمت لآشا.

أتعنين هنا؟ هل سنتناول غداءنا هنا؟» تطلعت آشا نحو بائع الرصيف، ثم نحو مينا وعجزت عن»

.«...التصديق. «أنا... لا أعتقد بأنني سأفعل هذا. لا يُفترض بي أن أتناول طعاماً يُباع في الشوارع

اهدئي يا آشا. ستكونين على ما يُرام. إن أي شيء يتعرض للحرارة لا يقتل، لكن البهارات هي» التي تقتل. اسمعي. أنتِ في الهند الآن، ويتعيّن عليك أن تجرّبي كل ما هو حقيقي. انتظري حتى تتذوقيها!» ناولت مينا آشا صينية من الكرتون مستطيلة الشكل، وتحمل طبقاً من الحساء باللون البني المائل إلى الأحمر، وفوقها قطع من البصل النيء المقطّع، بالإضافة إلى قطعة من الليمون الحامض. كان على جانب الصينية كذلك رغيفان باللون الأبيض اللامع. وقفت مينا وآشا على جانب الرصيف بينما كان صفٌ من الناس يتشكّل أمام الكشك. حذت آشا حذو مينا وقطعت جزءاً من رغيف الخبز وغطسته في الطبق، ثم تناولت اللقمة الأولى بحذرٍ شديد. كانت اللقمة طيبة المذاق، لكنها حارة جداً جداً. نظرت حولها بهلعٍ بحثاً عن أي شيء لتشربه، وما لبثت أن تذكرت تحذيرات، والدتها بشأن مخاطر تناول مياه .غير معقمة

ابتسمت مينا وقالت: «ما رأيكِ؟ قلتُ له بأن لا يجعلها حارة كثيراً لك، ومن النوع الذي يحبّه .«السوّاح

.«إنها... حارة قليلاً. ماذا يحتوي هذا الطبق؟»

يحتوي على خضار مهروسة معاً. تم ابتكار هذا الطبق ليكون وجبة سريعة لعمال النجارة. لكن» هذا الطبق أصبح الآن واحداً من أهم الأطباق الشائعة التي تُباع في شوارع مومباي، لكن ليس هناك مكانان يحضّران هذا الطبق بالطريقة ذاتها. لعقت مينا أصابعها قبل أن تضيف: «لا يوجد في مومباي مكان يحضّر هذه الوجبة مثل هذا المكان». قالت مينا بعد أن انتهيا من تناول الطعام: هيا بنا، دعينا نمشي قليلاً. أريد أن أريكِ شيئاً». مشت آشا وراء مينا، لكنها لم تعد متأكدة من تمكّنها من الثقة بها. .لكنهما بعد أن قطعا مسافة قليلة وصلتا إلى طرف حيٍّ سكنيٍّ كبير

قالت مينا وهي تمدّ يدها بشكلٍ استعراضي: «حسناً، وصلنا. هذا هو دارافي، وهو أكبر أحياء الصفيح في مومباي، وفي الهند، ولربما في كل أنحاء آسيا. كان ذلك توصيفاً مشكوكاً فيه، لكن هذا هو .«أمامك

نظرت آشا حولها ببطء. رأت المنازل، هذا إذا جاز لنا إطلاق هذا الاسم على هذه المنازل، التي يبلغ مساحة الواحد منها نصف مساحة غرفة نومها، كما أنها متلاصقة. كان الناس يخرجون من مداخلها. رأت رجلاً من دون أسنان، وامرأة مرهقة بشعرٍ أشعث، وأطفالاً شبه عراة. كانت أكوام المهملات تشمل الطعام المتعفّن، والفضلات البشرية، وأكوام النفايات الأطول منها، منتشرةً في كل مكان. كانت الرائحة قوية جداً. غطّت آشا أنفها في محاولة منها للحفاظ على رباطة جأشها. رأت بعد ذلك شيئاً كان من الصعب عليها تصديقه، وكان ذلك الشيء نموذجاً لمعبدٍ هندوسي متواضع على الرصيف. رأت آشا تمثالاً لسيّدة مقدسة مرتدية ثوباً طويلاً زهري اللون، ومزيَّناً بأكليل من الأزهار، وكانت مستندة على جذع شجرة هزيلة. ظهرت ابتسامة وديعة على وجه هذه السيدة المقدسة، كما كان هناك بتلات الأزهار، وحبوب الأرز المنتشرة عند أقدامها. بدا هذا المشهد غريباً عن المكان، أي وجود هذا المكان المقدس الصغير وسط تلك المساحة التي خلت من مظاهر النظافة، لكن أحداً غيرها لا يفكّر بهذه .الطريقة. يعني ذلك أن الهند هي بلد التناقضات من الطراز الأول

قالت مينا: «يعيش ما يزيد على مليون إنسان هنا في مساحة لا تزيد عن كيلومترين مربعين. يوجد هنا الرجال والنساء، والمواشي. كذلك المعامل التي تصنع كل شيء بدءاً من المنسوجات وأقلام

الرصاص وصولاً إلى المجوهرات. إن عدداً كبيراً من المنتوجات التي تحمل علامة «صنع في الهند» تُصنع هنا في دارافي».

تطلعت آشا مجدداً نحو الأكواخ الصغيرة والنيران الموقدة خارج المنازل، وذلك في محاولةٍ منها تصوّر معملٍ مليءٍ بالآلات والماكينات.

قالت مينا أثناء سيرهما بمحاذاة حيّ الأكواخ: «المنازل هناك على هذا المستوى والمعامل في الطابق العلوي. يتم معظم العمل يدوياً، أو باستخدام أدوات بدائية. هل تذكرين ما قلته عن أن الهند هي بلد المتناقضات؟ حسناً، تجدين هنا كل شيء: الخير والشر اللذين يتعايشان جنباً إلى جنب. يوجد كذلك الفقر والقذارة، والجريمة التي هي بعض أسوأ مظاهر السلوك البشري. أما من الناحية الأخرى فتوجد الإبداعات المدهشة. يقوم الناس هنا بصنع أشياء من لا شيء تقريباً. إننا نجني معاً في سنة واحدة ما يكسبه هؤلاء على مدى أعمارهم كلها، ومع ذلك يجدون طرقاً للبقاء على قيد الحياة. شكّل هؤلاء مجتمعاً كاملاً هنا مؤلفاً من زعماء العصابات، والمرابين بطبيعة الحال، لكن هذا المجتمع يضمّ كذلك المعالجين، والأساتذة، والروحانيين. يعني ذلك يا آشا أننا نمتلك هندَين اثنتَين. هناك العالم الذي سترينه في منزل والدك، أي المنازل الفسيحة، والخدم، والأعراس الفخمة. توجد كذلك هذه الهند. إنها مكان جيّد لتبدئي دراستك».

36

برعاية الله

مومباي، الهند - 2004

كافيتا

«نادى جاسو من الشرفة حيث كان يقوم بتلميع حذائه: «هل سيأتي فيجاي إلى المعبد؟».

انتظرت كافيتا لحظة قبل أن تجيب. بدأت في هذا الوقت كرات العجين الصغيرة تنزّ أثناء وضعها بكل عناية في الوعاء المصنوع من الحديد المسبوك. لكن عندما هدأ الزيت المغلي إلى مستواه الآمن استدارت نحو المدخل، وقالت: «لا أعرف. لم يقل لي».

إذاً، لسنا مضطرين لانتظاره». كان يمكن لهذا التعليق أن يكون مناسباً في الأشهر الثلاثة الماضية في مناسبة ذلك النوم. لكن بعد الحادثة التي وقعت مع الشرطة حاولا التحدث مع فيجاي، الذي أصرّ على أن الشرطة كانت تلاحقه لأنه رفض دفع الرشى عن عمله في شركة البريد. انكفأ منذ ذلك الحين على ذاته، واعتاد تمضية معظم وقته في الخارج مع بولين وآخرين.

أخرجت كافيتا آخر كرات العجين المقلية من الوعاء، ووضعتها في صينية توزّع الورق على جوانبها. مسحت يدها بقطعة القماش المخصّصة لتجفيف الأطباق والمعلقة بثوبها. «يمكنني وضع هذه في الشراب المركّز بعد عودتنا. سأنصرف الآن لتغيير ملابسي». قرّرت كافيتا تحضير الحلوى الهندية للاحتفال بمناسبة عيد ديوالي، وذلك بالرغم من أن تحضيرها لثلاثة أشخاص يتطلب جهداً كبيراً.

شعرت كافيتا وجاسو بالأسى بشأن عيد الأنوار (ديوالي) في هذه السنة بشكلٍ خاص، لأنهما رغبا في الذهاب إلى دهانو لزيارة العائلة، لكن جاسو لم يتمكن من أخذ إجازة من عمله في المصنع. اعتبرت كافيتا أن زيارة القرية قد تساعدهم، وأنها ستتمكن من تحضير هذه الحلوى إلى حفل الغداء الذي تقيمه بهايا في هذا المساء. أسرعت بعد ذلك إلى غرفة النوم لتغيير ثوبها الطويل. لكنهم سوف يحاولون الوصول إلى المعبد قبل نزول حشود الناس. يُعتبر ذلك اليوم أكثر الأيام ازدحاماً في معبد ماهالاكسمي. أعطاها السيّد والسيّدة وبهايا، يوم إجازة، وكان أمراً نادراً، لكنهما لم يحظيا بسائقٍ يوصلهما إلى مدخل المعبد، بينما توجّه رب عملها وزوجته بالسيارة.

قالت لها بهايا عندما فتحت الباب، ورأت كافيتا حاملةً معها وعاءً كبيراً من الحلوى: « كافيتا يا ابنتي، لماذا أتعبتِ نفسكِ هكذا! لكننا سنكون مسرورين بطبيعة الحال بتذوق نتيجة عملك المُجهد. تفضلي بالدخول». ابتسمت بهايا، وأشارت لها بالدخول إلى المنزل. دُهشت كافيتا بصغر المساحة التي يوحيها هذا المنزل، وتكاد الغرفتان اللتان اشتمل عليهما المنزل أن تماثلا غرفتهما في حي الصفيح.

اجتمع في منزل بهايا جيرانهما القدماء، وعائلة بهايا. رحّب الجميع بهما بحرارة.

قال زوج بهايا ممازحاً: «جاسو، هل وضعتَ شيئاً صغيراً في بطنها؟ وما هي الأطعمة الفاخرة التي تحضّرها لك زوجتك؟».

قال أحد الجيران لكافيتا بعد أن أُعجب باللون الخمري والداكن اللامع لثوبها الطويل: «ما أحلى الساري الذي ترتدينه».

شكراً لكِ». أشاحت كافيتا بنظرها بعيداً بعد أن انزعجت من هذا الاهتمام. كان من حسن الحظ أن» جلس الجميع حاملين معهم أطباقهم المليئة فوق أحضانهم، ثم بدأوا بالتحدث عن الطقس الذي كان سيئاً، وعن نوعية ثمار البندورة (الطماطم) التي كانت حسنة في هذه السنة، وسعر الخبز الذي كان عالياً. تحدث المجتمعون كذلك عن أطفالهم وأحفادهم، وعن إنجازاتهم في المدرسة، ومغامراتهم في ميادين الكريكيت. انتهت الأحاديث أخيراً إلى مناقشة أحدث الأفلام الهندية.

«هل رأيتَ فيلم دووم أخي جاسو؟ أنصحك بحضور هذا الفيلم».

«قال جارٌ آخر بعد أن أومأ برأسه: «إنه فيلم ممتاز».

قال زوج بهايا: «شاهدناه في الأسبوع الماضي يا أخي. إنه فيلم ممتاز من الدرجة الأولى، وهو مختلف عن تفاهات بوليوود التي نراها على الدوام. يتحدث الفيلم عن عصابة من المجرمين الذين يستخدمون الدراجات النارية، وليس دراجات الأرجل التي نراها في كل مكان، لكنها دراجات نارية حقيقية وسريعة. أنهم يركبون هذه الدراجات في جميع أنحاء مومباي، ويسرقون المحلات والمنازل، ويخلقون الفوضى. هل فهمت؟ لكن رجال الشرطة يعجزون عن الإمساك بهم لأنهم يفرّون بدراجاتهم بسرعة كبيرة. إنهم يفعلون ذلك في كل مرة!» صفع فخذيه بيديه الاثنتين وانحنى إلى الخلف.

«قالت بهايا لشقيقتها: «كان أبيشيك بوكشان وسيماً جداً. أليس كذلك؟

إنني أفضّل جون إبراهام يا أختي. إنه في غاية الشقاوة!» ضحكت الشقيقتان اللتان أصبحتا في» عمر الخمسين.

قال زوج بهايا: «بمناسبة الحديث عن العصابات، هل سمعتم بأن مجرمي شاندي باجان عادوا للعمل معاً؟ إنه يمتلك فريقاً كاملاً يعمل بإمرته في مومباي، وهم يبيعون المخدرات التي هي تجارة واسعة. يقولون كذلك إنهم يبيعون الهيروئين». رفع زوج بهايا حاجباً، وأومأ بهدوء، وكان أحد القلائل في الغرفة الذين يتمكنون من قراءة الصحف.

أخذت كافيتا لقمة من الأرز مع الخضار، وتطلعت نحو جاسو لمعرفة رد فعله، لكنها لم تلحظ أي تعبير في ملامح وجهه، إلا أنها قرّرت المغامرة في المشاركة بالحديث.

أين يعملون؟ أعني أفراد العصابة؟ في أي جزءٍ من مومباي؟» حاولت كافيتا إبداء قدرٍ قليلٍ من» الاهتمام.

إنهم ينشطون في كل مكان، وحتى هنا في حيّنا. أتعرفين ذلك الفتى الذي كان فيجاي وشيتان» يلعبان معه في المدرسة؟ اسمه باتيل... آه، بولين باتيل؟ إنه يعيش هناك في طريق أم. جي القريبة من هنا؟ سمعتُ مؤخراً بأنه متورط مع العصابة، لكن الشرطة تراقبه». هزّت بهايا رأسها، ووضعت لقمة

كبيرة من الأرز في فمها.

شعرت كافيتا بالصدمة، وكأن هذه الحقيقة المريعة جرحتها من أعماق أعماقها. حاولت التركيز على الطعام، لكنها افتقدت أي طعم. تحوّل الحديث إلى آخر فضيحة حكومية، وما لبث أن عاد إلى الأفلام. اجتمعت النساء الثلاث في النهاية بالقرب من المطبخ، وأشدنَ بالطعام الذي تحضّره بهايا، بينما بقي الرجال في الغرفة الرئيسة.

قالت بهايا: «كافيتا، متى ستبحثين عن عروسٍ لفيجاي؟ قاربَ فيجاي العشرين من عمره، أليس كذلك؟».

أعرف يا أختي». شعرت كافيتا بالارتياح لعودة الحديث إلى مواضيع عادية تتعلق بابنها. «أعتقد أن الوقت قد حان لذلك، لكنه لا يهتم كثيراً لهذا الأمر، وهو يقول لي: لا زال الوقت مبكراً جداً يا أمي». هزّت كافيتا رأسها، وابتسمت ربما للمرة الأولى منذ وصولها.

لا تنتظري طويلاً جداً يا أختي لأن الأمر يزداد صعوبة الآن مع وجود عدد كبير من الشبان وعدد غير كافٍ من الفتيات». قالت بهايا ذلك بصوتٍ منخفض إلى حد الهمس. «تضطر بعض العائلات لدفع المال لتأمين عرائس من خارج البلاد، مثل بنغلادش، وغيرها من البلدان».

تلاشت ابتسامة كافيتا العابرة مع عودة ذلك الشعور المبهم في صدرها. هناك شبان كثيرون، ولا يوجد عدد كافٍ من الفتيات. خرج ذلك الشعور المريع من أعماقها ليحيط بها من كل جانب. شمّت كافيتا رائحة هواء الرياح الموسمية بالرغم من أنهم كانوا في شهر تشرين الثاني. لكن كافيتا شعرت بصوت الرعد المخيف بالرغم من أن السماء في الخارج كانت صافية. أغمضت عينيها مع إدراكها بأنها سوف تسمع بعد ذلك تلك الصرخة المدوية داخل أذنيها. رأت عندما فتحت عينيها مجدداً بهايا وأختها مستغرقتين في الضحك، وتمازحان أزواجهما بشأن التسكّع في المطبخ بحثاً عن قطع الحلوى.

مضى ما تبقى من ذلك المساء بشكلٍ ضبابي بالنسبة إلى كافيتا، لكنها تذوقت الحلاوة الغنية للغولاب جامون التي قدّمها لها أحد الحاضرين، وهي الحلوى التي أمضت فترة الصباح بأكملها في تحضيرها. شعرت وكأنها تقف على حافة شرفة وهي تراقب صديقاتها من خلال النافذة. شعرت بدافعٍ قوي يدعوها إلى المغادرة والعودة سريعاً إلى منزلهما. لكنها كانت تدرك من أعماق أعماقها بأنه لا يوجد أي مكان يمكنها اللجوء إليه لتحسين مزاجها. شعرت بأن أحداً، حتى جاسو لا يستطيع أن يفعل أي شيء لطرد ذلك الشعور المريع من أعماقها. لكن عندما بدأ المجتمعون بالمغادرة ودّع جاسو وكافيتا أصدقاءهما، وسارا بصمتٍ شبه تام لفترة. بدأت كافيتا الحديث بالسؤال: «جاسو؟ أتعتقد أن ما تقوله الشرطة صحيح؟ أتعتقد بأن فيجاي متورطٌ مع عصابة شاندي باجان؟».

استغرق جاسو وقتاً طويلاً للرد، لكن الردّ لم يكن مرضياً لها: «فعلنا كل ما في وسعنا يا كافي، والأمر الآن بين يدَي الله».

عادت كافيتا إلى المنزل، وانشغلت بإضاءة المصابيح الزيتية الصغيرة، ووضعها فوق عتبات النوافذ. أحبّت كافيتا عندما كانت طفلة صغيرة عيد ديوالي لا لشيء إلا من أجل الحلويات والمفرقعات. لكنها عندما كبُرت فهمت المعنى الحقيقي لهذه المناسبة التي تخلّد معركة السيّد المقدّس راما، وهي كذلك احتفال بانتصار الخير على الشر. خرجت كافيتا إلى الشرفة، ورأت آلاف الأنوار الصغيرة التي تشع في نوافذ منازل الناس الذين يسكنون مومباي. فكّرت بعد ذلك في ما قاله جاسو بشأن يدَي الله،

وتساءلت ما إذا كانت هذه الأيدي تحفظ فيجاي في هذه الليلة. ماذا كان بإمكاني أن أفعل لأجله غير ما فعلت؟ كيف كان بإمكاني تجنيبه هذا المصير؟

رأت من البعيد أول وميض من الضوء، وذلك قبل سماعها صوت المفرقعات. راقبت المشهد لفترةٍ من الزمن، وكانت غارقةً في أفكارها إلى درجة لم تؤثر عليها أصوات الانفجارات التي خطّطت سماء الليل إلا بالقدر القليل. لم تنتبه كافيتا لصوت باب المدخل وانغلاقه، إلا عندما سمعت صوت المياه الجارية في المطبخ. التفتت لترى فيجاي منحنياً فوق الحوض. «فيجاي؟» سارت نحوه ثم توقفت، وشهقت بعد ذلك عندما رأت الدماء التي سالت من كتفيه. أسرعت نحوه، وقالت: «آه! ماذا حدث؟».

قال لها: «لا تقلقي يا ماما، فالجرح ليس كبيراً».

أصرّت عليه أن ينزع قميصه، ثم جلس على الطاولة بينما ملأت هي وعاءً بالمياه الفاترة، وأحضرت بعض الضمادات. «ماذا فعلوا بك يا ولدي؟ عرفتُ منذ زمن بأن حدوث شيءٍ كهذا لك هو مسألة وقت. إنهم أشرار يا بني، هؤلاء الذين ترافقهم، أعني بولين والآخرين. إنهم خطرون يا فيجاي. أنظر إلى ما فعلوه بك!» أحضرتْ قطعة القماش، وضغطتها بقوة على كتفه إلى أن توقف النزيف، ثم نظّفت الجرح بالماء. «أرجوكَ يا بني. إنني أتوسّل إليك. لا أريدك أن تتورط معهم».

ردّ فيجاي هازاً رأسه بعناد: «ماما، لم يكونوا هم الذين آذوني، بل ساعدوني وهم إخواني الذين اهتموا بي ومنحوني حمايتهم». جفلتْ كافيتا عندما تحدّث فيجاي عن إخوته، سواء كانوا حقيقيين أم وهميين. عضّت على شفتها السفلى للتغلب على الدموع التي تريد الانهمار. رنَّ الهاتف. هل يتصل بنا أحد ليتمنى لنا عيداً سعيداً. «إننا نهتم بعضنا ببعض يا ماما. أيمكننا أن نثق بأي شخص آخر؟ هل يمكننا الوثوق بالشرطة؟ لا أحد يساعد أحداً يا ماما».

توقّف الهاتف عن الرنين، لكن المفرقعات استمرت في إصدار أصواتها. دخل جاسو في هذا الوقت إلى غرفة المعيشة. قال بهدوء: «كافيتا...».

اعتاد جاسو أن لا يستخدم اسمها بالكامل على الإطلاق، لكنها رفعت نظرها نحوه.

لم يظهر بأنه اندهش لرؤية ابنه الذي كان من دون قميص وينزف دماً. تطلّع نحوها مباشرة وقال: «إنها والدتك».

37

الجمال الهندي الحقيقي

مومباي، الهند - 2004

آشا

قالت لها جدّتها التي كانت جالسة على الطرف الآخر من طاولة الفطور: «آشا حبيبتي، سوف نحضر حفل زفاف ضخماً في نهاية هذا الأسبوع. ستتزوج ابنة عائلة راجاج. هل سمعتِ بعائلة راجاج؟ إنها العائلة التي تصنع كل ريكشا آلية، وكل دراجة رجل آلية منتشرة في جميع أنحاء الهند. سنفرح كثيراً على أي حال، كما أنني طلبت من بريا المجيء في هذا المساء كي تصطحبك إلى كالا نايكتان كي تختاري ملابس جديدة. يمكنك أن تشتري قميصاً وبنطالاً واسعاً، أو لربما بذلة من قطعتين.

ردّت آشا: «أوه. حسناً. لا أريد أن أفرض نفسي بحضوري لأنني لا أعرفهم. يمكنكم الذهاب لوحدكم بينما أبقى في المنزل».

قالت الجدّة: «تفرضين نفسكِ؟ هذا هراء! عائلتنا مدعوة بأكملها، وأنت واحدة من هذه العائلة، أليس كذلك؟ ليس هناك فرق إذا كنا اثني عشر شخصاً، أو ثلاثة عشر شخصاً. سيوجد هناك آلاف المدعوين. أريدكِ أن تحضري هذا الزفاف الذي سيكون زفافاً تقليدياً في مومباي، وهو زفافٌ سيكون باذخاً جداً. أريدك أن تختاري شيئاً مميزاً يا حبيبتي، وشيئاً... ملوَّنا». قالت ذلك وهي تنظر إلى بنطال آشا الواسع بلونه الداكن، وقميصها بنصف أكمام بلونها الرمادي، وما لبثت أن أكملت: «ستأتي بريا لاصطحابك بعد الغداء».

حسناً يا جدّتي». تعلّمت آشا بعد مضي أسابيع قليلة الأوقات غير المناسبة للجدال مع جدّتها،» هذه المرأة رهيبة تشعّ قوةً في كل ما تفعله، لكنها تُظهر رقةً كبيرة إزاء آشا. شعرت آشا بالارتياح لرؤية والدها من زاوية أخرى، أي من زاوية الولد الذي تربى وكبُر على يدَي هذه المرأة. تمكنت كذلك من ملاحظة نقاط التشابه بين ضحكات والدها وضحكات جدّتها. كانت تأمل حقاً لو أن والديها كانا برفقتها في هذه الزيارة، وذلك بالرغم من أن والدها لم يذكر أي شيء عن الأمر خلال آخر مكالمة هاتفية أجراها معها. لكن والدتها تحدثت معها في النهاية لكي تسأل آشا ما إذا كانت تأخذ حبة الملاريا في كل أسبوع.

نادت بريا أثناء سيرها في الممر الرئيس الداخلي للمنزل: «مرحباً آشا؟ أينِ أنتِ؟» توقفت بعد ذلك أمام باب غرفة آشا، وكانت ترتدي قميصاً من دون أكمام، وبنطالاً واسعاً بلون شراب المانغا، وتحمل بإحدى يديها نظاراتٍ شمسية. كان شعرها الأسود كثيفاً ويصل إلى مستوى كتفيها، بينما كان صباغ

الحنة المائل إلى اللون الأحمر يلتمع بفعل أشعة الشمس. «آه، ها أنتِ هنا! هل أنتِ جاهزة؟» ابتسمت بريا بكل ثقةٍ وشبكت ذراعها بذراع آشا. «سنبحث لكِ عن شيء رائع لترتديه في حفل الزفاف. هذه هي تعليمات الجدّة».

دخلت الشابتان بعد مرور ثلاثين دقيقة إلى متجر أثواب الساري. شعرت آشا بالارتياح لأن بريا إلى جانبها. لكن عندما صرفت ابنة عمها السائق على أن يعود بعد ساعتين من الزمن، دُهشت آشا لكنها أدركت بأن الأمر سيأخذ بعض الوقت. كانت مساحة المتجر، من الأرض إلى السقف، مليئة بالأرفف التي تحمل آلاف أثواب الساري من كل الأنواع والألوان التي يتصورها المرء، وهكذا بدا المتجر وكأنه قوس قزح عجيب. كان المتجر يبيع الأثواب النسائية فقط، لكنه لا يوظّف إلا الرجال. انشغل أحد الرجال بمحادثة بريا على الفور، وكان من الواضح بأنه استنتج مَن منهما مسؤولٌ عن عملية الشراء. أشار الرجل إلى أثواب القماش الملتمعة المكدسة على الرفوف، ولم يتوقف عن الحديث، فبدا وكأنه مدير أحد المزادات العلنية، واستمر بذلك إلى أن أوقفته بريا بحركة من يدها. مضت بريا لتشق طريقها برشاقة بين الأنواع المدهشة التي يمكنهما الاختيار من بينها، وأعطت تعليماتها بكل رقة: «هل يوجد لديكم اللون الأخضر الفستقي الفاتح؟» لكن ما إن أصدرت بريا تعليماتها السريعة حتى أسرع الرجل الواقف وراء واجهة البيع إلى فتح أثواب الساري الحريرية أمامهما، ثم أشار إلى أطرافها المطرزة بخيوط الذهب أو الفضة بأنماطٍ غنية من الزركشات الملونة، وصور الطواويس. تفحّصت آشا كل ثوبٍ للحظاتٍ قليلة قبل أن ترميه تحت الثوب الذي يليه، لكنها لم تفهم سوى كلمات قليلة من المحادثة السريعة التي أدهشتها، والتي انطلقت بين ابنة عمها والرجل الواقف خلف واجهة البيع، وكذلك مع موظفَين آخرَين واللذين ذرعا المتجر جيئة وذهاباً من أجل إحضار أحمالٍ جديدة من أثواب الساري.

لم يأخذ أحد رأي آشا في الموضوع، ولم تتمكن من التعبير عن رأيها بنفسها. قدّم لهما موظف آخر كوبين من الشاي، وكانت الأبخرة والرائحة الزكية تتصاعد منهما. تقبلت آشا دورها الجديد، وشغلت نفسها بين شرب جرعة من الشاي، والنفخ على كوبها كي تمنع الرغوة من التشكّل على سطحه. كانت تسترق النظر بين الحين والآخر إلى المتجر الذي اشتمل على دمية عرض الأزياء بالشعر الأسود المسرّح، وعيون ماكرة، وأذرع ممدودة تحمل أحد أثواب الساري. كانت هذه الأثواب هي الثياب الرئيسة للنساء في كل أنحاء الهند، وذلك بحسب البحث الذي أجرته آشا، والذي أظهر أن هذا الثوب عبارة عن قطعة قماش مستطيلة الشكل بطول ستة ياردات، والتي تلتف حول الجسم من دون استخدام زر، أو حتى مشبكٍ، ولا حتى سحاب واحد. أما زينة هذا الثوب فتأتي بطرق متعددة ومختلفة بحسب مناطق البلاد، كما أن حجماً واحداً يناسب جميع النساء مهما كانت أطوالهن وأحجامهن. بدا الأمر ديمقراطياً عندما قرأت عنه آشا، لكن ابتسامات دمى العرض بدت مرعبة بالنسبة إليها.

التفتت بريا إليها أخيراً وقالت: «حسناً يا آشا. جمعتُ لك مجموعة قليلة من الأثواب كي تختاري بينها. أخبريني إذا ما أعجبك واحد منها». لكن عندما نظرت آشا نحو السطح الزجاجي لواجهة العرض رأت معظم أثواب الساري موضوعة كومة كبيرة في جهة، بينما عُرض ثوبان أمامها. قالت بريا وهي تعرض لها ثوباً رقيقاً جداً باللون الأخضر الشاحب، ومرصعاً بحبيباتٍ ذهبية: «هذا الثوب مصنوع من نسيج حريري. هذا النسيج هو آخر موضة وهي حديثة جداً. لا يمكنك أن تكوني بدينة وترتدي النسيج الحريري. إنه رقيقٌ جداً. يتعيّن عليك أن تكوني نحيفة مثل القضيب». قالت ذلك وهي ترفع خنصرها، ورفعت الثوب إلى مستوى صدر آشا وأضافت: «سيبدو هذا اللون رائعاً عليك».

تساءلت آشا ما إذا كانت رفيعةً جداً بحيث تتمكن من ارتداء هذا الساري، وقالت: «إنه جميل».

ردّت بريا وهي تمرّر يدها فوق ثوبٍ باللون الذهبي اللامع وحواشيه باللونين الأحمر والذهبي: «وهذا الثوب أنيق جداً وأكثر كلاسيكية، وهو أكثر لمعاناً، ويناسب أوقات الليل. هذا الحرير زلقٌ قليلاً، لكن بإمكاننا تثبيته في مكانه. يمكنكِ أن ترتديه مع ياقةٍ صلبة وعالية باللون الذهبي والياقوتي. تمتلك الجدّة أفضل ثوبٍ منه».

تخيّلت آشا نفسها مرتدية ثوباً بمساحة ستة ياردات، والحرير المذهّب الزلق ينسدل من حولها لينتهي عند قدميها، ثم اعترفت بصوتٍ هادئ: «لا أعرف يا بريا. إنه جميلٌ جداً، لكن... لم يسبق لي أن ارتديت الساري من قبل. لا أعرف ما إذا كان بإمكاني فعل ذلك». أشارت إلى أقرب دمية عرض: «ألا يوجد شيء أقل تعقيداً يمكنني ارتداؤه؟».

حدّقت بريا فيها للحظة من الزمن، بينما مالت برأسها جانباً، وظهر على قسمات وجهها شيءٌ من الغموض. شعرت آشا بموجةٍ من الحرارة في وجهها بعد أن شعرت بالخجل لأنها عاجزة عن ارتداء الساري.

وقفت بريا فجأة، ولوّحت بنظارتها الشمسية ثم قالت للرجلَين الواقفين خلف واجهة العرض: «حسناً، لنصعد إلى الطابق العلوي. نريد أن نرى بعض البذلات ذات القطعتين من فضلكما. نريد رؤية اللينغا الخاصة باحتفالات الزفاف، وفقط الأفضل منها». توجّهت بريا نحو الدرج، وتبعتها آشا إلى الطابق العلوي. علمت آشا أن اللينغا هو رداء مؤلف من قطعتين إحداهما تنورة تصل إلى الكاحل ومزودة برباط وقميص تناسبها. لا يترافق هذا الثوب مع خطر السقوط، وذلك بالرغم من أن آشا قد تعثر بهذه التنورة الطويلةً. اختارت بريا أحد تلك الأثواب الذي كان باللون الزهري الداكن والصقيل. كان الثوب مغطى بطبقة من قماش الأورجانزا، أما السترة التي هي من دون أكمام فكانت مرصعة بالخرز الفضي اللامع. وافقت آشا على تجربة الثوب.

وقفت آشا لوحدها أمام مرآة ضيقة ووراء ستارة رقيقة، لكنها ذُهلت بمدى البذخ الذي يميّز هذا الثوب. يبدو ثوب اللينغا أشبه ما يكون بتلك الأشياء التي يشاهدها المرء عند توزيع حفلات الأوسكار، أو في مهرجانٍ للجمال. شعرت بالغرابة وكأنها ترتدي أزياء عيد جميع القديسين، لكن في غيرِ اليوم المخصّص للاحتفال به. لم تشعر بالارتياح عند وضعها الثوب على جسمها. أحسّت بأن الثوب ثقيلٌ عليها كما أن رباط التنورة كان شديداً على خصرها. شعرت كذلك أن الياقة تضايق بشرتها بسبب الخيط المعدني والخرز فيها.

قالت بريا بعد أن مدّت رأسها من وراء الستارة: «إنه مثالي! انظري في المرآة إلى الجمال الهندي الحقيقي! ما رأيكِ؟».

قالت آشا بعد شعورها بالارتياح بعد ارتداء بنطالها الواسع: «إنه جميل. دعينا ننصرف من هنا».

تكلمت بريا في هاتفها الخليوي أثناء مغادرتهما متجر بيع أثواب الساري: «سنتوجّه الآن إلى ثام. تعالَي وانضمي إلينا. يمكننا بعد ذلك تناول طعام العشاء». قالت لآشا أثناء دخولهما إلى المقعد الخلفي: «كنت أتكلم مع بيندو». أعطت بريا السائق التعليمات عن المكان المقصود، ثم وضعت نظارتها الشمسية.

احتضنت آشا صندوقاً مربوطاً بشريط أحمر اللون يحتوي على ثوب اللينغا الذي اشترته، وسألت قريبتها: «من هو ثام؟».

لا تقولي مَن هو، بل قولي ما هو. ثام هو أفضل صالون تجميل في هذه المنطقة من مومباي.»
«سآخذك إلى هناك لإزالة الشعر الزائد يا آشا.

«إزالة الشعر الزائد؟»

ردّت بريا بعد أن رفعت حاجباً من فوق إطار نظارتها الشمسية: «أجل يا ابنة عمي. سنذهب لإزالة الشعر الزائد، وعلى الأخص في ذراعيك، وعلى الأخص لأن ثوبك اللينغا من دون أكمام. لا يمكنك إظهار كل هذا الشعر». أشارت بريا هنا إلى الشعر الذي يغطي ذراعَي آشا.

سألت آشا مستغربة أن تكون ابنة عمّها تمكّنت من إيجاد حلٍ لهذه المشكلة المحرجة التي عانت منها طوال حياتها: «إذاً أنتِ تقومين بإزالة الشعرِ الزائد من ذراعيك؟ أيمكنكَ أن تفعلي ذلك؟»

أسندت بريا رأسها إلى الخلف، وضحكت ثم قالت: «أتمزحين؟ إنني أزيل الشعر من كل شيء: الذراعين، والساقين، والوجه. إنني أقصد صالون ثام كل ثلاثة أسابيع، وأنا أقول لكِ إنهم يزيلون الشعر الزائد مني بدءاً من رأسي وحتى أطراف أصابع رجليّ. ألم تفعلي ذلك أبداً من قبل؟ لا أصدّق أنك لم تفعلي، لأن الجميع هنا يقومون بهذا الأمر، وهو شائع مثل شيوع ثمار جوز الهند في المتاجر».

سألت آشا: «ألا تؤلم؟»

هزّت بريا كتفيها، وردّت كأنها تتحدث عن أي موضوعٍ آخر: «إنها لا تؤلم إلا قليلاً في الحقيقة، لكنك ستعتادين عليها».

اكتشفت آشا بعد مرور ساعة من الزمن بأنه ليس باستطاعتها تجاهل الألم الذي يترافق مع إزالة الشعر الزائد، لكنها شعرت بالسرور الشديد بذراعيها الناعمتين، وبرائحة بتلات الورود الزكية. امتلأ صالون ثام بالنساء الهنديات، ومعظمهن من الشابات اللواتي هنّ من أعمار آشا وبنات أعمامها، لكن مع وجود بعض النساء الأكبر سناً. سبق أن قالت لها بريا إن عدداً من النساء يمضين النهار بأكمله في ذلك الصالون، ويخضعن لعملية علاج بعد أخرى، أي بدءاً من عملية إزالة الشعر الزائد بالشمع، وتحزيز الأسنان وتبييضها وغيرها. بدا أن جَميع النساء في هذا الصالون مرتاحات تماماً عند مناقشة القضايا التي تواجه الجسم، وهي القضايا التي أقلقت آشا منذ بلوغها. اشتملت هذه المشاكل على الحواجب الكثيفة، والشعر الزائد في الذراعين والبشرة التي تغزوها البقع، وهي كلها مشاكل شائعة يمكن معالجتها هنا، أي في صالون ثام.

لم تبذل بيندو وبريا جهداً كبيراً لإقناع آشا بمحاولة تجميل حاجبيها. استنتجت آشا أن هذه العملية لا تسبّب ألماً كبيراً لأنها لا تستدعي استخدام الإبر، أو شفرات، أو حتى الشمع الساخن.

لكنها كانت محقة جزئياً من هذه الناحية. طُلب من آشا الاستلقاء في أحد مقاعد صالون التجميل إلى أن استقرت رقبتها على أعلى المقعد. كانت المزيّنة تحمل ورقة تعريف باسمها كيتي مثبتة في أعلى الرداء الأبيض الذي ترتديه، وما لبثت أن طلبت من آشا إغماض إحدى عينيها، وإبقاء الجلد مشدوداً بأصابعها فوقها وتحتها. أمسكت كيتي خيطاً طويلاً ملفوفاً ما بين أصابعها وفمها. تذبذب الخيط على عظمة جبين آشا متسبباً بحرارة حامية وبدغدغة في أنفها. توقفت كيتي مراتٍ قليلة عند انقطاع الخيط، ومراتٍ أكثر كي تتيح لها العطس. شعرت آشا بالارتياح لأن العملية لم تستغرق بأكملها أكثر من عشر دقائق. جلست آشا منتصبة في كرسيها والدموع تنهمر من عينيها، بينما أمسكت كيتي بمرآتها كي

تمكّنها من تفحّص حاجبيها بعد الانتهاء من تنظيفهما. التفتت كيتي نحو بريا، وتحدثت معها باللغة الهندية وما لبثت بريا أن أومأت برأسها علامة الموافقة.

«سألتْ آشا: «ماذا قالت؟».

قالت إن شعرك كثيف، ولذلك لن تنتظري طويلاً في المرة القادمة كما أن الألم لن يكون شديداً مثل هذه المرة».

جلست آشا وبريا وبيندو معاً داخل كشك مغطى بقماش الفنيل في حديقة الصين، وهو مطعم يشتهر بأطعمته الصينية التي تقدّم على الطريقة الهندية. قدّمت بيندو طبقاً من الدجاج الحلو والمر إلى آشا، بينما انشغلت هي مع بريا بمناقشة حفل الزفاف المرتقب. لاحظت آشا أن جميع بنات أعمامها، وحتى بعض أهاليهن، يتناولن أطعمة غير نباتية عندما يأكلون خارج المنزل، وذلك بالرغم من تظاهر الجميع بأنهم لا زالوا نباتيين بالكامل في منزل الجدّة.

همست بيندو فوق الطاولة: «سمعت أن موكب العروس يضم ستة أحصنة بيضاء، أي واحداً لكل واحد من أبناء أعمامي، بينما سيأتي العريس نفسه في سيارة رولز رويس بيضاء اللون». تذوقت آشا لقمة من طبق الدجاج، وهي التي كانت حارةً أكثر ممّا كانت حلوة أو حامضة بالنسبة إليها.

أومأت بريا برأسها وهي تمضغ لقمة من العجة، ثم قالت: «أخبرني أحد الأشخاص بأنهم سوف ينفقون كرور على حفل الزفاف. إنهم ينوون إطعام عشرة آلاف شخص!» تبرعت بريا بشرح الأمر لآشا. «كرور هنا تساوي مئة لاك (مئة ألف)» همست لها بعد ذلك، «أي عشرة ملايين روبية».

سترتدي العروس ثمانية أقراطٍ من الألماس في عقدها لوحده، هذا إذا لم نتحدث عن أقراط الأذن والأنف. ستغيّر العروس ثلاث مجموعات من المجوهرات الألماس، والزمرد، والياقوت. ستضع العروس كذلك ثلاثين سواراً ذهبياً من عيار اثنين وعشرين قيراطاً في كل ذراع. سيحتاج الأمر إلى حارس أمني لحراسة المجوهرات لوحدها». ابتسمت بيندو، وسكبت مزيداً من الشاي الأخضر للجميع.

قالت بريا: «جئتِ في أنسب وقت. سيكون هذا الحفل زفاف العام، وسيكون هناك عدد كبير من العازبين». غمزتها بريا من فوق طبق الأرز المقلي، وانطلق ثلاثتهم في الضحك المعتاد لدى المراهقات. ضحكت آشا من أعماق قلبها إلى درجة أن بعضاً من الشاي الأخضر خرج من أنفها، وبعض الدموع انهمرت من جوانب عيونها.

سجلت آشا أحداث يومها في دفتر يومياتها قبل الاستسلام للنوم، لكنها فوجئت عندما اكتشفت بأنها، بالرغم من أن بعض الطعام كان حاراً، وأن الملابس كانت غير مريحة، وجلسة التجميل كانت مؤلمة، بدأت بالشعور بأن هذا المكان هو منزلها، وأن هؤلاء الناس هم عائلتها.

38

الانسحاب

مينلو بارك، كاليفورنيا - 2004

سومر

كانت سومر مرتاحة للطريقة التي تطبخ فيها، وهي التي تحضّر الدجاج بطريقة مثالية، إلا أنها تعلم أن كريس لن يثني على طبخها. لكن منذ مغادرة آشا إلى الهند في الشهر الفائت انفجرت كل الخلافات التي أمضيا سنواتٍ طويلة في منعها من الانفجار، وهي التي اعتادت العيش مع الحرمان تحت سقفٍ واحد، ومع آلاف الضيوف المزعجين. جهدت سومر كثيراً كي تفهم السبب الذي دفع آشا إلى اتخاذ خيارها، وحاولت التخلص من غضبها تجاه كريشنان، لكن تواطؤه معها لا زال يخيّم على تفكيرها.

تناول كريس لقمات عدة من دون تعليق، ثم تكلّم بينما كان فمه مليئاً: «يتعيّن علينا التقرير بشأن الهند. ستستمر آشا بالسؤال إلى أن نحدّد لها موعداً معيناً». لاحظت سومر عندما رفعت نظرها وجود زجاجة تاباسكو بالقرب من طبقه. اعتاد كريس تناول كل ما تطبخه له زوجته بعد أن يضيف إليه نوعاً من أنواع الصلصة الحارة، وكانت تلك الزجاجة من بين مجموعة أخرى يحتفظ فيها في الثلاجة. بدا الأمر وكأنه يتعمّد محو أي طعم تحاول أن تضيفه إلى طبخها، مثل القليل من القصعين الذي تضعه على الدجاج، والأرزّ بطعم الليمون الحامض، لكنها كانت كلّها تختفي تحت طبقة من الفلفل الأحمر الحار. غرزت شوكتها في اللوبياء الخضراء السابحة في طبقها، وردّت: «لا أستطيع حزم أمتعتي والذهاب إلى الهند على الفور، كما أنني لا أمتلك سوى أسبوعٍ واحد عدا الأعياد...».

«يمكنكِ إقناع إحدى زميلاتك بالعمل بدلاً منك يا سومر. يمكنهم الاستمرار بالعمل من دونك».
غضبت لدى سماعها هذه الملاحظة، ولو أنها كان يجب أن تعتاد على سماع هذه الملاحظات التي تستخف بعملها، وكأن عملها هذا أقل قيمة من الناحية المهنية من جراحات إنقاذ الدماغ التي يجريها. نزع كريس نظارته، وبدأ بتلميعها بمنديله الورقي. «لا أعتقد أن الأمر بهذه الأهمية، لكنه أنسب وقت لنا للذهاب، وعلى الأخص لأن آشا موجودة هناك في زيارتها الأولى، وعائلتي بأكملها موجودة كذلك. تعرفين أنني لم أذهب لزيارتهم منذ نحو عقدٍ من الزمن، وأنتِ لم تذهبي إلى هناك منذ وقتٍ لا يعلمه إلا الله. لماذا لا نذهب الآن يا سومر؟ اعتقدت أنكِ قلقة بشأنها، وأنك تريدين أن تكون تحت أنظارك».

كانت سومر تحب رؤية ابنتها بطبيعة الحال، لكنها لم تكن متأكدة من أن آشا تبادلها الشعور ذاته. تذكرت سومر المواجهة التي حصلت مع ابنتها قبل سفرها، وذلك الموقف الغريب في المطار. دأبت ابنتها على الابتعاد عنها منذ أن اتخذت قرارها بالذهاب إلى الهند. كانت فكرة رؤيتها هناك، وفي ذلك البلد الذي يذكّرها بذكريات صعبة، فكرة يصعب الإذعان لها. تشعر سومر وكأنها غريبة وسط عائلتها

التي نشأت بينها، هذه العائلة التي أعطتها حياتها بأكملها. لكنها لا تمتلك القوة للذهاب إلى الهند في هذا الوقت حيث ستشعر بأنها غريبة في بلادٍ مليئة بالغرباء.

قال كريس بصوت أعلى من ذي قبل: «لم أرَ عائلتي منذ ثماني سنوات، ثماني سنوات يا سومر. كبُر والداي بالسن، وكبُر أبناء أعمامي. كان يتعيّن عليّ الذهاب قبل الآن، لكن لا بأس إن ذهبتُ الآن». سكب كريس لنفسه مزيداً من الشراب ثم عاد للجلوس في مقعده.

قالت سومر: «لا تجعل الأمر يبدو وكأنه غلطتي أنا، بينما كنتَ تذهب وتجيء كما يحلو لك. لم أمنعك من الذهاب ولو لمرة واحدة. إنها غلطتك أنت بحق السماء». أصدر كريس صوتاً يدل على التذمّر ثم أخذ جرعة كبيرة من الشراب. تابعت سومر كلامها، «الأمر أصعب بالنسبة لي يا كريس. أنت تعرف ذلك. إنني لا أمتلك الروابط التي تمتلكها أنت، أي أن الأمر مختلف. إنك لا تعرف هذا الشعور».

قال كريشنان: «ماذا تعنين بأنك لا تمتلكين روابط؟ ألا تدركين أن زوجك هندي وابنتك هندية.» أقول هذا في حال نسيتِ».

قالت سومر بعد أن أغمضت عينيها بقوة، ومرّرت يدها على جبهتها: «أنت تعرف ما أعني».

كلا، لا أعرف. لماذا لا تشرحين الأمر لي؟ لا توجد بالنسبة إليّ سوى بضعة تفسيرات. إما أنك» تواجهين مشكلة إذا ما تعرفت آشا على عائلتي، والتي هي عائلتها كذلك على سبيل التذكير، وإما أنك تعانين من مشكلة إذا ما أصبحتِ هندية قليلاً. المشكلة هي مشكلتك في كلتا الحالتين يا سومر، وليس مشكلتها هي. أعتقد بأننا أحسنّا تربيتها. لكنها أصبحت بالغة الآن، ولا يمكنكِ التحكّم في كل ما تفعله. أعتقد أنك كنتِ تقولين دائماً إنه ينبغي علينا قبولها كما هي، ويجب علينا دعم اهتماماتها. أما أنا فقد ارتحلت إلى النصف الآخر من العالم ولم يتأثر والداي بشيء».

قالت سومر بعد أن تجمعت الدموع في زوايا عينيها: «الأمر ليس ذاته تماماً».

لم تفلح ابتسامته الساخرة في إخفاء القسوة التي ظهرت في عينيه: «آه حقاً؟ وكيف هذا؟».

لأنهم كانوا والديك. لم يكونوا مضطرين للقلق بشأن خسارتك. قالت سومر الكلمات الوحيدة التي تمكنت من قولها بصوتٍ عالٍ: «هذه هي الحقيقة».

هل الأمر مختلف لأنني أتيت إلى هذه البلاد المذهلة المليئة باللبن والعسل، لأن أحداً لا يريد» تركها أبداً؟ هل هذا صحيح؟».

هزّت رأسها، وما لبثت الدموع أن بدأت بالانهمار من عينيها. فشلت سومر في العثور على الكلمات التي تتمكن من إفهامه الأمر، ومن اختراق تلك النظرة الجامدة في عينيه.

جاء صوته هادئاً عندما تكلّم أخيراً. «سأغادر في الثامن والعشرين من كانون الأول، هذا في حال أردتِ مرافقتي». بدت كل كلمةٍ من الكلمات التي تلفّظ بها وكأنها مشرط يخترق فؤادها. تطلعت نحوه عاجزةً عن التصديق لكنه تابع كلامه. «أجل، لقد اشتريت التذاكر، لأن الرحلات تكون مليئة في مثل هذا الوقت من السنة. لم أرغب في المخاطرة».

شعرت بأن الألم يتوسع في معدتها حتى ملأها: «متى... فعلتَ ذلك؟».

ردّ بحدة: «ما أهمية ذلك؟» ابتلع جرعة أخرى من الشراب. «اشتريت التذاكر في أيلول، أي بعد مغادرة آشا».

إذاً هكذا جرى الأمر، وأتممتَ كل شيء». اتضح الأمر بالنسبة إليها، أي أنها لا تمتلك رأياً في» هذا القرار، كما لم يكن لديها أي خيار في قرار آشا.

انتهى الأمر». انتصبَ واقفاً ثم نقل طبقه إلى حوض غسل الأطباق التي قرقعت فور اصطدامه» بالحوض. «يمكنكِ الذهاب معي إذا أردتِ، ويمكنكِ أن لا تذهبي. قد يكون الأمر أفضل هكذا».

شعرت سومر في اليوم التالي بضبابيةٍ في ذهنها، لكنها فحصت مرضاها، وراجعت التقارير المتعلقة بهم، وكتبت الوصفات التي يحتاجونها. إنها تفعل الأمر ذاته مرةً كل يومين، لكن شيئاً ما تغيّر في ذلك الوقت. شعرت وكأن شخصاً ما قد تحكّم في عالمها، وأزاحه عن محوره. أحسّت كذلك بأن كل ما هو مألوف لديها بدأ بالتلاشي. شعرت كذلك بأن الأمر لا يقتصر على أن كِريس وآشا لا يحتاجانها، بل أنهما يعجزان تحمّل وجودها في حياتهما بعد الآن، وهكذا يخططان لكل شيء مع استبعادها.

سارت مسافةً عندما حان وقت الغداء إلى هول فودس، وتناولت علبتها المعتادة التي تحتوي على السلطة والليموناضة. لكن عندما خرجت من المطعم توقفت قليلاً أمام لوحة الإعلانات الاجتماعية للحي. تفحّصت الإعلانات بحثاً عن مرافقي الكلاب، وعن مبيعاتٍ أخرى، إلى أن رأت إعلاناً عن إيجار فرعي في بالو ألتو. نزعت سومر ورقة تحتوي على رقم هاتف صاحب الإعلان، ودسّتها في محفظتها. اتصلت هاتفياً بعد ذلك، ورتّبت الأمر بسرعة قبل أن تغيّر رأيها.

أخبرت سومر كريشنان في تلك الأمسية بأنها لن تذهب معه. اعتبرت ابتعادهما أحدهما عن الآخر لفترة أشهرٍ محددة ليست بالفكرة السيئة. اتفق الزوجان على أنه لا حاجة لهما لإبلاغ آشا بالأمر. كانت سومر مستعدة للتحدث أكثر عن الأمر، لكنها فوجئت بأنه ليس متفاجئاً على الإطلاق.

كان كل ما قاله: «آمل أن تجدي طريقة لتكوني سعيدة يا سومر». صعدت إلى الطابق العلوي وجلست على الأريكة في غرفة المعيشة، ثم انطلقت بالبكاء. بدأت سومر بترتيب أمتعتها في صباح اليوم التالي.

39

وعد

مومباي، الهند - 2004

آشا

أصرّت الجدة على أن تحضر آشا حفلة حنة العروس مع بنات أعمامها، بالرغم من أنها لن تحضر بنفسها. «إنني سيدة عجوز، وهذه الأمور لم تعد تناسبني. يمكنكّن الذهاب أيتها الفتيات، واستمتعن بوقتكن».

أحضرت بريا إلى آشا بذلة من قطعتين مصنوعة من الشيفون الأزرق الشاحب، ارتاحت آشا لأن هذه البذلة أقل تعقيداً من البذلة التي اشترتها لحفل الزفاف. شرحت بريا في الطريق بأن حفل الحنة هي للنساء، وللأقرباء، وللصديقات اللواتي يتجمعن قبل حفل الزفاف لتزيين يدَي العروس وقدميها بالحنة. أما آل ثاكر فقد تسلموا دعوة حضور هذه الحفلة لأن والدة الجدة كانت صديقة والدة السيدة رجاج منذ أيام سانتا كروز، وذلك بالرغم من أن هاتين السيدتين قد توفيتا منذ زمن طويل.

لكن عندما وصلت الفتيات إلى قصر آل رجاج اكتشفت آشا أن ما قيل عن خصوصية حفلة الحنة تعني اقتصار عدد المدعوين على المئات بدلاً من الألوف الذين سيحضرون حفلة الزفاف. كان الموسيقيون يعزفون الموسيقى الهندية الحيّة داخل البهو الرخامي الواسع، وذلك بالإضافة إلى عازف الهارمونيكا، وعازف الطبلة.

رأت آشا في البعيد مائدةً مزودة بمجموعة هائلة من أطباق الطعام الفضية، فبدأت بالاقتراب منها. أمسكتها بريا من ذراعها، وهمست لها بعد أن أشارت بذقنها في اتجاه غرفة المعيشة الكبيرة: «علينا أولاً إلقاء التحية». كانت العروس جالسة على مقعد على شكل عرش موضوع فوق منصة مرتفعة قليلاً. كانت إحدى النساء جالسة عند قدميها بينما عملت امرأة أخرى على تزيين يديها. كانت كل واحدة من هاتين المرأتين تحمل مخروطاً بلاستيكاً صغيراً مليئاً بمعجون باللون الأخضر الداكن. رأت آشا أثناء اقترابها النساء عند قيامهن بوضع رسومات وتصميمات على جلد العروس الحساس كثيراً. رأت رسماً لغصنٍ ممتلئٍ بالأزهار يمتد من ظاهر يدها وحتى راحة يدها المغطاة بالخطوط الدائرية واللولبية. لكن الأكثرَ إدهاشاً من ذلك كانت المرأتان اللتان تعملان بطريقة فنية وحرة، ومن دون التطلع إلى أي شيء. استمرت المرأتان في هذا الوقت في التحادث إحداهما مع الأخرى، وكذلك مع الضيوف.

قالت إحدى صديقات العروس مداعبة السيّدة الفنانة التي تزيّن يدها: «هيا الآن. تأكدي من أن الرسوم جميلة وداكنة. نريد أن تبقى الحنة لوقتٍ طويل!».

ضحكت صديقة أخرى وهي تقبّل رأسها: «احرصي على أن تكون الأحرف الأولى من اسم العريس صغيرة بقدر الإمكان. نريد أن نجعل العريس ينظر بتركيزٍ شديد».

قادت بريا آشا نحو جماعة من النساء الكبيرات في السن، وقالت لها: «تقضي التقاليد في ليلة الزفاف أن يبحث العريس عن الأحرف الأولى من اسمه، والتي تكون مخبأة بين رسومات يدَي العروس قبل أن تسمح له... تعرفين ذلك». ابتسمت بريا وغمزتها: «تعالي. إنها هنا».

ضمّت بريا راحتَي يديها معاً، وانحنت قليلاً نحو إحدى النساء الكبيرات في السن، والتي كانت تتهادى في ثوب الساري الحريري ذي اللون الخمري، وكان شعرها الأسود الفاحم مربوطاً بشكل كعكة. قالت بريا بعد أن استدارت بسرعة لتقديم آشا: «عمتي مانيولا! تبعث إليك الجدة بتحياتها وتعتذر منك لعدم تمكنها من المجيء هذه الليلة. هذه هي ابنة عمي التي جاءت من أميركا لتوّها بمنحة دراسية خاصة ومرموقة جداً».

«مرحباً يا خالة. إنني مسرورة للقائك». حاولت آشا تقليد لهجة ابنة عمها الهادئة.

قالت العمة مانيولا بعد أن ضمّت يدَي آشا إلى يديها الثخينتين: «أهلاً بك يا ابنتي. إننا مسرورون لوجودكِ بيننا. هل تستمتعين بأوقاتك هنا؟ أنا آمل أن تأتي غداً، لأننا استأجرنا قارباً سيبحر حول الميناء، وأنا أقول على الدوام إن هذه هي الطريقة الأفضل لرؤية أضواء مومباي في الليل، وبعيداً عن التلوّث!» ضحكت من أعماق قلبها للدعابة التي أطلقتها، وهو الأمر الذي كشف عن طيّات بطنها الدهنية التي كشفها ثوبها الطويل. قالت قبل أن تعتذر للترحيب بضيفٍ آخر: «تفضلي وتناولي الطعام. هناك كمية كبيرة من الطعام».

قالت بريا أثناء توجّهها مع ابنة عمها نحو مائدة الطعام: «حسناً. انتهينا من التحيّات». رأت آشا في هذه الأثناء سيدتين ماهرتين بفن الحنّة وقد انشغلتا برسم تصميمات للضيوف أقل تفصيلاً، لكنها جميلة بالرغم من ذلك. بدت هذه الرسومات على يدي الضيوف الآخرين وأقدامهم. سكبت آشا في طبقها بعض السامو، والكاشوري والباكورا، لكنها كميات أقل من البهارات المتنوعة، وذلك بعد أن علمت بأن هذه المأكولات حارة جداً بالنسبة إليها. فكّرت في ما قالته العمة مانيولا عن الإبحار حول الميناء، وتلوّث مدينة مومباي. لاحظت آشا تلك الطبقة السميكة من الضباب الدخاني التي تخيّم على المدينة في معظم الأيام، كما لاحظت بأنها تسعل كثيراً في الخارج، لكن يبدو كذلك أن معظم الدخان يصدر عن الريكاشات والدرّاجات الآلية التي تحمل اسم راجاج. تبيّن أن العمة مانيولا، وهي صديقة العائلة القديمة، مخاتلة تماماً. تفحّصت آشا، ومن دون أن تلفت الانتباه، التماثيل الرخامية الكبيرة الهندية، والستائر المزخرفة بشدة والمعلقة على الجدران. عرّفتها بريا على نساء أخريات، لكن آشا لم تفهم الأحاديث التي تبادلتها النسوة بلغة الجوجاراتي.

تناولت آشا الطعام، وشاهدت سيدات الحنة عندما عرضن أعمالهن اليدوية. لكن عندما فرغت إحداهن من عملها طلبت منها بريا التقدّم نحوها. قالت آشا بعد أن أشارت إلى رسم يمثّل الشمس على يد فتاة أخرى: «أريد رسماً بسيطاً مثل ذلك». لم تمرّ خمس دقائق قبل أن تتزيّن راحَتا يدَي آشا برسومات تمثّل كرات مشعة بالأنوار. وضعت أخصائية الحنة طبقة من عصير الليمون والزيت بعد ذلك على الرسومات، لكن بعد أن جفّت تماماً، ثم طلبت منها أن تتركها على يديها لأكبر فترة ممكنة لتبقى داكنة. دُهشت آشا في الصباح بالرسومات الحمراء الجميلة التي بقيت بعد أن حاولت إزالة كل المواد الجافة التي تشبه الوحل من يدها، ولم تتمكن من الامتناع عن النظر إليها طوال اليوم.

جرى حفل الزفاف بعد مرور ليلتين. ذهلت آشا أمام المنظر الماثل أمامها بينما كانت تسير من خلال بوابات نادي الكريكيت الهندي. كانت الأرض بأكملها التي تبلغ مساحتها حجم ملعبَي كرة القدم، مغطاة بأثاثٍ فاخر جرى نقله إلى المكان خصيصاً لهذه المناسبة. اشتمل هذا الأثاث على مقاعد مزخرفة قابلة للطي، وطاولات مزخرفة، ووسائد حريرية، وستائر سقفٍ مزخرفة تتدلى فوق الرؤوس. بدا المكان أشبه ما يكون بقصرٍ خارجي واسع. تواجد ألوف الضيوف الذين بدأوا بالتجوال في المكان، وعددٌ مساوٍ تقريباً من الخدم الذين حملوا الصواني الفضية المليئة بأصناف الطعام والشراب. خشيت آشا أن تلفتَ الأنظار كثيراً ببذلتها الجديدة المؤلفة من قطعتين، وزاد من خشيتها واقع أن ثوبها كان أقل فخامةً بالمقارنة مع النساء الأخريات اللواتي ارتدين أثواب الساري اللامعة، وأجمل المجوهرات.

قالت بريا بعد أن أمسكت آشا من مرفقها: «هيا بنا. أقفلي فمكِ. تبدين وكأنك لم تحضري زفافاً هندياً من قبل!» تبعت آشا بنات أعمامها بصمتٍ لفترة من الزمن، وحدّقت بدهشة إلى التغيّر الذي خضع له ملعب الكريكيت هذا. تساءلت بعد ذلك ما إذا كان حفل زفاف والديها كانَ على شاكلة هذا الحفل، وسرعان ما تذكّرت تلك الصورة المؤطرة المعلقة في غرفة نومها، والتي تمثل والدتها بفستانٍ صيفي بسيط إلى جانب والدها، وهو الذي ارتدى بذلة في حفل زفافه الذي جرى في متنزه غولدن غايت بارك.

قالت بريا بعد أنِ وكزتها بين أضلاعها: «... وهذه هي آشا ابنة عمي الأميركية. إنها ليست جميلة فقط، لكنها لامعة كذلك». نقلت آشا انتباهها إلى اليد الممدودة أمامها، وتبعتها بنظرها إلى أن وصلت إلى صاحبها. توسّعت عيناها عندما رأت صاحب هذه اليد.

«قال الرجل بنبرة بريطانية: «سررت للقائك. أنا سانجاي».

«أجل. سررت للقائك بدوري. أنا آشا».

«أجل. أعرف. أخبرتني بريا بذلك للتو. إنه اسم جميل. أتعرفين معناه؟».

أجل، أعرف بالطبع. أخبرني والداي بمعناه آلاف المرات. لكنها هزّت رأسها بصمتٍ على أمل أن يتابع كلامه بنبرته الساحرة.

إنه يعني الأمل، ولا بد أن والديك رسما لك أحلاماً كبيرة». ابتسم بعد ذلك، لكن آشا أحسّت بأن» ساقيها ترتجفان.

أجل». اللعنة. لماذا لا تتمكن من قول أي شيء آخر؟ لاحظت لون عينيه العسليّتين. لكنها رأت» بطرف عينها بأن بريا وبيندو تستعدان للانصراف.

«قالت بريا غامزةً: «أريد إحضار بعض الطعام... سأعود على الفور».

«قال سانجاي: «إذاً أنت من أميركا؟ أتأتين إلى هنا كثيراً لرؤية أفراد عائلتك؟».

ردّت آشا بعد أن استعادت قدرتها على الكلام: «حسناً. إنها زيارتي الأولى في الواقع. ماذا بشأنك» «أنت؟ هل أنت من... إنجلترا؟».

كلا. كلا. إنني من مومباييت. وُلدتُ ونشأت في مكانٍ قريب من هنا. لكنني أمضيت السنوات» «الست الماضية في إحدى الجامعات، ومعهد للدراسات العليا في إنجلترا».

لكن لماذا معهد الدراسات العليا؟» انتبهت على الفور بأنها بدت مثل مراسلٍ صحفي، لكن» ابتسامتُه الهادئة أراحتها قليلاً.

كنت في كلية لندن للاقتصاد. سأحصل على درجة الماجستير من هناك، وآمل بعد ذلك أن أعمل» في مؤسسة ما مثل البنك الدولي، هذا إذا لم يجذبني والدي إلى شركة العائلة. ماذا بشأنك أنتِ؟».

أنا لا زلت في كلية تابعة لجامعة براون في الولايات المتحدة الأميركية. لكني أتيت إلى هنا» بموجب منحة لإتمام مشروع».

«ما هو مشروعك؟».

إنني أحضّر دراسة عن الأطفال الذين يعيشون في أوضاع الفقر، وفي أحياء الصفيح، مثل حي» دارافي». توسعت عيناه فسألته: «ماذا؟ هل تريد أن تقول لي «كوني حذِرة»، أي مثل ما يفعل الجميع؟».

كلا». ارتشف شرابه وتابع: «أنا متأكد من أن امرأة ذكية مثلك تتفهم كل الأخطار». أشعّت» بسمته بدفءٍ جعلها تشعر وكأنها على وشك الذوبان. «إذاً ماذا عرفتِ حتى الآن؟» انساب حديثهما بسهولة من هذه النقطة. تحدثا في وقتٍ ما عن مائدة الطعام التي انتشر فوقها خمسون صنفاً من الطعام على الأقل. حمل طبقها إلى إحدى الأرائك المخملية حيث جلسا. تناول سانجاي طعامه بيديه، وشجّعها على أن تحذو حذوه. تحدّثا بعد ذلك عن الانتخابات الأميركية القادمة، والتحوّل إلى اليورو، وكأس العالم في كرة القدم. ضحك سانجاي من أعماق قلبه للنكات التي روتها له، كما ملأ لها كوبها عند فراغه من الشراب. مضت تلك الأمسية بسرعة، فبدأت آشا البحث عن بنات أعمامها.

سألها سانجاي بعد أن وضع ذراعه على الأريكة خلفها: «إذاً أخبريني. قلتِ لي إن هذه هي رحلتك» الأولى إلى الهند. لماذا لم تأتِ من قبل؟».

كانت ثقته الهادئة معدية بالنسبة إليها طوال تلك الأمسية، وهو الأمر الذي أثّر على طبيعة المراسل فيها. بدا الأمر وكأنه يعرفها مسبقاً، وأن أي شيء تقوله لا يشكّل مفاجأةٍ له. لكنها لم تكن مستعدة للتحدث عن هذا الأمر بالذات بالرغم من كل شيء. بلعتْ ريقها ودفعت خصلةً من شعرها وراء أذنها. «إنها قصة طويلة، وطويلة جداً بحيث لا يمكنني إنهاؤها هذه الليلة. سأرويها لك في مناسبة» أخرى».

قال: «هل تعِدين بذلك؟».

شعرت بأن عالمها انقلب رأساً على عقب. «أعدك بذلك». مدّت يدها، لكن بدلاً من مصافحتها رفع سانجاي قليلاً إلى مستوى شفتيه، وقبّلها بلطف، وما لبث أن غطّاها بيده. لكن عندما أعادت يدها لاحظت بأنه ترك فيها بطاقةً تحمل اسمه ورقم هاتفه.

ظهرت بيندو وبريا إلى جانبها مباشرة، «ها أنتِ هنا. كنا نبحث عنك. تعرفين أنه من المستحيل العثور على شخصٍ ما في هذا المكان. إنه أمرٌ يثير الجنون». ظهرت ابتسامة ساخرة على شفتَي بريا.

حان وقت الانصراف والوداع. أسرع سانجاي إلى لمس ذراع آشا عندما استدارت للمغادرة.

لكن بينما بدأت بنات أعمام آشا بمداعبتها بشأن سانجاي، انشغلت هي بالتفكير في سؤالها الذي لا

تستطيع الإجابة عليه لسببٍ بسيط هو أنها لا تعرف.

40

الانفصال

بالو آلتو، كاليفورنيا - 2004

سومر

تلقت سومر في إحدى أمسيات يوم الجمعة من شهر تشرين الثاني دعوةً من ليزا، وهي إحدى زميلاتها في المركز الطبي، للانضمام إلى عددٍ من الزملاء لتناول شراب أثناء الاستراحة من العمل. لم تكن سومر مستعجلة للعودة إلى شقتها المستأجرة فرعياً من إحدى الطالبات المتدربات في مدريد لمدة سنة. تحتوي الشقة على غرفة نوم واحدة في شارعٍ هادئ تحيط به الأشجار، ولا تبعد الشقة عن الحرم الجامعي إلا مسافة قليلة، ولا تحتوي إلا على مفروشاتٍ قليلة، وسجادة بلون بني شاحب، بينما كانت جدرانها عادية مثل بقية الشقق المخصّصة للتأجير. توقعت سومر في البداية أن يمنحها المكان إحساساً بالحرية، ومن دون أن يعيقها وجود كريشنان المستمر في المنزل مع كل حاجياته. لكنها كانت تشعر بالفراغ في كل يوم عند عودتها إليه.

كان باستطاعة الزميلات الذهاب إلى حانة شراب في بالو آلتو، وهي أحد الأماكن الجديدة التي تم تشييدها منذ التحاق سومر بكلية الطب منذ خمسة وعشرين عاماً. طلبت ليزا كوباً من شيراز، كما أن سومر التي دُهشت بهذا الخيار طلبت النوع ذاته. لم تكن سومر تعرف ليزا جيداً في ما عدا أنها عازبة، وتمارس اليوغا بحماسة، وعادة ما تظهر في مكان العمل متأبطةً حصيرة أرجوانية وملفوفة. اعتاد الأطباء العاملون في المركز الطبي عقد اجتماع عملٍ مرةً في الشهر، لكنهم كانوا يمرّون بمحاذاة بعضهم بعضاً في ممرات العيادة بسرعة. كانت سومر بعمر الثانية والخمسين، وهي واحدة من أقدم الأطباء في المجموعة، وأرسخهم مركزاً، وذلك بعد أن أمضت فيه ما يزيد عن خمس عشرة سنة. يُضاف إلى ذلك أن وتيرة العمل السريعة للعيادة، والأعداد التي لا يمكن توقعها للمترددين عليها، والمرتّبات الضئيلة، كانت عوامل أدّت كلها إلى التغيير المستمر بين الأطباء الشبان الطموحين.

ارتشفت سومر رشفة من شرابها ولاحظت بأن زملاءها يتحولون بسهولة من وضعية العمل إلى الاسترخاء، وذلك بعد خلعهم أرديتهم البيضاء، وتحريك أكواب شرابهم بحركةٍ دائرية. أما ليزا التي اعتادت رفع شعرها على شكل ذيل حصان منخفض، فقد تركت شعرها مسترسلاً حول وجهها في ذلك اليوم. لكن تلك الخصلات الرمادية الرفيعة بين اللفائف الداكنة، والخطوط الموجودة حول عينيها، فقد جعلتها تبدو وكأنها في أواخر الأربعينيات من عمرها، أي أصغر سناً من سومر بسنواتٍ عدة. دارت الأحاديث حول مواضيع متوقعة عن المرضى غير التقليديين، والممرضين غير الأكفاء، وكذلك حول مشاكل الانتخابات الرئاسية. لكن بعد الكوب الأول من الشراب، قامت معظم المجتمعات بالانسحاب للذهاب إلى منازلهنّ، والالتقاء بأفراد أسرهنّ.

قالت ليزا وهي تقترب ببطء نحو سومر في المقعد الخشبي الطويل الذي أصبح شبه خالٍ: «حسناً، إنني لست مستعجلة. تركتُ في هذا الصباح بعض الطعام لقطّتي. وأنتِ؟».

ردّت سومر بعد أن شربت آخر جرعة من كوبها: «أنا لست مستعجلة للذهاب إلى أي مكان». عجزت سومر عن الاعتراف بأنها انفصلت عن كريس، وذلك لأنه لم يمضِ على الأمر سوى بضعة أسابيع، كما أنها لم تتعود بعد على العيش لوحدها، وهي لا تزال تحضّر في كل صباح قدراً من البن القهوة يكفي لأكثر من شخص واحد، كما أنها تُبقي جهاز التلفزيون شغالاً طيلة المساء، وذلك لكسر الصمت الذي يخيّم على الشقّة. كانت كل صداقاتها في كلية الطب، وفي الحي الذي تسكنه، مؤلفة من المتزوجين، لكن سومر لم تخبرهم بعد بما جرى بينها وبين زوجها.

قالت ليزا للنادل: «عظيم، أريد كوباً آخر إذاً».

راقبت سومر ما يجري من حولها مذهولة، بينما كان السائل خمري اللون يملأ كوب زميلتها مجدداً. لاحظت أن شعوراً بالفرح بدأ بالسيطرة عليها.

قالت ليزا بصوتٍ منخفض: «مرحباً. أنا آسفة بشأن ما سمعته عن منصب المدير. كنتُ متأكدة بأنك سوف تنالين الوظيفة، وعلى الأخص لأنك أمضيتِ في العمل وقتاً أطول من أي شخص آخر، كما أن كل الزملاء يحبونك».

أجل. عثروا على شخص آخر يمتلك خبرةً إدارية أكثر مني، وهو شخصٌ عمل بجهد على مدى» عشرين سنة، وليس فاشلاً مثلي». أدركت سومر بأنه لا يجدر بها قول كلام كهذا، لكنها شعرت بإحباط شديد بشأن الترقية، كما أنها شعرت بارتياح للتحدث حول الموضوع.

«أتعرفين أي شيء عن الرجل الذي وظّفوه؟».

هزّت سومر رأسها وقالت: «إن كل ما أعرفه هو أنه تخرّج من بيركلي». شعرت سومر بالارتياح عندما اقترح رئيسها المتقاعد أن تجرّب. سمحت لنفسها، ولفترة وجيزة، استعراض إغراء فكرة التركيز على عملها مجدداً، وأن تستثمر في شيء جديد.

«إذاً ما هي خططك للإجازات يا سومر؟».

سأسافر إلى سان دييغو لزيارة والديّ». تساءلت سومر ما إذا كان ذلك الكوب من الشراب» سيكون أطيب مذاقاً من كوبها الأول.

«إنها فكرة جيدة. هل تقصد أسرتك ذلك المكان في كل عام؟».

أسرتي... لا تذهب إلى هناك في الواقع». شعرت سومر بالدفء يسري في أنحاء جسمها، لكن» باقي الكلام أتى بسهولة أكبر. «إنني ذاهبة لوحدي، لأن زوجي سيذهب إلى الهند لزيارة عائلته، وكذلك ابنتنا الموجودة هناك الآن». جرعت سومر جرعة كبيرة من شرابها قبل أن تتابع كلامها. «لم أرغب بالذهاب، لكن زوجي كان عنيداً حقاً بشأن هذا الأمر، وهكذا...» هزّت رأسها وأكملت: «لا تبدو فكرة تمضية بعض الوقت بعيداً عنه بالفكرة السيئة. أنتِ محظوظة لأنك غير متزوجة». بدت ضحكة سومر عالية قليلاً، وعلى الأخص في هذه الغرفة التي اعتبرتها صغيرة، والمكسوة جدرانها بالألواح الخشبية.

قالت ليزا: «حسناً. كنت متزوجة في الحقيقة لمدة ستة أعوام، لكني حصلت على الطلاق منذ

عشرة أعوام. لم نرزق بأولاد لحسن الحظ. أدى هذا الأمر إلى تسهيل أمر الانفصال. لكن ما علاقة الأولاد بالأمر؟ هل هم السبب في تدمير الزواج؟».

فكّرت سومر في هذه المسألة: «عادةً كنت أجيبُ بنعم، لكن السؤال يبدو أكثر تعقيداً الآن».

أفهمكِ. أشعر بأنني مجبرة على الدوام لطرح هذا السؤال لأنه السبب، حسناً السبب الرئيس،» «الذي دفعنا أنا وزوجي إلى الانفصال».

قالت سومر: «ألم يكن يرغب بإنجاب أولاد؟».

ردّت ليزا: «كلا. أراد أولاداً في الواقع. أرادهم بشدة. أنا لم أرغب في الإنجاب. لم أمتلك الدافع القوي لأكون أماً، وعلى الأخص بعد أن بدأتُ بملاحظة التغيير الذي حصل مع صديقاتي. غيّر الزواج من حياتهن وحياتهنّ المهنية. غيّر الزواج... غيّرهن. لم تعد صديقاتي إلى ما كنّ عليه قبل الإنجاب». مرّرت ليزا سبابتها حول إطار الزجاج. «يُحتمل بأنني أنانية، لكنني أحب طبيعتي، ولا أرغب في خسارتها. أحب المحافظة على لياقتي، كما أن مهنتي عزيزة على قلبي. لم أرغب في التخلي عن السفر مدة عشر سنوات، كما كنت أتطلع إلى حياةٍ مع أولاد، ولم أعتبر أنني سأكون سعيدة إذا تخليت عن السفر». هزّت ليزا كتفيها قبل أن تكمل: «أعتقد أن هذا التفكير لا يناسب جميع الناس».

تسرعت سومر بالسؤال: «ألا زلتِ تظنّين أن ذلك كان الخيار الأفضل لكِ؟».

قالت ليزا: «أتساءل أحياناً عن الأمر، لكنني سعيدة في حياتي غالباً. إنني أحب وظيفتي، وإجازات نهاية الأسبوع هي ملكي أنا. أحب السفر، وبالمناسبة أخطّط لرحلةٍ إلى إيطاليا في الربيع القادم برفقة بعض صديقاتي، لكن شقيقتي ألغتِ السفر بسبب جراحة ستجريها في ركبتها. يمكنك أن تأتي معنا إذا كنتِ ترغبين في ذلك. ستكون رحلة عظيمة: درّاجات هوائية في توسكانة، بالإضافة إلى الطعام الفاخر، والشراب الممتاز. سنسافر لوحدنا من دون وجود رجال». ابتسمت ليزا عندما رفعت كوبها إلى مستوى شفتيها.

همم. إنه عرضٌ مغرٍ، وعلى الأخص إنه يعني ترك زوجي لوحده». جرعت كل ما تبقى في كوب» شرابها، وأحسّت بالدفء يسري في أنحاء جسدها.

أتعرفين بأنني سألتقي أصدقائي الإيطاليين على مائدة العشاء في المطعم السنغافوري الجديد.» «لماذا لا تأتين معنا إذا لم تكن لديك مشاريع أخرى؟».

التقت سومر في وقتٍ لاحق صديقات ليزا حول أطباق الكلماري واللحم المشوي، وكانتا امرأتين عازبتين في الأربعينات. قالت إحداهن: «أنا سونداري». سرّحت المرأة شعرها الذهبي في ضفيرتين بحيث استرخت كل واحدة منهما على أحد كتفيها. أضافت المرأة: «إنه اسمي الروحي، وهو يعني جميلة باللغة السنسكريتية. إنه اسم هندي، كما أن قطتي تدعى بوذا. أخذت كل احتياطاتي في هذا المجال». ابتسمت سونداري عندما تناولت قائمة الطعام. «إنني أنسى الصعوبة التي ألاقيها في تحديد طلباتي في هذا المطعم. ألا يوجد نباتيون في سنغافورة؟».

قالت ليزا: «أتعرفين أن زوج سومر من الهند؟».

وضعت سونداري قائمة الطعام على الطاولة: «حقاً. هذا ممتاز جداً. إنني أحب الهند، وسبق أن

زرتَ نيودلهي منذ سنوات لحضور زفاف إحدى صديقاتي. كان ذلك زواجاً مرتّبا سلفاً. ألبسوني ثوب الساري، كما وضعوا الحنّة على يديّ. أحببتُ مراسم الزفاف. هل فعلتِ ذلك؟ سافرتُ بعد ذلك إلى أغرا، ورأيت تاج محل. إنها بلاد رائعة. أحبّ العودة إلى تلك البلاد لكي أرى أماكن جديدة منها. سمعت أن مناطق الجنوب جميلة حقاً. هل زرتِ تلك المناطق؟ بالمناسبة من أي منطقة هو زوجك؟».

انتظرت سومر لتعرف ما إذا كانت سونداري تتوقع جواباً منها هذه المرة، لكنها اكتفت بالقول: «مومباي».»

قالت سونداري مقهقهة: «أنتِ محظوظة جداً. كم أحب أن أتزوج وأنا مرتدية ثوب الساري. سيبدو رائعاً بالنسبة إلى فتاة بيضاء من كانساس مثلي أنا».

وصلت امرأة مرتدية بذلة مؤلفة من سروالٍ وسترة باللون الأزرق. بدت المرأة مستعجلة، وسرعان ما تناولت كرسياً للجلوس عليه، ثم قالت للنادل الذي كان ماراً بالقرب منها: «أيمكنني الحصول على كوزمو؟ إنني آسفة. تأخرت يا فتيات، كان عندي عرضٌ عند الساعة الخامسة، كما أن جاستين أصرّ على أن أقرأ له ثلاثة كتب. تمكّنت من الخروج لأنني أبلغت المربية بأن ابني يستطيع مشاهدة أفلام الصور المتحركة. لكنني لجأت إلى رشوة ابني البالغ ستة أعوام. ألا أعتبر أماً عظيمة؟».

قالت سونداري رافعة كوبها لشرب نخب: «أجل يا غايل. أنتِ كذلك، وعلى الأخص لأنه ينبغي عليك أن تكوني الأم والأب في معظم الأحيان».

قالت ليزا: «غايل. هذه هي صديقتي سومر التي تعمل معي في العيادة. أحاول إقناعها بالانضمام إلينا في رحلتنا إلى إيطاليا في الربيع القادم».

قرقعت غايل كوبها مع سومر فوق الطاولة. «عظيم، نستمتع أكثر إذا ما زاد عددنا. إنني أحاول إقناع توم بأخذ جاستين خلال ذلك الأسبوع. توم هو زوجي السابق». قالت ذلك كي تشرح لسومر وتابعت كلامها، «يجد توم صعوبة في تبديل الأسابيع معي لأنه يتعيّن عليه مراجعة صديقته أولاً. لم أتخيّل مطلقاً عند حصولي على الطلاق بأنني سوف أقع تحت رحمة تلك المرأة الأخرى».

قالت سونداري مع نظرة حالمة: «من الأفضل أن يحب المرء ويخسر...».

هزّت ليزا رأسها وابتسمت: «سونداري هي رفيقتنا الرومانسية الميؤوس منها».

قالت سونداري: «لا زلت أبحث عن الرجل المناسب. هذا إذا كان لديك بعض منهم. يُحتمل أن الوقت حان ليكون لي زوج مرتّب سلفاً».

ردّت غايل بعد أن أخذت جرعةً من الشراب: «ثقي بي يا عزيزتي بأنه لم يعد هناك من وجود للرجال المناسبين، وعلى الأقل ليس في عمرنا نحن، لكن المسألة الآن هي كم من الأخطاء التي يمكننا تحمّلها؟» أرجعت رأسها إلى الخلف، وأطلقت ضحكة مدوية، وهو الأمر الذي جعل النادلة التي وصلت لتوّها تتراجع خطوة إلى الوراء.

استيقظت سومر في صباح اليوم التالي مع ألم شديدٍ في الرأس، وجفافٍ في حلقها. استدارت ببطءٍ وفتحت إحدى عينيها كي ترى ساعة المنبّه الّتي أشارت أرقامها إلى الساعة 10:21 من قبل الظهر. لكن حبوب الأسبرين توجد في خزانة الأدوية في الحمام، أي أن المسافة بعيدة بشكل لا يحتمل. أرجعت

رأسها إلى الوسادة ببطء، وتطلعت على السقف الأبيض. كان الطلاء متشققاً عند الزوايا حيث تتلاقى الجدران. فكّرت سومر في ما حدث معها في الليلة السابقة: تناولت كوبين من الشراب داخل الحانة، وعدة أكواب أخرى في المطعم، أي أنها تناولت مقداراً من الشراب أكبر مما شربته منذ وقتٍ طويل. استمتعت سومر بوقتها مع ليزا وصديقاتها، وكان قضاء الوقت معهن في منتهى المتعة بالنسبة إليها، كما ساعدنها على نسيان الأمور التي تقلقها لبعض الوقت. لكن سومر لم ترغب، بالرغم من ذلك، أن تعيش ما يشبه حياة أي واحدة منهن. كانت ليزا سعيدة تماماً لأنها من دون أطفال. أما غايل التي تعمل بجهد لتأمين معيشتها، فإنها تعمل على تربية طفلها، كما تتعاون في بعض الأحيان مع زوج سابق. لكن سونداري لا تزال تبحث عن حبٍ لها وهي في العقد الخامس من عمرها لكنها اكتفت بعلاقة مع قطة أسمتها بوذا.

استدارت كي تتجنب أشعة الشمس المتسلّلة إلى وسادتها. أصبحتُ في سنٍّ لا تسمح لي بتحمّل آثار الشراب. كانت في الثانية والخمسين من العمر، وتعيش منفصلة عن زوجها في شقةٍ مخصّصة للطلاب. يُضاف إلى ذلك أنها عملت في المكان ذاته لفترة طويلة إلى حد أنها أصبحت أمراً ثابتاً فيه، ومع ذلك لم تحصل بعد على المؤهلات الكافية لتسلّم زمام المسؤولية. لم أتصوّر حياتي لتكون هكذا. بدا لها أن كلّ شيء كانت تهتم له على مدى السنوات العشرين الماضية بدأ بالتفكك، وذلك بالرغم من كل الوقت والطاقة اللذين بذلتهما. يمكنها أن تسمي نفسها طبيبة، لكنها لم تعد تشعر بالفخر الذي كانت تحسّه في الماضي. لم تكن زوجة بالمعنى الكامل للكلمة في ذلك الوقت، وحتى أنها ليست أماً بالكامل. أدركت سومر في هذا الوقت أنها خسرت نفسها.

لم تتمكّن سومر من تحديد الوقت الذي انهار فيها زواجها، لكنها عندما فكّرت في كريشنان في تلك اللحظة لم يكن الشخص ذاته الذي تتذكره من أيام ستانفورد. أما كريشنان الجديد فقد تحوّل إلى رجلٍ غير صبور، وغير مكترثٍ لشيء، أي أشبه ما يكون بجراح الأعصاب المتعجرف والتقليدي الذي اعتاد المزاح بشأنه في كلية الطب. فَقَدَ كريس الرقة والبراءة اللتين تميّز بهما عند وصوله من الهند إلى هذه البلاد. لم يعد بحاجةٍ إلى سومر عندما علّمته قيادة السيارات، وتشغيل فرن الميكرو وايف، كما لم يعد يذوب شغفاً في عينيها عندما يلتقيان عند العشاء، مضى وقتٌ طويل منذ أن أمسك يدها عندما كانا يمشيان في الشوارع.

حاولت سومر أن تتذكر آخر مرة كانا فيها سعيدين حقاً. هل كانا سعيدَين عندما تخرجت آشا من المدرسة الثانوية؟ أم في هاواي حيث أمضيا آخر عطلة عائلية؟ أدركت بأنه في نقطةٍ ما بعد التحاق آشا بالجامعة بدأت المسافة بينها وكريشنان بالتباعد. لكن عند مغادرة ابنتهما إلى الهند كانا متباعدَين جداً بالفعل. بدا الأمر حينها وكأنهما يقفان فوق جهتين متعاكستين من بحيرةٍ ما، وذلك من دون أن يمتلك أحدهما القدرة على قطع المسافة التي تفصل بينهما. تركت الكلمات الغاضبة التي تبادلاها كالأحجار المتساقطة إلى أعماق المياه، دوائر من الحزن على السطح.

جلست سومر ببطء وانتظرت زوال الصداع الشديد الذي شعرت به في رأسها قبل مغادرتها السرير. سكبت الماء البارد على وجهها بعد وصولها إلى الحمام، واستندت على حوض غسل الأطباق أثناء إحضارها حبوب الأسبرين من وراء مرآة خزانة الأدوية. نظرت إلى صورتها في المرآة بعد إغلاقها باب الخزانة. كانت صورة وجه امرأة في منتصف العمر. اثنان وخمسون عاماً. كان من المقرر أن يغادر كريشنان في غضون أسابيع قليلة للانضمام إلى آشا في الهند، وهكذا ستبقى سومر لوحدها، وهي التي تساءلت عما إذا كانت هي التي دفعت ابنتها وزوجها للمغادرة بالطائرة التي ستقلّه بعيداً

عنها، أي كما فعلت آشا قبل أشهرٍ قليلة، أم أنها هي التي تركتهما أولاً.

41

الهندان

مومباي، الهند - 2004

آشا

يتكلم باراج ستاً من أصل لغات الهند الواحدة والعشرين الرئيسة، وذلك بالإضافة إلى اللغة» الإنكليزية. ستحتاجينه يا آشا». أصرّت مينا على إحضار مترجم إلى دارافي في ذلك اليوم، وذلك للمساعدة على إجراء المقابلات. «يمكنكِ بهذه الطريقة التركيز علىَ أسئلتك، والحصول على أي شيء تحتاجينه. لا تقلقي، لأنه لن يقف عائقاً في طريقك».

أخذت آشا نَفَساً عميقاً وأخرجته، ثم ردّت: «حسناً». كانت متوترة قليلاً بالرغم من عجزها عن تحديد السبب، وعلى الأخص بعد أن قامت بما هو متوجب عليها. قامت بعد ذلك بالبحث في أرشيف صحيفة تايمز، وأجرت مقابلات مع مسؤولين حكوميين، ومسؤولين عن تخطيط المدينة. تلاقت آراء معظم الذين قابلتهم حول أسباب تكوّن حيّ الصفيح حول المدينة. كانت منطقة دارافي هذه مستنقعاً لنباتات المنغروف إلى أن جفّ المستنقع، وارتحلت الأسر التي كانت تعتاش على الصيد فيه. بدأ الناس في هذا الوقت بالقدوم من القرى والبلدات المجاورة إلى مومباي بحثاً عن فرص اقتصادية أكبر. كانت أوضاع البنية التحتية للمدينة سيئة، أي أنها غير مجهزة لاستقبال هذا التدفق الهائل من الناس إليها، وهكذا ازدهرت دارافي لتصبح حي الصفيح الذي يعجّ بالمآسي وبابتكارات ساكنيه المرتجلة. كانت آشا على علم بتاريخ هذا الحي لأنه سبق لها أن جمعت الإحصاءات والحقائق عنه. اكتملت لدى آشا بنتيجة ذلك هيكلية دراستها، لكنها لا تزال بحاجة إلى إضافة العنصر البشري إليها. كان ما ينقصها هو تلك القصص الشخصية التي ستجمعها من خلال المقابلات التي ستجريها، وهي التي ستعني الفرق ما بين دراسة مهمة، وتقرير إخباري عادي.

سألتْ مينا: «أعتقد أنك سترغبين في تسجيل المقابلات؟».

أجل. دعينا نأخذ هذه». تناولت آشا كاميرا الفيديو المحمولة باليد التي تستخدمها. «أيمكنكِ» إمساكها إذا لم يكن لديك مانع. سأتمكن بهذه الطريقة من استخراج بعض الصور الساكنة إذا رغبتُ في ذلك».

قالت مينا وهي تمسك ببعض الأشياء التي تحمل اسم تايمز، مثل دفتر ملاحظات، وأقلام، وأكياس الكانفا: «سآخذ هذه كذلك، وذلك تحسباً لأن يحتاج شخص ما بعض الإغراء لإجراء المقابلات».

تبيّن لآشا بعد ذلك أن وجود ثلاثة غرباء في المكان هي كل ما يتطلبه الأمر لاجتذاب جمهرة من

الناس. كان عليها الإسراع في اختيار الأشخاص الذين ستتحدث معهم أولاً. اجتذبت انتباهها على الفور فتاة صغيرة بعينيها النفّاذتين، وأشارت إليها. شغّلت مينا الكاميرا، ثم اقترب باراج إليها. بدا بأن الفتاة تبلغ نحو الثانية من عمرها، وكانت ترتدي فستاناً قطنياً بسيطاً باللون البنّي الشاحب، وطوقاً حول عنقها. كانت الفتاة حافية القدمين، وطول شعر رأسها لا يزيد عن ربع بوصة. كانت هذه الفتاة الصغيرة تمسك بيد فتاة أكبر سناً منها والتي سرّحت شعرها على شكل جدائل، وكان خاتم أنفها الذهبي يتباين كثيراً مع بشرتها الداكنة.

بدأ باراج بالترجمة لآشا: «هذه هي بينا، وأختها الأصغر منها ياشودا». ابتسمت آشا للفتاتين الصغيرتين ثم انحنت لتصل إلى مستواهما. «تبلغ بينا الثانية عشرة من عمرها، وياشودا في عمر الثلاث سنوات».

«متى وصلتا إلى هذا المكان، ومن أين قدِمتا؟» مدّت آشا يدها نحو الفتاة الصغيرة. قام باراج بالترجمة، بينما ردّت بينا على الأسئلة بسرعة وبصوتٍ قوي.

قال باراج: «قالت الفتاتان بأنهما وصلتا إلى هذا المكان قبل فصل الرياح الموسمية الأخير بقليل، أي أنه مضى على وجودهما هنا نحو ثمانية أو تسعة أشهر. سارت عائلتهما لليلتين للوصول إلى هذا المكان من قريتهما».

انشغلت ياشودا في ذلك الوقت بالخواتم التي تضعها آشا حول أصابعها، وأدارتها مرة بعد أخرى. «قالت آشا: «اسألها عن عائلتها. ما هو عمل والديها؟».

«تعمل والدتهما كخادمة في أحد المنازل، بينما يعمل والدهما في معملٍ للملابس. أما أكبر أشقائهن الثلاثة فيعمل مع والده، بينما يذهب الشقيقان الأصغر إلى المدرسة».

رفعت آشا نظرها عن دفتر الملاحظات وقالت: «لماذا لا تذهب إلى المدرسة؟ أعني بينا؟» حدّق باراج في آشا بصمت. «اسألها. اسألها لماذا لا تذهب إلى المدرسة». لاحظت آشا أن باراج تردّد للحظة، ثم تطلّع نحو مينا قبل أن يتحوّل أخيراً إلى بينا. تطلعت بينا نحو آشا عندما سمعت السؤال، ثم تطلعت إلى الأسفل نحو قدميها. أجابت الفتاة باختصار، بينما تولى باراج ترجمة ما قالته: «إنها مضطرة للاعتناء بأختها، وتحضير الطعام، وغسل الملابس». لم تقتنع آشا تماماً بهذه الإجابة، لكنها استنتجت من النظرات التي تبادلها باراج وبينا بأنها لن تحصل على تفصيلٍ أكبر عن هذه النقطة.

«مسّدت آشا رأس الفتاة الصغيرة، وقالت: «اسألها لماذا شعر أختها قصيرٌ هكذا».

«...بدأ باراج بالإجابة: «يُحتمل أنه».

«أريدك أن تسألها، وأن أسمع إجابتها هي».

التفت باراج نحو بينا، وتكلّم ثم أصغى، والتفت بعد ذلك إلى آشا، وقال بهدوء: «تقول إنها كانت تعاني مشكلة مع البق». عادت بينا إلى التطلع نحو قدميها مجدداً، وركلت التراب. بلعت آشا ريقها بصعوبة، أما ياشودا فبقيت تراقب آشا بعينين جميلتين، كما حرّكت إحدى يديها.

انحنت آشا، وحاولت نزع أحد خواتمها من أصابعها التي تورمت قليلاً نتيجة الحرارة، ثم قالت: «خذي هذا». تمكنت أخيراً من نزع أحدها من إصبعها الذي تحوّل إلى اللون الزهري، وكان عبارة عن

خاتم فضيٍ رفيع مع حجرٍ أرجواني صغير، ثم ناولته إلى ياشودا. تطلعت الفتاة الصغيرة إلى أختها أولاً، ثم عادت بنظرها إلى آشا. انتزعت الطفلة الخاتم بفرحٍ شديد، ثم طوّقت عنق آشا بذراعها.

وقفت آشا ووجهت كلامها إلى بينا: «شكراً لأنك تحدثت إلينا». قام باراج بترجمة هذه الجملة، بينما أومأت بينا مع ابتسامة خجولة، ثم تركت آشا يد ياشودا الصغيرة.

أشارت آشا إلى باراج ومينا، وما لبث الثلاثة أن ساروا إلى داخل الحي، ورأوا امرأةً واقفةً بملامح متعبة أمام أحد الأكواخ، وكانت تصرخ بحيث لفتت انتباههم.

سألتْ آشا: «ماذا تقول هذه المرأة».

«إنها تنادي إحدى الفتيات، وتريدها أن تسرع».

التفتت المرأة في هذا الوقت بالذات، وانتبهت إلى الكاميرا ثم تقدمت نحوهم للترحيب بهم. تبادلت المرأة حديثاً مهذباً مع باراج الذي التفتَ إلى آشا. «إنها تنادي ابنتها للذهاب إلى المدرسة، لكن الابنة تتأخر عنها على الدوام».

«هذا جيدّ. أيمكنها أن تتحدث معنا لدقيقةٍ من الزمن؟ كم يبلغ عمر ابنتها؟»

«لديها أربعة أولاد، لكن بقي لديها ولدان يعيشان معها هنا... وواحد غادر إلى المدرسة هذا الصباح وهو بعمر الثلاثة عشر عاماً. أما ابنتها التي في الداخل فتبلغ العاشرة من عمرها».

«أتعني أن ابنتها التي هي في العاشرة من عمرها تذهب إلى المدرسة؟ هذا أمرٌ عظيم».

لم يتأخر باراج عن الترجمة: «أجل. تقول بأن المدرسة في غاية الأهمية. إنها تصطحب ابنتها يومياً ذهاباً وإياباً، وإلا لن تستطيع الفتاة الالتحاق بالمدرسة».

سألتْ آشا: «لكن ماذا يعمل زوجها؟».

«أجابت المرأة بكلمة واحدة ترجمها باراج بعد ذلك: «إنه ميت».

دوّنت آشا هذه المعلومة في دفترها مع أنها لم تكن متأكدة من السؤال الذي يليه. لاحظت في تلك اللحظة مينا خلفها وهي تحوّلٍ انتباهها، فاستدارت لتتطلع على الأمر الذي جذب انتباه زميلتها. ظنّت آشا للوهلة الأولى بأنها ترى طفلاً يزحف خارجاً من الكوخ، لكن في اللحظة المريعة التالية أدركت بأن الفتاة مشلولة. كانت ساقا الفتاة مقطوعتين، وكانت تستند على الأرض وتدفع نفسها بتحريك ذراعيها، بينما يتأرجح جذعها بينهما. أخذت آشا نَفَساً عميقاً، وأشاحت برأسها بعيداً عن هذا المنظر المرعب. أما عندما تطلعت نحو الأعلى فقد رأت مينا وهي تحدّق إليهما، ثم أومأت لها بأن تتابع. عادت آشا لمتابعة موضوع مقابلتها، وذلك في اللحظة ذاتها لترى المرأة تنحني إلى الأرض كي تسمح لابنتها بالصعود إلى ظهرها بطريقة ما. تكلّم باراج قبل أن تتمكن آشا من طرح سؤالٍ آخر. «إنها مضطرة للمغادرة الآن، وإلا ستتأخر عن المدرسة التي تبعد كيلومترين عن هنا». شكر باراج المرأة بأن ضمّ راحتَي يديه معاً، وما لبثت آشا أن كرّرت هذه الحركة. راقب الجميع تلك المرأة التي تحمل الطفلة على ظهرها، وما لبثت أن اختفت بين الحشود.

شعرت آشا بدوارٍ في رأسها. هل هذا بسبب الحرارة؟ حاولت التنفس بعمق، لكن منخريها امتلآ

برائحة مياه الصرف الصحي الكريهة والقوية. هزّت رأسها والتفتت إلى مينا. «سأعود بعد دقيقة». انطلقت عبر الشارع إلى كشكٍ لبيع الصحف، وارتاحت لأنها ابتعدت لفترةٍ من الزمن. لم تتوقع آشا أن تتأثر إلى هذا الحد بما رأته هناك في ذلك اليوم، وهي التي اعتقدت بأنها تحضّرت لهذا الأمر. لكن كل الصور التي سبق لها أن شاهدتها كانت ضمن إطارات، ومقاطع الأفلام كانت ضمن شاشة. أما هنا في دارافي، فإن المأساة تستمر وتجري من دون توقف، وتتقاطع في كل اتجاه، وذلك بحسب الأمور التي تمكنت من رؤيتها. تجمعّت كل هذه العوامل، مثل الروائح الكريهة، والظروف المعيشية البائسة، واليأس الذي يسيطر على حياة الأطفال، لتكوّن إحساساً عميقاً من الشفقة في أعماقها. اشترت آشا زجاجة ليمكا، وهي مشروبٌ بطعم الليمون الذي اعتادت على مذاقه. شربت آشا نصف الزجاجة جرعة واحدة بعد أن نظفت فُتحتها. مرّت أمامها حافلة من طبقتين، ثم رأت مينا وباراج واقفَين ومتأفِفَين على الجهة المقابلة من الشارع. تعيّن عليها استعادة هدوئها. انطلقت عائدة للانضمام إلى الآخرين بعد أن فرغت من شرب الزجاجة.

قالت آشا محاولةً أن تبدو واثقة من نفسها: «حسناً، لنهدأ قليلاً. هيا بنا. إنني جاهزة». سار الجميع معاً إلى أنٍ توقفت آشا أمام كوخٍ حيث وقفت امرأة مرتدية ثوب الساري باللون الأخضر الشاحب. حملت المرأة طفلاً وراء ظهرها، بينما تَعلّق طفلان صغيران آخران بساقيها. كانت ذراع المرأة اليسرى، التي ظهرت بين ثنايا الجزء الأعلى من ثوبها، مليئة بآثار الفحم. كانت المرأة تحرّك بين الحين والآخر شيئاً ما على النار، وتطعم الأرز لطفلها بأصابعها. سألت آشا باراج: «هل هي مستعدة للتحدث إلينا؟» راقبت آشا ما يجري من حولها أثناء حديثها مع باراج، فشاهدت المرأة وهي تشير بيدها وفمها.

قال باراج: «أرادت أن تعرف إن كنتِ ستعطينها شيئاً... بعض المال لتشتري طعاماً؟» تناولت آشا ورقة مالية بقيمة خمسين روبية من جيبها وناولتها إياها. دسّت المرأة الورقة المالية بين ثنايا ثوبها، وأطلقت ابتسامة ماكرة من أسنانها التي تفتقد اثنين منها.

أخذت آشا نَفَساً عميقا. «اسألها متى انتقلت إلى هنا، ومن أين أتت». بدأ باراج حديثاً مطوَّلا مع المرأة كما أشارت خلاله بيدها إلى الكوخ وراءها، ثم أشارت إلى مكانٍ ما في البعيد.

تقول المرأة إنها أتت إلى هنا منذ أن تزوجت قبل عامين، لكنها كانت تعيش هناك مع أهلها من قبل». أشار باراج بيده إلى مكانٍ ما داخل حيّ الصفيح.

هل كانت تعيش هنا في دارافي؟ لكن كم من السنين عاشت هنا مع أهلها؟» لم تعتبر آشا أن هذا المكان يصلح ليعيش فيه أكثر من جيلٍ واحد. أوحى لها المسؤولون الحكوميون بأن هذا المكان بمثابة نقطة مرور مؤقتة.

قال باراج على لسان المرأة: «عاشت هنا منذ أن كانت طفلة صغيرة جداً. تقول إن هذا المنزل أفضل من منزل والديها، وهي تعيش فيه مع زوجها وأولادها. أما في ذلك المنزل فقد كان يضم ثمانية أو عشرة أولاد». نقل باراج هذه المعلومات وكأنه يقرأ تقريراً عن حالة الطقس، وكأن محتواه لا يتضمن أي معلوماتٍ صادمة. تساءلت آشا ما إذا كان يفعل ذلك عمداً لكي يثير التوتر فيها.

سألت آشا: «هل تحب... هل هي سعيدة بالعيش هنا؟» أدركت آشا بأنه سؤالٌ سخيف بالنسبة إلى امرأة أمضت حياةً بأكملها في أحياء الصفيح هذه، ومن دون أن تفكّر في حياةٍ أفضل منها.

قالت إن الحياة هنا لا بأس بها، لكنها تحب العيش في منزلٍ لائق في يومٍ من الأيام، لكنها لا تملك»

«المال الكافي».

فكّرت آشا في مبلغ الخمسين روبية التي دسّتها المرأة في ثوبها، وفي عشرات الأوراق الأخرى التي لا تزال في جيبها، والتي يبلغ مجموعها عشرة آلاف دولارٍ أميركي، ثم طرحت سؤالها التالي: «ماذا يعمل زوجها؟»».

قال باراج: «عمل زوجها سائق ريكشا». سكت بعد ذلك ليسمع ما تبقى من إجابة المرأة، ثم تابع: «كان يتداول القيادة مناوبةً مع رجلٍ آخر، لكنه خسر وظيفته منذ شهرين لأنه كان يثمل، ويتأخر عن عمله».

«كيف يحصلون على المال إذاً؟».

تطلعت المرأة على القِدر عندما بدأ باراج بالترجمة. وضعت الطفلة على الأرض، لكن الطفلة أسرعت بالركض كي تلعب مع الأطفال الآخرين. كانت نبرة صوتها مخنوقة عندما أجابت. قال باراج: «إنها تذهب إلى بيت للدعارة في المساء، وهو يتواجد في نهاية هذا الطريق، وهي تكسب مئة روبية في كل ليلة، وذلك مقابل ساعات عملٍ قليلة، ثم تعود إلى المنزل. تقول المرأة أنه لا يمكنها أخذ أطفالها معها، ولذلك تتركهم عند إحدى الجارات. إنها لا ترغب في أن يرى أطفالها ذلك المكان، وأن يعرفوا ما يدور في داخله. إنها لا تريدهم أن يعرفوا».

بلعت آشا ريقها بصعوبة بينما كانت تحاول استيعاب ما سمعته: «هل المال كافٍ؟ أعني مبلغ المئة روبية؟».

تقول المرأة بأن المبلغ يكفي لإطعام عائلتها. أما إذا عثر زوجها على وظيفة فإنها لن تضطر إلى الذهاب إلى هناك بعدها».

شعرت آشا بالصداع مجدداً، ولم تتمكن من طرح سؤالٍ جديد، كما أنها لم تعد متأكدة من تمكّنها من تحمّل الوضع أكثر من ذلك. تطلعتْ نحو مينا التي أومأت. تفحصت آشا قائمة الأسئلة التي دوّنتها في دفتر ملاحظاتها، ثم أغمضت عينيها بصعوبة محاولة التركيز. قالت بعد فترة صمت: «كم يبلغ سنّها؟» التفت باراج إلى المرأة التي عاد أطفالها إليها وبدأوا في جذب ثوبها الطويل. انحنت المرأة لترفع طفلتها.

سمعت آشا الجواب: «عشرون عاماً». ارتعشتْ بعفوية وهي تتطلع نحو المرأة التي تعيش في تلك الحالة من البؤس، والتي تمارس الدعارة كي تعيش. أمضت المرأة حياتها بأكملها في هذا المكان، وأنجبت ثلاثة أطفال صغار، كما أن زوجها يثمل على الدوام، وهي لا تمتلك سوى أملٍ ضئيل في مستقبلٍ مختلفٍ قليلاً.

كانت المرأة تساوي آشا سناً.

خيّم الصمت التام في طريق العودة إلى المكتب. كانت صور الوجوه التي رأتها لتوها تسيطر على ذهنها، وكذلك القصص التي يصعب تصديقها التي سمعتها. تمكنت آشا من الإحساس بعينَي مينا اللتين تركزتا عليها.

قالت مينا: «كيف تشعرين إزاء كل ذلك؟» كان السؤال أكثر لطفاً ممّا توقعته آشا.

هل أمكنها القول إنها ارتعبت لوجود أناس يعيشون في هذه الأوضاع البائسة في ذلك البلد؟ هل ارتعبت لأن بعض الفتيات الصغيرات لن تتاح لهن الفرصة للالتحاق بالمدرسة لأنهن مشغولات بالقيام بالأعمال المنزلية وهن بعمر الثالثة؟ أو لأن الجميع يعتبرون أن فقدان طفلٍ لرجليه الاثنتين هو أمرٌ عادي؟» قالت آشا: «أعتقد بأن هذه كانت بداية جيدة. ما رأيكِ أنتِ؟».

سألتْ مينا: «أعتقد أنك أحسنتِ بشكلٍ عام. عثرنا على بعض الروايات المهمة في دارافي، وهي روايات نموذجية عن الحياة في هذا الحي. هل فاتكِ أي شيء ترغبين في الحصول عليه في المرة التالية؟».

لم نتحدث مع أي صبي، أو حتى أي رجل. لم أرَ أحداً منهم في واقع الأمر». حدّقت آشا من خلال نافذة السيارة إلى الأرصفة المزدحمة بالناس. «لماذا أرى الشوارع مليئة بالرجال عندما أنظر إلى الخارج، لكن لم أرَ اليوم في دارافي سوى النساء؟».

قالت مينا: «آشا. توجد عندنا هندان، واحدة للأغنياء وأخرى للفقراء، وكذلك توجد هندان، واحدة للرجال وأخرى للنساء. تعرفين أن المنزل هو عالم المرأة واختصاصها، وهي التي تهتم بالأسرة، وتشرف على الخدم. أما الرجل فله العالم الذي يعمل فيه، ويأكل في المطاعم. هذا هو السبب الذي يجعل المرأة تشعر بانتمائها إلى الأقلية عندما تسير في الشوارع. الرجال هم الذين يخرجون ويتجولون. إنهم يعمدون في بعض الأحيان إلى مضايقة النساء اللواتي يتجاسرن على الخروج».

عادت آشا لتتذكّر الرجال الذين ينطلقون بالصفير والمعاكسة، والذين تلاقيهم في الشوارع في بعض الأحيان، وهم الذين يجعلونها تفكّر في استخدام حركات الدفاع عن النفس التي تعلمتها في إحدى ورش العمل في الجامعة.

يُضاف إلى ذلك إن هذا ليس مجرد مفهوم فقط، بل واقعٌ على الأرض. إننا أقلية في هذا البلد.» تعلمين أن نسبة الولادات ليست دقيقة في الهند. هناك حوالى تسعمئة وخمسين من الفتيات يولدن مقابل ألف من الصبيان». حدّقت مينا أمامها مباشرة، وأضافت: «يبدو أن أمّنا الهند لا تحب كل أولادها بصورةٍ متساوية».

42

ندم واحدٌ فقط

مومباي، الهند - 2004

جاسو

استيقظ جاسو في الصباح متعباً حتى قبل أن يبدأ يومه، وهو الذي سبق له أن استيقظ في الليلة الفائتة مرتعباً، وهبّ جالساً في السرير، ثمّ مدّ ذراعيه للإمساك بذلك الرفش الخيالي الذي يختفي على الدوام عندما يفتح عينيه. استيقظ لاهثاً، وتسارعت نبضات قلبه، بينما تبلّل وجهه وصدره بالعرق. وضعت كافيتا قطعة قماشٍ باردة على جبهته وحاولت طمأنته كي يعود إلى النوم. لكن المحاولات التي بذلتها، أو التي بذلها هوَ، لم تكن كافية لإعادته إلى النوم، وهكذا سيتعيّن عليه زيارة المعبد في ذلك اليوم قبل الذهاب إلى المصنع.

ركض نحو القطار، وقفز صاعداً إليه كعادته عندما يبدأ بالتحرك. أما في ذلك الصباح بالذات فقد شعر بتقدمه في السن، وخشي للحظة من إمكانية سقوطه من الدرجة السفلى من درجات القطار. صعُب عليه التصديق بأنه كان يصعد إلى القطار بهذه الطريقة في كل يوم تقريباً منذ وصوله إلى مومباي قبل أربعة عشر عاماً. جفل جاسو عندما تذكّر مدى ضآلة معرفته في ذلك الوقت بطريقة العيش، والصعوبات التي كانت تنتظره في هذه المدينة. كان يرى نفسه أحياناً في وجوه الواصلين الجدد إلى مومباي، وكان يرى الرجال الذين يرتدون الملابس الريفية، والذين يدخلون إلى معمل النسيج في كل يوم طالبين الحصول على وظيفة. أملت عليه وظيفته بصفته مشرفاً على مجموعة من العمال أن يصدّ عدداً كبيراً من طالبي الوظائف مع علمه أن قراره هذا يعني أن عائلات كثيرة لن تجد ما تأكله في تلك الليلة. كان جاسو يدرك عندما يتطلع في أعين أولئك الرجال الضغوط التي يواجهونها والمخاوف التي يقاسونها. يعرف جاسو أنهم أتوا إلى هذه المدينة كما أتى هو، أي مع توقع أن تجلب لهم مبالغ كبيرة من المال، وتؤمن لهم سعة العيش، لكنهم وجدوا أشياء مختلفة تماماً.

ظهر أحد الشبان في الأسبوع الفائت في الباب الخلفي للمصنع مرتدياً قميصاً رثًّا، وكان حافي القدمين. وقف وراء هذا الشاب أربعة أطفال، وزوجة حامل. أبلغ الرجل جاسو أن أسرته من دون مأوى، لكن الرجل كاد أن ينهار عندما أبلغه جاسو بأنه لا توجد أي وظائف خالية في المعمل. قال الرجل متوسلاً جاسو بصوتٍ هادئ كي لا تسمع أسرته مدى يأسه للحصول على وظيفة: «أرجوك يا سيدي، أرجوك. يمكنني القيام بأي شيء تحتاجه، أي شيء. أتريدني أن أكنس الأرض؟ أو أن أنظف الحمّامات؟» رفع الرجل راحتيه على مستوى وجهه وكأنه يصلي. كان جاسو يتمنى لو أن بإمكانه إعطاء وظيفة للرجل، لكنه تمتع بصلاحيات قليلة في هذه الأمور، حتى ولو كان مشرفاً على مجموعة من العمال. ناول جاسو الرجل خمسين روبية، وقال له أن يأتي في الشهر التالي. يتألم جاسو عندما يرى هؤلاء الرجال، لكنه

يشعر بالارتياح لأنه تجنّب مصيرهم. حصل جاسو على وظيفة محترمة بعد مضي خمس عشرة سنة على قدومه إلى هذه المدينة الغريبة عنه، أي أنه حصل على مدخولٍ ثابت، ومنزلٍ لائق، لكنه لم يصل إلى هذا الوضع من لا شيء، بل من العمل المضني، لكنه كان يعرف كذلك أن قدراً كبيراً من الفضل في ذلك يعود إلى الحظ.

حدثت أشياء عديدة طيلة هذه المدة التي كان يُمكن للأمور أن تتجه فيها نحو مصيرٍ سيئ، فالإصابة التي عانى منها منذ سنواتٍ عدة كان من الممكن أن تكون أسوأ بكثير. كان من الممكن أن يفقد يداً أو قدماً، أي مثل ما حدث مع كثيرين آخرين، وكان من الممكن أن يضطر إلى التسوّل في الشوارع مع ذوي العاهات الآخرين. لكن في الفترة التي عجز فيها عن العمل كاد الضياع أن يحيق به. كان من الممكن كذلك أن يبدّد مال الأسرة، وحتى حياته، لولا كافيتا. اتضح لدى جاسو على مدى كل تلك السنين بأن الفضل في جمع الثروة التي كسبوها، وحتى في حياته، يعود إليها: إلى قوتها، وحبّها، وثقتها به. كان يعرف أنهما لو أنجبا عدداً أكبر من الأطفال، لكان انتهى إلى المصير الذي لاقاه ذلك الرجل الذي يرتدي قميصاً رثّا، والذي يسعى بيأس للحصول على أي وظيفة مقابل روبيات قليلة. لكن، وبطبيعة الحال، لو أنهما رُزقا بأطفالٍ أكثر لما كان مضطراً إلى وضع كل آماله في فيجاي لوحده، والذي تحوّل إلى حياة المجرم. استعرض جاسو كل الخيارت التي اتخذها مع زوجته منذ ولادة فيجاي، وكانت معظم هذه الخيارات لفائدة ابنهما، لكنه لا يستطيع تذكّر خيارٍ واحد لم يتخذه لصالحه. فعل جاسو كل ما يعتقد أنه واجبٌ عليه ليفعله بصفته والداً، لكن تبيّن أن فيجايٍ كان خيبة أملٍ شديدة للأسرة. كان جاسو يعتقد دائماً أنه يعرف ما هو الأفضل لأسرته، لكن التقدّم في السن وتجارب الحياة خذلاه.

ترجّل جاسو من القطار عند محطة فيكرولي، وسار نحو معبدٍ صغير لا يبعد كثيراً عن المحطة، وهو الذي اعتاد أن يقصد المعبد بعد كل كابوس كان يتعرض له، ومؤخراً بدأ يقصده أكثر من مرة في الأسبوع. كان المعبد متواضعاً، ويبدو من الخارج مثل أي مبنى آخر في الحي. كان يترك صندالاه في الخارج، ويسير بمحاذاة البركة الرخامية البيضاء في المدخل. كان يركع على الأرض ويغمض عينيه، لكن ذهنه كان يعود على الفور إلى ذلك القرار الذي اتخذه ونَدِم عليه، أي في تلك الليلة الرهيبة التي أنجبت فيها كافيتا ولدهما الأول. اتخذ ذلك القرار في فترة خاطفة لا تتجاوز الثواني القليلة، لكن هذا القرار الرهيب لا زال يلاحقه حتى بعد مرور عشرين عاماً. يتذكر جاسو بأنه حمل تلك الطفلة المرتعشة بيديه، وأنه سمع صراخ كافيتا أثناء ابتعاده عنها. قام جاسو بعد ذلك بتسليم الطفلة إلى ابن عمه الذي علم منه في ما بعد بأنه تخلص منها بسرعة. جلس جاسو في تلك الأثناء على الأرض خارج الكوخ وهو يدخّن وينتظر.

لكن عندما رأى ابن عمّه عائداً من جهة الغابة حاملاً رفشاً بيده، علم بأن الأمر قد انتهى. التقت نظراتهما للحظةٍ وجيزة فقط، وسيطر عليهما إدراكٌ مشترك ورهيب. لم يعرف جاسو المكان الذي دُفنت فيه الطفلة، لكنه كان يعرف أن ابن عمّه لم يقل له لأنه اعتقد أنه لا يكترث للأمر. أما الواقع فهو أن جاسو لم يسأل عن المكان لأنه لم يحتمل أن يعرف. فعل جاسو في ذلك الوقت ما هو متوقّع منه، أي ما فعله أبناء أعمامه، وما فعله أخوته. لم يفكّر جاسو كثيراً في ما إذا كان ما فعله خياراً إلا حين رأى ابن عمه عائداً حاملاً الرفش بيده. فهِم ما جرى تماماً في تلك اللحظة.

لم يعترف جاسو على مدى سنواتٍ عدة بأن ما فعله كان خاطئاً، لكن مضى زمنٌ طويل قبل أن يتمكن من النظر مجدداً إلى عينَي كافيتا المليئتين بالأسى. لكن الله لوحده جنّبه ارتكاب الخطيئة ذاتها مجدداً مع الطفلة الثانية. شعر جاسو بالارتياح عندما أبلغته القابلة بأن الطفلة ماتت أثناء نومها، وذلك

بسبب ضعفها الذي لم يسمح لها بتجاوز ليلتها الأولى في هذا العالم. لكن ما حدث لم ينجح في تقليص عمق الأسى الذي شعرت به كافيتا. أما جاسو فلم يمتلك القوة للدفاع عن زوجته أمام الانتقادات المستمرة التي كانت توجّهها أسرته. قال والداه إن إنجابها ابنتين يعني أنها ارتكبت خطيئة في حياتها السابقة. أراد والده أن يتخلّص منها لكي يحصل على زوجة جديدة، كما أرغماه على إجراء صورة صوتية لزوجته في حملها الثالث، وأعطياه المال لإجراء عملية إجهاض على الفور إذا كان ذلك ضرورياً. أدرك جاسو في ذلك الوقت بأنهما سوف يتركان منزل والديه، حتى ولو كان ذلك يعني مغادرة دهانو، بغض النظر عن المخاطر المترافقة مع هذه الخطوة. لم يرغب جاسو في البداية أن يضطر إلى الاختيار بين ولائه لوالديه وحماية زوجته، لكنهما لم يتركا له أي خيارٍ آخر. تحسّنت الأمور بعد ولادة فيجاي، إلا أنه لم يعد ينظر إليهما بالطريقة ذاتها. لكن جاسو، وحتى عندما كان يعود إلى القرية للزيارة، عجز عن النظر إلى ابن عمه من دون أن يتخيّله وهو يمشي حاملاً ذلك الرفش بيده.

لم يتحدث هو وكافيتا في تلك الليلة حتى ولا مرةً واحدة. كان يشعر بالفخر والخجل الشديد. لكن جاسو كان يعرف عندما يحدّق إلى عينَي زوجته، وربما إلى عينَي السيّد كذلك، بأنه وحشٌ بسبب ما فعله. أمضى جاسو قدراً كبيراً من حياته محاولاً التكفير عمّا حدث في تلك الليلة، ولكي يُظهر لكافيتا بأن بمقدوره أن يكون رجلاً صالحاً، وليبرهن للسيّد بأنه جديرٌ بأسرته. لكنه أدرك جيّدًا أنه لا يستطيع محو الخطيئة التي ارتكبها، إلا أنه فعل كل ما بوسعه لجعلها جزءاً من الماضي، وبناء مستقبلٍ جديد يشتمل على مدينة جديدة، ومنزلٍ جديد، وعملٍ جديد. أعطته كل هذه الأمور قدراً من الفخر، لكنها عجزت عن محو الشعور بالذنب الذي أثقل كاهله. توقفت الكوابيس لفترةٍ من الزمن، لسنواتٍ عدّة في الواقع، أي إلى أن بدأ كل شيء يسير على ما يرام. استمر ذلك إلى أن حلّت تلك الليلة عندما وصلا إلى المنزل ليجدا الشرطة داخله.

بدأت الكوابيس مجدداً وساءت أكثر منذ المتاعب التي واجهها فيجاي، ومع إدراك جاسو بأن ابنه، الذي كان مصدره الرئيس للشعور بالفخر، سينتهي إلى أن يكون خيبة الأمل في حياته.

43

الطريق البحري

مومباي، الهند - 2004

آشا

سمعت آشا أصوات الحمائم الرابضة خارج نافذتها، واستدارت لترى أنوار الصباح المتلألئة من وراء الستائر القطنية السميكة. استدارت، وأحنت ظهرها إلى آخر مدى وأصدرت أنةً. لكن بالرغم من ضجيج مكيّف الهواء فقد تمكنت من سماع جدّتها وهي تنثر البذور الخاصة بالطيور على الشرفة، وهو الأمر الذي تفعله في كل يوم. قالت الجدة إن تلك الحمائم، وبالإضافة إلى كونها مخلوقاتٍ لها قيمتها، كانت أخلص زوّارها، وكانت تبقى برفقتها في كل صباح منذ حوالى خمسين سنة التي عاشت فيها في هذا المنزل، أي منذ أن تزوجت جدّها، وأتت لتعيش فيه مع والديه.

تحدّثت داديما عن والدة زوجها الراحلة، وقالت إنها كانت روحاً رقيقة، وامرأة متدينة معتادةً على زيارة المعبد القريب في صباح كل يوم. أدى هذا التواضع، وطبيعتها الرقيقة، إلى جعل التعايش معها أسهل بكثير ممّا كان الأمر عليه مع معظم الحموات، كما أنها تُرجع إليه الفضل في سهولة السنوات الأولى لزواجها. لكن بعد وفاة والدَي زوجها ورثت الجدة راية الزعامة النسائية عند آل ثاكر. عرفت آشا هذه المعلومات عن تاريخ العائلة من جدّتها في اليوم الرابع للنزهة الصباحية المبكرة التي يقومان بها معاً. كان هذا الإغراء الذي تمثله هذه الأحاديث هي التي شكّلت دافعاً لآشا لمغادرة السرير في مثل هذه الساعة المبكرة.

حدث في اليوم الأول لهذه النزهات، أي قبل ذلك بأسبوعين تقريباً، أن استيقظت باكراً بسبب أصوات المفرقعات التي أفسدت عليها نومها في الليلة السابقة. أما في ذلك الصباح، أي عندما سارت بعينَين مرهقتَين نحو غرفة المعيشة، فقد فوجئت عندما رأت الجدة جالسة إلى المائدة وتشرب الشاي. «صباح الخير يا ابنتي. أتحبين أن تنضمي إليّ في جولتي الصباحية في هذا اليوم؟ النسيم عليل في هذا الصباح». لم يكن لدى آشا أي شيء تفعله، وهكذا انتعلت حذاءها الرياضي، ووضعت على رأسها قبعة كرة القاعدة، ثم مشت مع جدتها في الطريق البحري، وهو الطريق الخشبي الذي يحدّد ميناء مومباي. لم يكن المشي سريعاً، وذلك لأن داديما كانت تمشي متهاديةً ببطء مرتديةً ثوبها الطويل، ومنتعلة صندالها، وهكذا استغرقهما الوصول إلى نقطة ناريمان نحو ساعة من الزمن.

أشارت الجدة في اليوم الأول إلى واجهة متجر صغيرة باللون الأبيض مزودةٍ بمظلةٍ خضراء. «أترين ذلك المتجر لبيع المثلجات؟ إنه المتجر الذي اعتاد جدّك أخذ والدك وأخوته إليه في أيام الآحاد. كان تلك عادتهم الثابتة في الأيام التي لا يذهب فيها إلى المستشفى». استمرت الجدة في السير والقرقعة

بصندالها. كان الصندال يصطدم بكعبَي قدميها أثناء سيرهما. وكانت آشا ترفع يدها كل بضع خطوات لتحمي عينيها من ضوء الشمس المنعكس على سطح المياه. «وهناك كانت مدرسة للحضانة حيث كان الأولاد يتعلمون. كانت المدرسة بإدارة راهبة رقيقة تُدعى الأخت كارمن». أشاحتا بنظرهما عن الأشخاص الذين يقضون حاجتهم فوق السور البحري، وعن الأطفال شبه العراة الذين يمدّون أيديهم على أمل الحصول على قطعة نقدية مهما كانت صغيرة.

أقنعت آشا الجدة في اليوم التالي بتجربة الحذاء الرياضي الإضافي الذي تمتلكه، وشاءت الصدف أنهما ينتعلان أحذية بالقياس نفسه. لكن ما إن اقتنعت الجدة أن قدميها مرتاحتان تماماً في ذلك الحذاء حتى وافقت على أخذه واستخدامه، لكنها رفضت مع ذلك وضع قبعة كرة القاعدة التي قدمتها آشا لها على رأسها، وفضّلت تغطية رأسها بكل تواضع بطرف ثوبها، بالرغم من أن هذا لا يوفّر لها سوى حماية ضئيلة من أشعة الشمس. أشارت الجدة إلى أنه بالإمكان حجب الحذاء تحت ثوبها الطويل، أما إذا رآها الناس مع قبعةٍ على رأسها فسوف يعتقدون، وعلى وجه التأكيد، بأنها فقدت صوابها. شرحت الجدة أن الناس تتطلع دائماً على إشاراتٍ تصدر عن سيدة بمثل سنّها، لكنها لا ترغب في إعطائهم أي دليلٍ إضافي بشأنها. طرحت الجدة خلال نزهة ذلك اليوم، واليوم الذي تلاه أسئلة حول حياتها في أميركا. تحدثت آشا مطولاً عن جامعتها، وصفوفها، والصحيفة، وصديقاتها. لم تكن آشا متأكدة من مقدار ما فهمته جدّتها من حديثها، وذلك بالنظر إلى فروقات اللغة، والتقاليد، وفرق الأجيال بينهما، كما أنها كانت تومئ كثيراً من دون أن تطرح أي أسئلة. لكنها أدركت أن جدتها فهمت كل شيء في وقتٍ لاحق عندما أشارت إلى بعض التفاصيل الصغيرة.

روت الجدّة في اليوم الرابع وأثناء سيرهما بين الباعة المتجولين صباحاً، والذين عرضوا أكوازٍ الذرة المشوية في الشوارع، وأولئك الذين يقطعون ثمار جوز الهند بسكاكين طويلة النصل، قصةً عن حماتها. تحدّثت عن تلك المرأة المسنة التي أحضرتها عندما كانت عروساً جديدة إلى المطبخ كي تعرّفها على كيفية تحضير الباذنجان المشوي الحار بالطريقة التي يحبّها ابنها. قالت الجدّة: «كانت تلك اللحظة صعبة بالنسبة إليّ. كنت ودّعت أهلي للتو، لكنها حاولت أن تشرح لي كيفية تحضير الباذنجان الحار. تحدثت معي وكأنني لا أعرف! لكني اعتدت على تحضير هذا الطعام مع أمي في الحي على مدى سنواتٍ عديدة».

«قالت آشا: «إذاً، ماذا حدث بعد ذلك؟.

ردّت مقهقهة: «تركتُ المطبخ، وجلست في غرفتنا لساعاتٍ عدة. كنت فتاة عنيدة في ذلك الوقت. لكنها لحقت بي بعد قليل، وطلبت مني الحضور إلى المطبخ كي أريها كيف أقوم بتحضير الباذنجان المشوي الحار. قالت لي إنه مطبخي، وإنني حرة لأطبخ كما أشاء. هذه هي طبيعتها الكريمة تجاه الآخرين. لم تكن أنانية». فوجئت آشا لسماع جدّتها وهي تتكلم بمثل هذا الشغف والاحترام تجاه حماتها، وذلك بعد سماعها نساءً كثيرات وهن يشتكين بشأن هذه العلاقة.

قالت الجدة بعد أن مرّا بمحاذاة مبنى ذي واجهة بيضاء، ويقع على مسافة بلوكاتٍ قليلة من المنزل: «هذا هو المعبد الذي اعتادت الذهاب إليه في كل يوم. تعالي. سأريك». لم يسبق لآشا أن دخلت المعبد من قبل، ولهذا تبعت جدّتها، وخلعت حذاءها الرياضي خارج المدخل. شاهدت في الداخل غرفة عادية تحتوي على عددٍ قليل من التماثيل، وقفت داديما لحظاتٍ قليلة أمام أحد التماثيل برأس فيل، وكانت مغمضة العينين، بينما ضمّت راحتَي يديها معاً.

همست الجدة: «هذا هو غانيش، السيّد الذي يزيل العقبات». تقدمت بعدٍ ذلك، وحرّكت راحتها اليمنى فوق الصحن الفولاذي الذي ينبعث منه لهبٌ صغير، ثم أخذت حفنةً من الفستق والسكر، وقدّمت هذه الحفنة لآشا.

قدّمت الجدة شرحاً أكثر بعد خروجهما: «اعتادت عائلتنا ممارسة طقوس عباداتنا في المنزل، ونحن لا نذهب إلى المعبد إلا في المناسبات الكبرى، وهو يدعى معبد ماهالاكسمي. أنصحك أن تزوريه وأنتِ هنا. إنه معبدٌ جميل وكبير جداً، ويأتي الناس لزيارته من كل أنحاء مومباي. لكني بدأت بالمجيء إلى هذا المعبد الصغير مع حماتي بعد زواجي، وانتقالي إلى هذا الحي. يوجد معبدٌ صغير كهذا في كل حي صغير، وهكذا يتوقف الناس للحظاتٍ قليلة عند مرورهم من هنا في الصباح، أو عندما يكونون في طريقهم إلى منازلهم. اكتشفت أن هذه العادة تجلب قدراً من الطمأنينة إلى يومي».

تجرأت آشا على سؤالها في اليوم الخامس: «داديما؟ أرجوكِ أن لا تعتبري سؤالي سخيفاً. لكن كيف تعلمتِ اللغة الإنجليزية؟ إن معظم الناس الذين هم من عمرك في المبنى الذي نسكنه لا يجيدون التكلم بأكثر من كلماتٍ قليلة بهذه اللغة».

قهقهت الجدة بهدوء، وأجابت مبتسمةً بلهجة حنينٍ إلى الماضي: «كان ذلك بفضل والدي الذي أحبّ اللغة الإنجليزية، وهو الذي أصرّ عليّ بأخذ دروسٍ في هذه اللغة، وذلك عندما كان الجميع يلقون باللائمة على البريطانيين من ناحية المشاكل التي تعانيها الهند. كان والدي رجلاً تقدمياً، وأرادني أن أنهي دراستي الجامعية قبل أن يسمح لأي شاب بالتقدّم لطلب الزواج مني. كان بابا سابقاً لعصره، وهو الذي عرف قيمة المرأة بالفعل، وكان يعامل والدتي كما يعامل الذهب».

مضى الأمر على هذا المنوال، واستمرت في رواية قصصها على دفعاتٍ صغيرة، وكانت تعود مع مضي الأيام بذكرياتها إلى أيامٍ أبعد في الماضي، كما تعلّمت كيفية المحافظة على توازن دقيق بين أن تكون مستمعة جيدة، وأن تطرحَ ما يكفي من الأسئلة بشكلٍ تستمر معه الجدة بالحديث، ومن دون إعاقة، عن تدفق سيل ذكرياتها. لكن بعد مرور أسبوعٍ واحد من هذه النزهات الصباحية بدأت داديما بالتحدّث عن هجرة أسرتها خلال فترة تقسيم البلادً بين الهند وباكستان، والتي رافقت استقلالها عن الإمبراطورية البريطانية في العام 1947.

كانت أسرة داديما تعيش في كراتشي، عاصمة ولاية السند الهندية التي تقع في شمال البلاد، وكان والدها يملك شركةً كبيرة لتصدير القمح، واعتاد السفر إلى الشرق الأوسط وشرق أفريقيا. امتلكت الأسرة منزلاً جميلاً وسيارتين، ومئات عدة من الآكرات من الأراضي، والتي كانت الجدّة وشقيقتها وأشقائها يلعبون فيها بكل حرية. اضطرت الأسرة في ذلك الوقت إلى ترك كل ما تملكه بالقوة.

أُعلنت كراتشي عاصمةً لباكستان التي أصبحت الجمهورية الإسلامية الجديدة. وعمد البريطانيون في هذه الأثناء إلى رسم خطوطٍ جديدة على خارطة جنوب آسيا من دون أي اعتبار للسكان الذين يعيشون في الجهة التي لا تناسبهم من الحدود. اضطر الناس إلى إغلاق منازلهم، وشركاتهم، واقتلاع أسَرهم من أماكنها للهجرة إلى الجهة التي تناسبهم من الحدود. غادرت عائلة داديما منزلها، مثلما غادرت أسَر هندوسية كثيرة كانت تعيش في كراتشي إلى مومباي. لكن والدها بقي في كراتشي لتصفية أعماله، وإنقاذ ما أمكنه من ممتلكاته، وهكذا سافرت داديما مع والدتها وأخوتها عن طريق البحر إلى مومباي. كانت العائلة محظوظة لأنها تمكنت من دفع أجور السفر بحراً، وذلك لأن الذين اضطروا إلى السفر بالحافلات والقطارات ذاقوا الأمرّين من الاشتباكات الدموية التي جرت مع المسافرين في الاتجاه

المعاكس، والذين ينتمون إلى دينٍ مختلف.

شرحت داديما الوضع بتفصيلٍ أكبر: «كان شقيقي في الرابعة عشرة من عمره في ذلك الوقت، أي أنه كان أصغر مني بخمس سنوات، لكنه كان أصغر صبي في الأسرة، وهكذا اضطر إلى لعب دور الوالد، واهتم بنا خلال الرحلة. وضعونا عندما اقتربت السفينة من الميناء في قاربٍ صغير لأخذنا إلى الشاطئ. كنا جميعاً في القارب مع والدتي وأربعة أولاد. طاف بنا هذا القارب حولَ أسوار تلك المدينة التي لا نعرف فيها أي شخص. وقف شقيقي فجأة، وبدأ بالصراخ والتلويح نحو السفينة. قام شقيقي بتعداد حقائبنا التي أحضرنا عشراً منها، لكنه وجد تسعة حقائب فقط على متن القارب. أراد العودة إلى السفينة وإحضار آخر حقيبة، وكان عليه أن يذهب بنفسه.

هزّت الجدة رأسها أثناء استعادتها تلك الذكريات: «كان ذلك كل ما بقي لنا في هذا العالم، أي تلك الحقائب. ارتعبت والدتي كثيراً، ولم ترغب أن يتوجّه شقيقي إلى السفينة. كان الظلام مخيماً، ولم نكن متأكدين من أنه سيعثر على الحقيبة، أو حتى من تمكّنه من العودة إلينا. لكنه ذهب مع ذلك، وكان في الرابعة عشرة من عمره، ويعرف أن والدي كلّفه لأن يكون رجل الأسرة. بكت والدتي، واستمرت في الصلاة طيلة مدة غيابه عنا. تساءلتُ في ذلك الوقت عمّا يمكن أن يحدث لنا لو أنه لم يعد، وعلى الأخص لأننا تركنا والدنا في كراتشي، و...».

سألت آشا: «ماذا حدث بعد ذلك؟».

ردّت وهي تشير بيدها نحو الماء: «آه. تمكّن شقيقي من العودة وهو يرتجف قليلاً، لكنه عثر على الحقيبة الأخيرة. تمكّنا بعد ذلك من الوصول إلى الميناء بطبيعة الحال».

«ماذا بشأن والدك؟»».

ردّت بصوتٍ رقيق: «انضمّ والدي إلينا بعد أسابيع قليلة، وهكذا اجتمع شملنا بعد التقسيم. كنا محظوظين أكثر من كثيرين غيرنا. لكن والدي تغيّر كثيراً بعد مغادرتنا كراتشي. أعتقد بأنه كان يتألم لأنه ترك المدينة التي أحبّها، والشركة التي عمل جاهداً لتأسيسها. تغيّر والدي كثيراً في هذا الوقت». سارا بصمت لما تبقى من الطريق.

أمِلت آشا في ذلك الصباح، وبينما كانت تشد سيور حذائها أن تسمع بعض الأخبار عن ماضيها. كان من النادر أن يتحدث والداها عن ولادتها، أو عملية التبنّي في الهند. أما عندما فَعَلا ذلك، فكانا يكرّران التفاصيل القليلة ذاتها مرةً بعد أخرى. قالا لها إنها أرسلت عند ولادتها إلى دار رعاية أيتام يدعى شانتي. مكثت آشا هناك إلى أن أتمّت السنة من عمرها، وعندها حضر والداها إلى الهند وتبنيّاها، ثمّ اصطحباها إلى كاليفورنيا. كان ذلك كل ما عرفته آشا عن المكان الذي أتت منه. لم تكن آشا متأكدة ما إذا كانت جدّتها ستخبرها أي شيء إضافي، لكنها استجمعت كل شجاعتها للسؤال في ذلك اليوم.

رحّبت بها الجدّة أثناء خروجها إلى غرفة المعيشة، وقالت مبتسمة: «صباح الخير يا ابنتي. إنني مستعدة لمجاراتك في المشي هذا اليوم. تخلّصت اليوم من الألم في ركبتي كلياً».

لاحظت آشا بأن جدّتها تبدو أصغر سناً عندما تبتسم، وهو الأمر الذي يجعلها تنسى في بعض الأحيان أنها برفقة امرأة مسنّة، لكن داديما تحدثت عن أمرٍ يماثل حصول عائلتها على أول ثلاجة في المبنى، وهكذا أدركت آشا مجدداً العناء الذي قاسته تلك المرأة في حياتها.

سألتها آشا بعد أن نزعت الصحن الذي يغطي فنجاناً من الشاي الساخن: «حسناً، إنني مستعدة بدوري. هل هذا لي أنا؟» لم يسبق لآشا أن أحبّت الشاي الهندي من قبل، وهي التي اعتبرته ثقيلاً جداً بمذاقه الحلو. لكن طعم شاي داديما اشتمل على شيء من الهال، وبعض أوراق النعناع الطازجة، وكانت تلك طريقة مثالية لاستقبال اليوم.

كان ذلك صباحاً جميلاً والهواء منعشاً بشكلٍ لا يوصف، بينما هبّت النسائم من فوق سطح المحيط والممر الخشبي المحاذي للشاطئ.

قالت داديما: «ترينَ الهند للمرة الأولى وأنتِ بعمر العشرين يا ابنتي. ما رأيك بها؟» أجابت بنفسها من دون أن تنتظر الجواب، «تعرفين بأن والدك لم يكن أكبر منكِ سناً بكثير عندما هاجر إلى أميركا. كان شاباً في ذلك الحين، ولم يدرك المصاعب التي سوف يواجهها».

قالت آشا: «أعرف. إنه يتحدث دائماً عن الجهد الذي بذله أثناء دراسته الطب، وهو يقول إنني لا أدرس كما يجب».

لم تكن الدراسة صعبة عليه، وهو الذي كان ذكياً على الدوام، حتى أنه كان الأول على طلاب» صفّه في المدرسة، وقائد فريق الكريكيت، وكان يحصل دائماً على أعلى العلامات. كلا، لم أقلق أبداً بهذا الشأن، لأنني كنت أعرف أنه سوف يبلي حسناً في جميع مراحل دراسته. قلقت بشأن الأمور الأخرى، وذلك لأنه لم يكن يعرف أي شخص هناك. كان يشعر بالحنين إلى الوطن، وعلى الأخص لأنه لم يكن باستطاعته الحصول على أي طبخٍ هندي جيد المذاق. يُضاف إلى ذلك أن الناس لم يفهموا لهجته في البداية. كان أساتذته يطلبون منه تكرار إجاباته مرتين وثلاث مرات، وهكذا كان يحسّ بالحرج، ولذلك بدأ بالاستماع إلى أشرطةٍ صوتية كي يتعلم كيفية التكلّم مثل الأميركيين».

حاولت آشا أن تتصوّر والدها أثناء إصغائه إلى الأشرطة الصوتية مكرراً الكلمات لنفسه.

أجل يا ابنتي. كان الأمر صعباً جداً بالنسبة إليه، لكنه كان يخبرنا في البداية عن كل الأمور التي» تحدث معه عندما يتصل بنا، لكنه بدأ بإخبارنا أموراً أقل مع مرور الوقت. أعتقد بأنه لم يرغب في أن يقلقنا بشأنه».

«هل كنتم تقلقون؟».

بالطبع كنا نقلق يا ابنتي! هذا هو العبء المفروض على الأم، والذي تحمله على عاتقها طيلة» حياتها. سأستمر بالقلق على أولادي وأحفادي في كل يوم إلى أن أموت. إنني متأكدة من ذلك، وهو جزءٌ من كوني أماً، ذلك هو قَدَري».

فكّرت آشا في ما سمعته، وبقيت صامتة لفترة.

«قالت داديما: «ماذا يقلقكِ يا ابنتي؟».

كنتً أفكّر في والدتي. أعني أمي الحقيقية. كنتُ أتساءل ما إذا كانت تفكّر بي على الإطلاق، أو إذا» ما كانت تقلق بشأني».

أمسكت داديما يد آشا بإحكام بينما تابعتا المشي، وقالت: «أؤكد لكِ بأنه لا يمر يوم في حياة

«والدتك من دون أن تفكّر بكِ».

«ملأت الدموع عينَي آشا، وقالت: «داديما؟ هل تتذكرين حين كنتُ طفلة صغيرة؟».

«هل أتذكر؟ ماذا حدث لكِ؟ أتعتقدين أنني سيدة مسنّة فقدت عقلها؟ بالطبع أذكر. كان لديك علامة ولادة صغيرة حول كاحلك، وأخرى في منتصف أنفك. أجل. إنها لا تزال هناك». مرّرت إصبعها فوق تلك العلامة، وأضافت: «تعرفين أن تلك العلامة تعني في تقاليدنا بأنك ستكونين عظيمة».

ضحكت آشا عندما قالت ذلك. «حقاً؟ أما في أميركا فإن ذلك يعني بأن تستمري في استخدام المرهم الذي يخفي العلامة».

قالت الجدّة: «أحببتِ كذلك أن تأكلي حلوى الأرز مع الزعفران. تناولنا بعضاً من هذه الحلوى في اليوم الأول لوصولك إلى هنا، واضطررنا إلى تحضير المزيد من هذه الحلوى مرة كل يومين خصيصاً لك! اضطر والدك إلى مجاراتك، وهو الذي اعتاد تناول الطعام الذي يحضّر خصيصاً له، لكن ما إن وصلتِ حتى أصبحتِ مركز الاهتمام». ابتسمت داديما وتابعت: «آه، وكنتِ تنقلبين على بطنكِ، وتتكورين إلى أن تصبحي كرةً صغيرة، وتبقين هكذا حتى الصباح».

قالت آشا بصوتٍ رقيق بينما شعرت بأن دقات قلبها قد زادت: «داديما؟».

«ماذا هناك يا ابنتي».

أنا... كنتُ أفكّر في العثور على والديّ الحقيقيين». شاهدت آشا بعض التصلّب في وجه المرأة المسنّة، كما لمحت تعبيراً غامضاً على وجهها. «إنني أحب والدتي ووالدي أكثر من أي شيء آخر، ولا أريد إيذاءهما، لكن... كان ذلك شعوري منذ وقتٍ طويل، وذلك منذ أن وعيت. أريد أن أعرف مَن يكونون فقط. أريد أن أعرف مزيداً عن نفسي، وأشعر بوجود صندوقٍ صغيرٍ للأسرار لحياتي، وأن أحداً لا يستطيع فتحه لي». أخرجتْ آشا زفيرها وتطلعت نحو البحر.

قالت داديما بعد إحدى فترات الصمت الطويلة: «أفهم ذلك يا ابنتي». صدمت موجة آتية من المحيط السور البحري أثناء كلامها. «هل تحدثتِ مع والديكِ عن هذا الأمر؟».

هزّت آشا رأسها وأجابت: «إنه موضوع حسّاس بالنسبة إلى ماما. إنها لا تفهم الأمر على حقيقته، و... أردت أن أعرف أولاً ما إذا كان الأمر ممكناً. يعيش مليار إنسان في الهند، ثم ماذا لو أنهما لا يرغبان أن أجدَ مَن تخلّيا عني. لم يرغبا في أطفالٍ في ذلك الوقت، فلماذا يريدان رؤيتي الآن؟ يُحتمل أن من الأفضل لي أن لا أبحث عنهما».

توقفت الجدّة عن السير، ثم أحاطت يديها المتجعدتين بوجه آشا. «افعلي إذا شعرت أن الأمر مهم. عيناك مميزتان، وأنتِ كذلك. قدرك أن ترى أشياءً لا يتمكن الآخرون من رؤيتها. هذه هي موهبتك، وتلك هي الكارما الخاصة بك يا ابنتي».

شاطئ شاوباتي

مومباي، الهند - 2004

آشا

إلى أين نحن ذاهبون؟» حاولت آشا أن تبدو هادئة عندما طرحت السؤال الذي كان يدور في» ذهنها منذ أن اتصل بها سانجاي قبل ثلاثة أيام. لكن عندما حدّقت إليه من مقعدها الخلفي، تأكدت من أنها لم تبالغ في تقدير جاذبيته في الليلة التي رأته فيها خلال حفل الزفاف. كان شعره لا زال رطباً كما تمكنت .من كشف رائحة الصابون التي تفوح منه

قال مبتسماً، وكانت عيناه محتجبتَين وراء نظّارته الشمسية: «إنها مفاجأة». قال شيئاً ما للسائق .بعد مرور دقائق قليلة، وما لبثت سيارة الأجرة أن انطلقت

.«قالت آشا بعد أن ساعدها على الخروج من سيارة الأجرة: «حسناً. أنا متفاجئة. أين نحن الآن؟

إننا على شاطئ شاوباتي، وهذا هو وقتي المفضل للمجيء إلى هنا، أي عند مغيب الشمس.» يمكنك أن تري الآن الشواطئ وميدان اللعب، لكن بعد نصف ساعة من الآن سترين الأنوار، وألعاب الكرنفال. أعرف أنها عادية بعض الشيء، لكنني أعتبرها أحد معالم مومباي. لا يمكنك مغادرة المدينة .من دون رؤية شاوباتي». سارا معاً نحو حافة المياه، وكانت صنادلهما تغرقان في الرمال أثناء سيرهما

.«قال سانجاي: «قولي لي كيف يسير المشروع الذي تعملين عليه؟

.«حسناً. أعتقد أن كل شيء على ما يُرام. أجريت أولى مقابلاتي في الأسبوع الماضي»

.«جلس على أحد جانبَي مقعدٍ طويل وقال: «وماذا بعد؟

.«جلست آشا إلى جانبه، ثم تطلعت نحو المياه. «كانت صعبةً بعض الشيء

.«لماذا؟»

بعثرت الرياح شعرها، وما لبثت أن أعادته إلى جهة واحدة. «لا أعرف. اكتشفت بأن الأمر يبعث على الاكتئاب». لم تتحدث آشا عن هذا الموضوع مع أي شخص، ولا حتى مع مينا. «رأيت أولئك الأشخاص، والأوضاع التي يعيشون فيها، وسماع قصصهم... أشعرتني هذه المقابلات بالرعب. جعلتني .«أشعر بالذنب

«بسبب ماذا؟».

«لأنني أعيش نوعاً آخر من الحياة، أي حياةً أفضل. لكن هؤلاء الأولاد فتحوا أعينهم على هذا النوع من الحياة. تعرف ذلك. إنهم لم يطلبوا هذه الحياة، ويصعب عليهم العثور على أملٍ لهم».

«أومأ سانجاي: «أجل. لكن لا زال لديك قصةً لترويها، أليس كذلك؟».

«لا أعرف. لا أعتقد أن أسئلتي كانت مناسبة جداً. فقدتُ رباطة جأشي بعد المقابلات الأولى. رأيت مأساة في كل مكانٍ تطلعتُ فيه. لكن لا بد أن العاملين في صحيفة التايمز ظنّوا بأني من الهواة. يُفترض أن يتمتع الصحافيون برباطة الجأش، وهو الأمر الذي لا أتمتع به».

«يُحتمل ذلك. لكن ذلك ليس كل شيءٍ عنك. أليس كذلك؟ ألستِ صحفية؟».

«...كلا، لكن».

قال مقاطعاً: «إذاً، يُحتمل أنك تحتاجين إلى النظر إلى الأمر من زاوية مختلفة تماماً». نزع نظّارته وحدّق إلى عينيها. شعرت برجفةٍ في معدتها عندما لمس خدّها. انحنى نحوها، وأغمضت عينيها قبل أن تشعر بشفتيه تلامسان أذنيها بنعومة. همس لها: «أنتِ جميلة». لكن عندما فتحت عينيها رأت سانجاي محدِّقاً إلى المياه، وبالوهج البرتقالي والأحمر لأشعة الشمس التي بدأت بالنزول إلى ما دون الأفق.

جميلة؟ غروب الشمس؟ عينيها؟ هي؟ لكن الطريقة التي قالها جعلتها تؤمن بأن كلماته صادقة. امتلأ ذهنها بمليون سؤال، لكن سؤاله سبقها.

«هل أنتِ جائعة؟».

أومأت بعد أن عجزت عن الكلام.

سارا نحو أحد أكشاك الأطعمة السريعة القريبة من الشاطئ، والتي تعج بالحركة عندما تحلّ الظلمة. أحضر سانجاي طبقَين من الشطائر السريعة. تناولا الطعام واقفَين، وشاهدا التحوّل الذي تمر به شاوباتي. كان الدولاب الحديدي الدوار مضاءً، وما لبث أن بدأ بالدوران، كما بدأ أحد سحرة الأفاعي باجتذاب جمهرةٍ من الناس بموسيقى الناي، كما لاعَبَ رجلٌ آخر أحد القرود، ودفعه إلى الرقص. وضع سانجاي ذراعه وراء ظهرها أثناء تجوالهما بين مختلف العروض. أما عندما وصلا إلى الدولاب الدوّار، «فقد نظر إليها وقال: «حسناً؟».

بالطبع. لمَ لا؟» صعدا إلى أحد المقاعد، وبدأ الدولاب بالتحرك، وما لبثت أن رأت الأنوار المتناثرة، ومناظر مومباي المنتشرة تحتها.

وصلا إلى أعلى الدولاب، وقال سانجاي: «إذاً، هل أحببتِ مومباي؟ ما رأيك بزيارتك الأولى إلى هذه المدينة؟ لا بد من أنك وجدتِها مختلفة جداً، علماً بأنكِ ولدتِ ونشأتِ في الولايات المتحدة».

قالت آشا: «وُلدتُ هنا في الواقع». كانت تعرف أن هذه المعلومة ليست ضرورية في حديثهما، لكنها أرادت أن تقولها.

«حقاً؟ هل ولدتِ هنا في مومباي؟».

حسناً. أنا لا أعرف في الواقع. تبنّاني والداي من ميتم يقع هنا في مومباي. لكني لا أعرف والديّ» الحقيقيين». انتظرت قليلاً لتعرف رد فعله.

«هل تشعرين بالفضول لمعرفتهما؟».

«أجل. كلا. لا أعرف». أشاحت بنظرها عن عينيه النفّاذتين، وراقبت الأولاد الذين يركبون أفراساً مزيّنة، والذين رأتهم على الأرض تحتها. «كنتُ فضولية في صغري، ثم حاولتُ طرد الأمر من ذهني. اعتبرت ذلك حلماً طفولياً يمكنني التخلص منه. لكن وجودي هنا في الهند أعاد ذلك الحلم إليّ مجدداً. تدور في رأسي أسئلة كثيرة مثل: كيف تبدو والدتي؟ مَن هو والدي؟ لماذا تخليّا عني؟ هل يفكران بي؟» توقفت آشا بعد أن شعرت بأنها قد تبدو غير منطقية قليلاً. «على أي حال...» هزّت رأسها وركّزت على الفرس البيضاء المزيّنة بأكاليل الورود وبالألوان الزهرية اللامعة.

وضع سانجاي يده فوق يدها: «لا أعتقد أنه أمرٌ طفولي. أعتقد بأنه غريزة طبيعية جداً، أي أن نعرف من أين أتينا».

بقيت صامتة وشعرت أنها قالت أكثر ممّا ينبغي قوله. لكن عندما توقف الدولاب الدوّار عن الحركة، شعرت على الفور بأنها محبطة ومرتاحة في الوقت ذاته لأن حديثهما وصل إلى خاتمة طبيعية.

«قال سانجاي: «أتريدين أن نتناول طعام العشاء؟ أعرف مطعماً عظيماً للبيتزا في مكانٍ قريب».

«ردّت آشا ضاحكة: «بيتزا. أتظن أن الفتاة الأميركية لا تأكل إلا البيتزا؟».

«حسناً، كلا. كنت فقط...» بدا بأن سانجاي متوترٌ للمرة الأولى.

«قالت آشا: «أين تأكل مع أصدقائك عادةً؟ خذني إلى هناك».

«حسناً إذاً». أوقف سانجاي سيارة أجرة في الطريق البحري. «سنقصد مطعماً فخماً».

45

مجرد كذبة إضافية

مومباي، الهند - 2004

كريشنان

أعاد كريشنان تسوية حقيبته على كتفه، واستدار ليسير بين الأبواب الزجاجية الانزلاقية التي تمثّل آخر حاجزٍ يفصله عن المدينة التي وُلد فيها. أغمض عينيه، وأخذ نَفَساً عميقاً من هواء مومباي الذي بقي كما يتذكّره. رأى آشا من وراء الحواجز المعدنية، وكانت الشابة الوحيدة بين المستقبِلين التي ترتدي الزي الغربي ومحاطة بالرجال.

بابا!» لوّحت آشا نحوه بكل الحماسة التي اعتادت إظهارها عندما كانت فتاة صغيرة، وتنتظره» عند مدخل المنزل.

مرحباً يا حبيبتي!» أسقط حقيبته على الأرض لمعانقتها».

«خاطبه الشاب الذي وقف إلى جانبها: «مرحباً يا عمي».

«بابا، أتذكر نيميش، ابن العم بانكاج؟».

قال كريشنان: «أجل يا ابنتي بالطبع. أنا مسرور لرؤيتك مجدداً». لكنه بالكاد تذكّر ابن أخيه في الواقع، أي كما كان الحال مع بقية المستقبلين، وهكذا كان ممتناً لأن آشا كانت هناك للتعريف به.

كيف كانت رحلتك؟» شبكت آشا ذراعها بذراعه أثناء سيرهما نحو السيارة».

أجاب كريشنان: «كانت على ما يرام، لكنها طويلة». لاحظ بأنه منذ الثماني سنوات التي مرّت على آخر رحلة قام بها إلى الهند، صغُرت حجوم المقاعد، وزادت أعداد الركاب، لكن توقّع لقاء آشا ساعده على تحمّل تعب الرحلة الطويلة.

قالت آشا في صباح اليوم التالي وعلى مائدة الفطور: «دعنا نخرج اليوم يا بابا لتناول طعام الغداء. أريد أخذكَ إلى مكانٍ أحبّه حقاً».

ابتسم لها كريشنان من فوق كوب الشاي الذي يتناوله، والذي تصاعد البخار منه، وهو الشاي الألذ والذي اعتاد أن يشربه في منزل والدته. «ماذا تقولين؟ لم يمضِ على وجودك في هذه المدينة أكثر من أشهرٍ قليلة، وها أنتِ خبيرة بها؟».

ردّت مبتسمة بدورها: «حسناً. يُحتمل بأنني لست خبيرة بها إلى هذا الحد، لكنها تغيّرت كثيراً منذ آخر زيارة لك. يمكنني اصطحابك إلى مكانٍ أو اثنين».

كانت آشا محقةً بشأن التغيّرات التي حدثت في المدينة. دُهش كريشنان في طريق العودة من المطار بالتطور العمراني الذي شهدته كل أنحاء المدينة. ظهرت مجمّعات سكنية بأكملها في أماكن كانت خالية من قبل، كما ظهرت الماركات الأميركية في كل مكان: اللوحات الإعلانية لشركات كوكاكولا، ومطاعم ماكدونالدز، وميريل لينش. كانت المظاهر الإيجابية للتحديث جليةً للعيان، وكذلك كانت التأثيرات السلبية. لاحظ كريشنان عندما تطلع من الشرفة في ذلك الصباح أن منظر الشاطئ الذي كان محبباً لديه قد اختفى خلف ستارٍ من التلوث.

قال كريشنان مقهقهاً: «حسناً. أنا تحت تصرفكِ».

ردّت والدته فور دخولها الغرفة: «إنك رجلٌ حكيم، وابنتك قوية مثلك أنت، وربما أقوى منك». وقفت الوالدة خلف آشا، ووضعت يديها على كتفَي الفتاة.

شعر كريشنان باختناق صوته لدى رؤيته والدته مع ابنته: «أجل. ثقي بأنني أعرف، وإلا لماذا برأيك رفضتْ الالتحاق بكلية الطب حتى الآن؟».

قالت والدته: «آه يا عزيزي. لماذا لا تتخلى عن هذه الفكرة بعد أن اختارت مهنتها. أريدك أن ترى العمل الرائع الذي تقوم به في الصحيفة».

«سآخذك إلى هناك بعد الغداء يا بابا».

كان المطعم الذي اختارته آشا يقدّم الأطعمة التقليدية التي تقدّم في شوارع مناطق جنوب الهند: الحلوى التي تصل إلى الطاولة رقيقة وساخنة، وكذلك طبق الشيش برك الذي يقدّم مع شوربة العدس الحارة. كان ذلك المكان يشبه أي مطعم رخيص آخر في الحي. لاحظ كريشنان، بينما كانا جالسين في ذلك الكشك الصغير ذي الأرضية المغطاة بالفَينيل، أنهما الغريبان الوحيدان في ذلك المكان. فوجئ كريشنان، وأحسّ بالسرور لأن ابنته شعرت بالارتياح.

قالت آشا بعد أن أشارت إلى طبق شوربة العدس: «إنه شهي، لكنه حار جداً وبحاجة إلى بعض اللبن الزبادي». طلبت آشا من النادل الذي جاء مسرعاً نحوهما اللبن بلغة هندية متكسرة.

إذاً جاءتك فرصة الذهاب إلى المستشفى مع جدّك؟» لاحظ كريشنان أنه بدأ بالتحدث بإيقاع لهجة» مومباي، والتي هي مزيج من لغات الهندي والجوجاراتي والإنجليزية.

ليس بعد في الواقع، لأنه يغادر إلى المستشفى قبل عودتي إلى المنزل مع جدتي. هل أخبرتك» أنني أتنزه معها في صبيحة كل الأيام؟ إنني أشعر بسرور بالغ في هذه النزهات، وهي امرأة مدهشة يا أبي. كان من سوء حظي أنني لم أتعرف إليها قبل الآن».

شعر كريشنان بلهجة اتهامية في الجملة الأخيرة، بالرغم من شكّه بأن ذلك كان قصدها. «أجل إنها امرأة مدهشة أليست كذلك؟ إنها لم تتغير كثيراً مع تقدّمها في السن». تحدّث كريشنان مع ابنته حين تناولهما طعام الغداء عن أفراد العائلة الذين التقتهم آشا، وعن حفل الزفاف الفخم الذي حضرته، والأشخاص الذين عملت معهم في صحيفة تايمز أوف إنديا، وكذلك عن الأماكن التي زارتها في مومباي.

«هممم. هذا الحساء لذيذ. كيف تعرفتِ إلى هذا المكان يا آشا؟».

أحضرني إلى هنا الشاب... الصديق، سانجاي. تحدّاني أن آكل في مكانٍ لا يقدّم أطعمةً للأجانب.» ظنّ سانجاي أنني لن أتمكن من تناول هذا الطبق، لكني تمكنت من ذلك بفضل سلاحي السري». ابتسمت وأشارت إلى طبق اللبن الزبادي.

«رفع كريشنان أحد حاجبيه: «أتقولين سانجاي؟ كيف التقيتِه؟».

ردّت آشا: «التقيته في حفل الزفاف الذي أخبرتك عنه. كانت إحدى قريباته صديقةً لإحدى قريباتنا، لكني لا أعرف كيف حدث ذلك بالضبط».

«ماذا يعمل سانجاي هذا؟».

إنه يحضّر للحصول على درجة الماجستير من جامعة لندن للاقتصاد». ابتسمت آشا وقالت:» آسفة يا بابا لأنني لم أتمكّن من التعرف على طبيبٍ هندي يناسبني»».

«ابتسم كريشنان بشكلٍ عفوي: «أعتقد أن اثنين من أصل ثلاثة في العائلة هي نسبة جيدة».

«قالت آشا: «إذاً، كيف هي ماما؟ هل ذهبت إلى سان دييغو لقضاء العطلة؟».

أجل. إنها بحاجة إلى هذه العطلة، كما أنها كانت قلقة من الصورة الشعاعية الثدي التي أجرتها،» وأرادت أن تتحدث مع أطبائها، لكنها لم تتمكن من الذهاب إلى هناك لأن العيادة كانت مزدحمة في ذلك الوقت...» أحسّ كريشنان بأنه قدّم تفسيراتٍ أكثر من اللازم. توافق كريس مع سومر على عدم إبلاغ آشا عن انفصالهما في هذا الوقت، وعلى الأقل ليس قبل أن يحين موعد عودتها إلى البلاد. لكن كريشنان كان يأمل بأن يتصالح مع زوجته قبل أن يحين موعد العودة، وذلك لأن الابتعاد عن سومر كان أصعب ممّا كان يتوقع، وعلى الأخص لأنه أمضى معظم وقته في العمل متبرعاً بالعمل نيابةً عن شركائه، وكان يعمل في العيادة لوقتٍ متأخر لإنهاء الأعمال المكتبية. أحسّ كريشنان بأن المنزل هادئ بشكلٍ لا يُطاق من دون سومر.

«أطلق كريشنان كذبةً أخرى انطلاقاً من ولائه لزوجته وابنته. «أرادت أن تأتي بالفعل يا آشا».

لكن يا بابا إنني مسرورة لأنك أتيت لوحدك. أردتُ أن أتحدث معك بشأن شيءٍ ما». بدت آشا» حذرةً بعض الشيء للمرة الأولى منذ وصولها. مسحت يديها وفمها بالمنديل الورقي الصغير، وأخذت نَفَساً عميقاً. وضع كريشنان طبقه على الطاولة بعد أن أحسّ بأن أمراً مهمًّا على وشك الحدوث. «هذا ما أريد قوله لك يا بابا. تعرف بأنني أحبكما أنت وماما كثيراً. كنتما والدَين رائعيَن لي، وأعرف ما فعلتماه لأجلي...»، تلاشى صوتها الذي أصبح متوتراً، وبدأت بتقليب المنديل الورقي بين يديها.

«قال كريشنان: «آشا حبيبتي، ما الأمر؟».

نظرت إليه وقالت بعفوية: «أريد العثور على والديَّ الحقيقيين». تابعت بعد برهة من الزمن، وبدت يائسة للتلفظ بكلماتها. «أريد أن أعرف مَن هما، وما إذا كان بإمكاني الالتقاء بهما. أعرف أن ذلك ليس بالأمر السهل يا بابا. لا أعرف من أين أبدأ، أو كيفية البحث عنهما، ولذلك أريدك فعلاً أن تساعدني».

«حدّق إلى ابنته، وإلى عينيها الجميلتين والواسعتين والمتوسّلتين. قال لها: «حسناً.

«قالت آشا: «حسناً... ماذا؟.

«حسناً، أفهم... مشاعرك. سأساعدك بكل الطرق الممكنة». توقع كريشنان حدوث هذا النقاش مرات عدة، وشعر بالامتنان لأن سومر ليست موجودة معهما.

«قالت آشا: «هل تعتقد بأن ماما ستتفهّم الأمر؟.

ردّ كريشنان: «يُحتمل بأن الأمر سيكون صعباً عليها قليلاً يا حبيبتي، لكنها تحبّك. تعرفين بأننا نحبّك نحن الاثنين، وهذا أمرٌ لن يتغيّر». نهض ووضع يده فوق يد ابنته. «لا يمكنك التنكّر لماضيكِ يا آشا. إنه جزءٌ منك. ثقي بي». أومأت، وشدّ على يدها بينما تأملا بعواقب هذا القرار.

حضر كريشنان إلى الهند مدركاً بأنه سيتحتم عليه حماية آشا من خيارات والدتها. لكنه أدرك أنه سوف يعود كذلك لكي يحمي آشا من والدتها.

46

الأب لا ينسى أبداً

مومباي، الهند - 2005

كافيتا

وقفت كافيتا منتظرة دورها بصبرٍ في مكتب التلغراف. ابتسم الموظف عندما حان دورها، وقال: «مرحباً سيدة ميرشانت. أتريدين تحويل المال إلى دهانو اليوم؟» اعتادت المجيء إلى المكتب في كل أسبوع على مدى الأشهر الثلاثة المنصرمة، لكنها لم تعرف اسم الرجل الذي يعلمها كيفية تعبئة الاستمارة، والذي تسلّمه المظروف المليء بالأوراق المالية. يعرف الرجل اسمها بطبيعة الحال، وذلك من الإيصال الذي يعطيها إياه في كل أسبوع، والذي تسرع إلى وضعه بكل عناية في خزانتها في المنزل. اعتادت كافيتا وضع إشارة صغيرة على الإيصال ما إن تعلم أن شقيقتها قد تسلّمت المبلغ المالي.

كان مبلغ السبعمئة روبية الذي ترسله في كل أسبوع مخصَّصا للممرضة التي تعتني بوالدتها، وللأدوية اللازمة لها منذ أن أصيبت بنوبةٍ قلبية في الخريف الماضي. كانت كافيتا تأمل بزيارة والدتها في وقتٍ قريب، لكنها لا تتمكن من أخذ إجازتها إلا في أواخر الصيف، وذلك لكي لا تتزامن إجازتها مع بقية الخدم. لكن الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة كان في حال حصول وفاة لأحد أفراد عائلتها. طلب منها جاسو ذات يوم أن تطلب إجازة من رب عملها وزوجته، لكنها رفضت لأنهما كانا يعاملانها معاملة حسنة، كما أنها شعرت بالحاجة إلى الاحتفاظ بوظيفتها. لم يقتصر الأمر على حصولها على المرتّب الضئيل بحد ذاته، بل إنها تحرص على الأمان الذي تحصل عليه نتيجة معرفتها بأنها تمتلك بعض المكاسب المستقلة عن مدخول جاسو غير الثابت، وثروة فيجاي غير الشرعية.

قالت كافيتا في سماعة الهاتف: «أرسلت المال هذا المساء يا أختي».

قالت روبا: «شكراً لكِ يا كافي. سأتصل بك عند استلامي المبلغ».

لم يسأل أحد كافيتا عن مصدر المال الذي ترسله، وهو مبلغ لا يستطيع أحد الاستغناء عنه. لكن الواقع هو أنه لا كافيتا، ولا جاسو، يمكنهما الاستغناء عن هذا المبلغ لولا فيجاي. كانت كافيتا تدرك المسؤوليات التي تقع عليها تجاه عائلتها، وهو الأمر الذي وعته جيداً منذ مغادرتهما القرية، وعلى الأخص منذ أن أصبحا على درجةٍ من الثروة في مومباي، وهو الأمر الذي وعدها به جاسو في البداية. امتنعت كافيتا في السنوات الأولى عن إبلاغ عائلتها عن صعوباتهما المالية، وذلك بسبب إخلاصها لجاسو. لكن بعد أن أصبحا أخيراً مرتاحين من الناحية المالية التزمت الصمت كذلك بسبب الخجل الذي تشعر به إزاء فيجاي.

«روبا، كيف حال أمي؟».

سمعت كافيتا تأوهاً عميقاً في الجهة الأخرى من الخط. «حضر الطبيب لفحصها البارحة، وقال إن حالتها مرضية بقدر الإمكان، لكنه لا يتوقع لها أن تشفى تماماً يا أختي. أضاف الطبيب بأنها لن تتمكن من الكلام بالطريقة الصحيحة بعد الآن، وكذلك لن تتمكن من الإبصار بعينها اليمنى. لكنها مرتاحة، والممرضة تعتني بها جيداً. شكراً لكِ يا شقيقتي».

تشعر كافيتا في كل مرة تشكرها فيها روبا على أرسال المال بتوترٍ شديد في معدتها، وكأن أفعى تزحف فيها، وذلك ليس فقط بسبب مصدر المال، بل لأن المال هو الشيء الوحيد الذي استطاعت تقديمه. كانت تعرف بأنه يتعيّن عليها أن تكون في دهانو. شعرت بالخجل لأنها تقوم بغسل الأطباق في منزل مخدومها، وطيّ أثواب مخدومتها، وذلك بدلاً من الاعتناء بأمها. لكن إدراكها هذا جعل عملها اليومي أكثر إجهاداً بالنسبة إليها. «كيف هو والدي؟» أبقت كافيتا صوتها قوياً، وذلك لأنها لا ترغب أن ينتقل ضعفها وخوفها إلى شقيقتها عبر الهاتف.

«إنه ليس على ما يرام، ولا يستطيع التعرّف على أحفاده بالمرة، وهو في بعض الأيام لا يستطيع التعرّف إليّ. أعتقد أنه من حسن حظك بأنكِ لستِ هنا يا شقيقتي، إذ ليس من السهل أن تشاهديه عندما يكون في هذا الوضع».

لم تكن هذه الأخبار مختلفة عن تلك التي تبلغها إياها روبا في كل مرة تتصل فيها. كانت حالة والدهما تسوء ببطء على مدى السنوات العديدة الماضية. بدا الوالد مثل شجرة التشيكو التي توجد خلف منزلهما الوالدي الذي أمضيا فيه أيام طفولتهما، وهي الشجرة التي بالرغم من أن أغصانها تبدو أنحف في كل عام وتقل فيها الأوراق، إلا أن جذعها يقف صامداً، لكن كلماتها التالية علقت في حلقها بالرغم من ذلك.

«هل يتذكرني؟ أتعتقدين أنه سوف يعرفني عندما أذهب لزيارتكم؟».

مرّت فترة صمت قبل أن تجيب روبا: «أنا متأكدة من أنه سوف يعرفكِ يا كافي. أيمكن لوالدٍ أن ينسى ابنته؟».

ضغطت كافيتا بأصابعها على قشرة ثمرة مانغا صغيرة لتختبر صلابتها، ثم رفعتها إلى مستوى أنفها. «سآخذ نصف كيلو من هذه من فضلك». استيقظت زوجة السيّد في ذلك الصباح، وطلبت المانغا الطازجة لتأكلها بعد الغداء، وهكذا أرسلت بهايا كافيتا لتبحث عن أفضل ثمار المانغا الخضراء التي تستطيع العثور عليها. بحثت كافيتا في ثلاث أسواقٍ مختلفة، وهكذا أصبحت على بُعد مسيرة نصف ساعة عن منزل مخدومها، لكن لا بأس في ذلك لأنَّ كل الموظفين سيكونون في فترة الاستراحة عند عودتها. سارت كافيتا برشاقة إلى أن وصلت إلى البوابات الحديدية، وما لبثت أن توقفت، ووضعت كيس القماش الذي يحتوي على ثمار المانغا على الأرض. تطلعت بعد ذلك من خلال القضبان الصدئة للبوابة، وحتى أنها وقفت على أطراف أصابع أرجلها، وذلك كي تحصل على نظرة أفضل. كانت تعرف بأن الأمر ميؤوسٌ منه بطبيعة الحال. لكن حتى لو بقيت أوشا على قيد الحياة، فإنها سوف تكون امرأة بالغة أكبر من فيجاي، أي أنه من المؤكد بأنها لن تكون في الميتم. إذاً عمّ أبحث هنا، لماذا أتردّد إلى هذا المكان؟

هل تريد استرجاع الألم الذي قاسته في ذلك اليوم عندما تخلت عن ابنتها، ولكي تعاقب نفسها على تسليم لحمها ودمها؟ ما هي طبيعة الحياة التي عاشتها تلك الفتاة، بدون أسرة، والتي كبُرت على يد

غرباء، ومن دون منزل تلتجئ إليه بعد مغادرتها هذا المكان. هل كان ذلك أفضل؟ هل من الأفضل لي أن أمنحها الحياة فقط، ولا شيء آخر يمكن لوالدة أن تقدّمه لولدها؟ هل لا تزال تأتي إلى هنا بسبب العادة فقط؟ أي مثل الندبة التي تلتصق بجسدها، وتلك التي لا تستطيع إلا التفكير فيها، وحكّها بأظافرها، وهي تفعل كل ذلك على أمل أن تشفى في يوم من الأيام؟

47

حدث ذات مرة

مومباي، الهند - 2005

آشا

شعرت آشا أن ضربات قلبها تتسارع عندما بدأ القطار بالدخول إلى محطة تشيرش غايت. أثار القطار لدى اقترابه رائحة البول والأبخرة الحادة المتصاعدة من الأرض. ملأت هذه الرائحة الأجواء، لكن تفكيرها الوحيد انحسر في المكان الذي سيأخذها القطار إليه. تقدمت نحو المنصة مع حزام محفظة المال الذي يحتوي على كدسة من الروبيات. أما حقيبة ظهرها التي لم تستخدمها منذ قدومها إلى هذه البلاد، فقد احتوت في ذلك الوقت على دفتر ملاحظاتها، وخرائط المدينة، وتذاكر السفر بالقطار في الدرجة الأولى، وهي الطريقة التي أصرّت جدّتها بأنها الطريقة الآمنة الوحيدة للترحال في الهند والمتاحة أمام شابة تتنقل وحدها.

تسلمت آشا من والدها قبل مغادرتها المنزل التفاصيل الوحيدة التي تذكّرها، مثل اسم وكالة التبنّي، واسم ممثّل الوكالة الذي ساعدهم على إتمام عملية التبنّي. أعطتها جدّتها عنوان الميتم، واسم المدير آرون ديشباندي، ثم دوّنت ذلك الاسم في دفتر ملاحظاتها اللولبي باللغات الإنجليزية، والهندية، والماراتي. عرضت جدّتها أن تأتي معها، لكن آشا أرادت أن تقوم بمهمتها وحدها.

استرخت في مقعدها في القطار، وتناولت السوار الفضي من جيبها، ثم حملته طيلة فترة رحلتها. توجهت بعد أن ترجلت من القطار إلى مقدمة صف عربات الريكشا حيث عرضت على أحد السائقين دفتر مذكراتها الذي يحتوي على عنوان الميتم. أومأ السائق، وبصق عصير البذور على الرصيف، ثم انطلق بساقين نحيفين إلى حدٍ لا يصدَّق.

بدا مبنى الميتم مختلفاً عمّا كانت تتوقعه آشا، وكان يتألف من طابقين، ومزوداً بباحات يستطيع الأطفال اللعب فيها. توقفت أمام لوحة مكتوبة فيها الكلمات التالية باللغة الإنجليزية:

دار شانتي للأطفال

تأسست في العام 1980

الشكر الجزيل إلى عائلة ثاكر

لتكرّمهم بمنحنا هذا البيت

ثاكر؟ علمت آشا منذ وصولها إلى الهند أن عدد آل ثاكر في مومباي يصل إلى الآلاف، وهكذا ارتاحت بسبب عدم اضطرارها إلى تهجئة الاسم أمام جميع من تسألهم. دقت جرس البوابة الخارجية، ثم ظهرت امرأة مسنّة ذات فم متجعد. «أريد التحدّث مع آرون ديشباندي». تكلمت آشا ببطء لأنها افترضت بأن المرأة المسنّة لا تفهم الإنجليزية. ما إن سمعت العجوز الاسم حتى فتحت الباب، وأشارت إلى مكتب صغير يقع في نهاية الممر. ضمّت آشا راحتَي يديها معاً كي تشكر العجوز، وتقدمت بحذرٍ شديدٍ داخل المبنى، وهي التي كانت واثقة جداً من نفسها عندما كانت في الطريق إلى هذا المكان، لكنها شعرت في تلك اللحظة أن ساقيها عاجزتان عن حملها، وأن دقات قلبها تتسارع كثيراً. كان باب المكتب مفتوحاً، لكنها طرقت على الباب بالرغم من ذلك. رأت رجلاً تختلط خصل شعره السود مع تلك البيض، ويضع نظارة مزدوجة البؤرة على أرنبة أنفه. كان الرجل يتكلم على الهاتف بصوتٍ عالٍ، وبلغةٍ لم تفهمها. أشار لها الرجل بالدخول والجلوس. جلست آشا بعد أن أزالت رزمة من الأوراق عن الكرسي الوحيد الموجود في المكتب، ثم لاحظت لوحة الاسم على الطاولة، والتي حملت اسم آرون ديشباندي. بدأت راحتا يديها بالتعرق على الفور، لكنها تمكنت من تناول دفتر ملاحظاتها، وقلم رصاصٍ من محفظتها أثناء انتظارها أن يفرغ الرجل من حديثه على الهاتف.

وضع الرجل سماعة الهاتف في مكانها، وأظهر ابتسامة متعجلة. قال لها بالرغم من أنها كانت جالسة بالفعل: «مرحباً. أنا آرون ديشباندي، مدير دار شانتي. اجلسي من فضلك».

شكراً لك. اسمي آشا ثاكر. أتيت إلى هنا من الولايات المتحدة للزيارة. أنا... كنت هنا في هذا» الميتم قبل أن تتبناني أسرتي. كان ذلك منذ عشرين سنة». وضعتْ طرف قلم الرصاص في فمها، بينما كانت تنتظر رد فعله.

«أرجع ديشباندي كرسيّه إلى الخلف، وقال: «ثاكر؟ أتقولين بأنك قريبة سارلا ثاكر؟».

«سارلا... آه، أجل. إنها جدتي، والدة أبي. لماذا تسأل؟»».

إننا ممتنون جداً لجدّتك، وهي التي تبرعت لإتمام هذا المبنى، وأعتقد أن ذلك حدث منذ عشرين» عاماً. أرادت جدّتك أن نحصل على ما يكفي من الصفوف في الطابق العلوي. يتابع الأطفال في كل يوم مذاكرتهم هنا بعد انتهاء أوقات الدراسة الرسمية، ونعطيهم دروساً في الموسيقى، واللغة، والفنون».

«بدأت آشا بمضغ طرف قلمها وقالت: «أوه. أنا... لم أكن على علمٍ بذلك».

«لم أرها منذ أعوام. أرجوك أن تبلغيها فائق احترامي».

أخذت آشا نَفَساً عميقاً: «أجل، سأفعل ذلك. إن سبب وجودي هنا يا سيد ديشباندي هو أملي بأن تساعدني. أنا... أحاول العثور على والديّ الحقيقيين اللذين أحضراني إلى الميتم». تابعت آشا كلامها عندما لم يرد ديشباندي عليها. «أريد كذلك أن أشكركم على ما فعلتم لأجلي أثناء وجودي هنا. إنني أتمتع بحياة مريحة في أميركا، وأحب والديّ بالتبنّي». توقفت آشا عن الحديث قليلاً بحثاً عن الكلمات المقنعة والمناسبة. «لا أريد التسبّب بأي مشاكل، وكل ما أريده بالفعل... هو العثور على والديّ الحقيقيين».

نزع السيد ديشباندي نظارته، وبدأ بمسح زجاجها بطرف قميصه. «لدينا هنا يا عزيزتي مئات الأطفال الذين يأتون ويخرجون في كل سنة. وجدنا خارج مدخل دارنا ما يزيد عن دزينة من الأطفال حديثي الولادة، وذلك خلال الشهر المنصرم فقط. يتم تبنّي المحظوظين منهم، بينما يبقى الآخرون هنا

إلى حين إنهاء تعليمهم، أي عند بلوغهم سن السادسة عشرة في الحد الأقصى. لا يمكننا والحالة هذه الاحتفاظ بسجلات جميع الأطفال. إننا لا نعرف الأعمار الحقيقية لمعظم أولئك الأطفال. لكن في ذلك الوقت... حسناً». تنهّد الرجل بعمق، واستدار كي يتطلع نحوها. «أعتقد بأنه يمكنني مراجعة السجلات. حسناً، هل قلتِ أن اسمكِ آشا ثاكر؟» التفت نحو حاسوبٍ قديم على طاولته. مرّت دقائق قليلة من النقر على لوحة المفاتيح، والتركيز على شاشة الحاسوب، ثم عاد للالتفات نحوها. «إنني آسف. لم أتمكن من العثور على ذلك الاسم. لا وجود لسجلّك هنا. سبق أن قلت لك إن نظام السجلات الذي نعتمده...» هزّ كتفيه ثم عاد ليضع نظارته من جديد.

شعرت آشا بتوترٍ في معدتها، ثم نظرت نحو دفتر ملاحظاتها، وإلى صفحة خالية. لا سجل لي. ضغطت بأصابعها على راحتَي يديها كي تكبح الدموع التي تنتظر الانهمار من عينيها.

تعرفين بأننا استقبلنا أطفالاً كثيرين مثلك، وكان من الصعب علينا العثور على أمهاتهم حتى مع» وجود أسماءٍ لهن. يحدث أحيانا أن هؤلاء النسوة لا يرغبن في أن يعثر عليهن أولادهن، وعلى الأخص لأنهن غير متزوجات في معظم الحالات، كما أن أحداً لا يعلم بأنهن أنجبن أطفالاً، أو أحضرن أطفالاً إلى هنا. سيكون الأمر صعباً جداً على هؤلاء الأمهات إذا عرف الناس بأمرهن بعد كل هذا الوقت».

أومأت آشا، وضغطت على قلمها في محاولة منها الحفاظ على رباطة جأشها. ما هو سؤالي التالي؟ ماذا سأكتب في هذه الصفحة الخالية؟

انحنى آرون ديشباندي إلى الأمام فجأةً، وحدّق في وجه آشا. «عيناك استثنائيتان. سبق لي أن رأيت ذلك اللون مرة واحدة فقط عند امرأة هندية». بانت علامات الارتياح على وجهه. «متى تمت عملية تبنّيك؟».

«...سنة ألف وتسعمئة وخمس وثمانون. آب. حقاً؟ ماذا».

أتعرفين كم كان عمرك في ذلك الوقت؟» طرق بيده على رزمةٍ من الأوراق بينما كان في طريقه» إلى خزانة ملفات وراء كرسيّها.

أعتقد بأنني كنت في نحو العام الأول من عمري». وقفت للانضمام إليه في البحث، وتطلعت من» فوق كتفه.

قلّب الرجل أوراق الملفات التي بدت أكثر فوضوية من الأوراق الموضوعة فوق طاولته. «إنني أتذكرها... كانت من بالغار، أو دهانو. أعتقد أنها من إحدى هاتين القريتين الشماليتين. أعتقد بأنها مشت كل الطريق إلى هنا. إنني أتذكر تينك العينين». هزّ رأسه ثم توقف قليلاً وتطلع نحوها. «اسمعي. سيستغرق الأمر بعض الوقت. يتعيّن عليّ مراجعة كل الأوراق العائدة للعام 1984. سأبحث في هذه الملفات، وملفاتٍ أخرى غيرها موجودة في الخلف. أتريدين أن أتصل بك عند عثوري على شيء ما؟».

شعرت بحماسة كبيرة لفكرة وجود المعلومات في ذلك المكان، أي في مكانٍ ما في هذا المكتب المليء بالفوضى. لم تتمكن من مغادرة المكان بهذه البساطة. «أيمكنني مساعدتك على البحث؟».

كلا، كلا». ضحك قليلاً قبل أن يُكمل: «إنني لست متأكداً من المعلومات التي أبحث عنها، لكنها» إذا كانت موجودة هنا فسوف أتمكّن من العثور عليها. أعدك بذلك كرمى لعينَي السيدة سارلا. هذا وعدٌ مني. مئة بالمئة». حرّك رأسه من جهةٍ إلى أخرى بتلك الحركة الغامضة التي يستخدمها الناس في تلك

المنطقة. أدركت آشا أنها الطريقة التي تجري بها الأمور في الهند. يعني ذلك أنّ على المرء أن يتحلى بالصبر. مزّقت ورقةً من دفتر ملاحظاتها لتدوّن رقم هاتفها، بينما وضعت قلم الرصاص خلف أذنها. ««ألديك قلم؟».

مرّت أيام عدة قبل أن تعاود الرحلة إلى شانتي، وكان من الصعب أن تمتنع عن الركض نحو مكتب السيّد ديشباندي بعد دخولها من البوابة الرئيسة. كان من الصعب عليها انتظاره. وقفت عند دخوله إلى المكتب: «جئتُ بأسرع ما يمكنني. ماذا وجدت؟».

جلس إلى مكتبه وناولها مظروفاً بنياً. «إنني أتذكّرها. أتذكّر والدتك التي لم أنسَ عينيها على الإطلاق». احتوى المظروف على ورقةٍ واحدة عبارة عن نموذجٍ مملوءٍ جزئياً. قال: «إنني آسف لأن هذه الورقة لا تحتوي على معلوماتٍ كثيرة. ظنّنا في ذلك الوقت بأنه من الأفضل أن يبقى النموذج من دون أسماء. لكننا بدأنا الآن بتدوين معلومات أكثر لأسباب صحية وما أشبه. آه، لكني اكتشفت سبب عدم عثوري على سجلك في البداية. أترين هنا...» انحنى وأشار إلى موضعٍ على النموذج. «كان الاسم الذي أعطونا إياه عند وصولك إلى هنا هو أوشا. أعتقد أن سجلاتنا ليستْ سيّئة إلى هذه الدرجة». جلس ديشباندي في مقعده مبتسماً.

أوشا.كان اسمها أوشا، وهو الاسم الذي اختارته والدتها لها. أوشا ميرشانت.

أحضروكِ إلى هنا في الشهر الأول لتسلّمي وظيفتي كمديرٍ جديدٍ لدار رعاية الأيتام. كانت الدار» مليئة بالكامل، ولم يكن من المفترض بي قبول أي طفل جديد. لكن والدتك أتت إلى هنا مع شقيقتها وهي التي أقنعتني بقبولك في الدار. قالت لي إن ابنة خالة لكِ توجد في الدار بالفعل، وأنه ليس من المناسب «الفصل بينكما».

هل قلت ابنة خالة؟» أمضت آشا حياتها بأكملها من دون أقرباء، لكن بدا بأنها تكتشف أقرباء لها» في أي مكان تتوجه إليه.

أجل. إنها ابنة شقيقة والدتك. قالت إنها أكبر منك بسنة من الزمن، أي أنها أُحضرت إلى الدار» «قبل تسلّمي لوظيفتي، لكن لا يوجد سجلات للأطفال الذين قدموا إلى هنا في ذلك الوقت».

سألت آشا محاولةً التغلّب على الصدمة التي شعرت بها: «أريد العثور عليها يا سيّد ديشباندي... «أريد العثور على والدتي، وأهلي. أتعرف كيف يمكنني فعل ذلك؟».

«هزّ ديشباندي رأسه، وقال: «أنا آسف، حتى أنني فوجئت عندما وجدت ذلك الملف».

ساعدها السيد ديشباندي على استدعاء ريكشا آلية، وأعطى السائق تعليمات لنقلها إلى محطة القطارات. أمسكت آشا بالمظروف البنّي بإحكام وصافحت باليد الأخرى يد السيد ديشباندي. «شكراً جزيلاً لك. أقدّر لك مساعدتك».

«أتمنّى لكِ حظاً طيباً يا ابنتي. كوني حذرة من فضلك».

جلست في كرسيها بعد وصولها إلى مكاتب التايمز، وحدّقت إلى الورقة الوحيدة التي يحتوي عليها المظروف البنّي، وذلك بالرغم من أنها حفظت المعلومات القليلة التي تحتويها غيباً.

الاسم: أوشا

تاريخ الولادة: 18/8/1984

الجنس: أنثى

الوالدة: كافيتا ميرشانت

الوالد: جاسو ميرشانت

العمر عند الوصول: 3 أيام

كانت هذه التفاصيل قليلة، لكنها حملت معها كشفاً مهماً. كانت والدتها متزوجة، ووالداها متزوجَين، وعرفت أسميهما. كان اسمها أوشا ميرشانت في السنة الأولى من عمرها. تمرّنت آشا على كتابة اسمها بأحرفٍ كبيرة في البداية، وتمرّنت عليه بعد ذلك كتوقيع، لكنها قررت بعد ذلك استخدام الأحرف الأولى من اسمها لتوقيع ما تكتبه. تطلعت إلى صورتها المنعكسة على شاشة الحاسوب الداكنة.

أوشا ميرشانت. هل بدت مثل أوشا؟ قالت وهي تمد يدها إلى الكبّاس على طاولتها للتعريف عن اسمها الجديد: «أوشا ميرشانت». أسندت آشا رأسها على الكرسي وحدّقت إلى السقف، ثم نادت مينا التي تعمل في المكتب المجاور. «لا أعرف من أين أبدأ. كيف لي أن أعثر عليها؟».

حسناً، أنتِ في المكان الصحيح. تمتلك التايمز إمكانية الوصول إلى أفضل قاعدة معلومات في الهند». انحنت مينا من فوق آشا لتنقر شيئاً على لوحة مفاتيحها. «إننا نمتلك معلومات قيّمة حول كل المدن الرئيسة».

ماذا لو لم يكن المكان في مدينة؟ ماذا لو كان في قرية تقع في مكانٍ ما؟ قال لي مدير الميتم إنها أتت إلى هنا، وأعتقد أنها جاءت مشياً على الأقدام من إحدى القرى».

توقفت مينا عن النقر وتطلعت نحوها. «حقاً؟».

«أجل. لكن لماذا؟».

إنه أمرٌ مدهش أن تتمكن امرأة من فعل ذلك، وعلى الأخص في تلك الأيام عندما كانت وسائل النقل أكثر سوءاً من الآن، ولا بد من أنها كانت مصممة على إحضارك إلى هنا». أحضرت مينا كرسياً لها قبل أن تكمل: «حسناً. سأريك كيف تفعلين ذلك. تغطي قاعدة البيانات المدن فقط، لكن بإمكانك أن تبدئي من هنا. إبدئي بالبحث في مومباي، ومن حسن الحظ أن اسمهما ليس باتل، أو ما يشبه ذلك. سيكون من السهل علينا العثور عليها من خلال قريبٍ ذكر، أو من خلال ممتلكاتٍ عينية وما يشبه ذلك. حسناً، دعينا نبدأ من هنا، ومن أسماء المستأجرين الذين تبدأ أسماؤهم بكلمة ميرشانت... أوه حسناً، هناك قليل من الأسماء».

لم يوجد اسم كافيتا في القائمة، لكن كانت هناك عشرات أسماء جاسو ميرشانت، أو جاي. ميرشانت في مومباي لوحدها، وذلك من دون البحث في المدن الأخرى. بدأت آشا بالتفتيش في قائمة طويلة من الأسماء، ثم أمضت ساعاتٍ عدة في محاولة تجميع أجزاء المعلومات المتناثرة. تمكنت مع نهاية اليوم من تضييق القائمة إلى ثلاثة عناوين يُمكن الوصول إليها، لكن مع احتمال عدم التوصل إلى

نتيجة. استمرت في الشعور بالأمل أثناء توجّهها إلى المصعد حاملة معها دفتر ملاحظاتها الذي ضمته إلى صدرها.

قالت لمينا بعد أن تطلعت وراءها: «هل تتمنين لي حظاً طيِّبا، إذ مَن يعرف على ماذا سأعثر؟».

48

ثورة

بالو ألتو، كاليفورنيا - 2005

سومر

تصوروا أنفسكم شجرة قوية، شجرة عظيمة، وتنفّسوا بعمق إلى القسم الأسفل من البطن».» تمتلك جنفياف، مدربة اليوغا، صوتاً مريحاً يلاحقها أثناء تنقلها بين اثني عشرَ شخصاً منتشراً في أنحاء الغرفة. وقفت سومر منتصبة القامة، رافعةً ذراعيها فوق مستوى رأسها مع تلامس راحتيها. كان أحد كعبَي قدميها مثبتاً بإحكام على فخذها المقابل، كما كانت عيناها مركّزتين تماماً على بقعة ضوء بيضاء ظهرت على الجدار الحجري أمامها. وجدت سومر صعوبة في تنفيذ وضع الشجرة (فريكشاسانا) منذ أن بدأت بمتابعة صفوف اليوغا مع ليزا قبل أشهرٍ عدة. كانت سومر تترنح في أحيانٍ كثيرة عندما تكون واقفة على قدم واحدة، ثم تسقط على الأرض بينما يبقى الآخرون في الصفّ واقفين بكل ارتياح.

أبلغت جنفياف سومر في أحد الأيام، وبعد الانتهاء من الصف، أن الطريقة الصحيحة لتنفيذ هذا الوضع هي تهدئة عقلها والتركيز على اللحظة الراهنة. أحدثت هذه النصيحة فرقاً كبيراً مع هذا التغيير الصغير في التركيز، وهذا التغيير في نظرتها إلى الأمور. يعني ذلك أنه بدلاً من بذلٍ الجهد للبقاء في حالة التوازن، وجدت نقطة للتحديق بها، وهكذا تناغمت طاقاتها، وأصبع التمرين سهلاً. وقفت سومر في ذلك اليوم ساكنة تماماً مع الآخرين في وضعية الشجرة، واستمروا على ذلك الوضع إلى أن أشارت جنفياف لهم بالانتقال إلى الوضع التالي.

داومت سومر على المجيء إلى هذه القاعة التي حرص أصحابها على إعطائها اسم الثورة، وذلك مرتين أو ثلاث مراتٍ أسبوعياً. أدركت سومر بعد استيقاظها متعبةً بعد الدروس القليلة الأولى كم مضى عليها من الوقت منذ أن قامت بنشاطٍ جسدي حقيقي، أي منذ أن اعتادت أن تركض، أو تسبح إلى أن تشعر بذلك النوع من الألم المفرح في صدرها، وهو الأمر الذي فعلته خلال فترتَي حملها القصيرتين. لكن بعد مرور نحو عشرين عاماً، وبعد أن توقف جسدها عن العمل، توقفت عن اعتباره جزءاً مهماً منها. أما عندما شعرت بألم في ظهرها، أو عندما عانت من الحساسية، فكانت تشعر بالاستياء من جسدها الذي كبُر سناً لأنه خَذلها تكراراً، والذي توترت عضلاته، وفقدت مفاصله مرونتها. تعيّن عليها أن تكون لطيفة مع نفسها، وأن تفهم أولاً حدود جسدها، ثم كيفية دفعه إلى ما يتجاوز تلك الحدود. تعلّمت سومر كيفية استعادة جسدها الذي شعرت بأنه خانها لسنواتٍ عديدة خلت.

حدثت النقطة الفاصلة ذات يوم، عندما حثّت جنفياف صفّها على الانتباه إلى تنفسّهم، وسألتهم: «هل تمسكون أنفاسكم؟ لاحِظوا إذا كنتم تمسكون أنفاسكم بعد الشهيق، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا

تخشون إطلاقها؟ أو إذا كنتم لا تمسكون أنفاسكم، فلماذا تخشون من الشهيق؟» أدركت سومر عندها بأنها تقوم بكلا الأمرين، واستنتجت أنها محكومة بالخوف، أي مثل ما اتهمها كريس مرات عدة.

أمضت سومر ثلاثة أشهر من العيش لوحدها، واكتشفت أثناء هذه الفترة بعض الطرق لمكافحة الوحدة. اعتادت الذهاب في أيام الخميس إلى صفوف تعليم اللغة الإيطالية مع جيورجيو، الذي يبدو أكثر جاذبية ممّا هو عليه في الواقع مع شعره الأشيب، وشعر صدره الأبيض الذي يبرز من خلال قميصه. تعلمت سومر اللغة ببطء، وذلك تحضيراً لرحلتها المقبلة إلى توسكانيا. أما خلال أيام الأسبوع فكانت منشغلة في العيادة، كما أن شوارع وسط مدينة بالو ألتو التي تعج بالطلاب جعلتها تشعر بأن حياتها الجديدة سهلة الاحتمال.

كانت أيام نهاية الأسبوع أكثر صعوبة، وساعات الفراغ تطول وتطول، كما لاحظت بأنه ليس لديها أي شخص للتحدث معه لفترات طويلة خلال اليوم. اعتادت في تلك الأيام تحضير الغداء، أو تخطيط النزهات مع ليزا التي تمكنت من صياغة نموذج حياة للمرأة العازبة الأكبر سناً. لكنها اشتاقت إلى كريس في تلك الأيام أكثر من غيرها. اشتاقت كذلك إلى ساعات الاسترخاء في تلك الصباحات، والتي كانا يقضيانها معاً على السرير في قراءة الصحف. كانت ترغب عند حلول أوقات المساء في المشي معه شابكة ذراعها بذراعه إلى أن يصلا إلى المطعم التايلاندي الذي يوجد في حيّهم، حيث كانا يتشاركان في طبق كبير يحتوي على جوز الهند الحار. كانت تشتاق أحياناً عندما تستلقي وحيدة على السرير إلى ذراعه الثّقيلة التي كان يبسطها فوق جسدها. أما عند رؤيتها الطلاب الذي يتجولون في المدينة فقد كانت تحاول أن تتذكر شعور الحرية الذي شعرت به مع كريس أيام دراستها. اشتاقت كذلك إلى ذكرياتها في الأيام الأولى التي دخلت فيها آشا إلى حياتها، والتي كانت فيها كالبرعم الصغير الذي ينمو أمامهما، وكانا يضحكان لكل شيء تقوله أو تفعله: زيارة حديقة الحيوانات، وتمضية كل الوقت هناك أمام القرود، كما كانت تحثّ والديها قبل مغادرة الحديقة على إصدار أصواتٍ والقيام بحركاتٍ تشبه تلك التي تقوم بها تلك الحيوانات. تذكرت كذلك الإجازة التي أمضتها العائلة في سان دييغو عندما كانت آشا في السادسة من عمرها، وعندها قامت بغمر كريشنان بالرمال حتى عنقه أثناء إغفاءته على الشاطئ.

أتاح الوقت الذي أمضته سومر وحدها إدراك مدى تمحوُر حياتها حول كريس وآشا. شعرت في بعض الأوقات بأن حياتها تفتقد إلى المعنى والامتلاء، وذلك بعد كل الأشياء التي أعطتهما إياها خلال كل تلك الأعوام، كما شعرت بالأسف لكل التضحيات التي قدّمتها لمهنتها من دونهما. كانت سومر تنتظر صباحات أيام الآحاد في كل أسبوع، أي عندما تقصد المنزل للاتصال بآشا هي وكريس في الوقت المحدد. كان كريس يتكلم فترة أطول مع آشا، لكن ذلك لم يزعج سومر كما كان الأمر في أوقاتٍ سابقة. لكن صوت آشا، وحتى إن كان بعيداً، تسبّب في انهمار الدموع من عينيها. كانت تدرك بأن ما تفعله مع كريس كان عرضاً زائفاً لزوجين متزوجين وسعيدين. لكنها لم تشعر طيلة الدقائق الثلاثين التي يستغرقها الاتصال الهاتفي مع آشا، وأثناء شربهما القهوة في المطبخ بعد ذلك، بأن ما قامت به هو عرضٌ زائف.

حان الوقت سريعاً، على ما يبدو، للشافاسانا أي وضعية الشجرة التي تستغرق الدقائق العشر الأخيرة من الصف. كانت آشا في البداية تخشى هذا القسم من جلسة اليوغا، أي الاستلقاء من دون فعل أي شيء غير الانتباه إلى الأفكار المقلقة التي كانت تجول في رأسها، وهي صورة آشا خلال مغادرتها إلى الهند، وغضب ابنتها تجاهها، والمواجهات مع كريشنان، والترقية في العمل التي خسرتها، والشكوك المتعلقة بمستقبلها. كانت الشافاسانا بمثابة عدوّتها، وهي أشبه ما يكون بوضعية الجثة،

ويُقصد منها التوصّل إلى راحة العقل والجسد، وكانت الفترة الوحيدة التي تضطر فيها إلى مواجهة أفكارها الأكثر قتامة. لكن ما إن تأتي هذه الأفكار حتى تعجز عن كبحها لأنها تخترق الأوقات التي تقضيها لوحدها عندما تؤلم الوحدة قلبها، وعندما يخيّم السكون على شقّتها.

أدركت سومر صباح ذات يوم أحد، وبينما كانت تعدّ الساعات التي تفصلها عن موعد المكالمة الهاتفية مع آشا، أن كل جهودها التي بذلتها لحماية ابنتها قد أعطت مفعولاً عكسياً. كان الخوف هو الذي منع سومر من منح ابنتها الحرية، لكن هذا التشدّد أعطى مفعولاً عكسياً عندما أدى إلى ابتعاد آشا عنها. أدت مواجهتها المستمرة لهذه الأفكار إلى إفقادها توازنها، أي كما حصل معها أثناء تأديتها وضعية الشجرة.

وقفت سومر ذات صباح تحت الدش قبل انصرافها إلى العمل، لكن سرعان ما أحسّت ببرودة المياه. أدركت في البداية بأنها استهلكت كل المياه الساخنة، وأنه لا يوجد أحد لتترك له ما تبقى من تلك المياه. أدركت سومر في تلك اللحظة أنها توقفت عن البذل في سبيل زواجها، وأنها كانت تتوقع من كريس أن يكون هو الطرف الذي يندمج في تقاليدها، أي كما فعل في البداية بعد أن تبنّيا طفلة هندية، وحتى عندما اشتاق إلى بلده، وطلب منها الذهاب معه.

أحسّت سومر أنها أعطت كثيراً، وأكثر ممّا ينبغي، لأسرتها. لكن والدتها كانت تقول دوماً إن شرط الزواج الناجح هو أن يعطي كل طرف أقصى ما يمكنه تقديمه، وأن يعطي قدراً إضافياً قليلاً بعد ذلك. أضافت الوالدة أنه في مكان ما من ذلك العطاء الإضافي، وفي ذلك المجال الذي يكوّنه الكرم من دون احتساب نقاط الأخذ والعطاء، يكمن الفرق بين الزيجات الناجحة، وتلك غير الناجحة. كانت سونداري تطرح عليها أسئلة عديدة عن الهند وتقاليدها، وهي أسئلة عجزت عن الإجابة عنها، ولم تطرحها على نفسها مطلقاً، وكانت سومر تعتبر في كل مرة بأنه يمكن أن تكون هناك طريقة أخرى. كان بإمكانها أن تتبنى الأمور التي حاولت إبعادها عنها. وكان بإمكان تغيير بسيط في نظرتها إلى الأمور، وتغيير بسيط في نقطة تركيزها، أن يحدثا فرقًا كبيراً.

سمحت سومر لنفسها في لحظة الشافاسانا لأطرافها بالاسترخاء، وسمحت لأصابعها بالتكوّر نحو الأعلى. فكّرت في آشا وكريشنان القابِعَين في الجهة الأخرى من العالم. لاحظت أن محيطاً يفصلها، وللمرة الأولى عن الشخصين اللذين ألّفا نسيج حياتها. اعتقدت سومر أن آشا وكريس قد اتخذا قراراً متعجلاً عندما أعلنا عن مغادرتهما إلى الهند، وأنهما فعلا ذلك لمعاقبتها. لكن سومر فهمت في تلك اللحظة أن هذين القرارين كان لا بد أن يأتيا منذ سنين. كانت هي الطرف الذي تصرّف نتيجة الغضب والخوف، وهي التي خرجت على نطاق عائلتها من دون النظر في عواقب خيارها. كان ذلك يعني أنها تزوجت شخصاً ينتمي إلى بيئة أخرى، لكن من دون أن تفهم ما يعني ذلك بالنسبة إليه. يُضاف إلى ذلك أنها تبنّت طفلة هندية من دون التفكير في عواقب هذا القرار. كانت متلهفة جداً لتحقيق الإنجاز التالي في مسارها، وهذا هو ما دفعها إلى إهمال التساؤل عن مسارها، أو التطلع إلى الأمام.

49

المجال الآمن الوحيد

مومباي، الهند - 2005

آشا

تبيّن لها أن الاسمين الأولين ليسا الاسمَين المطلوبَين، وأنهما يعودان إلى شخصين باسم جاي. ميرشانت. كان التواصل صعباً بما يكفي على آشا، وحتى لمعرفة هذه المعلومة. لكن عندما كانت في طريقها إلى عنوان الشخص الثالث الموجود على لائحتها، تمنّت لو أن مينا موجودة لتترجم لها. بدأت آشا بالاعتقاد بأن ما تقوم به ما هو إلا فكرة مجنونة، وأنه من الجنون الاعتقاد بأنها قد تتمكن من العثور على والديها في هذه المدينة التي يسكنها اثنا عشر مليوناً من البشر، هذا على افتراض أن والديها موجودان في مومباي. هل يُعقل أنهما في إحدى القريتين اللتين تحدث ديشباندي عنهما؟ أيمكنها أن تذهب إلى هناك؟ وكيف يمكنها التواصل مع سكان القريتين؟ وصل الأمر مع آشا إلى حد أنها تردّدت في النزول عندما توقف السائق أمام تلك الشقة المتواضعة. لكن السائق أكد بلغته غير المفهومة بأن ذلك كان المكان الذي تبحث عنه. لم تعثر آشا في الطابق السفلي على لوحةٍ بأسماء المستأجرين، وهكذا بدأت في صعود الدرج الذي يفوح برائحة القاذورات البشرية. غطت أنفها وفمها بيدها. رأت آشا في الزوايا الصراصير الزاحفة بسرعة. وصلت إلى أول استراحة في الدرج، وكان عليها أن تتجنب الدوس على رجلٍ كان نائماً فوق فراشٍ رقيق. أشاحت نظرها عن الرجل كي تتجنب التقيؤ. حامت أفكارها بين الفكرة المقززة لاحتمال أن يعيش والديها في ذلك المكان، أو ما إذا كانا لا يعيشان فيه، وفكرة أن تعجز عن العثور عليهما.

كانت معظم الأبواب في الطابق الثاني مفتوحة. رأت آشا الأولاد يركضون بكل حريةٍ في الممرات، ويلاحقون بعضهم بعضاً حتى مدخل المبنى. رأت آشا من خلال أحد المداخل شابةً وقد انحنت لكنس الأرض. قالت لها آشا: «عفواً. أتعرفين أين يمكنني العثور على عائلة ميرشانت؟ أقصد كافيتا ميرشانت؟» هزّت المرأة رأسها من جانبٍ إلى جانب، ورفعت طفلاً يحبو على الأرض، ثم أشارت إلى آشا أن تتبعها. سارت آشا مع المرأة، ودخلتا مباشرة إلى شقةٍ أخرى من دون قرع الباب. كانت شابة أخرى تنظف سجادة بالعصا على الشرفة. كانت الشقة صغيرةً جداً، أي أنها مؤلفة من غرفةٍ واحدة وبالكاد تحتوي على مفروشاتٍ فيها. كان طلاء الجدران متقشراً، كما أن مصباحاً واحداً تدلى من السقف. فاحت في تلك الشقة رائحة البصل والبهارات التي تصاعدت من مقلاة في المطبخ الصغير. تحدثت المرأتان، وتطلعتا نحو آشا بفضول. لم تكن المرأتان أكبر منها سناً بكثير، وكان يمكن أن يكون حديثهما السري مطابقاً لأحاديث آشا مع صديقاتها في الولايات المتحدة لولا الاختلاف في اللغة. لكن هاتين المرأتين تعيشان مع زوجيهما، وأولادهن بدلاً من العيش مع شريكات السكن، وأيامهن مليئة بالأعمال

المنزلية الروتينية بدلاً من قراءة الكتب والمراجع. شعرت آشا برهاب الأماكن المغلقة عندما فكّرت في العيش في هذا الحيّز الصغير.

«سألت المرأة الأخرى بلغةٍ إنجليزية، وبتردد: «أتقولين كافيتا يا أختي؟ أتعرفين كافيتا يا أختي؟».

«ردّت آشا: «أجل، كافيتا ميرشانت».

«كافيتا يا شقيقتي لم تعد تسكن هنا. انتقلت إلى طريق فنسنت. أتعرفين فنسنت رود؟»».

هبطت آشا الدرج، وأسرعت بالخروج من المبنى. هذه امرأةٌ تعرف أين هي أمّي. عرفت آشا على الأقل بأنها تسير على المسار الصحيح. لم يعرف أول سائق سيارة أجرة أين تقع طريق فنسنت، لكن السائق الثاني الذي استوقفته كان يعرف العنوان، إلا أنه لم يكن متحمساً للتوجّه إلى هناك في ذلك الوقت من اليوم. أخرجت آشا بعض الأوراق النقدية من جيبها، لكن ذلك لم يُفلح في إقناعه. اللعنة. اقتربت كثيراً من هدفها. شعرت أنها قادرة على اختطاف سيارة الأجرة وقيادتها بنفسها. أفرغت آشا بعد ذلك كل ما تحتويه جيبها من أوراق مالية ولوّحت بها أمامه. أومأ السائق قليلاً في النهاية، وفتح الباب الخلفي للسيارة من داخلها. تسارعت الأفكار في رأسها عندما كانت في المقعد الخلفي خلال الجولة التي استغرقت نصف ساعة، وكانت تلك هي الجولة الرابعة لها في ذلك اليوم. كان اسمها أوشا، وهي تمتلك عينين مماثلتين لعينَي أمها، كما عرفت بأن لديها ابنة خالة، ولديها والدين يعيشان في طريق فنسنت، هناك في مومباي. تسارعت ضربات قلبها إلى درجة شعرت معها بأنه يكاد ينفجر في صدرها.

تبيّن لها بأن طريق فنسنت هي شارع صغير يحتوي على مجمّعين سكنيين يشتملان على بنايتين عاليتين مقسمتين إلى شققٍ على ما يبدو. دفعت آشا للسائق كل ما وعدته به، لكنها لم تفكر كثيراً بأنه لم يبقَ معها من المال الكافي لتعود إلى المنزل. لم تشتمل البناية الأولى على مستأجرين باسم ميرشانت، وهكذا دخلت إلى البناية الثانية، ورأت رجلاً يرتدي زياً رسمياً جالساً إلى طاولة في البهو. «هل تسكن «كافيتا ميرشانت هنا؟».

هزّ الرجل الذي يرتدي زياً رسمياً رأسه، وقال: «خرج حارس المبنى في فترة استراحة. عودي «في وقتٍ لاحق».

رأت كافيتا ملفاً على الطاولة، فسألت الرجل: «أيمكنك أن تبحث عن الاسم من فضلك؟ كافيتا «ميرشانت».

فتح الرجل ذو الزي الرسمي، والذي بدا وكأنه يأخذ استراحة بدوره، الملف ومرّر إصبعه فوق «قائمة الأسماء. «ميرشانت... أجل. فيجاي ميرشانت. يسكن في شقة ستة - اثنان».

فيجاي؟ سألت آشا وهي تتطلع بعينيها بحثاً عن الحارس الرسمي للبناية: «لكن ماذا بشأن كافيتا؟ «كافيتا ميرشانت؟ أو جاسو ميرشانت؟».

«كلا. فيجاي هو الشخص الوحيد من آل ميرشانت. فيجاي ميرشانت».

شعرت آشا بأن قلبها يكاد يسقط من صدرها. كيف يمكن أن يكون هذا؟ كانت هناك بناية أخرى في طريق فنسنت، وهكذا استدارت لكي تغادر.

قال الحارس إلى رجل آخرٍ يرتدي زياً مماثلا، والذي لا بد بأنه كان الحارس الرسمي للبناية: «آه، هذا هو. تبحث هذه الفتاة عن كافيتا ميرشانت. لا يوجد اسم كافيتا في القائمة. قلت لها إن شخصاً واحداً من عائلة ميرشانت يعيش هنا. فيجاي ميرشانت».

قال الحارس: «هاه؟ يا لك من مغفِّل أبله. ألا تعرف أي شيء؟» تمتم بعد ذلك بكلماتٍ لم تتمكن من فهمها ما عدا اسمَي كافيتا وفيجاي. التفت الحارس نحوها ليشرح لها ما يحدث: «أنا آسف، هذا الرجل مرتبك قليلاً. أجل، تعيش كافيتا ميرشانت هنا، لكن الشقة مسجلة باسم فيجاي، وهذا هو سبب ارتباكه».

«فيجاي؟».

«أجل. فيجاي، ابنها».

ماذا؟ «كلا، لا يُمكن أن تسكن هنا. إنها... ليس لديها أولاد. لا أعتقد بأن هذه المرأة لديها أولاد. كافيتا ميرشانت؟» ألقت آشا نظرة على دفتر ملاحظاتها للتأكد من معلوماتها. «م - ي - ر - ش - ا - ن - ت. يدعى زوجها جاسو ميرشانت».

ردّ الحارس متطلعاً نحوها مباشرةً، ومتكلماً بثقة تامة: «أجل سيدتي. كافيتا وجاسو ميرشانت، وابنهما فيجاي. يسكنون في الشقة ستة - اثنان».

«ابنهما. تردّدت هذه الكلمة في رأسها بينما كانت تحاول فهم الوضع. «ابنهما؟ أجل. أتعرفينه؟» ظنّ الحارس أن تكرارها لتلك الكلمة هو دليل معرفتها بهما. «لا بد وأنه بمثل سنّك، أي تسع عشرة سنة، أو عشرين».

بمثلِ سنّي أنا؟ «هل أنت... متأكد؟» تردّدت الكلمات والأعداد داخل رأس آشا مثل كرات البلياردو. فجأةً، برزت الحقائق واحدة وراء أخرى بترتيبٍ مدهش. حملت هذه الحقائق معناها، لكن هذا المعنى اختفى مجدداً. عرفتْ بأن والديها الحقيقيين لديهما ولدٌ آخر اختارا أن يحتفظا به. شعرت آشا بمرارةٍ شديدةٍ في فمها. احتفظ والداها بذلك الصبي الآخر، ابنهما. احتفظا به بدلاً مني.

تمكّنت آشا من سماع صوت الحارس آتياً من البعيد، لكنها لم تسمع سوى بضع كلماتٍ قليلة. «كافيتا... ستغيب لفترةٍ من الزمن... في قريتها... ستعود بعد أسابيع قليلة»».

مادت الأرض تحت قدميها وترنّحت، لكنها عثرت على درجةٍ تحتها للجلوس عليها. لم تكن المشكلة في كون والدتها غير متزوجة، وكذلك ليس في عدم رغبة والديها في الاحتفاظ بأولاد، وليس في عدم قدرتهما على تربية الأولاد. كانت المشكلة هي أنا. لم يرغبا في الاحتفاظ بي أنا.

أدركت بعد فترة بأن الحارسَين يحدقان إليها، لكنها لم تتمكن من حبس دموعها ومنعها من النزول فوق خدّيها. حاولت شرح موقفها: «أنا آسفة... كان يوماً متعباً بالنسبة إليّ، كما أنني لستُ معتادةً على هذا الحر الشديد. سأكون على ما يرام. لا تقلقا». أدركت آشا، وحتى عندما تلفظت بكلماتها هذه مدى السذاجة التي بدت بها بالنسبة إلى هذين الغريبين اللذين لم يقلقا عليها، أي مثل جدّتها التي انتظرتها في المنزل حاملةً معها كوباً من الشاي، أو حتى مثل والدها الذي اتصل بها قبل ذهابها إلى الميتم متمنياً لها حظاً طيِّبا، أو حتى أمّها التي طحنت لها حبوب الوقاية من الملاريا قبل مغادرتها إلى الهند، وذلك كي تتمكن من هضمها بسهولة.

احتضنت وجهها بيديها، وبكت بشدة أمام الرجلين اللذين لا يعرفانها، وكذلك الحال مع كافيتا وجاسو اللذين لن يتعرفا إليها لو سارا في البهو بمحاذاتها. شعرت آشا بتوترٍ في معدتها مع تلك الفكرة. شعرت بالهلع لإمكانية تعرّضها لإذلالٍ أكبر. يتعيّن عليّ مغادرة هذا المكان. تنهنهت بشدة ثمّ وقفت بعد أن تناولت حقيبتها. شعرت بالتوتر الذي تزايد في صدرها، وكان كل ما فكّرت به هو الحاجة إلى الخروج من المبنى. «يجب أن أذهب». استدارت وسارت نحو الباب.

«ما اسمك؟ سأخبرها بأنكِ أتيتِ لرؤيتها». صاح أحد الرجلين بها بعد خروجها مسرعةً من المبنى.

كان الهواء في الخارج مليئاً بالضباب الممتزج بالدخان، لكنه كان مريحاً أكثر من جو المبنى، ومن الأمور التي انكشفت فيه. كانت بحاجة إلى الابتعاد عن ذلك المكان. اقترب منها أحد سائقي عربات الأجرة. «تفضلي يا سيدتي». تطلع نحوها مبتسماً بفمٍ مفتوح وبأسنانٍ ملوثة.

ركبت آشا في المقعد الخلفي للعربة، وقالت: «تشيرش غايت، بسرعة!» اعتادت ابنة عمها بريا على الطلب من السائق الإقلاع بسرعة، وهي حذت حذوها، لكن آشا لم تقصد الإقلاع بتلك السرعة.

«دوّس السائق، وقال: «إلى أين تريدين الذهاب يا سيدة؟».

تذكرت آشا في تلك اللحظة أنها أعطت السائق الذي أقلّها في آخر جولةٍ لها ما تبقى لها من نقود، وأنه لم يبق لها أيٌّ منها. بحثت يائسة في حقيبة ظهرها، وفتحت كل الجيوب وفتشتها. شعرت في تلك اللحظة بشيء غير مألوفٍ لديها، وأسرعت إلى إخراجه. كان ذلك الشيء عبارة عن علبةٍ من مربعات الشوكولا بطعم النعناع والتي تحمل اسم ماركة جيراردیلي، والتي هي نوعها المفضّل. أمّي. أدركت آشا أن أمها وضعت هذه العلبة في حقيبة ظهرها في المطار، وهي التي اعتادت أن تضع لها مربعاً من الشوكولا في حقيبة غدائها. أطلقت آشا صرخة فالتفت السائق نحوها، لكنها أشارت له بعدم الالتفات، وتابعت البحث في حقيبتها. لم تعرف آشا ماذا سيفعل السائق إذا لم تتمكن من دفع أجرته، لكنها عثرت على مظروفٍ خلف دفتر ملاحظاتها، وكان ذلك المظروف الذي أعطاها إياه والدها في المطار. أطلقت ضحكة صغيرة وسط الدموع المنهمرة على خدّيها، لأن هذه الالتفاتة من والدها ستساعدها على الوصول إلى المنزل. فتحت المظروف وبدأت بعدّ الروبيات. ربتّت على كتف السائق، وعرضت عليه الأوراق المالية. «إلى أين أستطيع الوصول بهذا المبلغ؟».

«بصق السائق على الطريق قبل أن يجيب: «يمكنك الوصول إلى ورلي».

أنزلها السائق من العربة وسط حشدٍ من الناس الذين بدا لها وكأنهم يصعدون إلى مكانٍ ما. رفعت نظرها، فرأت مبنى هائلاً مزيناً بمنحوتات جميلة فوق درجٍ طويل. أوقفت أحد الأشخاص الصاعدين وسألته: «عذراً. ما هو هذا البناء؟».

«معبد ماهالاكزمي».

أغمضت عينيها لحظة، وتطلعت مجدداً نحو المبنى. سمعت في تلك اللحظة صوت جدّتها متردداً في رأسها. يجلب لي هذا المعبد بعض السلام إلى يومي. صعدت آشا الدرج ببطء. كان الطريق المؤدي إلى المعبد محاطاً بالمحلات الصغيرة التي تبيع الأزهار، وعلب الحلويات، والتماثيل الهندوسية الصغيرة، وبعض التذكارات الأخرى. بدأت قطرات المطر المنهمرة بالتساقط على الأرض خلال صعودها الطويل،

وما لبثت هذه القطرات أن تسارعت وتكثفت، وهو الأمر الذي دفعها إلى الإسراع في خطواتها. اقتربت آشا من القمة، وما لبثت أن رأت مشهداً أخّاذا لبحر العرب الممتد أمامها. خلعت صندالها خارج المعبد، وانضمّت إلى مئات الأشخاص الذين تجمّعوا هناك قبلها. شعرت بعد دخولها بالأرض الباردة تحت قدميها العاريتين. بدا المكان صامتاً في البداية مقارنةً مع الضجيج المخيّم في الخارج، لكن ما إن اعتادت أذناها المكان حتى تمكّنت من سماع التمتمة الخفيفة للإنشاد، وصوت الموج الذي يصدم الصخور في الخارج.

اشتمل المعبد على ثلاثة تماثيل ذهبية تمثل سيّدات هندوسيات مقدّسات، واحتلّ كل تمثال مكاناً خاصاً به محتفظاً بزينته من الجواهر والأزهار، والتقدمات المؤلفة من جوز الهند والفاكهة. رأت آشا أكاليل الزهر المتدلية من وسط السقف بألوانها الصفراء والبيضاء والبرتقالية، بينما أحاط بعضها الآخر بالأعمدة. جلست آشا على ركبتيها في وسط الباحة، ثم جالت ببصرها على الآخرين كي تعرف ما يتوجب عليها فعله. رأت في هذه الأثناء كاهناً حليق الرأس، ومرتدياً ثوباً يغطي وسطه، وكان واقفاً أمام السيّدة التي في الوسط. كان الكاهن يقوم بالترتيل مع رجلين آخرين يضعان أكاليل من الزهور حول عنقيهما. شاهدت في إحدى الزوايا نساء في منتصف أعمارهن، ويرتدين أثواباً طويلة وهنّ ينشدن معاً. كان أحد الشبان الذي يقاربها سناً جالساً إلى جانبها بعينين مغمضتين، وكان يتمايل إلى الأمام ويصلّي.

كان الشاب يقاربها سناً، لكن أين شقيقي فيجاي. إنه شقيق لم تكن تعرف بوجوده، وهو لا يعرف بوجودها كذلك. لكن يُمكن لهذا الشقيق أن يكون في أي مكانٍ في هذه المدينة. يُحتمل أن يكون في ذلك المعبد.

وصلت رائحة البخور إلى أنفها. أغمضت عينيها وأخذت نَفَساً عميقاً، وهي التي اشتاقت إلى والديها طوال هذه السنوات، وكانت تحلم بلحظة الالتقاء بهما كي تشعر بأنها اكتملت. ظنّت آشا على الدوام أنهما مشتاقان إليها كذلك. شعرت بخجلٍ شديد إزاء تلك الفكرة المجنونة التي سيطرت عليها طوال تلك السنين، وعادت دموعها إلى الانهمار مجدداً. لم يشعر والداها بالاشتياق إليها، وهما لا يفتقدانها لأنهما تخليا عنها بكل بساطة.

تلاشت في تلك اللحظة بالذات كل الأحلام التي حملتها في قلبها، وفي صندوقها الرخامي الأبيض. تبخرت هذه الأحلام في الهواء مثل دخان البخور المتصاعد أمامها. حصلت آشا على الإجابات التي أرادتها لأسئلتها، كما عثرت على حلّ اللغز الذي أحاط بجذورها. يعني ذلك بأنه لم يعد هناك أي شيء لتكتشفه، أي أنها ليست بحاجة إلى الالتقاء بوالديها، ومَن يضمن بأنهما لن يرفضاها مجدداً.

تمكنت أصوات الغناء والتراتيل المتصاعدة من حولها من طرد الأصوات الغاضبة في رأسها. أمسكت بالسوار الفضي الذي انزلق بسهولة من معصمها، وما لبثت أن أدارته مرة بعد أخرى بين أصابعها. انضغط السوار المعدني الليّن بين أصابعها، وتغيّر شكله بينما بهت لونه نتيجة مرور الزمن عليه. كان ذلك السوار على ما يبدو هو كل ما بقي لها من والدتها. أمسكت آشا السوار بين راحتَي يديها وأغمضت عينيها. انحنت حتى لامست الأرض بجبينها وبكت.

50

الحب القوي

مومباي، الهند - 2005

كافيتا

شعرت كافيتا بوخزٍ في قدمها اليسرى أجبرها على تغيير وضعيتها أخيراً، وهي التي غاصت في أفكارها، ثمّ كرّرت التعاويذ التي حفظتها منذ أيام طفولتها مستعيدة ذكرياتها مع والدتها. بدا الأمر وكأن الزمن قد توقّف في داخل هذا المعبد المقدّس الذي يخلو من النوافذ المطلة على الخارج، كما حملتها تراتيل الكاهن الإيقاعية إلى الزمن الذي مضى. كان الكاهن يترأس صلاة لاكسمي لزوجين شابين، وربما تزوجا منذ وقتٍ قريب. كانت كافيتا تشعر بأمانٍ في ذلك المكان مع رائحة البخور، وصوت الجرس الذي يطنّ في أذنيها طنيناً خفيفاً، وكانت تشعر بأنها منعزلة عن العالم الخارجي وعن كل متاعبه.

دخل مؤمنون آخرون وخرجوا، وكانوا من صغار السن ومن الكبار، نساءً ورجالاً، ومواطنين محليين ومن السوّاح. سار بعضهم حول داخل المعبد مرة واحدة ببطء، وكأنهم يزورون أحد المتاحف. فضّل آخرون إعطاء تقديماتٍ عاجلة مثل ثمرة جوز الهند، أو قرطاً من ثمار الموز، وذلك عندما يكونون في طريقهم لإجراء مقابلة عمل، أو زيارة مريضٍ في مستشفى. كانت مجموعة من النساء الثريات والبدينات يتجمعن في الزاوية في كل صباح للترتيل، وإظهار تقواهن بصوتٍ عالٍ. لكن الأخريات، من أمثال كافيتا، يكتفين بالجلوس لساعاتٍ طويلة في بعض الأحيان. علمت كافيتا فيما بعد بأن النسوة محزونات مثلها على خسارة كبيرة وعميقة إلى درجة غامرة.

ركعت، وانحنت إلى الأمام نحو الأرض لتقديم صلاتها الأخيرة من أجل أولادها، وذلك كما كانت تفعل على الدوام. لكن بالرغم من أنها في فترة حزن وحداد كابنة، إلا أن واجباتها كوالدة لا تنتهي أبداً. صلّت كافيتا من أجل سلامة فيجاي وخلاصه، وصلّت كذلك من أجل أوشا في أي مكانٍ حلّت فيه، وتصوّرتها، كما كانت تفعل على الدوام، فتاةً صغيرة مع ضفيرتين. لم تتمكّن خلال كل هذه السنوات من تخيّل شكل ابنتها في مرحلة بلوغها، أي كأي امرأة أخرى. كانت تلك هي الصورة التي تحتفظ بها في ذهنها، أي صورة طفلةٍ صغيرة مجمّدة في الزمن. قبّلت كافيتا مفاصل سبابتيها المتشابكتين، والسوار الفضي الوحيد الذي يزيّن معصمها. نهضت مترددة وحرّكت مفاصلها المتعبة. لم ترغب بالمغادرة، لكن كان عليها اللحاق بالقطار الذي اقترب موعده. كان المطر يتساقط في الخارج. تبلّلت من المطر المنهمر بقوة بينما كانت تسرع الخطى بنزول درج معبد ماهالاكزمي، ثم سارت حول المنعطف متجهةً نحو محطة القطار المركزية.

وقفت كافيتا على المنصة بينما كان ركاب القطار الآخر يمرّون بالقرب منها. لم يكن هناك أحدٌ

بانتظارها. كان من المفترض أن تكون شقيقتها روبا في استقبالها، لكن لا بد وأنها مشغولة بالتحضيرات. ملأت كافيتا رئتيها برائحة التراب المألوفة لديها ثم جلست على حقيبتها للانتظار. كانت الحقول منتشرة على مدى الأفق، وكانت أكثر خضرة مما استطاعت تذكّره، أو لربما أثّر جو مومباي الرمادي عليها. تغيّرت أشياء أخرى منذ زيارتها الأخيرة للقرية، أي منذ نحو ثلاث سنواتٍ مضت. لاحظت بأن الطرق الترابية تحولت إلى طرقٍ معبّدة، كما لاحظت وجود كشك للاتصالات الهاتفية بالقرب من المحطة. رأت كافيتا عدة سيارات مركونة في مكانٍ قريب، وكانت من الموديلات الحديثة المتنوعة التي اعتادت رؤيتها في مومباي. كان ما شاهدته مثيراً للقلق قليلاً بالإجمال، وذلك لأنها اعتادت التفكير في قريتها على أنها مكان ثابت غير قابلٍ للتغيّر.

شقيقتي!» سمعت كافيتا صوتاً تتذكره جيداً، فهبّت واقفةً ثمّ غمرتها ذراعا روبا. لاحظت بأن» شقيقتها الكبرى تغيّرت مع تقدّمها في السن، وأن البياض غطّى مساحةً أكبر من شعرها.

ضمّتها روبا بقوة فتمايلتا في عناقهما: «أوه يا كافي، شكراً لله لأنك هنا». أضافت أخيراً بعد أن بدأتا بالمشي: «تعالَي. هيا بنا فالجميع بانتظارنا».

مرّرت كافيتا إصبعها فوق حافة الكوب. شعرت بارتياح كبير عند تقديم الشاي لها، ولأنها تُعامل كضيفة في المنزل الذي أمضت فيه طفولتها. لاحظت كافيتا أنه لم تتغيّر أشياء كثيرة في هذا المنزل، وشعرت بالارتياح. لكن الجدران ازدادت اصفراراً، وظهرت شقوق أكثر في أرضية المنزل الذي لم يتغيّر في ما عدا هذه التغيّرات الصغيرة. كيف هي حال والدي يا ترى؟

قالت روبا أثناء ارتشافها الشاي: «لا تتوقعي الكثير يا كافي. لم يعد كما كان من قبل. إنه يعاني كثيراً. استيقظ في الليلة الفائتة، ونادى أمي. استغرقتُ وقتاً طويلاً لتهدئته وإعادته إلى النوم». تنهّدت أثناء وضعها الكوب على الطاولة. بدأت بلفّ طرف ثوبها على إصبعها، وهي إشارة تتذكر كافيتا من فترة طفولتها بأنها تدل على التوتر. «لا يمكنه تمييز الوقت الذي يضطر فيه إلى دخول المرحاض، لكنه لاحظ الليلة الأولى التي لم تنم فيها زوجته إلى جانبه في السرير منذ خمسين عاماً». هزّت روبا رأسها قبل أن تتابع: «إنني لا أفهم هذه النقطة تماماً، لكنها دليل على الحب القوي».

دخلت الممرضة المنزلية إلى غرفة المعيشة، وأومأت برأسها نحو روبا للإشارة إلى أنها انتهت من حمّام والدهما وإلباسه ثيابه، وأنه بإمكانهما رؤيته. قالت روبا بصوتٍ رقيق أثناء نهوضهما: «إنها نعمة كبيرة لنا يا كافي. إنها صبورةٌ مع بابا حتى عندما يكون متوتراً، ولذلك فإن أمي أحبّتها...» تهدّج صوت روبا مع ذكر والدتها، كما أن التأثر بدا بوضوح على وجهها. تعانقت الشقيقتان مثل ما تعودتا عند تقاسمهما سريراً واحداً عندما كانتا فتاتين صغيرتين. قالت روبا بعد أن مسحت دموع شقيقتها ثم دموعها بطرف ثوبها: «يجب علينا التحلّي بالقوة من أجل بابا. تعالي يا أختي». أمسكت روبا يد كافيتا بحزم ثم دخلت معها إلى غرفة النوم.

كان أول شيء لاحظَته كافيتا في والدها هو جلوسه في السرير ماداً ساقيه، ووجهه الحزين، وخدّيه الضامرَين، وأطراف فكّيه اللذين كانا أصغر حجماً ممّا تذكرته عنه. هرعتْ كافيتا نحوه راكعةً على ركبتيها إلى جانب السرير، ثم تلمست قدميه برأسها. شعرت بالقلق عندما تحسّست الزوايا الحادة لعظام ساقه من خلال غطاء السرير. شعرت بعد ذلك بلمسة يده المألوفة على رأسها.

قال بصوتٍ أجش: «ابنتي».

تطلعت نحوه بنظرةٍ مفعمةٍ بالأمل، وقالت: «بابا. أتعرفني؟» جلست إلى جانبه على السرير، وأمسكت يديه الضعيفتين بيديها.

«بالطبع أعرفك يا ابنتي».

لاحظت كافيتا عينيه المصابتين بالغلوكوما، وهو الأمر الذي جعل من المستحيل عليه أن يرى أي شيء أمامه عدا خيالات غامضة.

«روبا ابنتي. أين ذهبت أمّك الآن؟ قولي لها من فضلك بأنني أريد أن أراها». تلفّظ بهذه الكلمات وهو يتطلع مباشرة نحو كافيتا التي تراجعت إلى الخلف للحظةٍ من فرط ذهولها لأمرين اثنين. لم يقتصر الأمر على أن والدها لم يتمكن من التعرّف إليها، لكنه لم يفهم كذلك بأن والدتها ماتت. حارت كافيتا في ما يجب عليها فعله، وما لبثت روبا أن جلست على الجانب المقابل من السرير.

«كان صوت روبا عالياً عندما قالت: «بابا، هذه هي كافيتا التي وصلت اليوم من مومباي!».

كرّر الوالد: «كافيتا». تبع بعد ذلك صوت روبا وتطلع نحوها. «كيف حالك يا ابنتي؟» رفع يده بعد ذلك نحو خد روبا. «أتعرفين أين هي والدتك؟».

ردّت عليه روبا بلطف، وكأنها تتحدث مع طفل: «سبق أن تحدثنا عن ذلك يا أبي. والدتي ماتت، وكانت مريضة منذ وقتٍ طويل، لكنها ماتت. ستجري مراسم الجنازة غداً».

لاحظت كافيتا نظرة فهم خاطفة على وجه والدها النحيف، وكذلك الحزن الذي يبعث على الألم في عينيه العاجزتين عن رؤية أي شيء. استند عائداً إلى الخلف على وسادته الرقيقة وأغمض عينيه، ثم أطلق صلاة بصوتٍ رقيق، «يا الله». أغمضت كافيتا عينيها بقوة، وما لبثت الدموع أن انهمرت دموعها على خدّيها. رفعت بعد ذلك يد والده إلى مستوى وجهها وقبّلتها.

قالت روبا بعد أن غسلت الطبق الكبير بالماء وناولته إلى كافيتا: «لا تحزني يا كافيتا. إنه لا يتعرف إليّ في بعض الأحيان بالرغم من أنني موجودة معه في كل يوم».

أضافت هذه الجملة جرحاً جديداً إلى جروح كافيتا بالرغم من أنها قيلت بحسن نية، وذلك لأنها ذكّرتها بأنها كانت غائبة عن عائلتها. ردّت كافيتا بصوتٍ رقيق أثناء انشغالها بتجفيف الطبق بقطعة قماش: «حسناً، أعرف ذلك».

«كان رحيل والدتي صعباً عليه. بدا أن ما تبقى له من إرادة قد تلاشى الآن. إنني قلقة جداً من تأثير جنازة والدتي عليه، لكني مرتاحة لأنكِ هنا إلى جانبي. إنكِ تمنحينا القوة». أحاطت روبا شقيقتها بذراعها، وقرصت كتفها بيدها الرطبة.

دُهشت كافيتا بقدرة شقيقتها على التصرّف كامرأةٍ بالغة، وهي التي اهتمّت باحتياجات كل فردٍ من أفراد أسرتها، واهتمّت بالمنزل، وبترتيبات الجنازة. لكن كافيتا شعرت بإحساسٍ عميق من اليأس الناتج عن خسارتها لوالديها: وفاة أمّها، وفقدان والدها لوعيه. بدا لها بأن نسيج عائلتها يتفكّك من تحتها. تطلعت من حولها، ودُهشت عندما لاحظت أن جدران المنزل لا تزال صامدة. لم تعرف في تلك اللحظة من ستكون من دون مساندة والديها، وهكذا لم يتغيّر شعورها بأنها فتاة صغيرة في منزلهما، بالرغم من مرور خمس عشرة سنة على مغادرتها دهانو. كانت توبّخ نفسها بصمتٍ على تصرفها كفتاة صغيرة،

.وبسبب التصرّف بأنانية إزاء قوة شقيقتها

.«قالت روبا: «متى يصل جاسو وفيجاي؟

يصلان بقطار الصباح». أخذت كافيتا الطبق الكبير التالي من روبا، لكنها لم تذكر بأنه من» .المحتمل أن يكون جاسو هو الواصل الوحيد

أمّنا الهند

مومباي، الهند - 2005

آشا

جلست آشا على طاولتها في مكتب صحيفة التايمز محاطةً بأوراق ملاحظاتها. رأت داخل الصحيفة قصاصتين من الورق تحملان رسالتين من سانجاي. استمرت آشا في التفكير فيه لمراتٍ عديدة منذ أن قصدَت شانتي قبل أسبوعين من الزمن، لكنها لم تتمكّن من الاتصال به. شعرت بالخجل والارتباك بعد الاكتشاف الذي توصلت إليه في بهو المبنى الذي قصدته، والذي يقع في طريق شانتي. لكنها عجزت عن تفسير الأمر لنفسها قبل الآخرين. لم ترغب آشا في مواجهة سانجاي، والإحساس بالمشاعر ذاتها مجدداً.

حاولت آشا في ذلك اليوم نقل شريط مقابلاتها وتنقيحه، لكنها لم تتمكن من إزاحة تفكيرها عن ما قالته مينا في دارافي - أمنا الهند لا تحب كل أبنائها بدرجة متساوية. سارت آشا نحو المبنى الذي يوصلها بقاعدة بيانات صحيفة التايمز. نقرت في المربع المخصّص للبحث كلمات «الهند، نِسَب الولادة» وما لبثت أن تلقت عشرات النتائج غير المفهومة. نقّحت كلمات البحث بإضافة كلمتَي، «بنات وصبيان»، فتلقت اثنتي عشرة مقالة. نقرت على المقالة الأولى، وكان مصدرها الأمم المتحدة في العام 1991. تحدثت المقالة عن تناقصٍ مستمرٍ في نسبة ولادات البنات في الهند. أظهر الرسم البياني المرافق التناقص المتسارع لنسب ولادات الفتيات والفجوة المتزايدة بين الفتيات والصبيان. انتقدت المقالة التالية انتشار آلات التصوير فوق الصوتية الخفيفة الوزن في كل أنحاء البلاد. بدا كذلك أن تزايد الأجهزة الصغيرة الرخيصة الثمن نسبياً قد سهّل على الأشخاص الفاسدين التجوال في أنحاء أرياف الهند، وتقاضي أجور من النساء الحوامل لتحديد جنس الجنين. لكن بالرغم من أن الحكومة الهندية قد منعت قبل نحو عقدٍ من الزمان استخدام الآلات فوق الصوتية المخصّصة لتحديد جنس الجنين، إلا أن استخدام هذه الأجهزة لا زال منتشراً بكثرة، وعادةً ما يؤدي إلى زيادة في عمليات الإجهاض الانتقائي، وهي عبارة لم يسبق لآشا أن سمعتها من قبل.

تحدثت المقالة الثالثة عن قتل الفتيات المولودات حديثاً، وكذلك عن إحراق العرائس، والقتل بسبب المهر. اعتبرت آشا المقالات جزءاً من تغطية مرحلة النضال من أجل حقوق المرأة في الهند. ألقت آشا نظرةً سريعة على تلك المقالة قبل أن تضطر إلى إغماض عينيها وإغلاقها. بدأت آشا بالشعور بتوترٍ في معدتها، لكنها أجبرت نفسها على النظر في مقالة إضافية أخيرة، والبحث عن شيء أكثر إثارة للفرح. عثرت آشا على سيرة حياة أحد المحسنين الكنديين الذي أسّس عدداً من دور الأيتام في أنحاء الهند، وحدّقت في صورة امرأة بيضاء كبيرة في السن، وكانت ترتدي ثوب الساري الهندي التقليدي، ومحاطة

من كل الجهات بأطفالٍ هنود بوجوهٍ مبتسمة. قرأت آشا تحت هذه الصورة اقتباساً يفيد بأن عمليات تبنّي أطفالٍ من دور الرعاية والآتية من خارج البلاد، هو أمرٌ لا يلقى التشجيع.

نهضت آشا من مقعدها، وعادت إلى طاولتها حيث أظهرت الشاشة صورة ساكنة تمثّل ياشودا، الفتاة الصغيرة ذات الشعر القصير التي تعيش في حي أكواخ الصفيح. كانت ياشودا الصغيرة تفوح بالحيوية والأمل من بين بيئة البؤس الذي تعيشه في دارافي. لم تدرك ياشودا بابتسامتها المحبّبة إصابتها بالقمل، وواقع أنها لن تتمكن من الالتحاق بمدرسة. هل كنتُ سألقى المصير ذاته لو عشت في الهند؟ شعرت آشا على مدى الأشهر الماضية بالغيرة من مينا نظراً لنجاحها المهني في عالم الصحافة، وكذلك من بريا على طريقة عيشها التي تشتمل على صالون التزيين والتسوّق. أدركت آشا في ذلك الوقت بأنها لم تكن لتعيش تلك الحياة لو بقيت هنا، بل كانت ستعيش مثل ياشودا، أو شقيقتها بينا، أي الفتاة العادية الصغيرة التي لا يقدّرها أحد. لكن ما هو نوع المستقبل الذي ينتظر أولئك الفتيات في هذه البلاد؟ هل ستعيش الفتيات حياتهن بأكملها، أي من الطفولة إلى الأمومة، في دارافي مثل المرأة المعذبة التي أجرت معها المقابلة؟ أم هل ستكون الفتيات أسعد حظاً ويخرجن من حي الأكواخ لينتهي بهن الأمر مثل المرأتين اللتين تعيشان في إحدى الشقق الواقعة في طريق شيفاجي، والمثقلتين بالأزواج والأولاد والواجبات المنزلية؟

حلُمت آشا طيلة حياتها بالأمور التي افتقدتها مثل معرفة والدَيها الحقيقيين، والحب غير المشروط، والتفهّم العميق، والارتباط الطبيعي. هل هذا ما افتقدتُه حقاً؟ أم أنني عشت حياةً خالية من الفرص؟ أتت كلمات آرون ديشباندي عاجلةً إليها. الأسعد حظاً هم الذين يجدون عائلات تتبناهم. فكّرت آشا في طفولتها التي أمضتها في كاليفورنيا، وفي غرفة نومها التي تبلغ مساحتها ضعف حجم منازل دارافي، وفي زيّ مدرسة هاربر، وتلقي العلم في أرقى جامعات الشطر الشرقي من البلاد. فكّرت كذلك في كل تلك السنوات التي تساءلت فيها عن والديها اللذين ربما قدّما خدمةً إليها.

أوشا. أحبّتها والدتها كثيراً إلى درجة إعطائها اسماً. حدّقت في شاشتها على العقد الرفيع الذي يزيّن عنق ياشودا، وتذكرت مدى حماسة الفتاة الصغيرة عندما رأت خواتم آشا. شرحت لها مينا في وقتٍ لاحق بأن الفتيات تكبرن على رؤية المجوهرات من دون امتلاكها. لكن والدة آشا أحبتها بما يكفي لإعطائها سواراً فضياً.

كانت امرأة شجاعة. ولا بد من أن حبها العميق لكِ دفعها إلى إحضارك إلى هذا المكان. كان حبّ والدتها لها كافياً لدفعها إلى الارتحال سيراً على الأقدام من إحدى القرى لأخذها إلى دار رعاية الأيتام. يعني ذلك بأنها أحبّتها بما يكفي للتخلي عنها.

أحبّتها بما يكفي.

أحبّتها.

مسحت آشا دموعها عن خدّيها، وأجبرت نفسها على مشاهدة ما تبقى من المقابلة مع بينا، وحاولت العثور على خيطٍ من الأمل. رأت نفسها على الشاشة، وأدركت كم افتقدت إلى التعاطف مع الآخرين عندما طرحت أسئلتها عن الشعر القصير والمدرسة. حاول باراج حماية الفتيات من الشعور بالإحراج، وليس إعاقة مقابلاتها. لكن مأساة الفتاة المشلولة التي ظهرت بعد ذلك حجبت آلام حياة ياشودا. أشاحت آشا بأنظارها بعيداً عندما رأتها، أي كما فعلت في يوم المقابلة. عادت للتطلع إلى الشاشة، وانحنت إلى الأمام لتراها عن قرب. لا تتذكر آشا أنها رأت وجه الفتاة من قبل. ظهرت الفتاة مبتسمة وكذلك والدتها، وبدت المرأة سعيدة حقاً عندما بدأت مسيرتها التي تبلغ كيلومترين مع ابنتها

المشلولة التي حملتها على ظهرها. ما هو تفسير ذلك؟

أما المرأة التي ظهرت في المقابلة التالية، فكانت مصدومةً ومرتديةً ثوباً طويلاً، ولم تبتسم أبداً إلا فترةً قصيرة عندما أعطتها آشا ورقةً مالية بقيمة خمسين روبية. اللعنة. لماذا لم أعطِها مبلغاً أكبر. يُحتمل أن ذلك المبلغ كان سيساعدها على تجنّب ممارسة الدعارة لليلةٍ أو اثنتين لإطعام أولادها الثلاثة وزوجها المدمن على شرب الكحول. بدت عينا تلك المرأة على الشاشة مجوّفتين. تفحصت آشا دفتر ملاحظاتها وتذكرت بأن هذه المرأة تقاربها سناً، لكنها لم تحتمل تصوّر أن تضطر يوماً إلى بيع جسدها، أو القيام بأي شيء آخر تقوم به النساء الأخريات لتأمين معيشة أسرهن. دوّنت آشا بعد ذلك ملاحظاتٍ قليلة، وعادت لمشاهدة المقابلة مجدداً وركّزت على النساء أثناء أحاديثهن عن أعمالهن اليومية في خدمة أولادهن وأزواجهّن. لكن الفكرة التالية هبطت عليها وكأنها مظلة خيّمت على كل شيء، أي أن القصة الحقيقية للحياة في دارافي هي أولئك الأمهات اللواتي يمثلن مساحة الأمل بالنسبة إلى الأطفال الذين ولدوا في عالم الفقر والعزلة. نقلت آشا صورةً ساكنة للوالدة المبتسمة للفتاة المشلولة إلى مكانٍ آخر في الشاشة. طبعت آشا التعليق التالي فوق الصورة: وجه الأمل: الحياة في أكواخ الصفيح في المدينة.

بدأت آشا بالطباعة، وكتبت القصص التي تتحدث عن شجاعة أولئك النسوة. تسارعت أصابعها فوق لوحة المفاتيح، وكأنها في سباقٍ مع الزمن لتدوين الأفكار التي تتوارد على ذهنها. تطلعت بسرعة نحو الساعة الظاهرة على الشاشة، والتي أشارت عقاربها إلى نحو الساعة السابعة. يعني ذلك أن وقت رجوعها إلى المنزل قد حان، لكن التدفق المألوف لديها للأدرينالين ملأ جسدها، وهو أمرٌ اعتادت عليه عندما كانت تعمل ليلاً على إعداد نشرة هيرالد، وكانت تعلم أنه بإمكانها أن تستمر في العمل طوال الليل إذا كان ذلك ضرورياً. تابعت آشا الطباعة، ثم أمسكت بسماعة الهاتف على كتفها. كان ديفيش هو الذي ردّ عليها.

«أنا آشا. قل للسيدة، من فضلك، بأنني لن أذهب إلى المنزل في هذه الليلة لأنني سوف أعمل في المكتب، وسوف أعود غداً». تكلمت آشا ببطء، وتوقفت عند كل كلمة كي يتمكن ديفيش من فهمها. عملت آشا طوال الليل بكل عناية إلى أن ظهرت ملامح القصة بأكملها، وعندها أحنت رأسها على الطاولة لترتاح.

وصلت مينا في الصباح وكانت آشا في انتظارها في المكتب. «يا إلهي. انظري ما فعلته الهرة. تبدين مرهقة». هل بقيتِ هنا طوال الليل؟»

«أجل في الواقع، لكن الأمر ليس مهماً. اسمعي، أريد العودة إلى دارافي. أريد إجراء مقابلاتٍ إضافية».

نزعت مينا نظّارتها، ورمت حقيبتها على طاولتها: «ماذا تقولين؟ أتريدين التحدث إلى بعض الرجال هذه المرة؟».

«كلا. أريد التحدث مع النساء، والأمهات في الحقيقة».

«رفعت مينا أحد حاجبيها، وقالت: «يبدو ذلك مثيراً للاهتمام». جلست وأضافت: «إنني أصغي حسناً. كنت أنوي التركيز على الأطفال. شاهدتُ المقابلات أكثر من مرة، لكن من المحزن أن يولد»

الأولاد في تلك الظروف التي لم يختاروها، والتي ليس لديهم أي سيطرة عليها. الأمر محزنٌ جداً، لكن المقابلات لا تشكل قصة كاملة. لكن إذا غيّرنا منظورنا، وأخبرنا قصة الأولاد من خلال أمهاتهم، فإن ذلك يغيّر كل شيء. ستتضح أمامنا أموراً كثيرة، مثل الجرأة، والمرونة، وقوة الروح الإنسانية».

استدارت مينا في مقعدها وقالت: «أحببتُ الأمر. إنها زاوية جيدة. أصغي إليّ يا آشا. إنني مشغولة كثيراً. لا يمكنني المجيء معك».

«ماذا بشأن باراج؟».

هزّت مينا: «يمكنك أن تسأليه».

تحدثت آشا في طريقها إلى دارافي مع باراج عن مواضيع المقابلات التي تريد إجرائها. لم تكن متأكدة في البداية ممّا إذا وافق على مرافقتها بدافعٍ من الواجب المهني، أو بدافعٍ من شهامته الذكورية. قالت له عندما ترجلا من عربة الأجرة: «اسمع. إنني مسرورة لأنك أتيت معي». أومأ برأسه بالطريقة الهندية المتواضعة. «أعتقد بأنك لاحظتَ في الواقع بأنني لا أتمكن من التجوال لوحدي. إنني أحتاج مساعدتك بالفعل». لاحظتْ شبح ابتسامة صغيرة، فقررت عدم الخوض في هذا الموضوع.

كانت دارافي مليئة بالنساء، وبالأمهات اللواتي يعتنين بأطفالهن، كما كان هناك أعدادٌ كبيرة من النساء المستعدات للمشاركة في إجراء المقابلات، لكن آشا أكملت طريقها إلى أن عثرت على المرأة التي تريد إجراء المقابلة معها. كانت المرأة جالسةً بهدوء، ومنهمكة بغسل بعض الثياب في دلوٍ كان خارج كوخها، وكان ثلاثة أطفال يجولون من حولها. ألقت آشا التحية على المرأة، وانتظرت إلى أن يحصل باراج على إذنٍ يسمح لها بتشغيل آلة التصوير. همست ببضعة أسئلة إلى باراج، وسمحت له بإدارة معظم الحديث بينما تراجعت هي إلى الخلف لتصوير المقابلة. لكن بعد أن أجابت المرأة على أسئلة عدة دعتهما إلى الدخول إلى الكوخ. اضطرت آشا وباراج إلى إقحام رأسيهما في المدخل أولاً للتمكن من الدخول. رأت آشا مفرشين رقيقين على أرضية الكوخ، كما رأت على الجدار صورةً داخل إطارٍ لامرأة ورجلٍ مسنّين. كانت آشا على علمٍ بأن صوراً كهذه هي تكريم لأفراد العائلة، أو للرجال الروحانيين الذين ماتوا من قبل، وعادةً ما كانت تُحاط هذه الصور بأزهارٍ طبيعية، لكن هاتين الصورتين كانتا مزيّنتين بأكاليل شبه يابسة يحوم حولها الذباب. رأت آشا في الزاوية نموذجاً لمعبدٍ صغير يحتوي على تماثيل وعيدان بخور. انتهت آشا من تصوير الكوخ، وأنهت تشغيل الكاميرا، ثم طلبت من باراج أن يشكر المرأة على وقتها. بدأ باراج بالترجمة، ثم التفت نحو آشا.

«تريد المرأة أن تعرف ما إذا كنتِ تريدين شرب الشاي؟».

ابتسمت آشا نحو تلك المرأة التي لا تمتلك شيئاً، لكنها تعرض عليها كوباً من الشاي. كانت هذه البادرة ستزعجها وتشعرها بالذنب لكنها أجابت: «أجل، شكراً لكِ. أرغب في تناول الشاي». جلست آشا في الخارج مع باراج وبدأت بمداعبة الأولاد وتسليتهم بينما انشغلت المرأة بتحضير الشاي.

كانت المقابلات الأخرى التي أجرياها مماثلة للمقابلة الأولى، وأسهل بكثير من المرة السابقة، لأن آشا تبادلت أحاديث مطولة مع النساء حول حياتهن، وأولادهن، وآمالهن حول المستقبل. تلقت آشا وباراج دعوات لدخول منازل أخرى، وكذلك شربا الشاي، وتناولا مأكولاتٍ خفيفة. طلبت آشا من باراج كتابة أسماء كل الأمهات اللواتي تحدثن معهن.

تجمعت خيوط المقالة في ذهن آشا عند حلول موعد الغداء. قالت بعد أن رفعت راحة يدها لضمّها مع راحة يد باراج علامة النجاح: «إننا نشكل فريقاً رائعاً». بادلها الحركة وابتسم.

«قالت آشا: «ما رأيك بطبق حارٍ من الخضار والخبز؟ أعرف مطعماً عظيماً قريباً من هنا.

انتهى باراج من تناول الغداء، وكان مضطراً للمغادرة إلى منطقة أخرى من المدينة للقيام بمهمة عمل أخرى، وهكذا عرض استدعاء عربة أجرة لآشا قبل توجّهه إلى محطة القطار. رأت آشا عند وصولها إلى المنعطف رجلاً يبيع زهوراً مقطوفة حديثاً وأكاليل.

«قالت لباراج: «شكراً، لا داعي لذلك. سأبقى هنا لوقتٍ أطول قليلاً.

نظر إليها رافعاً أحد حاجبيه، ثم نظر من فوق كتفها نحو حي الصفيح كتحذير. لم يسبق لآشا أن كانت داخل حيّ دارافي من دون مرافق.

يمكنكَ الذهاب. سأكون على ما يرام». وكزت كتفه بلطف. اقتربت آشا من بائع الأزهار، وطلبت» منه الحصول على خمسة أكاليل. توجهت بعد ذلك إلى بائع المثلجات، واشترت خمسة أكواز من المثلجات بالحليب. دخلت آشا الحي مجدداً، وسارت على طريق إلى أن وصلت إلى المرأة الأولى التي أجريا المقابلة معها في ذلك الصباح. كانت المرأة منهمكة بنشر غسيلها على الحبل. حملت آشا إكليلين، وأشارت نحو الكوخ. ارتسمت ابتسامة على وجه المرأة ببطء، وأسرعت بالاقتراب من بين الثياب المعلقة. قبلت المرأة الأزهار، وضمّت راحتَي يديها معاً، ثم أحنت رأسها. ابتسمت آشا، وأعطت المرأة ثلاثة أكواز، ثم عادت إلى الطريق للبحث عن المنزل التالي، لكنها سمعت أثناء ابتعادها ضحكات الفرح الآتية من الأولاد.

وزّعت آشا ما تبقى من الأزهار والمثلجات على النسوة الأخريات بالطريقة ذاتها، أي من دون تبادل كلمات، ولا ترجمة، ولا آلات تصوير. أسرعت بعد انتهائها من هذه المهمة إلى طلب عربة أجرة، والصعود إلى المقعد الخلفي فيها. شعرت آشا على فرصةٍ للاستراحة بألم عميقٍ في ركبتيها بعد حصولها أخيراً، وذلك نتيجة لبقائها مستيقظة طوال الليل. شعرت كذلك بأن شعرَها أصبح دهنياً أكثر من مستواه الذي اعتادت عليه في الهند، أي أنها كانت ستشعر براحةٍ كبيرة عند غسل شعرها جيداً بالشامبو فور عودتها إلى المنزل. اعتادت آشا عندما كانت فتاة صغيرة على قيام والدتها بتمشيط شعرها بكل صبر، بينما تنصرف هي إلى مشاهدة برامج الصور المتحركة. كان ذلك من بين أوقات يومها المفضلة، أي عندما ترفع نظرها عن الأرنب (باغز باني) لترى شعرها مسرحاً على شكل ذيلَي حصان، وتذهب به إلى المدرسة.

عادت إلى ذهن آشا مؤخراً ذكريات عديدة من هذا النوع. تذكرت حفلات أعياد الميلاد التي كانت تقيمها لها والدتها في كل عام، وذلك بعد أن تمضي الصباح بأكمله في تحضير كعكتها وتزيينها. تذكرت كذلك مسابقة البحث عن البيض السنوية التي كانت تجريها في عيد الفصح. كان أولاد الحي يشاركون في هذه اللعبة التي تجري في باحة منزلهم، وكانت آشا تخبئ مجموعة خاصة من البيض في الزاوية ذاتها من العلبة. يُضاف إلى ذلك، وعلى وجه الخصوص، آلة التصوير التي تستخدمها. لم يشجعها والداها على اختيار مهنة الصحافة في البداية، لكن والدتها وافقت أخيراً على الفكرة. حدث الأمر ذاته عندما التحقت آشا بجامعة بعيدة جداً عن المنزل، وعندما اختارت الإنكليزية مادة اختصاص لها بدلاً من العلوم الطبية. لكن بالرغم من أنها اتخذت خيارات عدة أغضبت والدتها، وبعضها اتخذتها عمداً، إلا أنها

لم تشك على الإطلاق بثبات محبة والدتها لها. شعرت آشا بتأنيب الضمير لأنها أغضبت والدتها كثيراً قبل مغادرتها البلاد، والأحاديث العادية والمختصرة التي جرت بينهما منذ ذلك الحين.

كان الوقت متأخراً في المساء عند عودة آشا إلى المكتب، لكن بالرغم من أن حرمان نفسها من النوم في الليلة السابقة قد بدأ بالتأثير فيها، إلا أنها لم تتمكن من التوقف. تفحّصت المقابلات الجديدة وبدأت بالكتابة. استمرت بالعمل إلى أن وضعت هيكلية مقالتها. راجعت عملها بأكمله، ثم عادت للجلوس على كرسيّها. احتاجت المقالة إلى مادة إضافية، وإلى قدرٍ كبيرٍ من التنقيح، لكن القصة كانت موجودة وهي القصة لا يتمكن أي شخص غيرها من روايتها. أغمضت آشا عينيها، ثم رسمت على وجهها ابتسامة بطيئة. كانت مرهقة، لكنّها أرادت التحدث مع شخصٍ واحدٍ فقط. تناولت الهاتف، وطلبت رقم والديها. رنّ الهاتف أربع مرات قبل أن يرد عليها المجيب الصّوتي. «ماما؟ مرحباً، هذا أنا. هل من أحدٍ هناك؟ بابا؟» انتظرت دقائق قليلة أخرى ثم أعادت الاتصال مجدداً. حاولت آشا بعد ذلك برقم هاتف والدتها المحمول. لا جواب. غريب. أين يمكن لها أن تكون عند الساعة الخامسة من بعد الظهر، وفي أحد أيام الأسبوع؟ أنهت آشا الاتصال، واسترخت في مقعدها الدوار، ثم مدّت ذراعيها فوق رأسها وتثاءبت بقوة. شعرت بإجهادٍ عميق في عظامها. كان بإمكانها الاتصال في اليوم التالي بعد أن تنام قليلاً.

52

بقدر ما أتذكر

مينلو بارك، كاليفورنيا - 2005

كريشنان

مشى كريشنان حاملاً هاتفه بيده ثم بدأ بالاتصال، لكنه قطع الخط بعد ذلك، وجلس إلى طاولة المطبخ. هذا غير معقول. لماذا أنا متوتر هكذا؟ أمضى كريشنان معظم وقت رحلة عودته من مؤتمره في بوسطن بالتفكير في ما أراد قوله إلى سومر، أما الآن فكان من الصعب عليه إجراء المكالمة. بقيت حقيبة سفره غير مفتوحة في المدخل، كما أن رزمة من الرسائل البريدية كانت تنتظر من يفتحها. كان كل ما فعله منذ وصوله من المطار هو الإصغاء إلى الرسائل الصوتية، لكنه شعر بالإحباط لأنه لم يسمع أي رسالة من سومر.

أخذ نفَساً عميقاً، ونقر الرقم مجدداً. رفعت سومر السماعة بعد الرنّة الثانية.

قال كريس: «مرحباً. هذا أنا. أريد أن أعلمكِ بأنني عدت إلى المدينة».

ردّت سومر: «آه، حسناً. سأراك نهار الأحد؟» سبق أن أجرى كريشنان مكالمةً مع ابنتهما خارج المكالمات المشتركة التي أجرياها معها، وذلك في محاولةٍ منه لمساعدتها في البحث الذي أجرته عن والدَيها الحقيقيين. أما في آخر مرة اتصل معها فقد علم بأنها ذهبت إلى الميتم، لكنها ترددت في الكلام، وردّت على أسئلته بشكلٍ غامض.

شعر كريشنان بالتوتر في البداية إزاء هذا الأمر، وذلك للمرة الأولى، وشعر بالقلق لاحتمال أن تؤدي كشوفات آشا إلى التأثير على علاقتهما. أحسّ بالتعاطف مع سومر لمرةٍ واحدة، وفهمَ كيف يمكن لهذا الأمر أن يؤدي إلى إثارة الاضطراب عندها. كان من المقرّر أن تكون إجازة نهاية الأسبوع التالية هي آخر مكالماتهما الهاتفية، وذلك لأنه كان من المقرر أن تعود آشا إلى البلاد في غضون أسابيع قليلة. لم تتكون لدى كريشنان في هذه الأثناء أي فكرة عن الأمور التي ستعود بها ابنته، وعن مدى تأثير ذلك على الأسرة. كان كريس حريصاً على التصالح مع سومر قبل ذلك الوقت. كان ذلك التوتر الناتج عن الاشتياق والندم الذي شعر به أثناء فترة انفصالهما، والذي لم يظهر إلى العلن قد زاد إلى مرحلة الغليان بسبب عودة آشا الوشيكة. أما الآن فقد استغرب بأنه بدأ الاهتمام بزوجته بعد أن وصل إلى سن الخامسة والخمسين.

«أجل، اسمعيني. جمعتُ لتوي صور رحلتي إلى الهند. ظننتُ أنكِ تودّين رؤيتها». أخذَ نَفَساً عميقاً آخر. «أيمكنني المجيء في وقتٍ ما... غداً مساءً... إذا كان لديكِ وقت؟ أيمكننا طلب طعام العشاء؟»

أغمض عينيه بقوة، وحاول التفكير في شيء أفضل.

قالت سومر: «كريس، يتعيّن عليّ الذهاب إلى المدينة غداً، لديّ موعد بعد العمل». توقّفت بعد ذلك قبل أن تُكمل: «أجريتُ في الأسبوع الفائت صورةً بالأشعة السينية للثدي، ولم تكن طبيعية. يمكن أن يكون الأمر غير مهم، لكني رتّبت موعداً لإجراء فحص عيّنة للاطمئنان».

تدخّل كريشنان هنا على الفور: «أوه. حسناً، لماذا لا أصطحبك بالسيارة إلى هناك؟ يمكننا تناول طعام العشاء بعد ذلك».

مرّت فترة صمت طويلة قبل أن تتكلم: «حسناً، موعدي عند الرابعة والنصف».

سأكون عندكِ في تمام الثالثة والنصف». أنهى كريس المكالمة، ثم بدأ بتقليب مختلف الأشياء» الموضوعة على طاولة المطبخ إلى أن عثر على الكاميرا. تناول الهاتف مجدداً، واتصل بالرقم الذي حفظه للصيدلية القريبة من المنزل.

مرحباً؟ أيمكنني طباعة الصور من شريحة ذاكرة في أسرع وقت؟»

ابتسمت سومر لكريشنان ما إن دخلت السيارة، وتبادلا القبل، ثم لاحظ كم تبدو جميلة. كان وجهها مشرقاً، كما أن قميصها من دون أكمام أظهر ذراعيها السمراوين.

قالت عندما تقدمت لربط حزام الأمان: «كال - باسيفيك».

كانت آخر مرة أوصلها إلى المستشفى هي عند إجهاضها الأخير. لكن ذكرى تلك الفترة من حياتهما أصابته بالتوتر. اختار كريشنان الطريق السريع رقم 280 للوصول إلى سان فرنسيسكو، وهو الطريق الأبطأ، والذي تحيط به مناظر أجمل من بين الطريقين، وهو الطريق الذي تفضّله سومر على الدوام. تطلع نحوها وحدّق من خلال نافذة السيارة إلى التلال المزينة بالأشجار.

قالت سومر في إجابة على السؤال الذي تردّد في طرحه: «اكتشفت كتلة صغيرة في منطقة الإبط. اكتشفتُ ذلك في الأسبوع ما قبل الماضي عند الاستحمام. إنني متأكدة من أنه ورم صغير، لكني أردتُ التأكد وإجراء فحص بالنظر إلى سجّل عائلتي. أجريت صورة أشعة للثدي في الأسبوع الماضي، وعندها لاحظ طبيب الأشعة كتلة غير طبيعية».

سألها كريشنان: «مَن كان طبيب الأشعة؟ ألديك نسخة عن الأفلام؟ يمكنني أن أطلب من جيم إلقاء نظرة...».

شكراً لك، لكن ذلك ليس ضرورياً. تفحّصت الأفلام بنفسي، وحصلتُ على رأي آخر. أردت إجراء» فحص على عيّنة زيادةً في الاطمئنان». كان صوتها هادئاً كما خلا من أي أثر للقلق أو التوتر اللذين سيطرا عليها عندما كانا يحاولان حلّ مشكلة عدم الخصوبة، وكانت تلك هي آخر مشكلة طبية رئيسة واجهتهما.

يمكنني أن .CPMC مَن سيجري عملية انتزاع الخزعة؟ يعطي مايك استشارات كثيرة في» أسأله عن أفضل طبيب».

التفتت سومر لتنظر إليه، وقالت بطريقة لطيفةٍ وحازمة: «لا أحتاج إليك لحلّ هذه المشكلة بالنيابة

«عني، وكل ما أريده منك هو أن تكون هناك لتساندني. اتفقنا؟».

حسناً». أحكمَ قبضته على عجلة القيادة، وشعر بالرطوبة في راحتَي يده. مدّ يده لتشغيل مكيّف» الهواء، لكنه بذل جهداً كبيراً للمحافظة على هدوء أعصابه، بينما كانت عوامل المخاطرة بالنسبة إلى سومر تتسارع في ذهنه: الجنس الأبيض [القوقازي]، والعُمر في منتصف الخمسينيات، وعدم وجود أولاد حقيقيين، ووالدة أصيبت بسرطان الثدي، وهي كلها عوامل تزيد من حجم المخاطر عند سومر. أما العامل الوحيد في الخانة المقابلة، وللمفارقة، فقد كان ذلك العامل الذي تسبّب بحزنٍ كبير، أي حقيقة غياب الدورة الشهرية عنها قبل عشرين عاماً من الوقت الطبيعي.

هل قلت لك إنني تلقيت في الأسبوع الماضي رسالة بالبريد الإلكتروني من آشا أثناء غيابك؟» «توجّهت إلى مكانٍ يُدعى كهف إليفانت».

ابتسم كريشنان، وقال: «تقصدين كهف إليفانتا. أجل، قلت لها أن لا تفوّت هذه الفرصة. يقع المكان على جزيرة في الميناء. إنه عبارة عن كهوفٍ قديمة، وتشتمل على تماثيل منحوتة في الصخر. يُعتبر المكان مقصداً كبيراً للسيّاح. ألم آخذك إلى هناك؟».

لا أظن ذلك. يبدو أن القردة تنتشر في المكان وهي تقفز على أكتاف الزائرين من السياح، ومن» غيرهم، طلباً للطعام. أرسلت آشا صورة لها وهي تُطعم أحدها. بدت أنها تتسلّى كثيراً. ذكّرتني الصورة بطفولتها. أتذكر كيف أنها أحبّت القردة في حديقة الحيوانات؟ أنظر هنا إلى منزل جافا الحمراء. أتصدّق أنه لا زال قائماً بعد كل هذه السنوات؟» أشارت سومر إلى نافذة كوخ أبيض حيث كانا يشتريان شطائر اللحم عندما كانا يسكنان في سان فرنسيسكو.

تصنّع ابتسامة وهو يقول: «أجل. يصعب تصديق ذلك. كم من الأعوام مرّت. هل كان ذلك منذ عشرين سنة، أو نحو ذلك؟».

سبع وعشرون، أي بعد انتقالنا إلى هنا مباشرة. يا إلهي، أي قبل مجيء آشا. هل أحضرناها إلى» هنا ذات مرة؟».

لا أظن ذلك. كان بإمكاننا الحصول على أطعمة أفضل بكثير عندما أحضرناها». ضحك كلاهما. لم» يكن ذلك الطعام المليء بالدهون مميزاً، لكن كان بإمكانهما أن يأكلا مقابل مبلغ يقل عن خمسة دولارات، وكان ذلك أهم عنصر من عناصر مرتباتهما في فترة التدريب. شعرا بدافعٍ للضحك، وشعر كريشنان بالارتياح في كتفيه.

وصلت سومر إلى المستشفى، وملأت النماذج المطلوبة في مكتب الاستقبال. لاحظ كريشنان الحدود العضلية لساقيها التي بانت واضحة تحت تنورتها التي وصلت إلى ركبتها. أحسّ بدافعٍ مفاجئ لعبور الغرفة، ورفع شعرها، ثم تقبيل رقبتها. لكنه تناول مجلة بدلاً من ذلك، ووضع ساقاً فوق ساق. جلست إلى جانبه بعد مرور دقائق قليلة وتطلعت من فوق كتفه.

قالت بعد أن تطلعت على المقالة التي يحدّق فيها: «التدبير المنزلي؟ لم أعرف أنك تبحث عن» وجبات الدجاج المسائية».

وضع المجلة على الطاولة، وقال: «أعتقد أنني شردتُ قليلاً».

«ردّت سومر: «أرِني الصور».

«أيّ صور؟»».

«أقصد صوَر رحلتك إلى الهند».

«آه، أعتقد أنني تركتها في السيارة».

«دخلت إحدى الممرضات في غرفة الانتظار ونادت: «دكتورة ثاكر؟».

جفل كريشنان، ورفع نظره إلى أن وضعت سومر يدها بلطف على يده. «ليس الآن دكتورة ثاكر». ابتسمت وربتّت على يده، ثم نهضت وتبعت الممرضة.

سمح كريشنان لعقله أثناء انتظاره بالشرود إلى أسوأ الاحتمالات: إزالة الثدي، والأشعة، والعلاج الكيميائي. كانت نسَب الشفاء من سرطان الثدي جيدة نسبياً، لكن كريشنان تعرّف إلى حالاتٍ كثيرة من هذا المرض إلى درجة معرفته بوجود عشوائية ظالمة بالطريقة التي يضرب فيها هذا المرض. يتمكّن المرضى المتوتّرون من مجابهة خطر هذا المرض، بينما يعجز المرضى اللطفاء، أي الذين يعدّون له أنواع البسكويت، أو الذين يجلبون له البندورة (الطماطم) من حدائق منازلهن، عن مجابهته ويموتون باكراً. لكن نسبَ الوفيات تستفيد من قانون المعدلات، وذلك من دون النظر إلى من يستحق الموت أكثر من غيره. لا يُمكن لذلك أن يحدث. ليس معها. ليس الآن.

كانت الأشهر القليلة الماضية صعبةً جداً لأن المنزل الذي أمضى فيه أقل قدرٍ ممكن من الأوقات، كان مليئاً بالأشياء التي تذكّره بحياتهما معاً. لم يسبق له أبداً أن فكّر في أنه سوف يشتاق إلى الوجبات الخفيفة التي كانت سومر تعدّها له في المطبخ فور وصوله إلى المنزل، أو طريقة وضعها لثيابه على السرير في نهاية كل يوم. اشتاق إلى الصباحات عندما كان يستيقظ فجراً، ويستحم، ثم يرتدي ثيابه استعداداً لإجراء عملية جراحية. كان جسدها غائباً عن السرير. لم تكن هناك لتقبيلها قبل انصرافه إلى برودة غرفة العمليات، ولم يكن هناك أي شخص ينتظره بشوق عند عودته إلى المنزل. شعر أن منزله ومكان عمله يتشاركان في الإحساس العقيم ذاته من دون وجودها.

نهض، وبدأ بذرع الغرفة جيئة وذهاباً أمام مكتب الاستقبال مراتٍ عديدة، إلى درجة أن المرأة الجالسة في المكتب توقفت عن النظر إلى الأعلى في كل مرة مرّ من أمامها. رنّ هاتف سومر الخليوي من مكانٍ ما داخل حقيبتها التي تركتها. إنه لا يحب هذا الوضع، أي الانتظار. فكّر في مئات المرات التي مشى فيها إلى غرفة الانتظار للتحدث مع أسرة أحد المرضى لإبلاغ أفرادها الأنباء المروعة. سبق له في اليوم السابق فقط أن أبلغ امرأةً، ولم تكن أكبر منه بكثير في السن، بأن دماغ زوجها قد مات. شجّعها بعد ذلك على الاتصال بأفراد العائلة للوداع بينما لا زال في جهاز التنفس.

«قالت له المرأة بإيمانٍ مطلق: «الوداع؟ إنه لا زال حياً، أليس كذلك؟».

لم يسبق لكريشنان أن فهم لماذا تتمسك أسَر مرضاه بهم بعد وقتٍ طويل من توقف أدمغتهم عن العمل، بينما تتحوّل أجسادهم إلى أصدافٍ فارغة. لكنه فهمَ الأمر الآن، لأنه يحدث هكذا في لحظةٍ واحدة. يتبادل المرء الضحكات مع زوجته في السيارة، ليعود في اللحظة التالية لسماع التشخيص المريع في غرفة انتظار المستشفى. يعجز دماغ المرء، وبالرغم من كل مساراته العصبية، وقدراته المذهلة، وبالرغم من ألغازه التي اعتاد على احترامها عن تحمّل هذا النوع من الأنباء. تستمر تلك العائلات في

رؤية الأشخاص الذين أحبّتهم في مكان ما في الداخل، وبين الأنابيب والأجهزة التي تبقيهم على قيد الحياة. تتشبث تلك العائلات كذلك بأحلامها، وبالذهاب إلى حفل زفاف فتياتها، وبحملِ أحفادها، وبالتقدم في السن معاً. عرف كريس في تلك اللحظة، وبالطريقة ذاتها أنه ليس من السهل عليه أن يسمح لسومر بالرحيل، حتى ولو أرادت ذلك.

ظهرت سومر بعد ذلك في غرفة الانتظار، وجلست بقربه. سألها: «هل كل شيء على ما يرام؟» أومأت. قال لها: «رنّ هاتفك».

آه. يُحتمل أن تكون معلمة اليوغا. إنني لا أفوّت صف نهار الثلاثاء». أومأ كريشنان، وقلق من» مستوى قوة صوته. وضعت سومر حقيبتها على حضنها، وقالت: «شكراً لك لمجيئك معي اليوم. إنني مسرورة بالفعل لأنك هنا».

«بالطبع. أين يُفترض بي أن أكون؟» قرص ركبتها بلطف، وترك يده هناك.

«متى تحصلين على النتيجة؟».

«قالوا لي إنهم سوف يستعجلون النتائج. آمل أن يكون ذلك خلال يومٍ أو اثنين».

دُهش كريشنان بهذا التدفق المفاجئ للعواطف التي شعر بها، وشعر بكتلةٍ في حنجرته. قال بعد أن قرّب جسمها من جسمه، وأحاط كتفيها بذراعه: «هيا بنا. دعينا نخرج من هذا المكان. سأصطحبك لنتناول طعام العشاء في أي مكانٍ تختارينه في هذه المدينة الرائعة. يمكنك تسمية أي مكان».

كان يوماً ربيعياً نادراً في سان فرنسيسكو حيث كانت الشمس مشرقة والجو صافياً، وكان من الممكن رؤية باي بريدج (جسر الخليج) بكل وضوح بعد جلوسه حول طاولة النزهة أمام الريدس. كان شعر سومر الذي كانت ترفعه إلى الخلف عادةً يتطاير حول وجهها بفعل النسمات اللطيفة.

قالت سومر التي حملت شطيرة اللحم الملفوفة بالورق أمام وجهها: «إنها ليست طيّبة بالقدر الذي أتذكره». ابتسمت بعد ذلك بطريقة جعلتها تبدو أصغر سناً بعشر سنوات.

«قال كريس: «أعتقد أن أذواقنا قد تغيّرت خلال العقود القليلة الماضية».

ضحكت سومر بهدوء: «هذا إذا لم نقل شيئاً عن عمليات الاستقلاب عندنا. أراهنك بأن هذه المقالي ستنتهي في ردفيّ غداً صباحاً».

«قال كريس: «أتعلمين أنك تبدين رائعة يا حبيبتي».

«أتعني بأنني رائعة على افتراض عدم إصابتي بالسرطان؟».

«كلا. أعني أنك تبدين رائعة بالفعل، وقوية وبصحة جيدة. أتمارسين اليوغا؟».

قالت سومر: «أجل. أقنعتُ والدتي بممارسة اليوغا كذلك، وذلك بعد أحسّت بصعوبة كبيرة في رفع ذراعها، وفي رفع الأشياء. بدأت الشعور بالإحباط، وأنت تعرف أنها تحب القيام بالأعمال بنفسها، ولذلك اصطحبتها إلى عددٍ من الصفوف معي، كما أحضرت لها عدداً من أشرطة الفيديو التي يمكنها الاستفادة منها في المنزل. ساعدها ذلك على شفاء جرحها، كما تحسنت قدرتها على الحركة، وأصبح مستوى

«الطاقة عندها أعلى بكثير».

«عظيم».

«دُهشتْ كثيراً بالتحسّن الذي طرأ عليها، وكذلك فعل الطبيب الجراح الذي أجرى لها العملية الجراحية. كتبت بعد ذلك مقالةً في ستانفورد ويمنز هيلث حول فوائد اليوغا للناجيات من سرطان الثدي. طلب مني مركز السرطان بعد ذلك إجراء ورش عملٍ للمرضى. أعتقد أنني سوف أقنع والدتي بالمجيء لمشاركتي ورشة العمل. تستطيع والدتي عرض بعض وضعيات اليوغا، بينما أعرض بعض الشرائح عنها».

قال كريشنان: «إنها محظوظة لأنك تهتمين بها. إننا نهتم بها معاً». ابتسم أمام سومر، المرأة القوية، والذكية، والواثقة من نفسها التي وقع في غرامها، وهي أظهرت الجانب الذي لم يره منذ وقتٍ طويل. هل تغيّرت بهذا القدر في هذه الأشهر القليلة الماضية، أم هل عميتُ عنها مع مرور السنوات؟ بدا مع ذلك أن سومر لم تكن الوحيدة التي تغيّرت، بل إن طبيعة تفاعلهما معاً بدت مختلفة. لكن سواءً إذا كان السبب يعود إلى الوقت الذي أمضياه بعيداً أحدهما عن الآخر، أو ابتعاد آشا عنهما، أو الخوف الناتج عن فحص الخزعة، فقد شعرا وكأن ضوءاً ساطعاً غمرهما، وهو الضوء الذي كشف كل شيء قاما بكبته طيلة سنوات. بدا الأمر مشابهاً لما يحصل فوق طاولة العمليات التي تنكشف فوقها كل الحقائق، أي أن رؤية هذه الحقائق مهما كانت مؤلمة، وبوضوح هي الخطوة الأولى نحو الشفاء.

ابتسمت سومر، وتلاعبت بعقدها، وهو الأمر الذي ذكّره بالأيام التي تبادلا فيها المغازلات بكل وضوح. تناسيا عند هذه النقطة، وللمرة الأولى منذ انفصالهما، كل النقاشات التي لم يتلفظا فيها عن المرض، والموت، والخوف، وهي النقاشات التي حلّت مكانها الأحاديث المفصلة عن الأمور التي قاما بها في تلك الفترة. أخبرته سومر عن رحلتها إلى إيطاليا، والتي مارست خلالها رياضة ركوب الدراجات الهوائية، والتغييرات التي حدثت في المراكز الإدارية في المركز الطبي. أما هو فأخبرها عن المباراة التي كان سيجريها نادي كرة المضرب، وسخّان المياه الذي تعطل في المنزل. لكن الموضوع الأهم الذي غاب عن نقاشاتهما كان موضوع ابنتهما. بقيت الصور التي جلبها كريس كما هي في السيارة.

جلسا في الهواء الطلق إلى أن أتت طيور البحر على ما تبقى من طعامهما، وحتى أصبح الهواء بارداً جداً، وإلى أن أضاءت المصابيح أطراف الجسر.

«أحاطت سومر صدرها بذراعيها وارتعشت من شدة البرد: «أعتقد بأنه يجب علينا الذهاب».

مرّ وقت العودة من المركز الطبي بسرعة. انتبه كريس في هذا الوقت إلى أنه يقود السيارة نحو المنزل حيث كان يعيش لوحده. جلسا داخل السيارة التي ركناها في الطريق الخاصة بالمنزل، وكأنهما حبيبان مراهقان في أيام دراستهما الثانوية. أطفأ محرك السيارة. قال لها بصوتٍ وديع: «اسمعي... أتريدين تمضية الليلة هنا؟ أعرف بأنه لا زال لدينا الكثير...».

«قاطعته بأن وضعت إصبعين من أصابعها فوق شفتيه. قالت مبتسمةً: «أجل».

فتح كريس عينيه في الصباح، ورأى شعر سومر الذهبي منسدلاً فوق الوسادة. تنهّد، ثم شعر بسيلٍ مفاجئ من العواطف التي اعتاد عليها في بداية وقوعه في حبّها. نهض من السرير وحرص على عدم إيقاظها، ثم نزل الدرج. تذكّر أن البراد (الثلاجة) لا زال فارغاً بسبب الأسبوع الذي غاب فيه عن

المنزل. فكّر في الذهاب إلى المتجر لتحضير طعام الفطور. لاحظ كريس عندما ملأ إناء القهوة بأن الضوء الأحمر يومض في جهاز المجيب الصوتي. كانت الرسالة من والدته في الهند، لكنها لم تقل أي شيء غير طلبها أن يتصل بها. علمَ كريشنان بأن شيئاً ما على غير ما يرام حتى من خلال الخطوط الهاتفية المشوّشة.

53

مسألة عائلية

مومباي، الهند - 2005

آشا

استسلمت آشا للنوم في سيارة الأجرة عندما كانت في طريقها إلى منزلها بعد فراغها من العمل في جريدة التايمز، وهكذا اضطر سائق السيارة إلى إيقاظها عند وصولهما. دفعت له أجرته، ودخلت إلى المبنى. بقيت آشا مستيقظة طوال ست وثلاثين ساعة حتى ذلك الوقت. أمضت آشا هذه الفترة في كتابة المقابلات التي أجرتها مع النساء في دارافي، وتصويرها، وتنقيحها. وذكّرت نفسها بضرورة الاتصال بوالدتها في الصباح، ثم تثاءبت وطرقت باب المنزل. انتظرت سماع وقع خطوات ديفيش المألوفة لديها.

تناولت آشا البطاقة التي أعطاها إياها سانجاي من جيبها. الوعد هو الوعد. اعتزمت الاتصال به في الصباح، وذلك بعد إتمامها القصة التي تعمل عليها بأكملها. لكن بعد مرور لحظات عدة من الانتظار، وسماع الأصوات في الداخل، أدارت مقبض الباب، ولاحظت بأنه لم يكن مقفلاً. وضعت حقيبتها على الأرض بعد دخولها، ومشت بين صنادل متنوعة كانت منتشرة في المدخل الأمامي. سارت نحو غرفة الجلوس حيث سمعت همهمة أصواتٍ خفيفة. مَن هم الزائرون في ساعة كهذه؟

رأت جدّتها جالسةً على أريكة، وكانت محاطة من الجانبين بالنسوة اللواتي بدا عليهن القلق. أحنت الجدة رأسها قليلاً. أدركت آشا بأن شيئاً ما ليس على ما يرام حتى قبل أن ترى وجهها. قالت الجدّة بعد أن رفعت نظرها: «هذه هي آشا حفيدتي الآتية من أميركا. هل تعذروننا للحظة؟» وقفت بعد ذلك، وتقدمت نحو آشا وأمسكت يدها.

«قالت النسوة بصوتٍ واحد بعد أن أومأنَ في وقتٍ واحد: «أجل. أجل، بالطبع».

مشت الجدّة بصمت نحو الغرفة الصغيرة التي اعتادت آشا على اعتبارها منزلها على مدى السنة المنصرمة. جلست على السرير، وأشارت لآشا بالجلوس إلى جانبها: «ابنتي. حانت ساعة جدّك. رحل بسلام خلال نومه في وقتٍ مبكرٍ من هذا الصباح».

وضعت آشا يدها على فمها وقالت: «جدّي؟» جالت بنظرها في أنحاء الغرفة، ثم نحو الباب: «أين...؟».

أمسكت الجدة يديها: «أخذوا جثمانه يا ابنتي. رحل بسلام في وقتٍ مبكرٍ من هذا الصباح. رحل بسلامٍ تام».

رحل في هذا الصباح، بينما كنت.. أعمل؟ كان صوت الجدة متماسكاً، لكن الاحمرار الذي أحاط بعينيها أبلغ آشا بقية القصة. تطلعت على الأيدي المتشابكة المستريحة في حضنها. رأت أصابع الجدة التي كادت العظام أن تبرز منها مع الشرايين الخضراء التي ظهرت بوضوح تحت جلدها، أما أصابعها هي فكانت تضج بالشباب والحيوية. ملأت الدموع أيديهما، بينما ضغطت الجدة على أصابعها، وهمست لها: «سأطلب منك أن تفعلي شيئاً يا آشا لأن والدك لن يكون هنا للقيام بالواجب الملقى على عاتق الابن الأكبر، ولذلك يجب أن تأخذي مكانه. يتعيّن عليك إشعال المحرقة خلال مراسم دفن جدّك. تكلمتُ مع أعمامكِ، وهم سوف يقفون إلى جانبك، لكني أريدك أن تقومي بإشعال المحرقة». سكتت قليلاً قبل أن تتابع بلهجةٍ حازمة، ولتقطع الطريق على أي اعتراضات محتملة: «هذا هو واجبك تجاه عائلتك».

تعرف آشا جيداً أن ذلك غير صحيح، لأن التقاليد تقضي بأن يقوم الابن البكر بترؤس عائلته ما إن يموت الأب، لكن في غياب الابن البكر يستطيع رجالٌ آخرون القيام بهذا العمل، مثل الأعمام، والأصدقاء، وأبناء الأعمام، وحتى الجيران. كان أحد أهم الأشياء التي تعلّمتها آشا في الهند هي وجود سلسلة طويلة من الرجال المستعدين لنيل شرف القيام بهذا العمل. حدّقت إلى عينَي جدّتها، ورأت فيهما التصميم والحزم. أقدمت الجدة على إدخال آشا إلى صلب تلك العشيرة، وكأنها كانت واحدة من أفرادها على الدوام، كما عاملتها وكأنها قوية وغالية بالنسبة إليها. هل قالت واجبكِ تجاه عائلتك. عائلتي. هل كانت تعني الأشخاص الذين لم تقابلهم أبداً من قبل، وهي التي بالكاد تحدثت معهم قبل سنةٍ من الزمن، والذين أوصلوها من المطار في منتصف الليل واصطحبوها إلى مناطق سياحية لم تكترث بزيارتها مجدداً. علّمتها جدّتها كيفية ارتداء الزيّ المؤلف من قطعتين، وإطلاق الطائرات الورقية، وتناول الأنواع الجديدة من الطعام. لم تولد آشا وسط هذه العائلة، ولم تنشأ مع أفرادها، لكن ذلك لم يشكّل أي فرق بالنسبة إليهم، ولذلك فعلوا ما بوسعهم لأجلها.

جاء دور آشا لاتخاذ القرار في تلك اللحظة، فشعرت بكتلةٍ في حنجرتها، وما لبثت أن أومأت بالموافقة.

استيقظت آشا على أصوات مجموعة من الحمائم عندما تسلّلت خيوط الفجر الأولى من خلال النافذة، وسمعت أصوات الحمائم ونعيبها أثناء تناولها بمناقيرها للطعام الذي اعتادت الجدة نثره في كل صباح على الشرفة، حتى في ذلك اليوم. نهضت آشا من السرير، واستحمّت ثم ارتدت ثيابها، وذلك بحسب تعليمات جدّتها.

رأت آشا صورة كبيرة مؤطرة، ومزينة بالأزهار المقطوفة حديثاً تمثّل جدّها في غرفة الجلوس. كانت الجدة جالسة حول الطاولة وتحدّق من خلال النافذة، لكن من دون أن تتناول الشاي الذي اعتادته في كل صباح. «مرحباً يا ابنتي. تعالي، ودعينا نرتدي ثيابنا. سيحضر الكاهن بعد وقتٍ قصير». شعرت آشا بالتوتر بسبب اضطرارها العودة إلى غرفة النوم. لكنها انتقلت ببصرها إلى الجهة التي يرقد فوقها جثمان جدّها، ورأت على طرف السرير ثوبَي ساري. تناولت الجدة الثوب ذا اللون الأصفر الشاحب، والمطرّزة أطرافه تطريزاً رفيعاً ثم ناولته لآشا. أحبّ جدّك أن يراك وأنت ترتدين أول ثوب ساري. ضعي معطفكِ القصير والبلوزة وسوف أريك كيفية طيّه».

بقي الساري الآخر فوق السرير، وكان أبيض اللون من دون أي تطريز، وهو اللون التقليدي الذي ترتديه الأرامل الهنديات لبقية حياتهن. تمتنع الأرامل عن استخدام مساحيق التجميل، والجواهر، والألوان، وهي الأمور التي تشير إلى أنهنّ في فترة حداد. دُهشت آشا مجدداً بجدّتها التي تتبنى التقاليد

من جهة، وتتجاهلها من ناحية أخرى. كانت آشا تعتبر هذا النوع من التناقض مثيراً للاستغراب إلى الحد الأقصى قبل قيامها برحلتها، ونوعاً من أنواع النفاق. لكن تجارب السنة الماضية علّمتها أن العالم أكثر تعقيداً بكثير ممّا كانت تعتقد. بدأ الأمر معها بالبحث عن أسرة لينتهي باكتشاف أسرة جديدة. أتت آشا إلى الهند من دون أن تعرف شيئاً عن والديها الحقيقيين ومع معرفتها بما تبقى لها من حياة، لكن تبيّن لها في ذلك الوقت بأن العكس هو الصحيح.

كان الجزء العلوي (البلوزة) من ثوب الساري مصمَّما ليناسب امرأة انجبت أولاداً وأرضعتهم، وكان واسعاً جداً بالنسبة إليها. اقترحت آشا ارتداء قميص من دون أكمام بدلاً من البلوزة الواسعة، لكن الجدة عارضتها في البداية، إلا أنها أذعنت في النهاية، واعترفت بأنه يبدو جميلاً عليها. تمتمت الجدة لنفسها وهي منشغلة بتثبيت الثوب: «أتساءل لماذا لا نقوم جميعاً بهذا. نظرت آشا إلى صورتها المنعكسة في المرآة فذُهلت لأن الساري زاد من إغرائها، وكان مريحاً إلى درجةٍ مدهشة.

بدأ الأقارب بالوصول بعد وقتٍ قصير من انتهائهما من ارتداء ملابسهما. تجمّعت بريا، وبيندو، والنساء الأخريات في غرفة المعيشة حول صورة الجد، وبدأت بعضهن بالغناء بنعومة، بينما بدأت أخريات بالصلاة بصوتٍ هادئ. وصل الكاهن فطلبت الجدة من آشا أن تتبعها إلى الشرفة. شعرت آشا بالجوع الشديد عندما مرّت من أمام المطبخ، لكن الجدة سبق أن أبلغتها بأنه لا يُسمح لهن بتناول الطعام إلا بعد انتهاء مراسم الجنازة.

«انحنى الكاهن الذي كان واقفاً في الخارج للجدة، وقال: «أين أبناؤك يا سيدتي (سارلا جي)؟».

قالت الجدة: «سوف ينضمون إلينا عند الدرج العريض. لكن آشا ستكون هي التي سوف تساعد في الطقوس مكان والدها».

ظهرت نظرة من الارتباك على وجه الكاهن، وما لبث أن أظهر ابتسامة مصطنعة، وقال: «من فضلك يا سارلا جي. أعتقد أنك لا تريدين إهانة روح زوجك. يتعيّن عليكِ اختيار أحد الذكور من أقربائك، أو واحدٍ من أولادك الآخرين...».

نظرت آشا إلى جدّتها، ولاحظت عينيها المتعبتَين، وما لبثت أن قالت: «إنها مسألة عائلية يا سيادة الكاهن مع كل احترامي، لقد اتخذنا قرارنا».

وصلت آشا مع جدّتها ووجدتا أن مئات الأشخاص قد تجمّعوا استعداداً لمراسم الجنازة. وكان هناك عشرات الممرضات في المكان مرتديات معاطفهن الطبية. رأت آشا نيميش وأقرباء آخرين لها، وأعمامها وغيرهم من الأقرباء الذين التقتهم في فترة الصيف. كان سانجاي واقفاً مع والده الذي ظهر الاحمرار على عينيه مثل عينيها. تعرّفت آشا إلى عددٍ من جيران السكن، وحتى على تاجر الخضار الذي يأتي إلى المنزل في كل يوم. كان نيل وباراج اللذان يعملان في الصحيفة حاضريَن كذلك. لكن معظم المشاركين في المأتم ألقوا عليها التحية بانحناءة، وضمّوا أيديهم احتراماً لها، كما أن عدداً منهم انحنوا للمس قدمَي الجدة. كان ذلك أقصى علامة على الاحترام.

كان ارتفاع المحرقة الخشبية يساوي طول آشا، بينما كان جثمان الوالد ملفوفاً بقماشٍ أبيض اللون. وقفت آشا إلى جانب الكاهن، وراقبته بكل اهتمام عندما بدأ بالغناء والترتيل. غمس أصابعه في إناء مليء بالماء المقدس، وحبوب الأرز، وبتلات الأزهار، وبدأ برش تلك المياه على المحرقة، وأشار لها أن تحذو حذوه. لم يمرّ زمنٌ طويل حتى تمكّن ترتيل الكاهن المستمر والإيقاعي من تهدئتها، وهذا ما

قلل من مستوى قلقها من وجود الأشخاص المحيطين بهم.

أشار الكاهن بعد ذلك نحو أعمام آشا، وما لبثوا أن تقدموا. تكلّم بهدوء بعد ذلك، ثم وضع بعض حبوب الأرز المنتفخة فوق راحات أيديهم المفتوحة، وبعض عيدان البخور، وإناءً يحتوي على الزيت المصفّى. سار أعمامها حول المحرقة، وقدّموا تقديماتهم لجثمان الجدّ المسجى. أنهى الأعمام دورانهم حول المحرقة ثم عادوا للوقوف إلى جانب الجدة.

توجّه الكاهن أخيراً بكلماتٍ قليلة إلى آشا بلغة الجوجاراتي، ثم أشار إلى اللهب المتصاعد من مصباح الزيت. تطلعت آشا نحو وجه جدّتها المجعّد، وعلى عينيها المبلّلتين بالدموع، ثمّ تقدّمت خطوةً إلى أمام. التقطت الأغصان المحيطة بمصباح الزيت. دارت آشا حول المحرقة ثلاث مرات، وذلك بحسب تعليمات الكاهن، ثم قرّبت اللهب إلى طرف المحرقة. ارتجفت يداها، لكنها ثبّتتهما إلى أن لامست ألسنة اللهب الصغيرة أطراف الأغصان.

تراجعت آشا إلى الوراء، ووقفت إلى جانب جدّتها، ثم راقبت ألسنة اللهب أثناء التفافها ببطء على جوانب المحرقة إلى أن وصلت أخيراً إلى جثمان جدّها الملفوف بالغطاء الأبيض. رأت آشا من خلال ألسنة اللهب المتراقصة وجوه أعمامها وأبناء أعمامها. عائلتي. كان والدها هو الشخص الغائب الوحيد عن الجنازة، لكنها أدركت بأنه كان يحب أن يحضر جنازة والده. قال لها ذات مرة، تكون الأسرة التي تقومين بتكوينها أكثر أهمية في بعض الأحيان من الأسرة التي ولدتِ بينها. تقدّمت آشا من يد الجدة المليئة بالعقد، وأمسكتها بيدها بحزم بينما كانت دموعها تنهمر على وجهها.

سكون غريب

دهانو، الهند - 2005

كافيتا

حملت كافيتا أحد أعداد مجلة ستاردست القديمة والذي يعود تاريخه إلى العام 1987 وسألت: «أكنتِ تعرفين بأن هذا العدد هنا؟».

«كلا! ماذا كانت والدتي ستفعل به؟ لم تكن تستطيع القراءة».

تصفحت كافيتا الصفحات الرقيقة من ذلك العدد لمجلة الأفلام السينمائية، وقالت: «لا أعرف. يُحتمل أنها أحبّت الصور. انظري إلى هذه الأزياء التي أصبحت الآن موضة قديمة. يا إلهي».

تقدمت روبا نحو كافيتا، ووقفت على أطراف أصابعها، ثم نظرت إلى الخزانة المعدنية التي كانت كافيتا تبحث فيها. «يا إلهي! لا بد أن مئاتٍ من أعداد هذه المجلة توجد هنا!» ضحكت ثم سحبت رزمة من أعداد هذه المجلة المربوطة معاً بخيط.

قالت كافيتا: «لا أصدّق أنها كانت تنفق المال على المجلات، ومجلات بوليوود على وجه الخصوص. لا أصدق أن والدتنا المقتصدة، والتي كانت توفر كل حبة سكر، يمكنها أن تفعل ذلك. أتساءل لماذا كانت تحتفظ بكل هذه المجلات؟».

«مَن كان يعرف أن والدتنا كانت من هواة الأفلام؟» تابعت روبا وضع المجلات بعضها فوق بعض على السرير بالقرب من أثواب الساري التي ارتدتها والدتها.

قالت كافيتا لشقيقتها مبتسمةً مع شعورها بالذنب: «أوه، يدفعني الأمر إلى الضحك. أشعر أنني لم أكن أفعل شيئاً غير البكاء منذ أن أتيت إلى هنا».

«أجل. كان الأمر صعباً في هذا الصباح. أليس كذلك؟ أعني وجود والدي هناك؟» كانت روبا تشير إلى طقوس الإحراق التي جرت في وسط القرية. ركع والدهما على ركبتيه، وبكى فور رؤيته جثمان والدتهما فوق المحرقة. اهتز جسده الضعيف وتنهّد بقوة. عجزت ابنتاه عن تعزيته في هذا الوقت. عجزت كافيتا عن تحمّل هذا الحزن الشديد النابع من القلب، واليأس الذي شعر به والدها. لم تعرف كذلك أي المشهدَين كان أكثر قسوة عليها، هل كان جثمان والدتها الملفوف بالقماش، أم مشهد والدها اليائس إلى جانبها. شعرت كافيتا بالامتنان لأن جاسو كان إلى جانبها، وهو الذي ضمّها بقوة بينما كانت تبكي بشدة مثل الأطفال. جرت العادة أن تقضي النساء فترة الحداد في منازلهن، لكن الشقيقتين لم تتمكنا من

السماح لوالدهما بالذهاب وحده. بقي الجميع لوقتٍ غير محدد واقفين لمشاهدة النار حتى انطفاء آخر جمرة. جمع الكاهن الرماد في جرة مستخدماً رفشاً صغيراً، ثم سلّمها إليهن. لم يتلفظ الوالد بأي كلمة، ولم يأكل منذ أن أتت الشقيقتان إلى المنزل. شرحت كافيتا للضيوف سبب غياب فيجاي بأقل قدرٍ ممكن من الكلمات والعناق، وذلك بالرغم من أنها أرادت أن تصرخ. كلا، ابني ليس هنا، لكن ماله موجود هنا، في أكاليل الآذريون، وفي هذا الطعام، الطعام الذي ستأكلونه.

أومأت كافيتا، وقالت: «الأمر صعبٌ جداً. إنني مسرورة لأنه ينام الآن. يُحتمل أن فقدانه لذاكرته هو نعمة من الله. يُحتمل بأنه لن يتذكر أي شيء عندما يستيقظ».

قالت روبا: «لكن الجزء الوحيد من ذاكرته الذي يعمل الآن هو الجزء الذي يتذكرها. أعتقد أن الأمر نعمة بالفعل. فكّري في هذا الأمر. كانت والدتي في السادسة عشرة من عمرها، وكان هو في الثامنة عشرة من العمر عندما تزوجا. يعني ذلك أنهما أمضيا نصف قرن من الزمن معاً. إنه لا يستطيع تذكّر حياته قبلها».

أومأت كافيتا بالموافقة لأنها لم تتمكن من إجابة شقيقتها، ولأنها شعرت مجدداً بتلك الكتلة في حنجرتها وكذلك بدموعها.

كانت المياه ساكنة في ذلك الصباح، وتراقصت تموجات صغيرة على سطح المياه بهدوء مع أشعة الصباح الأولى. تلألأت حِزَمٌ من أشعة الشمس الساطعة فوق سطح المياه في الأسفل، وهكذا شكّلت تبايناً واضحاً مع الظلمة الداكنة تحتها، وبدت مثل خيوطٍ ذهبية مطرزة على ثوب ساري داكن اللون. دسّت كافيتا أصابع أرجلها في الوحل الناعم والبارد لشاطئ البحر، وحاولت أن تتخيّل شعور الغوص إلى أعماق تلك المياه. هل كان ذلك شعور المرء الذي لا تقف في طريقه المعوقات، والذي تحرّر من القلق ومسؤوليات الحياة، والذي امتلك حرية أن يطوف، ويطوف، ويطوف... وما يلبث أن يختفي بعد ذلك.

كانت تعرف أن روح والدتها لم تعد في الرماد الذي يملأ جرة الفخار التي كانت إلى جانبها، لكنها أرادت أن تصدق أن جزءاً من تلك الروح بقي هناك حتى ذلك اليوم. أدركت كافيتا أنه لو كانت أمها على قيد الحياة، لكانت شعرت بالسرور للطمأنينة التي تخيّم على ذلك الصباح. تناولت الجرّة، وأحاطت قعرها الواسع بيديها. قالت بصوتٍ هادئ: «أمي...» ابتسمت، وأيقنت بأنه لا بد وأن تكون روح والدتها هي التي جلبت كل هذه الطمأنينة لذلك الصباح. لم تكتشف كافيتا إلا بعد مرور سنوات، أي بعد أن أصبحت أماً الدور الذي تلعبه الأمهات في كل شيء: العمل بهدوء، عمداً، وراء الستار طيلة حياتهم. فكّرت كافيتا عندما وضعت الجرة في حضنها أن تأثير الوالدة يبقى حتى بعد موتها. إذا سقطت الأم فإن الأسرة تسقط بأكملها.

ظهرت روبا إلى جانبها في تلك اللحظة بثوبها الطويل الذي غطّى رأسها. «أختي؟ إنه ينتظرنا الآن». أحنت رأسها قليلاً بعد أن أشارت إلى الرجل الذي كان واقفاً إلى جانب قاربه الذي كان طافياً على سطح الماء.

أجل. هيا بنا». نهضت كافيتا ببطء لكي لا تفسد سكون الرماد في الجرّة. نزلت الشقيقتان نحو» صاحب القارب الذي كان بانتظارهما، والذي كان أشبه ما يكون بمخلوقٍ برمائي. كان جسمه عارياً ما عدا قطعة القماش التي تغطي منطقة وسطه، وهي التي أصبحت كقطعةٍ جلدٍ بفعل أشعة الشمس. وقف الرجل في المياه التي وصلت إلى وسطه وبدا بأنه يرتاح في المياه كما يرتاح فوق اليابسة. كانت أطرافه رفيعة، لكنها مليئة بالعضلات، وهو الأمر الذي ساعده على الركض في المياه قبل أن يقفز إلى سطح

المنصة. جلست كافيتا وروبا في الجهتين المقابلتين من القارب، ووقف صاحب القارب بينهما في الوسط. قاد الرجل القارب بحركاتٍ مدروسة من عصا قصبٍ طويلة حرّكها على طول قعر المياه. تصورت كافيتا الكميات الأخرى من الرماد الموجودة في القعر، أي بقايا كل الأحباء الآخرين المتناثرة في تلك المياه مثل الآباء، والأمهات، والشقيقات، والأبناء. ابتعدوا عن الشاطئ أخيراً، وما لبث صاحب القارب أن غرز العصا وكأنها رمحٌ في المياه. ظهرت الشمس كاملةً فوق الأفق بينما قامت أشعة الشمس بتدفئة وجوههم وأعناقهم.

كان بإمكان الشقيقتين الطلب من الكاهن المجيء معهما لترتيل الترانيم الدينية السنسكريتية أثناء قيامهما بنثر رماد والدتهما. لكن الشقيقتين أرادتا أن تقوما لوحدهما بهذا التكريم الأخير لوالدتهما. اتفقت الشقيقتان كذلك على أنه من الأفضل لوالدهما أن يبقى في المنزل في ذلك اليوم أثناء هذا التكريم الأخير. عاد الوالد، وبعد مرور يومين على طقس الإحراق قبل شهرٍ من الزمن، إلى السؤال عن زوجته. لكن الشقيقتين لم تعرفا ما إذا كان دماغه المريض هو الذي يصوّر له أشياءً غير موجودة، أم أن هذا الدماغ أراد توفير ألم معرفة الحقيقة عليه. لكن الشقيقتين قرّرتا، على أيّ حال، بأن والدتهما ذهبت لزيارة شقيقتها التي تسكن في القرية المجاورة وسوف تعود في اليوم التالي. توفيت تلك الخالة قبل سنين عدة في الواقع، لكن تلك الحقيقة لم تشكّل مشكلة بالنسبة إلى والدهما. لكن هذا التفسير أفاد كثيراً في إبقائه على هدوئه طيلة النهار. أما في صباح اليوم التالي، وعندما كان يعود للسؤال عنها فكانتا تعيدان الكذبة ذاتها. بدا بأن إقناعه بهذه الكذبة أصبح أسهل في كل يوم. مرّت الأيام، وعاد والدهما إلى روتينه السابق بالشكوى من ضعف مروحة السقف، أو من فتور الشاي الذي يتناوله في الصباح. عاد جاسو بعد أيام قليلة إلى موميباي، لكن كافيتا قررت البقاء فترة أطول للقيام بتلك الطقوس الأخيرة.

أزاحت كافيتا غطاء الجرّة وقرّبتها نحو روبا. لم تكن الهرمية في أسرتهما المؤلفة من البنات فقط كبيرة، لكنها أرادت إظهار احترامها للدور الذي تلعبه روبا بوصفها الأكبر سناً. غطست روبا يدها في الفوهة الضيّقة للجرة، وتناولت حفنةً صغيرة من الرماد. لكن ما إن فتحت أصابعها ببطءٍ حتى اختفى بعض الرماد من راحة يدها بفعل نسمةٍ خفيفة. مدّت يدها فوق المياه، وحرّكت الجرة جيئةً وذهاباً إلى أن سقط كل الرماد على سطح المياه. طفا الرماد للحظاتٍ قليلة على سطح الماء، وما لبث أن اختفى عن الأنظار ممتزجاً في البحر مع كل ما يحمله.

اقتربت كافيتا من الجرّة، وخلطت الرماد بالماء ثم حرّكته جيئة وذهاباً، وهي حركة اعتادت عليها مرات عديدة عندما كانت تنثر الطحين وتعجنه لتحضير الخبز. راقبت الشقيقتان الرماد حتى اختفى، وما لبثت روبا أن مدّت يدها إلى داخل الجرة مجدداً. تابعت الشقيقتان على هذا المنوال حفنةً بعد حفنة إلى أن كادت الجرة أن تفرغ. تعاونتا بعد ذلك على رفع جرة الرماد فوق المياه، ومن دون حاجةٍ إلى الكلام قبل إمالتها إلى أن سقطت آخر كمية من الرماد. كسرت روبا الصمت الذي ساد بعد ذلك، وكانت تنهداتها صغيرة في البداية، لكنها علت أكثر إلى أن اهتز معها جسدها بأكمله. أحاطت كافيتا شقيقتها بإحدى ذراعيها، وما لبثت أن أحاطتها بيدها الأخرى محتضنةً إياها أثناء انخراطها بالبكاء. راقبت الشقيقتان إلى حين اختفاء آخر بقايا جسد والدتهما تحت سطح المياه.

حقاً إنـها أسرة

مومباي، الهند - 2005

آشا

جلس سانجاي على الجهة المقابلة في الكشك، ووضع يديه على الطاولة بينما كانت عيناه تخترقانها، وقال: «أتعرفين، حساء الخضار الحار هذا لذيذٌ حقاً».

وافقت آشا، تحت إصرار جدّتها، على تناول طعام الغداء معه في ذلك اليوم. كان على وشك مغادرة البلاد إلى لندن. لم ترغب آشا في الابتعاد عن جدّتها منذ الانتهاء من طقس الإحراق. لكنها جلست في ذلك اليوم من دون وضع مساحيق التجميل، ورفعت شعرها الذي لم تغسله على شكل ذيل حصان. كانت في مطعم أحد الفنادق الفخمة، وبرفقة أقرب شخصٍ مؤهلٍ ليكون صديقاً لها. قالت: «حسناً. سأختار ذلك الطبق. قل لي يا سانجاي، ماذا تعني كلمة أوشا؟».

رفع سانجاي نظره عن قائمة الطعام، وقال: «أوشا؟ إنها تعني... الفجر. لكن لماذا تسألين؟».

فجر». كرّرت الكلمة، وتطلعت عبر النافذة. «كان ذلك هو الاسم الذي أعطياني إياه. احتفظ بي» والداي الحقيقيان لفترة ثلاثة أيام قبل تسليمي إلى دار رعاية الأيتام، لكنهما أعطياني اسم أوشا».

وضع سانجاي قائمة الطعام على الطاولة، وانحنى إلى الأمام: «هل عثرتِ عليهما؟».

لم تخبر آشا أي شخصٍ بالأمر حتى ذلك الوقت، لكنها أومأت. أدركت بأنه ما إن تتلفظ بالحقائق التي اكتشفتها بصوتٍ عالٍ حتى تصبح جزءاً لا يمكنها التراجع عنه. «وجدتهما. لم ألتقِ بهما وجهاً لوجه، لكني عثرتُ عليهما».

اقترب النادل من الطاولة، فأسرع سانجاي إلى تسجيل أنواع الطعام التي طلباها، وطلب منه الانصراف.

تابعت آشا كلامها: «كافيتا وجاسو. إنهما يعيشان في شقة في منطقة سيون». توقفت قليلاً قبل أن تكمل: «لديهما ابن أصغر مني بسنة أوٍ اثنتين». راقبت آشا ردة فعل سانجاي الذي أومأ لها بالمتابعة. «أنجبا طفلاً بعد أن تخليا عني. يعني ذلك بأنهما احتفظا به لأنه كان صبياً، و...».

«أنتِ لا تعرفين بأن ذلك كان هو السبب الحقيقي».

«سدّدت آشا نحوه نظرة سخط. «اسمعني، لستَ ابنة البارحة».

يُحتمل وجود عددٍ كبير من التفسيرات. يُحتمل بأنهما لم يتمكنا من إعالة طفلٍ في ذلك الوقت.» يُحتمل كذلك بأنهما كانا يعيشان في أوضاعٍ غير آمنة، أو أنهما تأسفا على خسارتك، وقرّرا بأنهما أرادا أخيراً الحصول على ولد بعَد كل شيء. لا يمكنكِ يا آشا معرفة ما في قلب الشخص الآخر».

أومأت آشا وهي تدير السوار الفضي حول معصمها. «أتت والدتي من إحدى القرى في الشمال، والتي هي على مسافة ساعات قليلة من هنا. سارت كل هذه الطريق إلى المدينة فقط من أجل...» توقفت عن الكلام بعد أن شعرت بغصّة.

«أكمل سانجاي الجملة عنها: «... إيصالكِ إلى دار رعاية الأيتام؟».

«أومأت آشا، ثم أرجعت السوار إلى مكانه في معصمها: «كما أنها أعطتني هذا السوار».

قال سانجاي: «أعطياكِ كل شيء يتعين عليهما إعطاؤه». تقدم من فوق الطاولة ليمسك بيدها. «ما رأيك الآن بعد أن عرفتِ كل ذلك؟»».

نظرت آشا من خلال النافذة وقالت: اعتدتُ على كتابة هذه الرسائل إلى والدتي. أخبرتها بالأمور التي تعلمتها في المدرسة، وأخبرتها عن أصدقائي، والكتب التي أحببتها. أعتقد بأنني كنتُ في السابعة من عمري عندما كتبتُ الرسالة الأولى. طلبت من والدي إرسالها بالبريد، لكني أتذكّر نظرة الحزن التي ارتسمت في عينيه عندما قال لي: «أنا آسف يا آشا. لا أعرف أين هي». عادت آشا للالتفات نحو سانجاي. «تغيّرت الرسائل كثيراً بعد أن كبُرت في السن، وهكذا بدلاً من إخبارها عن حياتي بدأتُ بطرح أسئلةٍ من مثل، هل كان شعر والدتي مجعداً؟ هل تحب لعبة الكلمات المتقاطعة؟ لماذا لم تحتفظ بي؟ هزّت آشا رأسها قبل أن تتابع: «كانت عندي أسئلة كثيرة في رأسي. لكني أعرف الآن من أين أتيت، وعرفت بأنني كنت محبوبة. أعرف كذلك بأنني محظوظة الآن أكثر بكثير في ما لو بقيت في هذه البلاد». هزّت كتفيها وتابعت: «هذا يكفيني، لكن بقيت بعض الإجابات التي يتعين عليّ الحصول عليها بنفسي». أخذت آشا نَفَساً عميقاً. «أتعرف أنني أمتلك عينين مثل عينيها». ابتسمت، والتمعت عيناها بالدموع. أسندت رأسها، وقالت: «أتمنى لو كان بإمكاني أن أعلمهما أنني على ما يرام من دون... أن أتدخّل في حياتهما».

وصل النادل، ووضع طبق حساء أمام كلٍ منهما على الطاولة. أدركت آشا في تلك اللحظة كم كانت جائعة، وأنها لم تأكل سوى قليل من الطعام على مدى الأيام القليلة الماضية بين عملها الليلي في الصحيفة، وبين مراسم إحراق جثمان جدّها. تذوقت آشا حساءها واستمرا في تناول الطعام لفترة من الزمن من دون تبادل أي كلمة.

قالت آشا: «أتعرف بأنني اكتشفتُ عندما قصدتُ دار الأيتام أن جدّتي قدّمت تبرعاتٍ سخية لها، وذلك بعد إتمام عملية التبني. رأيت اسم عائلتي على لوحة في خارج الدار، لكنها لم تقل لي ذلك أبداً. أليس ذلك غريباً بعض الشيء؟».

هزّ سانجاي رأسه وقال: «كلا. لا أعتقد ذلك، وأنا أفهمه تماماً لأنها شعرت بأن عليها ردّ الجميل للدار». رأى سانجاي نظرة شرود على وجهها، فانحنى نحوها وتابع كلامه: «فعلتْ ذلك لأجلك. كانت ممتنة لك».

«تطلعت آشا نحو يديها: «حقاً؟

بالتأكيد، لأن الأمر شائعٌ هنا. عمد والدي إلى حفر بئر في القرية التي وُلدتُ فيها. كانت هذه هي» طريقته للاعتراف بالجميل للناس الذين ساعدوه».

أخذت آشا نَفَساً عميقاً قبل أن تقول: «إنني متأثرة جداً لمعرفتي بكل الأشياء التي فعلها الناس لأجلي على مدى السنين الماضية، ومعظمها لم أعرف بها مطلقاً، ولا زلت لا أعرف. إنني نتاج كل تلك الأمور، أي كل الجهود، وكل هؤلاء الناس الذين أحبوني، وحتى قبل أن يعرفوني».

ابتسم سانجاي، وقال: «حقاً إنها الأسرة».

أتعرف بأنني كنت أقول بأنه ليس هناك من رابط بيولوجي ما بيننا. أعتقد على الدوام بأن هناك» شيئاً ما ينقصني. لكن الآن... أعتقد بأنهما فعلا الكثير لأجلي، حتى من دون وجود رابطة الدم بيننا. فعلا ذلك فقط... لأنهما أرادا ذلك». مسحت آشا فمها بمنديلٍ ورقي وابتسمتْ: «أفترضُ بأنني أدين بالكثير لعددٍ كبيرٍ من الناس». أخذت نَفَساً عميقاً وتابعت: «وباعتذارٍ لأمي».

بالمناسبة، تدينين لي بإعطائي نسخة عن مشروعك عند انتهائك منه. أريد إعطاءه إلى أحد» أصدقائي في إذاعة بي. بي. سي البريطانية. لكنك ستصبحين مدينةً لي ما إن تصبحي مشهورة». غمزها قبل أن يتابع: «بزيارتي في لندن على الأقل».

ابتسمت آشا وردّت: «سأفكر في الأمر. هل تسدي لي خدمة غداً؟ أريد زيارة شانتي لإعطاء شيء ما لأحد الأشخاص».

56

عبور المحيطات

مومباي، الهند - 2005

سومر

حدّقت سومر إلى كريشنان الذي كان جالساً بقربها محدقاً من خلال النافذة في السماء الخالية. بدا كريشنان في الظاهر مثل مئات الهنود الآخرين المسافرين على متن الطائرة، وكان متأنقاً في ملابسه، فبدا مثقفاً محترفاً في طريقه لزيارة بلاده. لكن سومر تمكنت من ملاحظة وجود علامات صغيرة تدل على شيء ما: فكّ كريشنان الذي عادةً ما يكون مطبقاً، والذي بدا مسترخياً في تلك اللحظة. كان جفنه الأعلى متدلياً بعض الشيء، وهو الأمر الذي جعل عينيه العسليتين تبدوان أصغر من المعتاد. أما في زاوية فمه فلاحظت سومر بعض الارتعاش. كانت هذه الملامح نادرة عند زوجها، وهو الذي اعتاد الإيحاء بالثقة في غرفة العمليات الجراحية، والعزم في ملاعب كرة المضرب، والكتمان في كل الأمكنة الأخرى.

مدّت يدها، ووضعتها فوق يده. دمعت عيناه، وأمسك يدها، ثم شبك أصابعه بأصابعها من دون تحويل نظره عن النافذة. تمسّك بيدها وكأن وجودها ضروري لبقائه، أي كما فعل في الليلة السابقة وسط الظلام، أي عندما استلقيا معاً في السرير للمرة الثانية على التوالي، وذلك بعد ستة أشهر من الانفصال. أمضى الزوجان اليوم السابق في التحضير للسفر، وتأمين التذاكر، والحصول على التأشيرات. لكن كريشنان كان رابط الجأش، إلا أنه بكى بين ذراعيها مثل طفلٍ صغير على الوالد الذي خسره، وذلك بعد رؤيته لحقائبهما المصفوفة والجاهزة داخل المنزل، وبعد استدعاء سيارة الأجرة على أن تأتي في الصباح.

لم يكن هناك من شك في ذهابها معه، وذلك بعد أن أيقظها في صباح اليوم السابق لينقل إليها الأخبار المحزنة. عرضت سومر أن ترافقه، لكنها لم ترغب أن تطلب منه الذهاب معه، فبدا ممتناً لعرضها هذا. كانت تعرف في ما مضى أن مكانها مع عائلته، لكنها تيقنت من ذلك من أعماق قلبها.

وصل الزوجان إلى مومباي في منتصف الليل، وركبا سيارة أجرة أقلّتهما من المطار، كما ساعدهما أحد الخدم في الدخول إلى المنزل، واستسلما للنوم العميق لساعاتٍ قليلة قبل قدوم الصباح. لاحظت سومر عندما دخلا غرفة المعيشة معاً مدى تقدّم والدة كريس في السن. بدا شعرها أقل كثافة بعد أن سيطر الشيب عليه. ركع كريشنان على الأرض ليلمس قدميها، وهو مشهدٌ لم يسبق أن رأته سومر من قبل. تعانقت الأم وابنها، وتبادلا بعض الكلمات بلغة الجوجوراتي، لكن حديثهما على مائدة الفطور، وشرب الشاي، وتناول الخبز المحمّص، كان قليلاً، وحتى كاد أن يكون صامتاً.

قالت والدة كريس: «عزيزي، لدينا بعض المعاملات التي يجب علينا إتمامها في المصرف». أومأ، وتطلع نحو سومر.

ردّت سومر: «لا بأس. يمكنك الذهاب. سأنتظر هنا إلى أن تستيقظ آشا».

فتحت سومر باب غرفة آشا، ثم رأت إبنتها نائمةً بعمق. كان شعرها منسدلاً فوق الوسادة وتنفّسها منتظماً وعميقاً. بدت آشا، وفجأة، أكبر سناً من وقت مغادرتها الولايات المتحدة، وفي الوقت ذاته كانت تشبه الطفلة التي راقبتها مراتٍ عديدة خلال نومها من قبل. أغلقت سومر الباب بهدوء، وعادت إلى غرفة المعيشة. ألقت نظرة على ساعتها، ثم تناولت هاتفها الخليوي ونقرت رقماً.

«مرحباً. أنا الدكتورة سومر ثاكر. أريد التحدث مع الدكتور وودز من فضلك. أيمكنك مناداته من أجلي؟ سأبقى على الخط. شكراً لك». حدقت سومر على مدى الدقائق العديدة التالية إلى غطاء الطاولة المصنوع من القماش وتتبعت بظفرها أنماط الأزهار المرسومة عليها، وما لبثت أن سمعت صوتاً.

«دكتور وودز». أوحى صوته بأنه استيقظ من النوم لتوه.

«جايمس. أنا سومر، وآسفة لأنني أزعجتك في هذا الوقت المتأخر، لكن...».

تثاءب الدكتور وودز، وقال: «لا بأس. حاولت الاتصال بكِ. أحمل لك أخباراً جيدة يا سومر. جاءت نتائج اختبار الخزعة سلبية. إنه ورمٌ حميد. يعني ذلك بأنك لستِ مصابة بـ».

أغمضت سومر عينيها وردّت بتأثر: «أوه. شكراً لك يا الله». زفرت زفرةً طويلة، وأضافت: «شكراً لك يا جايمس. عُدْ إلى النوم. وداعاً». وضعت الهاتف من يدها واحتضنت رأسها بيدها.

«ماما؟»

استدارت سومر، ورأت آشا في ثياب النوم بشعرها غير المسرّح. «آشا. حبيبتي». نهضت من مقعدها وفتحت ذراعيها، ثم أسرعت آشا لمعانقتها.

تراجعت آشا إلى الوراء لتتطلع بوالدتها بعد انتهاء العناق. «ماما؟ ما هذا؟ مَع مَن كنتِ تتكلمين الآن؟».

مسّدت سومر شعر ابنتها، ولاحظت بأنه زاد طولاً بضع بوصات. «تعالي هنا يا حبيبتي. أريد أن أبلغك شيئاً». أمسكت يد آشا ثم جلست معها حول الطاولة. «أنا بخير. أريدك أن تكوني أول من يعرف. أجريت منذ أيامٍ قليلة اختبار خزعة على كتلة في ثديي، لكن تبيّن بأن الورم حميد. لا تقلقي، كل شيء على ما يرام».

بقيت التغضّنات التي ظهرت على جبهة آشا على حالها، بينما أظهرت عيناها القلق العميق.

قالت سومر، وهي تلمس ركبة آشا: «إنني بخير فعلاً. وأنا مسرورة جداً لرؤيتك يا حبيبتي».

قفزت آشا إلى الأمام، وأحاطت رقبة سومر بذراعيها وقالت: «آه يا ماما. هل أنتِ متأكدة؟ هل أنتِ متأكدة فعلاً؟».

أمسكت سومر يدَي آشا وضغطت عليها، ثم قالت: «أجل أنا متأكدة. كيف حالك؟».

«عادت آشا وجلست في مقعد. «اشتقت إليكِ بالفعل يا ماما. إنني مسرورة جداً لأنك هنا».

ابتسمت سومر: «بالطبع. أيمكنني أن أكون في مكانٍ آخر؟».

قالت آشا: «أعرف أن ذلك يعني الكثير لجدتي كذلك. إنها تبذل جهدها كي لا تُظهر ذلك، لكن الأمر كان صعباً عليها. إنني أسمعها في الليل وهي تبكي في غرفتها».

قالت سومر: «لا بد وأن الأمر كان كارثياً عليها، أي فقدان زوجها بعد نحو خمسين عاماً؟».

ردت آشا: «ست وخمسون سنة، لأنهما تزوجا بعد سنة واحدة من الاستقلال. إنها امرأة رائعة، وأنا تعلمت كثيراً منها. كان الجميع رائعين. أتعلمين أن لدي اثنين وثلاثين من أبناء وبنات أعمامي وأخوالي هنا؟ أشعر بأن الأمر رائع بالفعل».

ابتسمت سومر: «ماذا بشأن مشروعك؟».

التمعت عينا آشا وانتصبت في جلستها ثم قالت: «يمكنكما أن تأتيا معي إلى صحيفة التايمز، وهناك سوف ترونه».

تبعت سومر آشا في المتاهة المسماة غرفة الأخبار في صحيفة التايمز، وشعرت بالارتياح للثقة التي تشعر بها ابنتها في بيئة هذه الصحيفة.

وقفت آشا أخيراً لتقرع أحد الأبواب: «مينا؟ أريدك أن تتعرفي على أمي».

قفزت المرأة النحيلة من مقعدها، وقالت: «آه. إذاً هذه هي الدكتورة ثاكر المشهورة. تتحدث آشا عنك بكل فخر. هذا شرفٌ لي».

مدّت يدها وأسرعت سومر لمصافحتها بعد أن شعرت بالارتياح لأن يتعرّف عليها الناس على أنها والدة آشا فور رؤيتها.

التفتت مينا نحو آشا وقالت: «هل عرضتِ عليها مشروعك؟».

هزّت آشا رأسها وابتسمت.

قالت مينا: «أحضريه إلى هنا. سأطفئ الأنوار».

شرحت آشا مشروعها بعد أن فتحت حاسوبها المحمول فوق طاولة مينا: «قمنا بتصوير كل المقابلات التي أجريتها في حيّ أكواخ الصفيح، ثم جمعتُ بعض اللقطات المهمة في فيلم قصير». تجمّعت النسوة الثلاث حولَ شاشة الحاسوب.

عجزت سومر عن الكلام بعد أن ومضت أضواء الشاشة، وبدا بأنها تأثرت بما رأته للتو. تمكّنت آشا من العثور على الأمل في الأماكن غير المرجّحة، وهي التي عرضت قوة حب الأم لأولادها التي ظهرت وسط ظروف الفقر واليأس، وكيف أن النساء يتشابهن جميعاً في هذا الأمر. أما في نهاية الفيلم فقد ظهر الإهداء إلى كل الأمهات اللواتي جعلن ذلك الفيلم ممكن التحقيق. عرضت آشا النساء مع أسمائهن. كان اسم سومر هو آخر اسم ظهر على الشاشة.

تكلمت مينا أولاً. «ستعرض صحيفة التايمز هذا المشروع في مقالة خاصة في الشهر القادم، كما ستعرض صورتها وتعريفاً مختصراً عنها». وضعت مينا ذراعها حول آشا وأضافت: «تتمتع ابنتك بموهبة خاصة. إنني أتطلع لرؤية مشروعها القادم».

ابتسمت سومر وشعرت بفخرٍ غامر في أعماقها. كان كريس على حق، والهند هي مكان مناسب لها.

«إن مشروعي القادم هو تناول طعام الغداء. هل أنت جاهزة يا أمي؟».

همست سومر من فوق غطاء الطاولة: «هذا المكان رائع. يبدو جديداً؟» بدا أن قائمة الطعام في المطعم آتية من فلورنسا مباشرة.

قالت آشا: «أجل فتح المطعم القريب من المنزل أبوابه قبل مجيئي إلى هنا، وهم يوظفون طاهياً إيطالياً حقيقياً. يمكنني المجيء إلى هنا عندما أشعر بالملل من الأطعمة الهندية». طلبوا أطباق السلطات والمعكرونة من النادل، وبدأوا بسلة الخبز.

«سألت آشا: «إذاً، هل أخبرك بابا بما حدث؟».

لا أعتقد ذلك». شعرت سومر بتوترٍ في معدتها، واستعرضت في ذهنها كل الاحتمالات. «ماذا» حدث؟».

ردّت آشا بصوتٍ متهدج: «تعرفت إلى شاب يُدعى سانجاي. إنه شاب ذكي ومرح وأنيق المظهر، كما أن لديه عينين بنيتين داكنتين».

قالت سومر وهي تهز رأسها: «أجل. أعتقد ذلك. عيناه ساحرتان». ضحكتا معاً أثناء استمتاعهما بتناول الطعام، وتحدثتا للتعويض عن فراقهما الذي دام أشهراً.

لكن آشا اعتذرت عند وصول حلوى التيراميسو، وقالت: «ماما. إنني آسفة... على كل شيءٍ حدث بيننا قبل مغادرتي المنزل. أعرف بأن الأمر لم يكن سهلاً بالنسبة إليك...».

قاطعتها سومر ونهضت من مقعدها: «حبيبتي. إنني آسفة كذلك. لاحظتُ أن هذه السنة كانت جيدة بالنسبة لك. إنني فخورة بما قمتِ به. يبدو لي أنك تعلمتِ الكثير، كما أنك كبُرتِ بسرعة».

أومأت آشا وقالت بصوتٍ رقيق: «أتعرفين أنني تعلمت أن كل شيء يبدو أكثر تعقيداً ممّا هو عليه في الواقع. إنني سعيدة جداً لأنني أتيت إلى هنا وتمكنت من التعرف إلى عائلتي، والتعرّف إلى المكان الذي أتيت منه لأن الهند بلد رائع. يوجد فيها أجزاء أحبها، وتجعلني أشعر وكأنني في منزلي. لكن توجد في الوقت ذاته أشياءً تجعلني أنفر منها». حدّقت إلى سومر وأضافت: «هل يبدو ذلك مريعاً؟».

كلا يا حبيبتي». لمست سومر خدّ آشا بظاهر يدها، وقالت بكل قناعة: «أعتقد أنني أفهم الأمر».» أعطت هذه البلاد سومر كريشنان وآشا، وهما الشخصان الأكثر أهمية في حياتها. لكن عندما قاومت تأثير ذلك البلد فيها أيقنت أنها كانت في صُلب أعظم اضطرابٍ واجهته.

صلوات الصباح

دهانو، الهند - 2005

كافيتا

أعادت كل درجة من الدرجات الحجرية الخشنة ذكريات قوية إلى كافيتا. لكن بالرغم من مرور أكثر من عشرين سنة على مشاركتها ذلك المنزل مع جاسو، فإن كعبَي قدميها يتذكرانه وكأنه لم يمر أي زمن على مغادرتها إياه. يُضاف إلى ذلك أنه في كل الزيارات التي قامت بها إلى دهانو على مدى العقدين الماضيين من السنين، وحتى إلى هذا المنزل بالذات الذي يضمّ والدَي جاسو إلا أنها لم تمرّ بشعورٍ من النوع الذي أحسّت به في تلك اللحظة. يُحتمل بأن ما شعرت به يعود إلى ذلك الوقت من اليوم، وإلى هذه الساعة الهادئة التي تشهدها القرية قبل استيقاظ سكانها، وقبل أن يصبح ضجيج حركة الحياة فيها مسموعاً من كل الجهات. يُحتمل كذلك أن السبب يعود إلى ذلك الفصل من السنة، أي الأيام الأخيرة من الربيع عندما تمتلئ أشجار الشيكو بأزاهيرها مالئة الهواء برائحتها الزكية. يُحتمل أن السبب يعود إلى أنها قامت بتلك الزيارة لوحدها، ولم يكن هدفها زيارة أسرة زوجها، ولا لتعريف فيجاي على المنزل الذي وُلد فيه. هل يعود السبب إلى حالتها المعنوية بعد أن ودّعت والدتها عند شاطئ البحر في اليوم السابق فقط.

غادرت كافيتا منزل والدها في وقتٍ مبكرٍ من ذلك الصباح، وقبل استيقاظ الممرضة. استحمّت بسرعة وجمعت أشياء قليلة من المعبد الصغير في المنزل مثل عودٍ من البخور، وسلسلة من خرز الصندل، وتمثالاً نحاسياً لكريشنا وهو يعزف على الناي. كان قصدها هو الخروج من المنزل لتأدية صلاتها التي كانت تفضّل أن تؤديها في هواء الفجر المنعش، والذي يشكّل خلفية جيِّدة لصلواتها الصباحية. لكن ما إن وقفت كافيتا خارج المنزل حاملة تلك الأشياء المألوفة في يديها حتى شعرت بدافعٍ لمتابعة سيرها. استمرت بالسير إلى أن وصلت إلى منزلها القديم. كانت تعرف أن عائلة زوجها لنْ تستيقظ قبل مرور ساعة أخرى من الزمن، وهكذا تتمكن من المغادرة من دون أن يراها أحد.

وقفت كافيتا في أعلى قرص الدرج، ثم بسطت حصيرة القماش الرثة في المكان ذاته الذي اعتادت عليه. ركعت على الحصيرة، وواجهت جهة الشرق. وضعت الأغراض التي جلبتها معها واحداً فواحداً: تمثال كريشنا في الوسط، والمصباح الزيتي الصغير إلى جهة اليمين، والبخور على اليسار، وسلسلة الخرز أمامها. كانت كل حركة تلي الحركة السابقة على الفور، وكانت تلك الحركات عبارة عن سلسلة من الطقوس التي أدّتها مراتٍ عديدة إلى أن أصبحت طبيعية بالنسبة إليها. أشعلت كافيتا بعد ذلك عود ثقاب لإشعال المصباح الزيتي. أمسكت بعد ذلك عود البخور إلى أن بدأ بالاشتعال، ثم لوّحت به قليلاً إلى أن ظهر الوهج البرتقالي في طرفه. أما عندما أكملت هذا الروتين فقد جلست على كعبَي قدميها، وزفرت ببطء ذلك النَفَس العميق والطويل الذي شعرت بأنها احتفظت به على مدى سنواتٍ عديدة.

استرخت عضلات جسدها، وحدقت في وهج الشعلة المذهل إلى أن استقر نَفَسُها على إيقاعٍ منتظم. أما الرائحة المألوفة للزيت المشتعل والبخور، فقد ملأت منخريها. رأت كافيتا الشمسَ أثناء بزوغها من الأفق البعيد، وسمعت تغريدات العصافير والطيور من فوقها على الشجرة. أغمضت عينيها،

وتناولت سلسلة الخرز، وتحسّست كل واحدة منها بأصابعها، ثم رنّمت بصوتٍ رقيق. امتلأت كافيتا بشيء كبيرٍ بحيث شعرت وكأنه سوف يتحرر من خلال رئتيها. شعرت بفراغ عميق في الوقت نفسه. كان شعوراً غامراً بالحزن العميق، وبالفراغ، يملأ قلبها وذهنها، وكذلك الحزَن على كل الأشياء التي فقدتها.

نثرت كافيتا الرماد في اليوم السابق، لكن شهراً واحداً مرّ على فقدانها لوالدتها. توقعت أن يملأ الأسى قلبها على فقدانها، وشعرت بالصدمة لأنها اعتادت فكرة رحيلها. تركت كافيتا القرية منذ سنوات عديدة، وتركت منزل والديها قبل ذلك بسنوات، وعاشت كامرأة بالغة لفترة طويلة من الزمن، لكن فقدانها لوالدتها جعلها تشعر مجدداً وكأنها طفلة. أما الذكريات التي ترددت في تلك اللحظة في ذهنها، فكانت منذ زمنٍ بعيد بحيث عجزت عن تحديد تاريخها: اليد الباردة لوالدتها على جبهتها عندما أصيبت بالحمى، ورائحة الياسمين التي تداخلت مع شعرها.

الخرز بين يديها

يدٌ باردة على جبهتها

ورائحة البخور واليا سمين

بدأت مرحلة خسارتها لوالدها منذ ذلك الوقت، وهو الذي يبتعد عنها، وهي تشعر بهذا. أحسّت كافيتا في بعض الأيام بأن روحه قريبة منها، لكنْ كان هناك أشخاص آخرون غيرها شعر بابتعادهم عنه. ناداها والدها باسم لاليتا، وذلك قبل ثلاثة أيام عندما كانت تطعمه حلوى الأرز بالملعقة. انهمرت الدموع من عينيها عندما سمعت ذلك الاسم، وهو الاسم الذي كان والدها فقط يناديها به، لكنها لم تسمعه منه منذ خمس وعشرين سنة. انخرطت بالبكاء مجدداً، وتذكرت صدى خروج الاسم من بين شفتيه.

لاليتا

الخرز بين أ صابعها

واليد الباردة على جبهتها

رائحة البخور واليا سمين

هل كان من الصواب الرحيل عن هذا المكان، وتركَ عائلتها وعائلة زوجها منذ سنوات طويلة؟ يُحتمل بأن أموراً كثيرة كانت تغيرت لو لم ترحل مع زوجها. هل كان الأمر اختلف مع فيجاي؟ لكنهما خسراه في النهاية. كم من الوقت مرّ على خسارتها فيجاي؟ كيف أصبحت حال ذلك الصبي الصغير الذي كان يلعب مع أقربائه بالتراب؟ كيف فقدَ براءته؟ ماذا حدث للطفل الذي سميّ تيمناً بالنصر؟

النصر

الخرز بين أ صابعها

لاليتا

يدٌ باردة على جبهتها

البخور واليا سمين

مرت خمس وعشرون سنة على فقدانها ابنتيها في هذا المكان. واحدةٌ لم تُمنح اسماً أو حياة، وأوشا الغالية. لكن ذكرى أوشا ترافقت مع ألم حقيقي شعرت به في قلبها، كما لم يمرّ يوم واحد منذ ولادتها من دون أن تفكّر بها، أو تحزن على خَسارتها، ومن دون أن تصلي كي تتلاشى مشاعر الحزن من قلبها. لكن الله لم يصغِ لصلواتها، أو لعله لم يسامحها، وذلك لأن ألمها رافقها على الدوام.

أو شا

الخرز بين أ صابعها

النصر

يدٌ باردة فوق جبهتها

لاليتا

بخورٌ ويا سمين

أمضت كافيتا خمساً وعشرين سنة بعيداً عن عائلتها. خسرت ابنتيها في البداية، ثم خسرت ابنها، وخسرت والديها بالأمس القريب. أما العلاقة الوحيدة التي استمرت طوال تلك السنين، وبالرغم من تلك التعقيدات القاسية والعديدة، فكان زواجها من جاسو. صحيحٌ بأنه ارتكب بعض الأخطاء، واتخذ بعض القراراتٍ الخاطئة خلال تلك الفترة.، لكن زوجها تعلّم كيف يكون رجلاً صالحاً، كما أن رحلتهما معاً كانت محفوفةً بالصعوبات والأسف، لكنهما تعلّما كيفية تناسي الندم والاستياء اللذين قد يتجمعان خلال حياتهما معاً. كبُرا معاً، واقتربا أحدهما من الآخر وكأنهما شجرتان تستندان إحداهما على الأخرى مع تقدّمهما في السن. شعرت كافيتا بأنه عندما يحين وقت رحيلهما سيكونان محظوظين إذا نالا التقدير الذي حصل عليه والداها، والذي يستمر متجاوزاً المنطق وحتى الموت.

فكّرت كافيتا في كل الأشياء التي لا تعرف شيئاً عنها، وحتى في هذا الوقت بعد أن أصبحت امرأة بالغة. إنها لا تعرف شيئاً عن أحوال ابنتها، وعن مكان وجودها، كما أنها لم تعرف شيئاً عن الأسباب التي دفعت فيجاي إلى السير في الطريق الذي انتهى إليه، وهي لم تعرف ما إذا كان والدها سيكون قادراً على تذكّرها في ذلك اليوم، أو في اليوم الذي يليه. لم تعرف كذلك كيف ستمضي في هذه الحياة من دون يد أمها الباردة على جبهتها. كان الشيء الوحيد الذي كانت متأكدة منه هو انصرافها في الأيام القليلة المقبلة إلى الاهتمام بوالدها. بقي على كافيتا ترتيب حقيبتها، وركوب القطار المتجه إلى مومباي، والعودة إلى منزلها وجاسو.

58

هدايا الوداع

مومباي، الهند - 2005

آشا

«انحنت آشا لفكّ رباط حذائها الرياضي، وقالت: «تركتني أمي وسط الغبار مجدداً.

كان والدها جالساً مع جدّتها حول الطاولة لتناول كوب آخر من الشاي، وهو الأمر الذي اعتادا عليه في كل صباح. قال الوالد: «لديها أسبوع واحد فقط للتعوّد على هذا التلوث المحبّب في مومباي. تصوّري كيف أنها ستتفوق عليك عندما تركضان في هواء كاليفورنيا الرائع». مسّد كتفَي آشا عدة مرات عندما جلست بالقرب منه.

قالت والدتها بعد أن مسحت وجهها، واقتربت من إناء الماء الذي كان في وسط الطاولة: «لا بأس في ذلك بالنسبة إلى سيدة عجوز».

نادت جدّتها في اتجاه المطبخ: «ديفيش، أريد كوباً من عصير الحامض المحلّى!» ظهر ديفيش بعد قليل مع كوب من عصير الليمون الحامض، وعصير قصب السكر، ووضعه أمام والدة آشا. حرصت الجدة، ومنذ أن علمت أن سومر تحب هذا المشروب الذي يتطلب جهداً كبيراً، على تقديم كوب من هذا العصير لها، وذلك بعد انتهائها من رياضة الركض في الصباح. قالت الجدة ضاحكة: «لا تنعتي نفسك بالسيدة العجوز! ماذا أقول عن نفسي بحق السماء؟».

«تناولت والدة آشا جرعة من الشراب: «هممم. إنها لذيذة جداً. شكراً لكِ يا سارلا.

مالت الجدة بوجهها من جهة إلى أخرى، ثم نهضت واعتذرت تاركةً الثلاثة لوحدهم.

«قالت آشا: «إذاً، هل تركتِ شرب القهوة كلياً يا ماما؟».

أومأت سومر وأجابت: «كانت الأسابيع القليلة الأولى صعبةً جداً، لكني اكتشفتُ بأن شرب الماء بشكلٍ كافٍ يُبقيني متيقظة طوال النهار، كما أنني لا أفتقد القهوة مطلقاً».

وضعت آشا يدها فوق عضلة ذراع والدتها، وقالت: «لا أصدّق كيف أصبحتِ قوية هكذا. هل كنتِ ترفعين الأثقال؟».

مارستُ القليل من رفع الأثقال، لكن الفضل يعود إلى اليوغا غالباً. عثرتُ على هذا النادي الرائع»

«بالقرب... بالقرب من المركز الطبي».

«هل قلتِ يوغا؟ يُحتمل أنني بحاجة إلى الذهاب معكِ، وبحاجة إلى بعض التمارين بعد زيادة الوزن التي اكتسبتها من طعام أسرة والدي. ألا تبدو هائلة يا أبي؟».

ردّ الوالد بعد أن تبادل ابتسامة مع سومر: «أجل؟ أجل، إنها تبدو كذلك بالفعل». أحاط الوالد والدتها بذراعيه من الخلف، ثم طبع قبلة على رأسها. «هل عرفتِ أن والدتك نشرت مقالة في صحيفة طبية؟».

«قالت آشا: «هل فعلتِ ذلك؟».

«ابتسمت سومر وردّت: «أجل، ما رأيك بالأمر؟ عرفتِ الآن أنك لستِ الكاتبة الوحيدة في العائلة».

رفعت آشا أحد حاجبيها وابتسمت عندما قالت لوالدتها: «هل أنتِ متأكدة أنكِ لن ترافقينا يا جدتي؟ أعدكِ بأنني لن أخبر أحداً». وضعت بعد ذلك كومة من الثياب المطوية في حقيبة السفر الكبيرة التي كانت على السرير.

«كلا، كلا يا عزيزتي. لم يمضِ أسبوعان بعد على مراسم الإحراق. لا يمكنني مغادرة المنزل إلا للذهاب إلى المعبد. يُضاف إلى ذلك أنه ليس من اللائق أن تذهب امرأة عجوز مثلي إلى المطار؟ سأكون عائقاً أمامكم فقط مثل حقيبة سفرٍ أخرى يتعيّن عليكم الاهتمام بها». وجّهت الجدة ابتسامة نحو آشا وقالت: «لا تقلقي. نيميش سوف يقلّك إلى المطار، كما أن بريا ستأتي لوداعك، أليس كذلك؟».

انشغلت آشا في حزم الحقيبة التي ضاقت بمحتوياتها: «أجل. سيحضرون في غضون ساعاتٍ قليلة. لكني أتمنى أن تأتي مع ذلك».

«إذاً، يجب أن تعودي قريباً يا عزيزتي. ما رأيك أن تعودي في السنة القادمة؟ يُحتمل أن توافق بريا أخيراً على الزواج في موسم الزفاف المقبل».

«لا أعرف يا جدتي. لا يمكنني أن أعدك بذلك». ضحكت آشا، ثم جلست على السرير بين حقيبة سفرها وجدّتها. حدّقت في الأرض، وركّزت بعد فترة الصمت التي تبعت ضحكتهما معاً على قدمَي جدتها الخشنتين، واللتين قطعتا أميالاً كثيرة معها على مدى الأشهر العديدة الماضية. رفعت الجدة خصلة من شعر آشا وثبتّتها وراء أذنها. أغمضت آشا عينيها بشدة مع لمسة يد جدّتها، وشعرت بأن وجهها تلوى من الألم بعد أن بدأت بالبكاء.

وضعت الجدة إحدى يديها فوق يدَي آشا، ومسّدت شعرها بيدها الأخرى بعد أن كرّرت تلك الإيماءة البسيطة أثناء انخراطها بالبكاء.

«لا أعرف كيف أشكرك على كل شيء. لا أصدّق أنني انتظرت عشرين عاماً قبل أن آتي إلى هنا، لكني أخطأت بأشياء عديدة، وأشعر بأنه بقي عندي أشياء كثيرة أريد معرفتها».

قالت الجدة: «آه يا عزيزتي، هذا هو ما يعنيه التقدّم في السن، فالحياة تتغيّر دائماً بالنسبة إلينا، وتعرض أمامنا دروساً جديدة. انظري إليّ. وصلتُ إلى سن السادسة والسبعين، وها أنا أتعلّم الآن فقط ارتداء الملابس البيضاء». اصطنعت آشا ابتسامة، بينما أكملت الجدة حديثها: «وهو ما يذكّرني بأنني

أحمل لكِ بعض الأشياء». وقفت الجدة وسارت نحو باب غرفة النوم.

قالت آشا: «جدّتي، لا! أقفلتُ حقيبتي». استلقتْ على السرير واستغرقت بالضحك، ثم مسحت عينيها بقفا راحتَي يدها.

قالت الجدة أثناء خروجها من الغرفة: «إذاً، يمكنكِ أخذ حقيبة أخرى». عادت بعلبةٍ من الكرتون المقوى، وجلست على السرير إلى جانب آشا. مدّت يدها إلى داخل العلبة، وتناولت كتاباً سميكاً مغطى بالغبار، وأعطته لآشا.

مرّرت آشا يدها فوق غلاف الكتاب ذي اللون الأزرق الفاتح، وفوق حروفه المذهبة التي تؤلف العنوان «قاموس أكسفورد الإنكليزي». «واو، لا بد وأن عمره خمسون عاماً».

قالت الجدة: «وحتى أكثر من ذلك. أعطاني والدي هذا القاموس بمناسبة تخرّجي، منذ نحو... ستين عاماً. قلت لك سابقاً إنني كنت مغرمة باللغة الإنكليزية. اعتبرتها لغة عملية عندما كنت أعلّم بها. أعرف أنك ستقومين بأعمالٍ أعظم بكثير في حياتك المهنية. أريدك أن تضعي هذا القاموس كتذكار على ثقتي بكِ، أي كما كان والدي يثق بي».

أومأت آشا بينما انهمرت الدموع من عينيها، وقالت هامسة: «سأفعل».

ناولتها الجدة علبة مخملية زرقاء اللون ومستطيلة الشكل، وقالت: «عندي لك هدية أخرى». نزعت آشا المشبك، وفتحت غطاء العلبة. تراجعت إلى الخلف لدى رؤية محتوياتها. احتوت العلبة على مجموعة متناسقة من المجوهرات التي ضمّت قطعاً ذهبية صفراء اللون ومزركشة بقطع زمرد باللون الأخضر اللامع. تألفت هذه المجموعة من عقدٍ، وأقراط، وأربع أساور. تطلعت آشا نحو جدتها بفمٍ منفرجٍ قليلاً.

هزّت الجدة كتفها وقالت: «ما حاجتي إلى هذه المجوهرات في عمري هذا؟ إنني لن أحضر حفلات الزفاف بعد الآن، وهي المجوهرات التي رافقتني في يوم زفافي».

تطلعت آشا نحوها بعد عجزها عن تصديق ما جرى أمامها: «آه يا جدّتي. لكن ألا تريدين الاحتفاظ بها؟».

هزّت الجدة رأسها: «تقضي عاداتنا أن أعطي هذه المجوهرات إلى ابنتي، لكني أريدك أن تحتفظي بها، وهذا ما أراده جدّك». أومأت آشا أمام منظر المجوهرات المذهلة الماثلة أمامها. قالت الجدّة وهي تحمل أحد الأقراط إلى مستوى شحمة أذن آشا: «يُضاف إلى ذلك أن هذه المجوهرات تبدو رائعة عليك، وهي تُبرز جمال عينيك». تكلمت الجدة بنعومة عندما تعانقتا، ثم أضافت: «هل ستخبرين والديك بما عرفتِه في الميتم يا عزيزتي؟».

انتهى العناق، فمسحت آشا الدموع عن وجهها وأومأت: «سأفعل ذلك بعد عودتي إلى البلاد. لا أعرف كيف سيكون رد فعلهما، وأمّي على وجه الخصوص، لكنهما يستحقان معرفة الحقيقة».

أحاطت الجدة وجه آشا بيديها الرقيقتين والباردتين: «أجل، جميعنا يستحق معرفة الحقيقة يا عزيزتي».

عودة الأمل

مومباي، الهند - 2005

سومر

كانت سومر منهمكة بترتيب حقيبتها عندما سمعت طرقةً على الباب. توقعت دخول آشا فقالت بعد أن تطلعت إلى الوراء: «أدخلي».

لكن والدة كريس كانت هي من دخل إلى الغرفة حاملةً علبةً كبيرة. «مرحباً عزيزتي. أحضرتُ لكم بعض الأشياء».

«أوه. حسناً، نزل كريشنان إلى الطابق الأرضي لتوديع أحد الجيران».

وضعت سارلا رزمةً كبيرة الحجم، وملفوفةً بقطعة قماش رقيقة بيضاء اللون على السرير وقالت: «لا يهم. هذه ليست له. إنها لكِ».

أبعدت سومر حقيبتها وجلست على السرير بحيث فصلت الرزمة ما بينها ووالدة زوجها. بدأت سارلا بفكّ الخيط الذي يربط الرزمة، وفتحت طيات القماش الأبيض فظهرت كومة من أثواب الساري الطويلة والمزينة بالجواهر.

«أريدكِ أن تأخذي هذه، كما أنوي التبرع بأثوابٍ أخرى. لكني أردتُ أن تبقى هذه الأثواب في العائلة، وهي التي ارتديتها في مناسبات زفافٍ عديدة». وضعت السيّدة المسنّة يديها على أعلى الرزمة، وأضافت ضاحكة: «أبقيت أثواباً عدة للفتيات الأخريات، إلا أنهن يمتلكن أثواباً عديدة، وهنّ يعتقدن أن هذه الأثواب موضة قديمة، وهي كذلك بالفعل. أعرف بأنك لا ترتدين الأزياء الهندية، لكن يمكنك استخدامها أغطية للأسرّة، أو ستائر إذا أردتِ. إنني لا أنزعج إذا ما فعلتِ».

فتحت سومر الثوب ذي اللون البرتقالي المائل إلى الأصفر، والذي كان في أعلى الرزمة، ومرّرت يدها فوق الحرير الناعم والتصميمات الذهبية المزركشة التي تزيّن أطرافه. كانت تلك ألوان غياب الشمس الأخّاذة. «سيكون من العار أن أفعل ذلك. سأحاول ارتداءها. لا أعرف كيف، لكن...».

زادت ابتسامة سارلا من عمق خطوط التغضّنات التي تحيط بفمها، وقالت: «تستطيع آشا أن تريكِ كيفية ارتدائه».

شعرت سومر بعاطفةٍ غمرت صدرها، وقالت: «شكراً لكِ. أعرف مدى اعتزازك بها. أعدكِ بأنني

«سوف أعتني بها جيداً. أقدّر كثيراً اهتمامك بآشا طيلة العام الماضي».

وضعت سارلا يدها فوق يدي سومر: «حسناً. لا يمكن لأي شخص أن يأخذ مكانَ الأم، لكني حاولت أن أهتم بها نيابة عنك. إنها شابة ذات خصوصية شديدة. إنني أرى فيها قدراً كبيراً منكِ، ولهذا يجب أن تشعري بالفخر لأنك قمتِ بتربيتها».

قالت سومر بعد أن ملأت الدموع عينيها: «شكراً لكِ». سمعت المرأتان صرير الباب ثم دخل كريشنان. «لكنني لم أفعل ذلك لوحدي كما تعرفين». ضحكت وهي تشير برأسها نحو الباب. «يستحق ابنك بعض الاعتراف بالفضل كذلك».

«قال كريشنان: «أجل. أرجوكِ أعطني بعض الفضل. ماذا فعلتُ هذه المرة؟».

قالت سارلا: «لم تفعل شيئاً. لم تفعل شيئاً على الإطلاق. تعالَ واجلس. أريد إعطاءك بعض الأشياء».

رفعت سومر رزمة الأثواب بين ذراعيها، وسارت إلى الجانب الآخر من الغرفة، بينما جلس كريشنان مكانها على السرير. تساءلت للحظة ما إذا كان يجب عليها أن تغادر لتعطيهما فرصة التحدث أحدهما مع الآخر، لكن سارلا خاطبتهما في تلك اللحظة.

قالت: «أعرف أنه توجد أحواض مياه كثيرة هناك حيث تعيشان في كاليفورنيا. يُحتمل بأنكما ستجدان مكاناً جميلاً وهادئاً من النوع الذي أحبّه والدك». ناولت كريس قارورة صغيرة مليئة بالرماد. «يمكنك أن تنثر هذه في المكان الذي تختاره»».

رأت سومر من مكانها في طرف الغرفة كتفَي كريس ينحنيان درجاتٍ قليلة عندما تناول القارورة.

رفعت سارلا ذقنها، والتمعت عيناها عندما نظرت إلى ابنها: «سنقوم بنثر بعض الرماد هنا في البحر، لكنه كان فخوراً جداً لوجودك هناك».

حملت سارلا سماعة طبية قديمة من علبتها، وقالت: «هذه لك. إنها قديمة بعض الشيء، لكنها لا زالت تعمل جيداً».

تذكرت سومر على الفور هذه الآلة التي كان يحملها والد كريس في كل يوم من أيام الزيارة الأخيرة التي قاما بها إلى هذه البلاد. لم يبتعد الوالد عن تلك السماعة التي كان يصطحبها معه حتى إلى مائدة العشاء. لكن كريشنان لم يكن بحاجةٍ كبيرة إلى سماعة طبية في عمله الحالي، ولعله لم يستخدم واحدة منها منذ سنوات، لكنه أدرك جيداً قيمة تلك الهدية.

«...قال لها بينما كان يقلّبها بين يديه: «هل أنت متأكدة من أنك لا تريدين الاحتفاظ بها».

«أغمضت سارلا عينيها، وقالت: «أجل يا عزيزي، أنا متأكدة. كانت أمنيات والدك واضحةً جداً».

انتظر المسافرون في قاعة الركاب المغادرين في المطار، وكانت أمامهم ساعة من الزمن قبل صعودهم إلى الطائرة. شرب كريشنان ما اعتبره آخر كوبٍ له من الشاي الهندي الحقيقي، بينما شربت آشا وسومر مياهاً غازيةً ممزوجةً بطعم الليمون الحامض.

قالت آشا لكريس: «»علمتني أمي تحية الشمس في هذا الصباح، وكان من الأفضل أن تنضمّ إلينا. ستكتشف بأنك تفتقد إلى الليونة في جسمك، وسوف تشعر بالألم عند وصولنا إلى البلاد، ونحن سنكون أكثر تعباً منك». هزّ كريس رأسه، وعاد إلى قراءة صحيفته.

قالت سومر: «أتعرف بأنني كنت أفكر في الانضمام إلى منتجعٍ لليوغا لفترة أسبوعين في السنة القادمة».

«فكرة جيدة، لكن أين؟».

«مايسور».

حوّل كريس نظره عن الصحيفة، وتبادل النظرات مع آشا، ثم نظر الاثنان نحو سومر. سأل كريس: «مايسور... الهند؟».

«أجل. مايسور، الهند. يوجد هناك منتجع كبير لليوغا، كما أنني تحدثت مع مدرّبتي حول هذا الموضوع، وهي تعتقد أنني جاهزة». ظهرت ابتسامة بطيئة على وجه سومر، وهي التي زارت الهند للمرة الأولى من أجل آشا. لكن زيارتها في هذه المرة كانت من أجل كريشنان، إلا أن زيارتها التالية قد تكون من أجلها هي. «يمكننا أن نجعلها زيارة عائلية».

قالت آشا: «أجل. سيكون ذلك رائعاً جداً».

اقتربت سومر من كريس، وربتت على بطنه. «لكن يتعيّن عليك تحسين لياقتك لتصبح على مستوى لياقتنا». استغرق الجميع في الضحك.

مدّت آشا ذراعها إلى ما فوق رأسها وتثاءبت، ثم قالت: «لا أشعر بأنني متلهفة لهذه الرحلة التي سوف تستغرق سبعاً وعشرين ساعة. سيكون ذلك أطول وقتٍ أمضيناه معاً بهذا القرب». أشارت إلى سومر الجالسة على مقعدٍ إلى يسارها، وكريس الجالس إلى يمينها.

ردّت سومر: «حسناً. إنك مخطئة». تطلع كريس من فوق نظّارته، بينما تطلعت آشا نحوها بحاجبٍ متغضّن. «أعتقد بأننا قمنا بهذه الرحلة ذاتها قبل عشرين سنة منَ الزمن».

قهقه كريشنان، بينما ابتسمت آشا وداعبت والدتها بلكمةٍ على الكتف.

استرخت سومر في مقعدها في الطائرة وحدّقت من خلال النافذة، بينما كانت الأنوار المتلألئة لومباي تتباعد في ظلمة الليل. كانت آشا نائمة في المقعد المجاور، وقد أسندت رأسها على وسادةٍ في حضن سومر في حين وضعت قدميها فوق حضن كريشنان. كان الزوجان بحاجة إلى أخذ قسطٍ من النوم بدورهما، لكنها كان تعرف بأن كريشنان، مثلها، لا يحب إزعاج آشا. مدّ كريس يده نحو سومر فأمسكت بها، ثم وضعا أيديهما المسترخية على جسد آشا النائمة بينهما، أي كما فعلا تماماً في رحلتهما الأولى قبل عشرين عاماً.

الأمر الصائب

مومباي، الهند - 2009

جاسو

ضغطَ على قصاصة الورق المجعّدة في يده، وحاول مقارنة الأحرف المكتوبة عليها مع أحرف اللوحة الحمراء الماثلة على الباب أمامه. قلّب نظره ما بين الورقة التي يحملها في يده واللوحة عدة مرات، وذلك كي يتأكد من عدم ارتكابه خطأً ما، وهو الحريص على عدم ارتكاب أي خطأ. لكن ما إن تأكد من تطابق الأحرف حتى ضغط على زرّ الجرس الذي تردّد صوته في أنحاء المنزل. مرّر أصابع يده فوق اللوحة النحاسية بأحرفها النافرة المثبتة بالقرب من الباب متحسِّسا بأصابعه حواف حروفها.

انفتح الباب فجأةً. سارع إلى خفض يده، وأعطى قصاصة ورقٍ أخرى إلى الشابةٍ التي ظهرت في المدخل. قرأت الصبية الورقة، ورفعت نظرها نحوه، وما لبثت أن تراجعت مفسحةً له المجال للدخول إلى المنزل، ثم مالت برأسها قليلاً في إشارة منها كي يتبعها. سوّى الرجل قميصه تحت سرواله، ثمّ مرّر أصابعه بين خصل شعره التي أخذت تميل نحو الشيب. دخلت الشابة مكتباً، وناولت قصاصة الورق إلى أحد الأشخاص في الداخل، ثم أشارت إلى أحد المقاعد طالبةً منه الجلوس عليه. دخل الرجل، وجلس، ثم شبك أصابع يديه.

حدّق إليه الرجل الجالس وراء مكتبه من خلف نظّارته الرفيعة، وقال: «أنا آرون ديشباندي، وأنت السيد ميرشانت. أليس كذلك؟».

قال جاسو متنحنحاً: «أجل. أنا جاسو ميرشانت».

«أعتقد بأنك تبحث عن شخصٍ ما».

«أجل. لا نريد نحن، أعني زوجتي وأنا، التسبب بأي متاعب. إن كل ما نريده هو معرفة ما حدث مع فتاةٍ صغيرة جاءت إلى هنا قبل خمسةٍ وعشرين عاماً. كان اسمها أوشا ميرشانت. نريد أن نعرف إذا ما كانت... حسناً، نريد أن نعرف ما حدث معها».

قال آرون: «لكن لماذا الآن يا سيد ميرشانت؟ أعني بعد مرور خمسة وعشرين عاماً. لماذا الآن؟».

شعر جاسو بأن وجهه يحمرّ خجلاً. تطلع إلى الأسفل نحو يديه. قال بصوتٍ رقيق: «إنها ليست على ما يُرام...» فكّر في زوجته المستلقية على السرير وهي تصارع الحمى التي سيطرت عليها، والتي

استمرت بهمس الكلمات ذاتها خلال هذيانها: «أوشا... شانتي... أوشا». فكّر في البداية بأنها تصلي بينها وبين نفسها، وذلك إلى أن أمسكت بيده، وقالت له: «أريدك أن تذهب للعثور عليها». أجرى جاسو اتصالاً هاتفياً مع روبا، وهكذا عرف حقيقة ما جرى قبل خمسة وعشرين عاماً، وكذلك فهمَ ما تطلبه منه. عثر جاسو في تلك اللحظة على الكلمات التي يمكنها أن تشرح موقفه. «أريد إدخال بعض الطمأنينة إلى قلبها قبل فوات الأوان».

قال ديشباندي: «تعرف، بطبيعة الحال، بأن أولويتنا تقضي بحماية الأطفال، حتى عندما يصبحون كباراً. لكني سأخبرك ما يمكنني قوله لك». تناول ملفاً من دُرج مكتبه، وقال: «قابلتُ هذه الفتاة منذ سنواتٍ قليلة، وهي تحمل الآن اسم آشا».

«قال جاسو مومئاً برأسه ببطء: «آشا. إذاً، هل لا زالت تعيش في مكانٍ قريبٍ من هنا؟».

هزّ ديشباندي رأسه، وقال: «كلا. إنها تعيش في أميركا الآن، وذلك بعد أن تبنّتها أسرة مؤلفة من طبيبين».

أميركا؟» قالها جاسو بصوتٍ عالٍ في البداية، وكأنه لم يصدّق، ثم كرّر الكلمة بهدوءٍ بعد أن» استوعب الأمر. «أميركا». ظهرت ابتسامة على وجهه، وقال: «حسناً. هل قلتَ طبيبين؟».

«والداها (بالتبنّي) طبيبان، وهي صحافية، وعلى الأقل كانت كذلك عندما حضرت إلى هنا».

«صحافية؟».

قال آرون بعد أن حمل عدد اليوم السابق من صحيفة التايمز التي كانت على مكتبه: «أجل. إنها تكتب مقالات للصحف. احتفظتُ بأحد مقالاتها في ملفي هذا، وكانت أرسلته إليّ بعد مغادرتها البلاد».

حسناً. هذا رائع». أومأ جاسو رأسه ببطء وحرّكه من جهة إلى جهة، واقترب من الصحيفة التي» حملها آرون في يده. تمنى جاسو في تلك اللحظة، وأكثر من أي يومٍ آخر في حياته أن يكون ملماً بالقراءة.

قال آرون بعد أن نزع نظّارته لمسحها: «أتعرف بأنها حضرت إلى هنا منذ سنواتٍ قليلة لتبحث عنكما؟».

«هل قلتَ لتبحث... عني أنا؟».

أجل، عنكما أنتما الاثنين. أرادت معرفة أبويها الحقيقيين، بل أصرّت على أن تعرفهما». أعاد» آرون نظّارته إلى مكانها، وتطلع من خلالها. «هل هناك أي شيء محدّد تبحث عنه يا سيّد ميرشانت؟ أتريد شيئاً ما؟».

ظهرت ابتسامة صغيرة وحزينة على ملامح وجه جاسو. هل أراد شيئاً؟ أتى إلى هنا من أجل كافيتا بطبيعة الحال، لكن ليس لهذا السبب فقط، بل لأن الشرطة اتصلت به في العام السابق لإخراج فيجاي من السجن. صرخ بابنه في ذلك الوقت، وصفعه على وجهه ثم دفعه على الجدار بقوة. ابتسم فيجاي ساخراً وطلب من والده أن لا يقلق بشأنه بعد الآن، وأضاف أن أصدقاءه سوف يخرجونه من السجن في المرة القادمة. لكن فيجاي أتى لزيارة كافيتا مرة واحدة فقط خلال الشهر الذي مضى أثناء مرضها. هزّ جاسو رأسه قليلاً، ونظر إلى الأسفل نحو مقالة الصحيفة. «كلا. لا أريد شيئاً غير معرفة أحوالها. توجد أمورٌ

في حياتي لست فخوراً بها، لكن...» انهمرت الدموع من عينيه وتنحنح. «لكن أحوال هذه الفتاة كانت جيدة، أليس كذلك؟».

ردّ آرون: «سيّد ميرشانت. هناك أمرٌ آخر». تناول مظروفاً من ملفه، وناوله إياه. «أتريدني أن أقرأه لك؟».

بدت كافيتا هادئة أثناء نومها بعد حقنها بالمورفين الذي جعلها ترتاح قليلاً. جلس جاسو على كرسي بقرب السرير، ومدّ يده نحو يدها الضعيفة.

ارتعش جفناها عندما لمسها ثم مصّت شفتيها الجافتين. رأته، وابتسمت على الفور. قالت بصوتٍ خافت: «ها قد عدتَ يا حبيبي».

ذهبتُ إلى هناك يا عصفورتي». حاول أن يبدأ الحديث ببطء، لكن الكلمات تعثّرت في فمه.» «ذهبتُ إلى شانتي، دار الأيتام. يعرفها الرجل المسؤول هناك، وهو تعرّف عليها واجتمع بها يا كافي. لكن اسمها أصبح آشا الآن، وهي نشأت في أميركا. أما الأسرة التي تبنّتها فهي مؤلفة من طبيبين، كما أنها تكتب مقالات للجرائد. انظري، هذه مقالة كتبتها هي». لوّح بالمقالة أمامها.

أميركا» بالكاد وصل صوتها إلى مستوى الهمس. أغمضت عينيها، وتدحرجت دمعة على خدّها» حتى وصلت إلى أذنها. «بعيدة جداً عن هنا. كانت بعيدة جداً عنا طيلة هذا الوقت».

إن ما فعلتِه كان عين الصواب يا عصفورتي». مسّد شعرها وجمعه على شكل كعكة، كما مسحت» دموعها بأصابعها الخشنة. «تصوّري لو...» تطلع نحو الأسفل وهزّ رأسه، ثم شبك أصابعها بأصابعه. «أراح رأسه على أيديهما ثم أجهش بالبكاء. «كان شيئاً رائعاً».

رفع رأسه مجدداً. «جاءت لتبحث عنا يا كافي. تركتْ لنا هذا». ناولها جاسو الرسالة. انفرجت شفتاها عن ابتسامة صغيرة أضاءت وجهها. حدّقت إلى الورقة بينما بدأ بالقراءة من ذاكرته.

«...اسمي آشا».

Notes

[1 ←]

اللبأ: سائل تفرزه غدة الثدي قبيل الولادة وبعدها لأيام معدودة وهو غني بالمغذيات للوليد.

Table of Contents

الابنة السرية
الابنة السرية
الإهداء
تمهيد
الجزء الأول
فجر الأحزان
نظافة
لن يحدث هذا بعد الآن
الأمر في غاية السهولة
رحلة طويلة
افتراض معقول
شانتي
من خارج الخيارات
السلوان
شيء قوي
الإنفاق والادّخار
التآلف
الطموح
فصل الأمطار الموسمية
الانتصار
إهانة
ارتباط مسبق
الأجراس الفضية
غريزة الأمومة
الجزء الثاني
شاكتي
طمأنينة حذِرة
بقعة ذهبية
عيد الشكر
قيلولة
فوات الأوان
ستة عشر عاماً
تعقيدات وخيمة
عطلة نهاية أسبوع عائلية
واقعٌ الحياة

جزءٌ منها
هكذا تجري الأمور على الدوام
تغيّر التيار
العودة إلى الوطن
شقيق وشقيقته
إنديان تايمز
برعاية الله
الجمال الهندي الحقيقي
الانسحاب
وعد
الانفصال
الهندان
ندم واحدٌ فقط
الطريق البحري
شاطئ شاوباتي
مجرد كذبة إضافية
الأب لا ينسى أبداً
حدث ذات مرة
ثورة
المجال الآمن الوحيد
الحب القوي
أمّنا الهند
بقدر ما أتذكر
مسألة عائلية
سكون غريب
حقاً إنها أسرة
عبور المحيطات
صلوات الصباح
هدايا الوداع
عودة الأمل
الأمر الصائب
Notes